فتح العليم شرح رسالة

الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله

إلى أهل القصيم

شـرح

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هدى من شاء وزكى، وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ومن لطريقه اقتفى وبشرعه اهتدى.

أما بعد:

فإن الله عزوجل خلق الناس لعبادته وطاعته كما هو معلوم لدى الخاص والعام من المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجل هذه الشعيرة أرسل رسلاً مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته.

قال الله عزوجل: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ويسر بعلماء أجلاء ورجال فضلاء ودعاة فضلاء لنشر دين رب العالمين، وحفظه والدعوة إليه بسلوك سبيل المرسلين، ولما كان الدين بهذا المحل العظيم، دونت الكتب وصنفت المطولات والمختصرات، وأرسلت الرسائل إلى البلدان والأمصار في جميع الأوقات والأعصار لبيناه ولا سيما باب الاعتقاد، فقد وضح وجُلي جلاء لا غموض فيه ووضوح لا إشكال فيه، ومن العقائد المنشورة والآثار المشهورة التي دونها العلماء

لبيان طريقتهم وخيرهم وبرهم ولبيان عقيدة السلف أصحاب الحديث عقيدة الإمام سفيان بن سعيد الثوري إمام المؤمنين في الحديث.

وعقيدة الإمام أبي حاتم الرازي والإمام أبي زرعة الرازي، وعقيدة الإمام الشافعي والمزني، و«أصول السنة» للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، وعقيدة الإمام الطحاوي، و«أصول السنة» لابن زمنين، و«السنة» لعبد الله بن أحمد، وغيرها كثيراً جداً ومن هؤلاء الذين بينوا عقائدهم الموافقة للكتاب والسنة دعوة إليها ورداً لتلبيسات الملبسين الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله تعالى ورحم جميع المسلمين، فوقفت عليه حين كنت أطالع في كتاب «الدرر السنية» فأعجبتني سياقتها، وعزمت على شرحها حيث شرح الله صدري لذلك واستعنت الله على ذلك فأعان، وله الحمد والمنة فأسأله القبول والسداد إنه ولي ذلك.

والحمد لله رب العالمين، وأسأله أن يغفر لي ولواديَّ ولمشايخي ولجميع المسلمين.

١٧/ ربيع أول/ ١٤٣٢هـ

ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى:

هو الإمام العلامة الشهير والداعية الإسلامي الكبير، ظهر في أثناء القرن الثاني عشر بنجد فدعا إلى توحيد الله بالعمل والعبادة، وإفراده بالقصد والإرادة فجدد ما اندرس من أصول الملة وقواعد الدين ودعا إلى مذهب السلف الصالح والأئمة السابقين وما كانوا عليه في باب معرفة الله وصفاته من الإثبات ونفي التشبيه وعدم التكييف والتعطيل المصلح الديني الذي طال ما كتب عن المؤرخون وأشاد بفضله

ودعوته المنصفون شيخ الإسلام وعلم الهداة الأعلام صاحب النهضة الدينية والـدعوة السلفية موقظ الجزيرة العربية من سبات الأوهام ومحررها -رحمه الله- من عقل البـدع وعبادة الأصنام الشيخ محمد ابن الشيخ عبد الوهاب ابن الشـيخ سـليمان بـن عـلي بـن محمد بن احمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر بن معضـاد بـن ريـس بـن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبـة بـن سـنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالـك بـن حنظلـة بـن مالك بن زيد مناة ابن تميم بن مر بن أد بن طابحة بن الياس بن مضر بن نـزار بـن معـد بن عدنان.

مولده ونشأته:

ولد-رحمه الله- في بلد العيينة من بلدان العارض بنجد سنة خمس عشرـة ومائـة وألـف من الهجرة، فنشأ بها وقرآ القرآن حتى حفظـه وأتقنـه قبـل بلوغـه العشرـ، ثـم اشـتغل بطلب العلم فقرأ مبادىء العلوم والفقه الحنبلي على والـده الشـيخ عبـد الوهـاب ابـن الشيخ سليمان بن علي وكان رحمه الله_حـاد الفهـم سريـع الإدراك والحفـظ. قـال عنـه أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب: لكان أبوه يتعجب من فهمه ويعترف بالاسـتفادة منه مع صغر سنه، ووالده الشيخ عبد الوهاب هو مفتي تلك الـبلاد وقاضـيها، وجـده الشيخ سليمان بن علي هو مفتي جميع الديار النجدية، آثاره وتصانيفه وفتاواه تـدل عـلى غزارة علمه وفقهه، فهو مرجع أهل نجد في زمنه في الفتـاوى، وكـان معـاصراً للشـيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي اجتمع به في مكة المشرفة. فهو من بيت علم وفضل.

ولما بلغ سن الرشد قدمه والده الشيخ عبد الوهاب في إمامة الصلاة فأخذ -رحمه الله_ يؤم الناس ويصلي بهم ثم طلب من والده الحج فأجابه إلى ذلك فأدى فريضة الحج واعتمر عمرة الإسلام وبعد فراغه من الحج والاعتمار قصد المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وأقام بها قريباً من شهر... ثم رجع إلى وطنه العيينة وتزوج بها وشرع في القراءة على والده في الفقه على مذهب الإمام احمد بن حنبل الشيباني ثم بعد ذلك سافر إلى الحجاز في طلب العلم وأخذ يتردد على علماء مكة المشرفة والمدينة المنورة وأقام بها مدة يقرأ فيها على الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي ثم المدني وعلى العالم الشهير محمد حياة السندي المدني صاحب الحاشية المشهورة على صحيح الإمام البخاري ثم رجع إلى وطنه ومكث فيه سنة ثم رحل إلى البصرة وقرأ بها كثيراً من الحديث والفقه والنحو وكتب بها من الحديث والفقه واللغة ما شاء الله أن يكتب في ذلك الوقت ولازم في البصرة عالماً من علمائها الأجلاء وهو الشيخ محمد المجموعي البصري وأخذ الشيخ مدة إقامته في البصرة يدعو إلى توحيد الله جل وعلا ونبذ الإشراك وهجر البدع وأخذ يصرح بذلك ويظهره لكثير من جلسائه. اهـ من كتاب مشاهير علماء نجد ومن أراد التوسع فاليرجع إلى المضان وإنما هذه إلماحة وإلا فمناقب الشيخ رحمه الله تعالى أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تحصر.

مؤلفاته رحمه الله: للشيخ محمد رحمه الله جهودٌ عظيمة في نشر الدين والدعوة الصافية، سواء كانت هذه الجهود في باب الكتب والمراسلات أو الفتاوى والمناصحات، وإليك مسرد بمؤلفاته التي تضمنها مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله:

١) «مختصر زاد المعاد».

٢) «مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم».

٣) «كتاب فضائل القرآن».

٤) «كتاب التفسير».

٥) «المسائل التي لخصها رحمه الله من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله».

٦) «مختصر تفسير سورة الأنفال».

٧) «بعض فوائد صلح الحديبية».

٨) «رسالة في الرد على الرافضة».

٩) «مجموع الخطب المنبرية».

١٠) «مجموع فتاوى ومسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومصدرها تاريخ نجد، وله مجموعة مستمدة من كتاب «مجموع الرسائل النجدية».

وآخر مستمد من الدرر السنية.

١١) «قواعد نور عليها الأحكام».

١٢) «مبحث الاجتهاد والخلاف».

١٣) «كتاب الطهارة».

١٤) «شروط الصلاة وأركانها وواجباتها».

١٥) «كتاب آداب المشي»، ويتضمن أبواب الصلاة والزكاة والصوم.

١٦) «أحكام الصلاة».

١٧) «أحكام تمني الموت».

١٨) وله مجموعة من الرسائل في مواضع متعددة:

الأَوَّلُ: «عقيدة الشيخ وبيان دعوته»، ورد ما ألصق به من التهم، ظم المجموع منها سبعة عشر رسالة منها: «رسالة الشيخ إلى أهل القصيم» والتي هي موضوع شرحنا.

الثَّانِي: «بيان أنواع التوحيد»، خمس رسائل.

الثَّالث: «بيان معنى لا إله إلا الله وما يناقضها من الشرك في العبادة»، وتضمنت ثمان رسائل.

الرَّابِعُ: «بيان الأشياء التي يكفر مرتكبها ويجب قتاله»، وتضم ستة رسائل.

الخَامِسُ: «توجيهات عامة للمسلمين»، وتضم أربعة عشر رسالة.

١٩) «مختصر الإنصاف والشرح الكبير».

٢٠) «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

٢١) «كشف الشبهات».

٢٢) «الثلاثة الأصول».

٢٣) «القواعد الأربع».

٢٤) «فضل الإسلام».

٢٥) «أصول الإيمان».

٢٦) «مقيد المستفيد».

٢٧) «مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان» وعددها (١٣) رسالة.

٢٨) «كتاب الكبائر».

٢٩) «كتاب المظالم».

وله غير نسأل الله عزوجل أن يغفر له ويكرم نزله، ويجزيه خيرًا على ما قدم للإسلام والمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

قال الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي رحمه الله:

في رسالته إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته:

بسم الله الرحمن الرحيم [1]

---

[1] قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم) يقال لها: البسملة، وهي مصدر بسمل، أي قال: بسم الله، نحو: حوقل وهيليل وحمدل وحيلل، أي قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا إله إلا الله، والحمد لله، وحيَّ على الصلاة) ومثله الحسبلة وهي قوله: (حسبنا الله)، والسبحلة وهي قول: (سبحان الله)، و الجعفلة وهي قول: (جعلت فداك)، و(الطلبقة، والدمعزة) حكاية قولك: (أطال الله تعالى بقاءك، وأدام عزك). اهـ من «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل (ج١/ ص١١٦).

وابتدأ المصنف رحمه الله بها كتابه اقتداء بالكتاب العزيز حيث افتتحه الله بها وأخذًا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه في كتابة الكتب والمراسلات.

يدل على ذلك ما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) في «صحيحيهما» من حديث أبي سفيان رضي الله عنه في ذكر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وفيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا الله وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وحديث البراء رضي الله عنه عند مسلم برقم (١٧٨٣) أيضا في صلح الحديبية وفيه: «اكْتُبْ الشَّرْطَ

بَيْنَنَا: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله .....» الحديث.

قوله: «بسم الله»: جار ومجرور.

قال ابن عادل في «اللباب» (١/ ١١٨): الباء متعلق بمضمر، فنقول: هذا المضمر يحتمل أن يكون اسمًا، وأن يكون فعلا، وعلى التقديرين؛ فيجوز أن يكون متقدما ومتأخرًا، فهذه أقسام أربعة، وأيهما أولى التقديم أم التأخير؟

قال ابن الخطيب : كلاهما ورد في القرآن الكريم، أما التقديم؛ فكقوله ﴿بِسْمِ الله مَجْرِاهَا وَمُرْسَاَهَا﴾ [هود: ٤١] وأما التأخير؛ فكقوله تعالى : ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الـذِيْ خَلَـقَ﴾ [العلـق: ١]، وأقـول: التقديم أولى؛ لأنه -تعالى- قديم واجب الوجود لذاته. اهـ

وقد ذهب جمع من المحققين منهم: ابن القيم رحمه الله، إلى أن التـأخير أولى لأمـور منهـا: أن المقـام مقام استعانة؛ فاقتضاء المقام مزيد اهتمام بتقديم اسمه تعالى.

وكذلك أدخل في الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق في الوجـود، واختـاره أيضًـا جمـع مـن المتأخرين أن يكون هذا المحذوف فعلاً؛ لأن الأصل في العمل للأفعال؛ ولأن أهم ما يبدأ بـه ذكـر الله تعالى. اهـ

«فتح المجيد» (١/ ٧٠) ط/ الصميعي، «فتح الحميد» (١/ ٣٩)، «اللباب» (١/ ١١٨-١١٩).

وقد ذكر العلماء أسباب إضمار العامل:

فقال ابن القيم في «البدائع» (١/ ٤٣) ط/ عالم الفوائد: لحذف العامل في «بسم الله» فوائد عديدة:

منها: أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله.

ومنها: أن الفعل إذا حذف صح الإبتداء بالبسملة في كل عمل وقول وحركة؛ فكان الحذف أعم.

ومنها: أن الحذف أبلغ.

والباء في بسم الله للاستعانة، كما في «المجموع» لابن تيميـة (٢/ ١٨)، و«فـتح الحميـد» (١/ ٢٨)، و«فتح المجيد» (١/ ٧١).

والتقدير: بسم الله أؤلف حال كوني مستعينًا بالله متبركًا بذكره، وقيل: إن الباء للمصاحبة، والصحيح الأول.

والاسم مشتق من السمو وهو العلو، وذهب بعضهم إلى أنه مشتق من السمة وهي العلامة.

قال ابن عادل في «اللباب» (١/ ١٢٦-١٢٧): واختلف النحويون في اشتقاقه: فذهب أهل «البصرة»: إلى أنه مشتق من السمو، وهو العلو و الارتفاع؛ لأنه يدل على مسماه، فيرفعه ويظهره، وذهب الكوفيون: إلى أنه مشتق من الوسم، وهو: العلامة؛ لأنه علامة على مسماه، وهذا وإن كان صحيحا من حيث المعنى؛ لكنه فاسد من حيث التصريف.

واستدل البصريون على مذهبهم بتكسيرهم له على «أسماء»، وتصغيرهم له على «سمي»، لأن التكسير والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها.

وتقول العرب: «فلان سميّك، وسميت فلانا بكذا وأسميته بكذا»، فهذا يدل على أن اشتقاقه من: «السمو»، ولو كان من: «الوسم» لقيل في التكسير: «أوسام»، وفي التصغير «وسيم»؛ ولقالوا؛ و«سيمك فلان».

وأيضًا فجعله من السمو مدخل في الباب الأكثر، وجعله من الوسم مدخل في الباب الأقل، وذلك لأن حذف اللام كثير، وحذف الفاء قليل.

ثم قال رحمه الله: وهل لهذا الخلاف فائدة أم لا؟ **والجواب**: أن له فائدة، وهي أن من قال باشتقاقه من العلوّ يقول: إنه لم يزل موصوفًا قبل وجود الخلق، وبعدهم، وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه، ولا صفاته، وهو قول أهل السنة -رحمهم الله-.

ومن قال: إنه مشتق من الوسم: يقول: كان الله تعالى في الأزل بلا اسم، ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، وهو قول المعتزلة، وهذا أشد خطأ من قولهم «بخلق القرآن»، وعلى هذا الخلاف وقع الخلاف أيضا في الاسم والمسمى. اهـ

أما مسألة الاسم والمسمى؛ فقبل الكلام فيها أعلم أن في هذا الباب ثلاث حقائق: اسم، ومسمى،

وتسمية، كحلية ومحلًّى وتحلية، وعلامة ومعلم وتعليم، ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها. اهـ من «البدائع» (١/ ٣٠).

واعلم أن هذه المسألة من مسائل علم الكلام.

قال ابن جرير رحمه الله في «صريح السنة» (٢٦-٢٧): وأما القول في الاسم: أهو المسمى أم غير المسمى؟ فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به، والقول فيه أن ينتهي إلى قول الله، عز وجل ثناؤه، الصادق، وهو قوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. اهـ

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٦/ ١٨٥): فصل : في «الاسم والمسمى» هل هو هو أو غيره؟ أو لا يقال هو هو ولا يقال هو غيره؟ أو هو له؟ أو يفصل في ذلك؟.

قال: فإن الناس قد تنازعوا في ذلك والنزاع اشتهر في ذلك بعد الأئمة بعد أحمد وغيره والذي كان معروفا عند «أئمة السنة» أحمد وغيره، الإنكار على «الجهمية» الذين يقولون: أسماء الله مخلوقة فيقولون: الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره وما كان غيره فهو مخلوق؛ وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول؛ لأن أسماء الله من كلامه وكلام الله غير مخلوق؛ بل هو المتكلم به وهو المسمي لنفسه بما فيه من الأسماء. اهـ في كلام كثير ملخصه ما قاله شيخ الإسلام ابن القيم في «البدائع» (١/ ٣٠-٣٢): فمنها أن الله وحده هو الخالق وما سواه مخلوق فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة وللزم أن لا يكون له اسم في الأزل ولا صفة لأن أسماءه صفات وهذا هو السؤال الأعظم الذي قاد متكلمي الإثبات إلى أن يقولوا الاسم هو المسمى فما عندكم في دفعه.

الجواب: أن منشأ الغلط في هذا الباب من إطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين صحيح وباطل فلا

ينفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعاني وتنزيل ألفاظها عليها ولا ريب أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها؛ فلم يزل بأسمائه وصفاته وهو إله واحد له الأسماء الحسنى والصفات العلى وأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يخلق ويرزق فليست صفاته وأسماؤه غيره وليست هي نفس الإله وبلاء القوم من لفظة الغير فإنه يراد بها معنيين أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقًا ويراد به مغايرة الصفة للذات إذا خرجت عنها؛ فإذا قيل علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحًا ولكن الإطلاق باطل، وإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره كان باطلاً لفظا ومعنى، وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن وقالوا كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه؛ فالله تعالى اسم الذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك الصفات صفة الكلام كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة، وإذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى؛ فإذا كان القرآن غير مخلوق ولا يقال إنه غير الله فكيف يقال: إن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة وهي غيره؛ فقد حصحص الحق بحمد الله، وانحسم الإشكال وأن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه وكلامه غير مخلوق ولا يقال هو غيره ولا هو، هو وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه تعالى غيره وهي مخلوقة ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره وبالتفصيل تزول الشبه ويتبين الصواب والحمد لله. اهـ

وقال رحمه الله في «البدائع» (١/ ٢٨-٢٩) مبينًا القول الحق في هذه المسألة: فقد بان لك أن الاسم في أصل الوضع ليس هو المسمى ولهذا تقول سميت هذا الشخص بهذا الاسم كما تقول حليته بهذه الحلية والحلية غير المحلى؛ فكذلك الاسم غير المسمى، صرح بذلك سيبويه وأخطأ من نسب إليه غير هذا وادعى أن مذهبه اتحادهما والذي غر من ادعى ذلك، قوله: الأفعال أمثلة أخذت من لفظ

أحداث الأسماء وهذا لا يعارض نصه قبل هذا فإنه نص على أن الاسم غير المسمى فقال: اسم وفعل وحرف؛ فقد صرح بأن الاسم كلمة فكيف تكون الكلمة هي المسمى والمسمى شخص، ثم قال بعد هذا: تقول: سميت زيدًا بهذا الاسم كما تقول علمته بهذه العلامة، وفي كتابه قريب من ألف موضع: أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى ومتى ذكر الخفض أو النصب أو التنوين أو اللام أو جميع ما يلحق الاسم من زيادة ونقصان وتصغير وتكسير وإعراب وبناء؛ فذلك كله من عوارض الاسم لا تعلق لشيء من ذلك بالمسمى أصلاً.

هل الاسم عين المسمى؟

لم يقل نحوي قط ولا عربي أن الاسم هو المسمى ويقولون: أجل مسمى، ولا يقولون: أجل اسم، ويقولون: مسمى هذا الاسم كذا، ولا يقول أحد اسم هذا الاسم كذا، ويقولون: هذا الرجل مسمى بزيد، ولا يقولون هذا الرجل اسم زيد، ويقولون: بسم الله ولا يقولون بمسمى الله، وقال رسول الله: «**لي خمسة أسماء**» رواه البخاري ومسلم، ولا يصح أن يقال: لي خمس مسميات وتسموا باسمي، ولا يصح أن يقال: تسموا بمسمياتي و«**لله تسعة وتسعون اسمًا**» رواه البخاري ومسلم وأحمد، ولا يصح أن يقال تسعة وتسعون مسمى. اهـ

راجع: «اللباب» لابن عادل (١/ ١٢٣) وما بعدها.

«الله» لفظ الجلالة مشتق، وهو علم دال على الإله الحق دلالة جامعة لمعاني الأسماء كلها.

قال الجرجاني في «التعريفات»: والقول بالاشتقاق هو قول سيبويه وغيره، وقد استدل على اشتقاقه بقول رؤبة بن الحجاج:

لله در الغانيات المده ... سبحن واسترجعن من تألهي

فصرح في هذا بلفظ المصدر وهو التأله من أله يأله تألهًا.

قال ابن القيم في «البدائع» (١/ ٢٩): زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي أن اسم الله غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل

الاشتقاق ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسميع، والبصير؛ فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله، ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة. اهـ

وقال في «المدارج» (١/ ٣٢): واسم الله دال على كونه مألوها معبودًا تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم الرب، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم الرحمن. اهـ

قوله: «الرحمن الرحيم» قال ابن عادل في «اللباب» (١/ ١٤٥): صفتان مشتقتان من الرحمة، وقيل: الرحمن ليس مشتقًا، لأن العرب لم تعرفه في قولهم ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، وأجاب ابن العربي عنه بأنهم إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، ولذلك لم يقولوا: ومن الرحمن؟

قال ابن القيم في «البدائع» (١/ ٤٠-٤٢): استبعد قوم أن يكون الرحمن نعتًا لله تعالى من قولنا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: الرحمن علم والأعلام لا ينعت بها، ثم قالوا هو بدل من اسم الله، قالوا: ويدل على هذا أن الرحمن علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره فليس هو كالصفات التي

هي العليم القدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى.

قالوا: ويدل عليه أيضا وروده في القرآن غير تابع لما قبله، كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، و ﴿الرَّحْمَنَ * عَلَّمَ القُرْآنْ﴾ [الرحمن: ٢] و ﴿أَمَّ مَنْ هَذَا الَّذِي هُو جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنَ﴾ [الملك: ٢٠] وهذا شأن الأسماء المحضة لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع وكذلك عطف البيان لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين؛ فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَن﴾ [الفرقان: ٦٠]، ولم يقولوا: وما الله، ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وصف يراد به الثناء وكذلك الرحيم؛ إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية؛ فإن التثنية في الحقيقة تضعيف، وكذلك هذه الصفة؛ فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر، فكان اللفظ مضارعًا للفظ التثنية؛ لأن التثنية ضعفان في الحقيقة ألا ترى أنهم أيضاً قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين فقالوا الحكمان والعلمان وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد، فقالوا: اشترك باب فعلان، وباب التثنية ومنه قول: فاطمة يا حسنان يا حسينان برفع النون لابنيها ولمضارعة التثنية امتنع جمعه، فلا يقال: غضابين.

وامتنع تأنيثه فلا يقال: غضبانة وامتنع تنوينه كما لا تنون نون المثنى فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعته إياها لفظا ومعنى، وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة تم كلامه.

قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا

ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله تعالى؛ فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجيء قط تابعًا لغيره بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا، وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم؛ فكان الأول للوصف، والثاني للفعل؛ فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٢] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجيء قط رحمن بهم؛ فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها. اهـ

قال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير» (١/ ٨٠): اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيِّم.

وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، وقد تقررّ أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، وقال ابن الأنباري والزجّاج: إن الرحمن عَبْرَاني، والرحيِّم عربي، وخالفهما غيرهما، والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عزّ وجل، وأما قول بني حنيفة في مسيلمة: رحمن اليمامة، فقال في «الكشاف»: إنه باب من تعنتهم في كفرهم، قال أبو عليّ الفارسيّ: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو: في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣]. اهـ

وقد اختلف العلماء في البسملة بعد اتفاقهم أنها بضع آية من سورة النمل هل آية من كل سورة أم لا على ثلاثة أقوال:

الأول: أنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها وهو قول مالك.

الإشهاد على المعتقد

أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم[(١)]

قال ابن العربي: ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه والأخبار الصحاح دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها إلا في النمل، واستدل بما رواه مسلم رحمه الله (٣٩٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**قَالَ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي؛ فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**».

الثاني: أنها آية من كل سورة، وهذا قول عبد الله بن المبارك واستدل بما رواه مسلم (٤٠٠) عن أنس رضي الله عنه: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ؛ فَقَرَأَ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣]».

الثالث: هي آية من الفاتحة.

والراجح هو المذهب الأول وأنها ليست من كل سورة، وإنما وضعت للفصل بين السورة وهي من القرآن.

[(١)] قوله: «وأشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم» الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، إما بالبصيرة، وإما بالبصر، وقد يقال للحضور مفردًا، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] لكن الشهود بالحضور المجرد أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى. اهـ من «بصائر ذوي التميز» (٣/ ٣٥٠).

وقال ابن سيدة: الشاهد العالم الذي يُبين ما علمه شهد شهادة، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]. اهـ من «لسان العرب».

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالله شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨] أي: مطلع، وقال تعالى: ﴿وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وأما كونه «أشهد الملائكة» فقد دل الدليل على شهادتهم قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

قال في «لسان العرب» (ج٧/ ٢٢٤): ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] يعني: الملائكة.

وللشهادة عدة معان، ذكرها الراغب في «مفردات القرآن» فقال بعد أن ذكر أن الشهادة تطلق ويراد بها الحضور، واستدل بقوله تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل: ٤٩]، وبقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وتطلق على مشاهدة البصر، واستدل بقول الله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

وتطلق على العلم، قال تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

وقوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] أي: ما جعلتهم ممن اطلعوا ببصيرتهم على خلقها.

قال: وقد يعبر بالشهادة عن الحكم نحو قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦].

وعن الإقرار، نحو قوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: مقرين.

وقوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١] أي: ما أخبرنا، إلى آخر ما ذكره رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره الإمام محمد رحمه الله قد سبقه إليه الأنبياء كما قص الله علينا خبر هود عليه السلام مع قومه لما قبل له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، ردَّ عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-

معنى الاعتقاد

أني أعتقد[1].

.[٥٥

قال القرطبي في «تفسيره» (ج٩/ ص٥١-٥٢) قوله: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ الله ﴾ على نفسي، ﴿ وَاشْهَدُوا ﴾ أي: وأشهدكم لا أنهم أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير أي: لتعرفوا ﴿ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. اهـ

قال الشيخ الفوزان في «شرح هذه العقيدة» (صـ١٥): كأن هذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فهو يشهد الله جل وعلا ويشهد الملائكة، ويشهد العلماء على عقيدته، وأنه ما جاء بشيء جديد أو بتغير دين الله كما يقال عنه، وإنما جاء بالحق الصريح. اهـ

[1] قوله: «أني أعتقد» قال الهراس في «شرح الواسطية» (٢٣): والاعتقاد مصدر أعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه الضمير والقلب، ودان لله به وأصله من عقد الحبل، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم.

وقال الراغب في «مفردات القرآن» باب عقد: العقد الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما. اهـ

وقال عبد العزيز الرشيد في «شرح الواسطية» (١٦): الاعتقاد لغة: الربط والجزم، اعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير. انتهى.

وعرفه بعضهم اصطلاحًا بقوله: حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق الواقع فصحيح، وإلا فاسد. اهـ

وقال العثيمين رحمه الله في «شرح الواسطية» (٢٧) ط/ "الثريا": «اعتقاد» افتعال من العقد وهو الربط والستر، هذا من حيث التصريف اللغوي.

الفرقة الناجية

ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة[1]:

وأما في الاصطلاح عندهم: فهو حكم الذهن الجازم يقال: اعتقدت كذا يعني: جزمت به في قلبي، فهو حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق الواقع فصحيح وإن خالف الواقع ففاسد. اهـ

(١) قوله: «ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة» ما: موصولة بمعني الذي، ومعنى الجملة: أني أعتقد الذي اعتقدته الفرقة الناجية.

و«الفرقة» بكسر الفاء الطائفة من الناس قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وأما الفُرقة بالضم فمعناه الافتراق.

قوله: «الناجية» أي: التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة وحصلت على السعادة بسبب استقامتها على الحق وتمسكها بما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود والترمذي وابن ماجه: «افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتْ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً».

وفي حديث معاوية رضي الله عنه عند الترمذي: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً» قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» اهـ مختصرًا من «شرح الواسطية» للرشيد (١٧).

وقال ابن العثيمين في «شرح الواسطية» (٢٧): "الناجية": اسم فاعل من نجا، إذا سلم، ناجية في الدنيا من البدع سالمة منها وناجية في الآخرة من النار، ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»، هذا الحديث يبين لنا معنى (الناجية)،

فمن كان على مثل ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، فهو ناج من البدع، و«كلها في النار إلا واحدة»: إذا هي ناجية من النار، فالنجاة هنا من البدع في الدنيا، ومن النار في الآخرة. اهـ

قوله: «أهل السنة والجماعة» بدل من الفِرقة.

والسنة هي: الطريقة، قال الشاعر:

(ولكل قوم سنةٌ وطريقها)

قال ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٤٠٩): قد تكرر في الحديث ذكر [السُّنة] وما تصرَّف منها، والأصلُ فيها الطريقة والسِّيرة، وإذا أُطْلِقَت في الشَّرع فإنما يُرادُ بها ما أمَرَ به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه ونَدَب إليه قولا وفِعْلا مما لم يَنْطق به الكِتابُ العزيزُ، ولهذا يقال في أدِلَّة الشَّرع الكِتابُ والسُّنَّة أي القرآن والحديث. اهـ

قال ابن منظور في «لسان العرب» (٦/ ٣٩٩): والسنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة، قال خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجز من سيرة أنت سرتها ... فأول راضٍ سُنةً من يسيرها. اهـ

ومما يدل على أن السنة هي الطريقة سواءً كانت حسنة أو قبيحة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

وتعريف ابن الأثير للسنة هو اصطلاح للمحدثين وهي أوسع من ذلك.

قال الشاطبي في «الموافقات» (٤/ ٤): ويطلق -أي: لفظ السنة- في مقابلة البدعة، فيقال: فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان ذلك نص عليه في الكتاب أولاً، ويقال: فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك. اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٨٠) نقلاً عن السمعاني: واعلم أن السنة طريقة

رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسنن بسلوكها، وهي أقسام ثلاثة: أقوال وأعمال وعقائد. اهـ

وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» شرح حديث رقم (٢٨) من «الأربعين»: والسنة: هي الطريقة المسلوكة، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديمًا لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله، وروي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفضيل بن عياض.

وكثير من العلماء المتأخرين يخص اسم السنة بما يتعلق بالاعتقادات؛ لأنها أصل الدين، والمخالف فيها على خطر عظيم. اهـ

وقد جاء عدد كثير من أدلة الكتاب والسنة في الحث على هذا الطريق اللاحب والدين القويم والصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] في أدلة كثيرة جدًا من الكتاب العزيز.

وأما من السنة: فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**».

واتفق البخاري ومسلم على حديث أبي هريرة: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عند أبي داود وغيره وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا الوادعي رحمه الله: «وَعَظَنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- مَوعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ، فَقُلْنا: يَا رَسول الله، كأنَّها مَوعِظَةُ مُودِّعٍ، فأوْصِنا، قال: «أوصيكُمْ بتَقوى الله، والسَّمْعِ والطَّاعةِ، وإنْ تَأَمَّرَ عَليكُم عَبْدٌ، وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسَيرى اختلافاً كَثيراً، فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ».

والتمسك بها سبب الرشد كما في حديث عدي بن حاتم عند مسلم حيث قال ذلك الصحابي: من يطع الله ورسوله فقد رشد؛ فأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وأبو بكر قال: إني أخشى إن غيرت شيئًا مما كان عليه رسوله صلى الله عليه وسلم أن أزيغ. أخرجه مسلم.

فعلى هذا فلا فلاح ولا عز إلا لمن صار على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو القائل: «**وَجُعِلَت الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» أخرجه أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه، وذكر شيخ الإسلام في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم» أن سنده جيد.

ويدل على هذا المعنى قول الله عزوجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾

[المجادلة : ٢٠].

قال ابن حزم في «الملل والنحل» (٢/ ٢٧١): وأهل السنة الذين نذكرهم، أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث، ومن اتبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم. اهـ

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٣/ ٣٧٥): لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان. اهـ

ويطلق أيضاً على أهل السنة الطائفة المنصورة دل على ذلك حديث المغيرة، ومعاوية وجابر بن سمرة وجابر بن عبد الله وثوبان رضي الله عنهم، وكلها في الصحيح بألفاظ متقاربة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِيْنَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولاَ مَنْ خَالَفَهُم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلِكَ**»، وفي بعض الألفاظ: «**منصورين**».

وهم السلفيون نسبة إلى سلفهم الصالح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، ولما سئل الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله كما في «تحفة المجيب» (٢١٥) عن الاتجاه السلفي قال: إتجاه كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على فهم السلف الصالح، و المراد بالسلف الصالح هي القرون المفضلة التي جاء ذكرها في حديث عمران بن حصين، وعبد الله بن مسعود، والمعنى متقارب: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**» متفق عليه.

ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥].

فالصحابة هم رؤوس المؤمنين فاتباع سبيلهم هو النجاة وقبل هذا اتباع سنة رسول الله صلى الله

عليه وسلم التي يقول فيه ربنا عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر : ٧].

فالطريق الصحيح للإسلام هي طريقة السلف الذين يعبدون الله على بصيرة ليس فيها جدل المعتزلة، ولا غلو الشيعة والصوفية، بل كتاب وسنة ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٣]. اهـ

وبعد هذا اعلم أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر؛ فمن السنة لزوم الجماعة، ومن رغب غير الجماعة وفارقها؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وكان ضالاً مضلاً. قاله البربهاري في «شرح السنة».

وقال السفاريني في «لوامع الأنوار» (١/ ٢٠):

المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد لهم بالإمامة، وعرف عظم شأنها في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف دون رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضيٍ مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجبرية والجهمية والمعتزلة والكرامية ونحو هؤلاء. اهـ

وقال القشاني في تحرير المقال شرح الرسالة نقلاً عن موقف أهل السنة والجماعة من أهل البدع (١/ ٦٢): السلف الصالح وهو الصدر الأول الراسخون في العلم المهتدون بهدي النبي صلى الله عليه وسلم الحافظون لسنته اختارهم الله لصحبة نبيه وانتخبهم لإقامة دينه.

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في حكم الانتماء (٣٦): والثابتون على منهاج النبوة نسبوا إلى سلفهم الصالح في ذلك فقيل لهم السلف والسلفيون والنسبة إليهم سلفي، ولفظ السلف هنا لا يعني القديم كما أن لفظ الخلف لا يعني المتأخر، فلفظ الخلف يعني الطالح في أحد معنييه إذا كان بفتح اللام أما بإسكان اللام (خلْف) فهو للطالح لا غير، ولا تكون للصالح وكما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتْ﴾ [مريم : ٥٩] وعليه فإن لفظ

السلف هنا يعني السلف الصالح بدليل أن هذا اللفظ عند الإطلاق يعني كل سالك في الاقتداء للصحابة رضي الله عنهم حتى ولو كان في عصرنا هذا. اهـ

ويطلق عليهم أهل الحديث فقد قال النووي على مسلم (١٣/ ٦٦-٦٧): وأما هذه الطائفة فقال البخارى: هم أهل العلم وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث قلت: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض. اهـ

قال اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٧)/ ط ابن الجوزي: ثم كل من اعتقد مذهبا فإلى صاحب مقالته التي أحدثها ينتسب، وإلى رأيه يستند، إلا أصحاب الحديث، فإن صاحب مقالتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم إليه ينتسبون ، وإلى علمه يستندون، وبه يستدلون، وإليه يفزعون، وبرأيه يقتدون، وبذلك يفتخرون، وعلى أعداء سنته بقربهم منه يصولون، فمن يوازيهم في شرف الذكر، ويباهيهم في ساحة الفخر وعلو الاسم؟

وقال: وجه تسميتهم بأهل الحديث إذ اسمهم مأخود من معاني الكتاب والسنة يشتمل عليهما ؛ لتحققهم بهما أو لاختصاصهم بأخذهما ، فهم مترددون في انتسابهم إلى الحديث بين ما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه ، فقال تعالى ذكره : الله نزل أحسن الحديث فهو القرآن ، فهم حملة القرآن وأهله وقراؤه وحفظته ، وبين أن ينتموا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم نقلته وحملته ، فلا شك أنهم يستحقون هذا الاسم لوجود المعنيين فيهم لمشاهدتنا ...اهـ

ثم قال رحمه الله: وهداهم إلى طريقته وطريقة رسوله ، فهي الطائفة المنصورة ، والفرقة الناجية ، والعصبة الهادية ، والجماعة العادلة المتمسكة بالسنة ، التي لا تريد برسول الله صلى الله عليه وسلم بديلا ، ولا عن قوله تبديلا ، ولا عن سنته تحويلا ، ولا يثنيهم عنها تقلب الأعصار والزمان ، ولا

يلويهم عن سمتها تغير الحدثان. اهـ

وهذا الذي قاله رحمه الله ظاهر فيهم ظهور الشمس في الظهيرة ووجود النسيم الجميل في الليلة المطيرة، ولا ينكر فضلهم إلا من طمست بصيرته وتغيرت فطرته، وقد استقصيت بحمد الله ذكر كلام العلماء فيهم والحط على من تنقصهم في رسالتي الموسومة «بالخيانة الدعوية حجرة عثرة في طريق الدعوة السلفية» والحمد لله على انعامه وعلى جودة وإحسانه.

وأما تسميتهم بالجماعة فقد جاء في حديث معاوية بن أبي سفيان عند أحمد (٤/ ١٠٢) وأبي داود (٤٥٩٧) وغيرهما، وجاء عن أنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٤).

قال الإمام البربهاري في «شرح السنة»: والأساس الذي بيَّنا عليه الجماعة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة. اهـ

وقال أبو شامة في «الباعث على إنكار الحوادث» (٣٤): وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك بالحق قليلاً والمخالف كثيرًا؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. اهـ

وقال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٣١): والجماعة جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين. اهـ

وفي حديث عمر رضي الله عنه عند أحمد وغيره: «مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ؛ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ» وسنده صحيح.

قال الفوزان في «شرح هذه العقيدة» (١٦): سموا بالجماعة لأنهم مجتمعون على الحق ليس بينهم اختلاف في عقيدتهم؛ لأن عقيدتهم واحدة، وإن كانوا يختلفون في المسائل الفقهية المستنبطة فهذا لا يضر لأنه ناشئ عن اجتهاد والاجتهاد يختلف والناس ليسوا على حد سواء في ملكة الاجتهاد، أما

العقيدة؛ فإنها لا تقبل الاجتهاد بل يجب أن تكون واحدة؛ لأنها توقيفية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] هذه أمة واحدة لا تقبل الاختلاف تعبد ربًا واحدًا، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٣] ذم الذين اختلفوا؛ لأن الاختلاف في العقيدة لا يجوز فالله أمرهم أن يكونوا أمة واحدة فعصوه. اهـ

ومن جملة آداب السنة والجماعة الطائفة المنصورة والفرقة الناجية السلفيون أنهم يرون الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله والإنتهاء عما نهى الله عنه وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين ويدينون بعبادة الله في العابدين واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصبية والفخر والكبر والإزدراء على الناس والعجب ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة والتشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع وحسن الخلق وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد المأكل والمشرب. اهـ من «عقيدة الأشعري» كما في كتاب «اعتقاد أهل الحديث» للخميس (٣٤٧-٣٥٥).

وكذلك يهتمون بتحصيل العلم والدعوة إليه والعمل بالسنن والسعي الحثيث من أجل أن يكونوا عبيدًا لله عزوجل كما أراد الله عزوجل.

قال شيخ الإسلام في «الواسطية» (٢٤٤) ثم من طريقة أهل السنة والجماعة أتباع آثار الرسول صلى الله عليه وسلم باطنًا وظاهرًا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «عَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ».

ويعلمون أن أصدق الكلام كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ويؤثرون كلام الله عليه غيره من كلام أصناف الناس ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة وسموا أهل الجماعة، لأن الجماعة هي الإجتماع وضدها الفرقة. اهـ

وقال: ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ويـرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارا كانوا أو فجـارا ويحـافظون عـلى الجماعـات ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» وشبك بين أصابعه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**مثل المؤمنين في تـوادهم وتـراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سـائر الجسـد بـالحمى والسـهر**» ويـأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسـن الأعمال ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» وينـدبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمـن ظلمـك ويـأمرون بـبر الوالـدين وصـلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها وكل ما يقولونه ويفعلونه من هـذا وغـيره فـإنما هـم فيـه متبعـون للكتـاب والسـنة وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم. اهـ

وقد كتبت بحمد الله عن أهم صفاتهم في كتـابي الموسـوم «بالنصـيحة والبيـان» (ص١٠٤-١٠٨) مخلصها كالآتي:

١- العناية بالأدلة من الكتاب والسنة والعمل بهما.

٢- العناية بالتوحيد والتحذير من الشرك.

٣- عنايتهم بعلم الكتاب والسنة حفظًا وتدوينًا وتعليمًا وعملاً به.

٤- تحري العمل بالسنة في لباسهم ومعتقداتهم وعباداتهم.

٥- الجد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه الشرعية.

٦- التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما دق وجل.

٧- تحذيرهم من الحزبيات والجمعيات والتفرقات.

من الإيمان بالله.[1]

٨- تحذيرهم من مشابهة الكافرين في أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم.

٩- اتفاقهم سواءً كانوا في المشرق أو المغرب، قال أبو القاسم الأصبهاني: أهل الحديث أخذوا الدين من الكتاب والسنة وطريق النقل فأوردتهم الاتفاق والإتلاف.

١٠- محبتهم لأئمة السنة وبغضهم لأهل البدع.

١١- إحياء منهج الجرح والتعديل.

١٢- عدم الخروج على الحاكم المسلم.

١٣- ينكرون تصوير ذوات الأرواح ويرونه محرمًا.

١٤- نشر العلم في المساجد.

١٥- نبذهم للتقليد سواءً كان للمشايخ أو غيرهم ويأخذون كل شيء بدليله.

وخلاصة القول إنهم يتميزون بالدخول في الدين كافة كما أمرهم الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقد توسعت في ذلك ولله الحمد والمنة في كتاب «الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية».

[1] قوله: «من الإيمان بالله» الإيمان هو: الإقرار على ما سيأتي بيانه، والإيمان بالله عزوجل من أركان الإيمان الستة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث جبريل الذي روه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب وفيه: «**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ**

رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ، قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وهذه الثلاثة المراتب المذكورة في الحديث هي مراتب الـدين؛ فأعلاهـا الإحسـان ثـم الإيـمان ثـم الإسلام.

واتفق البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: ما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»، وفي رواية لمسلم رقم (١٠): «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ».

وقد دل على هذه الأركان القرآن، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، قال القاضي عياض: وهذا الحـديث قـد اشـتمل عـلى شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقـود الإيـمان، وأعـمال الجـوارح، وإخـلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشبعة منه. اهـ

وبدأ الشيخ بذكر اعتقاده في أركان الإيمان عملاً بحديث جبريل قال الحافظ في شرح الحديث قـدم السؤال عن الإيمان؛ لأنه الأصل وثني بالإسلام؛ لأنه يظهر مصداق الـدعوة، وثلـث بالإحسـان؛ لأنه متعلق بهما. اهـ

والإيمان هو الإقرار أما من عرفه بالتصديق فقد قصر في هذا التعريف كما سيأتي بيانه في بابه إن شاء الله تعالى؛ لأن الإقرار تصديق وزيادة بينما التصديق قد لا يصاحبه إقرار.

وأول هذه الأركان وأشرفها وأزكاها وأعلاها وعليه مدار جميع الأركان، هـو: إفـراد الله عزوجـل بالعبادة، ولعبادته خلقت الإنس والجان، ولمحبيه وعابديه وموحديه أعدت الجنان، ومـا فيهـا مـن الحور الحسان، ومن خـالف هـذا الـركن توعـد بـالنيران، والخسـارة والحرمـان قـال السـلمان في «الكواشف الجلية» (٥٣):

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، وأنه المستحق؛ لأن يفرد بالعبودية والذل والخضوع، وجميع أنواع العبادة، وأنه المتصف بصفات الكمال المنزه من كل عيب ونقص، وهذا هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء شخصية المسلم. اهـ

قال الرشيد في التنبيهات السنية على الواسطية (٢٠): ومعنى الإيمان بالله إثبات وجوده سبحانه، وأنه متصف بصفات الجلال والعظمة والكمال منزه عن كل عيب ونقص، وأنه مستحق للعبادة لا إله غيره ولا رب سواه. اهـ

والحاجة إلى معرفة الله عز وجل فوق كل حاجة كما سيأتي بيانه إن شاء الله عند قول الإمام المجدد: (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه).

ولا ريب أن العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومة إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها، فهو أصلها كلها فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل الله فهو لما سواه أجهل. أفاده ابن القيم.

وأول وأوجب يجب على المسلم معرفته هو الله سبحانه وتعالى الخالق الرازق المالك جل في علاه، وأركان الإيمان به جل وعلا أربعة:

- الإيمان بوجوده.
- الإيمان بربوبيته.
- الإيمان بإلاهيته.
- الإيمان بإسمائه وصفاته.

فأما الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى فأين من أن نستدل له قال ابن تيمية كما في «المجموع» (٢/ ١٦): إن الله – سبحانه – لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي إليه تصير الحادثات ؛ فهو الأصل الجامع ؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه وذكره أصل كل كلام وجامعه والعمل له أصل كل عمل وجامعه، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته. اهـ

والله عز وجل يستدل على وجوده بآياته الكونية والشرعية:

ورحم الله أبو العتاهية إذ يقول:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال ابن تيمية رحمه الله كما في «المجموع» (١/ ٤٨): إن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه ، فكل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه ، كما قد بسطناه في مواضع، ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات ، فإنها قد فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات لم تعلم أن هذه الآية له. اهـ

وقال (١/ ٤٩): والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق، فلا بد أن يكونوا يعرفونه ؛ حتى يعلمون أن هذه دلائل مستلزمة له، والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية هي التي جاء بها القرآن ، واتفق العقل والشرع ، وتلازم الرأي والسمع. اهـ

والآيات التي يعرف الله عز وجل بها هي الآيات الكونية قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت : ٣٧].

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥].

وفي المأثور عن ذلك الأعرابي البعرة، تدل على المسير وسماء ذات أبراج، وأرض ذات نجاج، ألا يدل ذلك على العليم الخبير.

وكذلك يعرف ربنا بالآيات الشرعية التي أنزل بها الكتاب وأرسل بها الرسل صلوات الله عليهم أجمعين: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء : ٢٣ – ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١ – ٤].

ورحم الله زيد بن عمر بن نفيل إذ يقول:

وأسلمت نفسي لمن أسلمت ... لـــه المزن تحمل عذباً زلالا

وأسلمت نفسي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا

وأما دلالة الفطرة على وجود الله عز وجل فهي قوية جداً لحديث أبي هريرة عندهما: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» متفق عليه .

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٦/ ٧٢) كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق، فإنهم مفطورون على أنه أجل وأعظم من كل شيء. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله في «البدائع» (٤/ ١٥٩٠) ط/ عالم الفوائد: وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات، فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه، ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذباً فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقاً حق تأمله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته، وأسمائه وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه، وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثاً، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاؤوهم بما يشاهدون أدلة صدقة، وبما لو تأملوه لرأوه مركوزا في فطرهم مستقراً في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه

وصفاته وتوحيده ولقائه، ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد علياختلاف أنواعها فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريق سهلة واضحة برهانية، وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزاً في نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط لاستخرج منها الإيمان بالله تعالى وصفاته، والشهادة بأنه لا إله إلا هو والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه وانجابت عنه سحائب غيبه، وانكشف عن قلبه حجاب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه ويلوح له صباح هو ليلة وظلامه فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، ثم تأمل وجه كونها آية، وعلى ماذا جعلت آية أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعددة وكذلك سائر ما في القرآن الكريم من هذا النمط كآخر سورة آل عمران وقوله في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ إلى آخرها وقوله في سورة النمل: ﴿الْحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَين﴾ [النمل: ٥٩] إلى آخر الآيات وأضعاف ذلك في القرآن الكريم وكقوله في سورة الذاريات ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فهذا كله من الحق الذي خلقه به السموات والأرض وما بينهوما وهو حق لوجود هذه المخلوقات مسطور في صفحاتها يقرؤه كل موفق كاتب وغير كاتب كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وقد خط فيها لو تأملت خطَّها

ثم الإقرار لله عز وجل بالربوبية، وهذا أيضاً أمر فطري جبل الناس عليه، أقر بـه جميـع النـاس ولم ينكره إلا مكابر قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

وتوحيد الربوبية: وهو إفراد الله سبحانه وتعالى في أمور ثلاثة: في الخلق والملك والتدبير، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ووجه الدلالة من الآية: أنه قـدم فيهـا الخـبر الذي من حقه التأخير، والقاعدة البلاغية: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ثم تأمـل افتتـاح هذه الآية بـ (ألا) الدالة على التنبيه والتوكيد: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعـراف: ٤]، لا لغـيره، فالخلق هذا هو، والأمر هو التدبير.

أما الملك، فدليلة مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٢٧]، فإن هـذا يـدل على انفراده سبحانه وتعالى بالملك، ووجه الدلالة من هذه الآية كما سبق تقديم ما حقه التأخير.

إذاً، فالرب عز وجل منفرد بالخلق والملك والتدبير.

فإن قلت: كيف تجمع بين ما قررت وبين إثبات الخلـق لغـير الله، مثـل قولـه تعـالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم في المصورين: «يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، ومثـال قولـه تعـالى في الحديث القدسي: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»، فكيـف تجمـع بـين قولـك: أن الله منفـرد بالخلق، وبين هذه النصوص؟!

فالجواب أن يقال: إن الخلق هو الإيجاد، وهذا خاص بالله تعالى، أما تحويـل الشيـء مـن صـورة إلى

أخرى، فإنه ليس بخلق حقيقة، وإن سمي خلقاً باعتبار التكوين، لكنه في الواقع ليس بخلـق تـام، فمثلا: هذا النجار صنع من الخشب باباً، فيقال: خلق باباً، لكن مادة هذه الصناعة الذي خلقها هو الله عز وجل، لا يستطيع الناس كلهم مهما بلغوا في القدرة أن يخلقوا عود أراك أبداً، ولا أن يخلقـوا ذرة ولا أن يخلقوا ذباباً.

واستمع إلى قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِـنْ دُونِ الله لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِـبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. اهـ مختصراً من «شرح الواسطية» للعثيمين (١٥) ط/ الثريا

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ [الملـك: ١]، وقـال: ﴿وَللهِ مُلْـكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٨٩].

ومن خصائص الربوبية أيضاً الرزق قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] إلى غير ذلك من خصائص ربوبية رب العالمين.

ومما يجب على المسلمين معرفته وتعلمه، وعدم جهله هو توحيد الإلهية هذا التوحيد من أجل إقامته أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وشرع الجهـاد، ووجـدت الخليقـة، وخلقـت النـيران، وزخرفـت الجنان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُـدُوا الله وَاجْتَنِبُـوا الطَّـاغُوتَ﴾ [النحـل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا الله وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء : ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن الخلاف بينه وبين مشركي قريش هو عدم الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، بل لعـدم إقرارهم بلا إله إلا الله حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص : ٥].

وتوحيد الألوهية هو ما يسمى بتوحيد الطلب -أي: من الله- والقصد أي مـن العبـد لله ويسـمى توحيد العبادة: وهو إفراد لله عزوجل بالعبادة، والعبادة: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال

والأعمال والمعتقدات كما عرفها بذلك شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، فيدخل في هذا التعريف الأعمال الظاهرة والباطنة مما شرعه الله وأمر به، وما كان داخلاً في هذا الاسم، فلا يجوز صرفه لغير الله تعالى وصرفه لغير الله شرك وصاحب الشرك متوعد بالنار والعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

قال شيخ الإسلام في «التدمرية» (١٦٦): ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢] فأمر الرسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء

أخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبيه نبي».

ولهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا غيره لا من الاولين ولا من الآخرين فان جمع الانبياء على دين الاسلام قال الله تعالى عن نوح: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] إلى قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال في خبر المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر والإستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده.

فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره وذلك إنما يكون بأن يطاع كل وقت يفعل ما أمر به في ذلك الوقت فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخر ثم أمرنا ثانيا باستقبال الكعبة: كان كل من الفعلين حين أمر به داخلاً في الإسلام.

فالدين هو طاعة والعبادة له في الفعلين وإنما تنوع بعض صور الفعل وهو وجه المصلى فكذلك

الرسل دينهم واحد وان تنوعت الشرعة والمناهج والوجه والمنسك، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحدا كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد. اهـ

وقال ابن الأمير رحمه الله في «تطهير الإعتقاد» (٤/ ٣٨٥) من كتب ورسائل العباد: **الأصل الثاني**: أن رسل الله وأنبياءه ـ من أولهم إلى آخرهم ـ بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة. وكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله﴾، ﴿أَنِ اعْبُدُوا الله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ وهذه الذي تضمنه قول "لا إله إلا الله"؛ فإنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة واعتقاد معناها، لا مجرد قولها باللسان، ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية والعبادة، والنفي لما يعبد من دونه والبراءة منه، وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه، ولا شك فيه وفي أنه لا يتم إيمان أحد حتى يعلمه ويحققه.

الأصل الثالث: أن التوحيد قسمان: القسم الأول: توحيد الربوبية والخالقية والرازقية ونحوها، ومعناه: أن الله وحده هو الخالق للعالم وهو الرب لهم والرازق لهم، وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون لله فيه شريكا، بل هم مقرون به، كما سيأتي في الأصل الرابع.

القسم الثاني: توحيد العبادة ومعناه : إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات الآتي بيانها. فهذا هو الذي جعلوا لله فيه شركاء. ولفظ الشريك يشعر بالإقرار بالله تعالى.

فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير الأول ودعاء المشركين إلى الثاني، مثل قولهم في خطاب المشركين: ﴿أَفِي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣] ونهيهم عن شرك العبادة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] أي قائلين لأممهم أن اعبدوا الله. فأفاد بقوله ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم وأنه رب السماوات والأرض، فإنهم مقرون بهذا. ولهذا لم ترد الآيات فيه ـ في الغالب ـ إلا بصيغة

استفهام التقرير، نحو: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ [فاطر: ٣] ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٤] ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [فاطر: ١١] ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأحقاف: ٤] استفهام تقرير لهم؛ لأنهم به مقرون.

وبهذا تعرف أن المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان ولم يعبدوها ولم يتخذوا المسيح وأمه ولم يتخذوا الملائكة شركاء لله تعالى لأنهم أشركوهم في خلق السماوات والأرض، بل اتخذوهم لأنهم يقربونهم إلى الله زلفى، كما قالوه. فهم مقرون بالله في نفس كلمات كفرهم وأنهم شفعاء عند الله. قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعاء شركا ونزه نفسه عنه لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في شفاعة ولا هم أهل لها ولا يغنون عنهم من الله شيئا؟

الأصل الرابع: أن المشركين الذين بعث الله الرسل إليهم مقرون أن الله خالقهم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٩] وأنه الرازق الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] وهذا فرعون مع غلوه في

كفره ودعواه أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء، يقول الله في حقه حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] وقال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦] وكل مشرك مقر بأن الله خالقه وخالق السماوات والأرض وربهن ورب ما فيهما ورازقهم، ولهذا احتج عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وبقولهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] والمشركون مقرون بذلك لا ينكرونه.

الأصل الخامس: أن العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل، ولم تستعمل إلا في الخضوع لله. لأنه مولى أعظم النعم. وكان لذلك حقيقا بأقصى غاية الخضوع، كما في «الكشاف».

ثم إن رأس العبادة وأساسها التوحيد لله التوحيد الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهي قول (لا إله إلا الله) والمراد اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها : إفراد الله بالعبادة والإلهية والنفي والبراءة من كل معبود دونه. وقد علم الكفار هذا المعنى لأنهم أهل اللسان العربي، فقالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. اهـ

والعبادة أنواع كثيرة ليس المجال موضع بسطها، ولكن بالتأمل في التعريف يُعرف المراد ويجب على كل مكلف لقبول عبادته أن يخلص فيها العمل لله سبحانه وتعالى فهو رأس الأمر ﴿وَالله الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد : ٣٨] وهو القائل: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» فلا يشرك مع الله في عبادته غيره لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وقال جل وعز: ﴿فَاعْبُدِ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر : ٢]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥].

وفي حديث عمر رضي الله عنه الشيخين: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ

هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

ولابد من توفر المتابعة في هذه العبادة حتى تكون مقبولة عند ربنا سبحانه وتعالى، وإذا طلقت المتابعة فالمراد بها متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله ومعتقداته والسير على سيره والأخذ بهديه وطريقته، فطريقته هي الإسلام الحق الذي قال عنه الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣]، وطريقته هي المقبولة وما سواها مردود قال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها بهذا اللفظ.

وطريقته هي الخير وما خالفها شر قال حذيفة: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ، قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ، قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ، قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» والحديث في «الصحيحين».

وقال صلى الله عليه وسلم: «**وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» أخرجه مسلم عن جابر وسيأتي مزيد بيان لهذا الباب إن شاء الله.

وحقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون الله تعالى، أما الإخلاص في الدين فيقول الراغب: إخلاص المسلمين أنهم قد تبرءوا مما يدعي اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث قال تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥]، وقال عز وجل: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ﴾ [النساء : ١٤٦] وأجمعوا على أن الإخلاص في الطاعة ترك الرياء.

وحقيقة المتابعة هو الأخذ بطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال والاعتقاد قال الله

تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم)، وتحصيل الإخلاص يكون بالزهد فيما سوى الله عز وجل والمراقبة له سبحانه في السر والعلن والعلم، أن هذا الذي رآئيته بشراً مثلك لا ينفع ولا يضر، بل هذا الضيع منك يؤدي إلى فساد العمل الصالح.

وتحصيل المتابعة يكون بطلب العلم النافع والتفقه في الدين وسؤال أهل العلم عما أشكل قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣]، وبعد تحصيل العلم ملازمة العمل به.

والعبادة أقسام قال ابن الأمير في «تطهير الاعتقاد» (٤/ ٣٩٠):

١- اعتقادية: وهي أساسها، وذلك أن يعتقد أنه الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر وبيده النفع والضر وأنه الذي لا شريك له ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك من لوازم الألوهية.

٢- اللفظية : وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس، فإنه يعتقد التوحيد بل ويقر به، إلا أنه لم يمتثل أمر الله فكفر. ومن نطق ولم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله، وحكمه حكم المنافقين.

٣- وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف.

٤- ومالية: كإخراج جزء من المال امتثالا لما أمر الله تعالى به. وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها. اهـ

وأعظم العبادة وأسها هو تحقيق كلمة التوحيد التي هي الباب الأعظم والوحيد للدخول في الإسلام قال صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،

إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ» متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنه، وجاء عن مسلم بنحوه عن عمر، وأبي هريرة، وجابر رضي الله عنهم جميعًا.

فهذه الكلمة العظيمة عاصمة للدم والمال والعرض، وهذه الكلمة من مات عليها دخل الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» أخرجه مسلم عن عثمان رضي الله عنه.

وهي أعظم حسنة لحديث عبد الله بن عمرو عند الترمذي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ».

وهي آخر مطلوب من العبد قال صلى الله عليه وسلم: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أخرجه مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة، وجاء خارج في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها.

وهذه الكلمة تتكون من ركنين أساسين الأول النفي والآخر الإثبات، قال صاحب تيسير العزيز الحميد (٥٦) ط/ المكتب الإسلامي: قوله: (لا إله إلا الله) اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم، فليس بإله، ولا له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية للهّ وحده، بمعنى أن العبد لا يأله غيره، أي: لا يقصده بشيء من التأله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

وبالجملة فلا يأله إلا الله، أي: لا يعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقًا، فإن عمل به ظاهرًا من غير اعتقاد، فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك، فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهرًا وهم ﴿فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، [النّساء، من الآية: ١٤٥]، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم. اهـ

وأخرج البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في فضلها ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ».

قال صاحب «تيسير العزيز الحميد» (٥١): قوله: قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله)، أي: من تكلم بهذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، كما دل عليه قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الله﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع.

وفي الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: (من شهد)، إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به. اهـ

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث: هذا حديث عظيم جليل الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد. اهـ

و معنى (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]،

فصح أن معنى الإله هو المعبود، ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لكفار قريش: (قولوا لا إله إلا الله)، قالوا:﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال قوم هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]. اهـ من «تيسير العزيز الحميد» (٥٢).

أما فائدة الجمع بين النفي والإثبات في هذه الكلمة فلأن الأثبات وحده لا ينفي المشاركة قال ابن القيم رحمه الله في «البدائع» (٩٢٦): أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص، فدلالتها على الإثبات أعظم من دلالة قولنا: (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة. اهـ

وشروط هذه الكلمة العظيمة كلمة الإخلاص ثمانية جمعت في هذين البيتين:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما سوى الإله من المخلوق قد ألها

وكلمة (لا إله إلا الله) من قالها نفعته ابتداءً أي تعصم ماله ودمه كما في حديث طارق ابن أشيم: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله» أخرجه مسلم (٢٣).

وقد تقدم حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنها قال صاحب «فتح المجيد» (١/ ٢٢٠-٢٢١): اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم علق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين:

الأول : قول لا إله إلا الله عن علم ويقين ، كما هو قيد فى قولها فى غير ما حديث كما تقدم.

والثانى : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لابد من قولها والعمل بها .

قلت : وفيه معنى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل اللفظ بها

عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله). اهـ

وقال ابن الأمير في «تطير الاعتقاد» (٤/ ٤٠٨) ضمن مجموع العباد: فإن قلت قد أنكر صلى الله عليه وسلم على أسامة قتله لمن قال لا إله إلا الله كما هو معروف في كتب الحديث والسير، قلتُ : لا شك أن من قال : "لا إله إلا الله" من الكفار حقن دمه وماله حتى يتبين منه ما يخالف ما قاله، ولذا أنزل الله في قصة محلم بن جثامة آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء : ٩٤] فأمرهم الله تعالى بالتثبت في شأن من قال كلمة التوحيد، فإن تبين التزامه لمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن تبين خلافه فلم يحقن دمه وماله بمجرد التلفظ، وهكذا كل من أظهر التوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يخالف ذلك، فإذا تبين لم تنفعه هذه الكلمة بمجردها، ولذلك لم تنفع اليهود ولا نفعت الخوارج مع ما انضم إليها من العبادة التي يحتقر الصحابة عبادتهم إلى جنبها، بل أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهم، وقال : « **لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** » وذلك لما خالفوا بعض الشريعة وكانوا شر القتلى تحت أديم السماء، كما ثبتت به الأحاديث، فثبت أن مجرد كلمة التوحيد غير مانع من ثبوت شرك من قالها لارتكابه لما يخالفها من عبادة غير الله. اهـ

وينبغي للمرء المسلم أن يكون عالماً بتفاصيل التوحيد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كيما يتخلص من الشرك والبدع، وهذا إبراهيم عليه السلام مع أنه إمام الحنفاء وخليل الرحمن يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم : ٣٥].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول كما في حديث أنس عند ابن حبان: «**وأعوذ بك من الشرك**»، وكيف لا يخاف هذا الخطر العظيم والذنب الجسيم الذي يأتي على الحسنات ويجعلها هباءً

منثوراً.

قال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في فتح المجيد (١/ ١٧٣): فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب ، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه ، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به ، وإن شاء عذبه به ، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله ، لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، وتنقص لرب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره وعدل غيره به ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام : ١]؛ ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ، والذل له ، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك ، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة. اهـ

وقال رحمه الله (١/ ١٧٦): قوله : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم : ٣٥] أي اجعلني وبني فى جانب عن عبادة الأصنام ، وباعد بيننا وبينها . وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنيه أنبياء ، وجنبهم عبادة الأصنام . وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم : ٣٦] فإنه هو الواقع فى كل زمان، فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا فى الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال إبراهيم التيمي: من يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟ رواه إبن جرير وابن أبي حاتم .

فلا يأمن الوقوع فى الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده ، والنهي عن الشرك به. اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية» (١٥٧):

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمـ ... ـن أيا كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجـــوه ثم يخـافه　　　ويحبـــه كـــمحبـــة الــــــديان

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم (٩٣) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسـول الله عليـه وسـلم: «مَنْ لَقِيَ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّـارَ» قـال النـووي رحمـه الله في شرح الحديث: فأما دخول المشرك النار، فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيهـا، ولا فـرق فيـه بـين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكـافر عنادا وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها، ثم حكم بكفـره بجحـده مـا يكفر بجحده وغير ذلك .

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مـات مصرـاً عليها دخل الجنة أولا ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة ، فإن عفي عنـه دخل أولا وإلا عذب ، ثم أخرج من النار ، وخلد في الجنة، والله أعلم. اهـ

قلت: مسألة خروج الموحدين من النار سيأتي لها موطن ذكر مع الأدلة إن شاء الله تعالى.

ثم اعلم وفقك الله عز وجل أن الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك من مهمات الأمور، بل هو أهم الأمور التي أنزل الله من أجلها الكتاب وأرسل الرسل قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُـو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل : ١٢٥].

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًـا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ فَـادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، وفي رواية: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله» أخرجاه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

وفي حديث سهل بن سعد عند البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٥) وفيه: «فَوَالله لَأَنْ يُهْدَى بِـكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

والمسلمون الواجب عليهم أن يكونوا جميعاً دعاة إلى الله أخرج البخاري (١٣٩٨)، ومسـلم (١٧)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّا مِنْ هَذَا الْحَيِّ مِنْ رَبِيعَةَ، وَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَمُرْنَا بِشَيْءٍ نَأْخُذْهُ عَنْكَ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، فَقَالَ: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانِ بِالله، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا إِلَيَّ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ، وَأَنْهَى عَنْ الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُقَيَّرِ، وَالنَّقِيرِ».

والداعي إلى الله قوله وفعله أحسن الأقوال والأفعال؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال ابن القيم رحمه الله كما في «التفسير القيم» (٣١٩): وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل اليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء. اهـ

وقال ابن كثير في تفسير الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بذلك. اهـ

وكما تقدم إن أوجب ما دُعِيَّ إليه التوحيد وهو إفراد الله عزوجل بما يجب له، ولذلك مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من الزمن في مكة لا يدعو إلى صلاة ولا صيام وإنما يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» كما عند الدارقطني (٣/ ٤٤) من حديث طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بسوق ذي المجاز وأنا في تباعة لي هكذا، قال: أبيعها فمر وعليه حلة حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل يتبعه

بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ فقالوا: هذا غلام بني عبد المطلب، قلت: من هذا الذي يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى وهو أبو لهب.

ونعود لما ينبغي أن يعلم في باب توحيد الألوهية:

اعلم وفقك الله لطاعته وامتن عليك بهديته وألهمنا وإياك رشدنا أن الله عزوجل لا يرضى أن يشرك معه أحدٌ غيره لا نبي مرسل ولا ملك مقرب قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِّ فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب في «الأصول الثلاثة»: وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل: الإسلام والإيمان، والإحسان، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادات التي أمر الله بها. اهـ

واعلم وفقك الله عزوجل أن طريق المرسلين وهديهم قد خالفه قوم مبتدعون مستحسنون في دين رب العالمين.

قال صلى الله عليه وسلم: «افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتْ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً» قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

فإذا كان هذا هو الواقع فعلى العبد أن يلتزم الشريعة المحمدية التي قال الله عنها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والتي قال الله عزوجل عن كتابها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

والتي قال عن رسولها صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وأخرج مسلم في «صحيحه» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

فهو دين تميز عن غيره بالشموال والكمال والحفظ، وهو الدين الناسخ لجميع الملل السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضع في موطن لاحق، والمراد أن كثيرًا من الناس قد خالفوا في باب توحيد الإلهية بالدعاء والنذر والخوف وصرف العبادات لغير الله، فتعين على المسلم معرفة طريق الحق في هذه العبادات والبعد كل البعد عما خالفه وناقضه والبعد عن المتقمصين بأقمصة الباطل من صوفية وغيرهم.

وقبل الشروع في بعض أنواع العبادات أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عظم جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك وبهذا التبويب بوب الإمام محمد بن عبدالوهاب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

قال الشيخ سليمان بن عبدالله في «تيسير العزيز الحميد» (٢٩٣): ولقد بالغ صلى الله عليه وسلم وحذر وأنذر، وأبدأ وأعاد، وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، كما قال بعض العلماء: هي أشد الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل. اهـ

واستدل الإمام محمد بن عبدالوهاب على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية أمته بقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال سليمان بن عبدالله (٢٩٤): فتأمل هذه الآية وما فيها من أوصافه الكريمة ومحاسنه الجمة التي تقتضي أن ينصح لأمته، ويبلغ البلاغ المبين، ويسد الطرق الموصلة إلى الشرك، ويحمي جناب التوحيد غاية الحماية، ويبالغ أشد المبالغة في ذلك لئلا تقع الأمة في الشرك، وأعظم ذلك الفتنة بالقبور، فإن الغلو فيها هو الذي جر الناس في قديم الزمان وحديثه إلى الشرك. اهـ

ومن أصرح الأدلة على حماية النبي صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد وتحذير من الشرك قوله: «لا تجعلوا قبري عيدًا؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود (٢٠٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وأخرج البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «**لَعَنَ الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، لَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ، أَوْ خُشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**» ولمسلم (٥٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه.

ولهما عن عائشة وابن عباس في البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١): «لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا».

وأخرج مسلم (٥٣٢) عن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ

ذَلِكَ».

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه عند أبي داود (٣٣١٣) قال: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ قَالُوا: لَا، قَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**».

وأخرج أحمد (٥/ ٧٢) من حديث الطفيل بن سخبرة أَنَّهُ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّهُ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ فقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ، قَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، قَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ الله، فَقَالَتْ الْيَهُودُ: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا، نَحْنُ النَّصَارَى فَقَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ الله، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ الله وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا، قَالَ: عَفَّانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا صَلَّوْا خَطَبَهُمْ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا فَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، قَالَ: لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ الله وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ».

وأخرج أحمد (٤/ ٣٣٩) قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ، لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا» وغير ذلك من الأحاديث في الباب التي ليس هذا موضع بسطها.

ومما يجب أن يعلم أن دعاء غير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى شرك أكبر مخرج من الملة.

واعلم أن الدعاء نوعين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من

جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا كقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَالله هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله﴾ [يونس: ١٨]، وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لا بد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان. فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة. اهـ من «تيسير العزيز الحميد» (١٧٦).

وقد جاء في الحديث «**إن الدعاء هو العبادة**» أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧) عن النعمان بن بشير، وقال ابن عباس: أفضل العبادة الدعاء وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] رواه الحاكم (١/ ٤٩١).

قال سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (١٧٩):

والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى، فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء – هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يخلصون في الشدائد للهّ وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا الله يا الله، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فهم كانوا يعلمون أن ذلك للهّ وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج سبحانه

وتعالى عليهم بذلك أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فهذه حال المشركين الأولين.

وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برًّا وبحرًا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهجيره إن قام وإن قعد وإن عثر. هذا يقول: يا علي يا الشّاذلي، وهذا يقول: يا عبد القادر الجيلاني، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يدعو البدوي، وهذا يدعو العيدروس، وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان، ودخول الجنة والنجاة من النار، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله.

وقال ابن الأمير في تطهير الاعتقاد (٤/ ٣٩٣) من مجموع العباد:

فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله وحده، والاستعانة بالله وحده واللجأ إلى الله والنذر والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع والقيام تذللا لله تعالى والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب والحلق والتقصير كله لا يكون إلا لله عز وجل، ومن فعل شيئا من ذلك لمخلوق حي أو ميت أو جماد أو غير ذلك فقد أشرك في العبادة. وصار من تفعل له هذه الأمور إله لعابديه، سواء كان ملكا أو نبيا أو وليا أو شجرا أو قبرا أو جنيا أو حيا أو ميتا، وصار العابد بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابدا لذلك المخلوق مشركا بالله، وإن أقر بالله وعبده، فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك وعن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم غنيمة، قال الله تعالى [في الحديث القدسي]: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**» لا يقبل الله عملا شورك فيه غيره، ولا يؤمن

به من عبد معه غيره. اهـ

ويا لله العجب كيف صرف كثير من مشركي عصرنا ممن يقول: لا إله إلا الله بلسانه ولا يعمل بمقتضاها ولم يعرف معناها من الصوفية القبورية والرافضة القبورية يدعونهم عند الشدائد، يا الخمسة يا ابن علوان، يا هادياه، يا محمداه، يا علياه، إلى غير ذلك.

قال ابن الأمير في «تطهير الإعتقاد» (٤/ ٣٩٨-٣٩٩): وكذلك تسمية القبر مشهدًا، ومن يعتقدون فيه وليًا لا تخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ويطوفون بها طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويستلمونها استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها.

وكل قوم لهم رجل ينادونه، فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه، يقولون: «يا زيلعي ، يا ابن العجيل».

وأهل مكة وأهل الطائف: «يا ابن العباس».

وأهل مصر: «يا رفاعي، يا بدوي».

والسادة البكرية وأهل الجبال: «يا أبا طير».

وأهل اليمن: «يا ابن علوان».

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواعا ومثله ... يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا من سوحها من نحيرة ... أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلا ... ويستلم الأركان منهن باليد. اهـ

فتلخص لنا أنه يجب على المسلمين أن يكون ملجأهم ومعاذهم وملاذهم هو الله عزوجل لا غيره،

والعجب أن تجد أن هؤلاء الضلال يسمون معبوداتهم من المقبورين بالأوتاد والأقطاب والغوث، وهذه تسميات مبتدعة بنيت على عقائد زائغة باطلة فكان نتاجها الشرك العظيم، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في «الإستغاثة» (٤٧٢):

فالاستغاثة المنفية نوعان: أحدهما: الاستغاثة بالميت مطلقا في كل شيء، والثاني: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق؛ فليس لأحد أن يسأل غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله لا نبيا ولا غيره ولا يستغيث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق وليس لأحد أن يسأل ميتًا ولا يستغيث به في شيء من الأشياء، سواء كان نبيًا أو غيره و إذ كان كذلك فجميع ما وقع هو من هذا الباب ولم يفهم أحد من الخلق شيئًا إلا هذا. اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١١/ ٤٣٣-٤٣٤):

أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل: «الغوث» الذي بمكة و«الأوتاد الأربعة» و«الأقطاب السبعة» و«الأبدال الأربعين» و«النجباء الثلاثمائة»: فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى؛ ولا هي أيضا مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ولا ضعيف يحمل عليه ألفاظ الأبدال. اهـ

فدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عزوجل من الشرك العظيم الذي لا يغفر، ولذلك حاج إبراهيم عليه السلام قومه فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] إلى غير ذلك من

الأدلة الواضحة البينة على أن صرف العبادة في هذا الباب لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة.

ومما ينبغي أن يعلمه المسلمون أن النذر عبادة جليلة قال الله عزوجل في معرض الثناء على أصحابها: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ الله يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قال صاحب «تيسير العزيز الحميد» (٢٠٣): وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى مدح الموفين بالنذر، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، لا يمدح على فعل المباح المجرد، وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقربًا إليه فقد أشرك. اهـ

والنذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب، قال تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. اهـ من «بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٣٤).

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنه: «لا تنذروا؛ فإن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج من البخيل».

وفي رواية: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل».

قال ابن الملقن في «الإعلام» (٩/ ٣١٢): ظاهر الحديث كراهة ابتداء النذر في الطاعة، وإن كان الوفاء به لازمًا. اهـ

بل قد ذهب شيخ الإسلام وجمع من أهل العلم إلى تحريم نذر المقابلة، وهو اختيار العثيمين والوادعي والحجوري.

وقال (٩/ ٣١٥): وذكر المازري في سبب النهي احتمالين:

أحدهما: كون الناذر يصير ملتزمًا له، فيأتي به على سبيل التكلف من غير نشاط.

الثاني: إتيانه به على سبيل المعارضة لا على سبيل القربة؛ فينتقص أجره للأمر الذي طلبه، وشأن

العبادة أن تكون محضة لله، وذكر القاضي عياض احتمالاً ثالثًا وهو أن بعض الجهلة قد يظن أن النذر يرد القدر ويمنع من حصول المقدَّر؛ فنهى عنه خوفًا من جاهل يعتقد ذلك، وهذا يؤيده بعض روايات الحديث في «الصحيح» أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن النذر وقال: «إنه لا يرد شيئًا، وإنما يستخرج به من الشحيح»، وفي رواية البخاري (٦٦٩٢): «النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره ....»، في «صحيح مسلم» (١٦٤٠): «لا تنذروا؛ فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا ....».

قال صاحب «تيسير العزيز الحميد» (٢٠٣): إذا علمت ذلك فهذه النذور الواقعة من عباد القبور وأشباههم لمن يعتقدون فيه نفعًا أو ضرًا فيتقرب إليه بالنذر، ليقضي حاجته أو ليشفع له، كل ذلك شرك في العبادة، وهو شبيه بما ذكر الله عن المشركين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِّ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا للهِّ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ للهِّ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم في الآية، يعني: جعلوا للهّ جزءًا من الحرث ولشركائهم ولأوثانهم جزءًا، فما ذهبت به الريح مما سموا للهّ إلى جزء أوثانهم تركوه، وقالوا: الله عن هذا غني، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه.

وعباد القبور يجعلون للهّ جزءًا من أموالهم بالنذر والصدقة، وللأموات والطواغيت جزءًا كذلك، وقد نص غير واحد من العلماء، على أن النذر لغير الله شرك. اهـ

قال شيخ الإسلام رحمه الله (١/ ٨١): وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك فكيف الناذر لغير الله؟. والنذر أعظم من الحلف ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به باتفاق المسلمين، مثل أن ينذر لغير الله صلاةً أو صومًا أو حجًا أو عمرةً أو صدقةً، ولو حلف ليفعلن شيئًا لم يجب عليه أن يفعله ويجوز له أن يكفر عن اليمين ولا يفعل المحلوف عليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه» وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل» فإذا كان النذر لا يأتي بخير فكيف بالنذر للمخلوق، ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان في طاعة

وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء، وإنما تنازعوا هل فيه بدل أو كفارة يمين أم لا؟ لما رواه البخاري في «صحيحه» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة فهو من الضالين، كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة أو تدفع عنهم مضرة. اهـ

الفرق بين النذر لغير الله ونذر المعصية:

النذر لغير الله هو: صرف هذه العبادة، إما لقبر أو ولي أو حجر أو شجر؛ كأن تقول للهادي علي نذر، أو لابن علوان عليَّ نذر، وهكذا؛ فهذا شرك بالله العظيم الذي لا يغفره الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وهذا النذر لا ينعقد أصلاً ولا كفارة فيه، بل تجب التوبة منه.

ونذر المعصية هو: نذر لله عزوجل، لكن على فعل محرم، كأن تقول: لله عليَّ لأسرقن كتاب فلان، فهذا النذر ينعقد لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

راجع «القول المفيد» للعثيمين (١/ ٢٤٥).

وكون نذر المعصية ينعقد، وفيه كفارة مسألة خلافية بين العلماء، والراجح انعقاده ووجوب الكفارة فيه؛ لحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» أخرجه الشيخان عن عائشة.

ولحديث عقبة عند مسلم: «كفارة النذر كفارة يمين».

قال العثيمين رحمه الله في «القول المفيد» (١/ ٢٤٨): قوله: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» لا ناهية، والنهي يجب المعصية؛ فإن كانت المعصية حرامًا؛ فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه؛ لأن المعصية الوقوع فيما نهى عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهى عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه. اهـ

وللنذر أقسام:

قال العثيمين في «القول المفيد» (١/ ٢٣٧-٢٣٨):

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه»

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية، لقوله صلى الله عليه وسلم: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، وقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».

الثالث: ما يجري مجرى اليمين، وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم، لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالبا، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلا، فعلى لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل، فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين، لأنه إن صام فقد وفى بنذره وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صيغة النذر، مثل أن يقول: لله علي نذر، فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين». اهـ

الحديث رواه ابن ماجه (٢١٢٨)، والترمذي (١٥٢٨)، وأصله في مسلم (١٦٤٥).

وأعظم: مالا يسع المسترشد جهله في باب التوحيد هو: معرفة الله سبحانه وتعالى الذي معرفته هي رأس الأمر، ولما كان هذا الشأن كان علم الأسماء والصفات هو أشرف العلوم؛ لأنه يعرفك

بأشرف معلوم.

قال ابن القيم رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٦٥-٣٦٦):

فعمدوا -أي: أهل التحريف- إلى أجل الأخبار وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر والإيمان به أصل الإيمان بما عداه واشتمال القرآن بل والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه وتنوع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوعها في غيره وذلك لشرف متعلقة وعظمته وشدة الحاجة إلى معرفته وكانت الطرق إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره وهذا من كمال حكمة الرب تبارك وتعالى وتمام نعمته وإحسانه أنه كل ما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم كان بذله لهم أكثر وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل وهذا في الخلق والأمر فإن حاجتهم لما كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت كان موجودا معهم في كل مكان وزمان وهو أكثر من غيره وكذلك لما كانت حاجتهم بعده إلى الماء شديدة إذ هو مادة أقواتهم ولباسهم وفواكههم وشرابهم كان مبذولا لهم أكثر من غيره وكذلك حاجتهم إلى القوت لما كانت أشد من حاجتهم إلى الإيواء كان وجود القوت أكثر وهكذا الأمر في مراتب الحاجات ومعلوم أن حاجتهم إلى معرفة ربهم وفاطرهم ومعبودهم جل جلاله فوق مراتب هذه الحاجات كلها فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ونهاية مرادهم وذكره والتقرب إليه قرة عيونهم وحياة قلوبهم فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالا من الأنعام بكثير وكانت الأنعام أطيب عيشا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل. اهـ

قلت: ولأهمية هذا التوحيد تعرف الله عزوجل به إلى نبيه حين أنزل عليه جبريل بالنبوة، فقال جبريل: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، وفيه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فهذا جبريل عليه السلام يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ مستعينًا بالله عزوجل، ثم ذكر من

أوصاف الله عزوجل ما ذكر.

وقصة جابر بن سليم أبو جري مع النبي صلى الله عليه وسلم قال رضي الله عنه: رَأَيْتُ رَجُلًا يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ، لَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا صَدَرُوا عَنْهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ الله مَرَّتَيْنِ، قَالَ: «**لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَيِّتِ، قُلْ**: **السَّلَامُ عَلَيْكَ**» قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ رَسُولُ الله؟ قَالَ: «**أَنَا رَسُولُ الله الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ أَوْ فَلَاةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: اعْهَدْ إِلَيَّ، قَالَ: «**لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا**» قَالَ: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا بَعِيرًا، وَلَا شَاةً، قَالَ: «**وَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ؛ فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ؛ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ؛ فَإِنَّمَا وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ**» أخرجه أبو داود في «سننه».

ولما جاء ضمام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في «الصحيحين» عن أنس وفي خارجهما عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ، قَالَ: الله، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ، قَالَ: الله، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ، قَالَ: الله، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ الله أَرْسَلَكَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: صَدَقَ، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ الله أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: صَدَقَ، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، الله أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا قَالَ: صَدَقَ، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ الله أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقَ، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».

وأنزل الله عز وجل سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن لما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلها متضمنة للتوحيد في باب الأسماء والصفات.

وأعظم آية في القرآن آية الكرسي لحديث أبي رضي الله عنه في «الصحيح» وما ذلك إلا لأنها تضمنت التعريف بأعظم وأشرف موجود وهو الله عز وجل وفي آخر سورة الحشر جرد لكثير من أسماء الله عز وجل قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

ولما كان هذا الباب في الشرف الذروة فقد جعل من أعظم الوسائل قربة من الله عز وجل وسبب في استجابة الدعاء فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وجعل من حفظها وأحصاها دخل الجنة لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وإِنَّ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ**» أخرجاه.

وجاء من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه عند أبي داود: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدْ اللهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَجِلَ هَذَا، ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: أَوْ لِغَيْرِهِ إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**».

قال الوادعي رحمه الله: هذا حديث صحيح.

وأخرج ابن ماجه بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**».

وملائكته[١].

قال الوادعي رحمه الله: هذا حديث حسن.

وحديث أنس أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو ويقول: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**».

وكان يقول: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**» إلى غير ذلك مما هذا ليس موطن بسطه، وإنما أردنا الإشارة والتنبيه، وبمعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته يعرف العبد أن الله عز وجل متصف بصفات لها الكمال المطلق من كل وجه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وليس له ند ولا نظير وسمي ولا كفؤ قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

[١] قوله: «وملائكته» تقدم القول في كون الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان قال العثيمين رحمه الله في «شرح الواسطية» (٤٥): الملائكة جمع: ملأك، وأصل ملأك: مألك، لأنه من الألوكة، والألوكة في اللغة الرسالة، قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى﴾ [فاطر: ١]. اهـ

ومعناها في الاصطلاح: أنها أجسام لطيفة أعطيت قدرة التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات، وهم عالم غيبي لا يعرفون إلا بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا دخل للقصص الإسرائيلية ولا فلسفة المتفلسفين. اهـ من «مقدمة الإمام الوادعي رحمه الله لكتاب الجامع الصحيح في أخبار الملائكة».

وقد جاء ذكر الملائكة في الكتاب العزيز في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾

[البقرة : ١٧٧]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء : ١٣٦].

وسمى الله عدوهم كافراً حيث قال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨].

والإيمان بالملائكة معناه: (أن تؤمن بمن سماه الله لك منهم في كتابه وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم لا يعرف أسمائهم وعددهم إلا الذي خلقهم). اهـ «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (١/ ٣٩٣)

وقال الحليمي في «المنهاج» (١/ ٣٠٢): والإيمان بالملائكة ينتظم معاني:

أحدها: التصديق بوجودهم.

والثاني: إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا ما يقدّر الله لهم، والموت جائز عليهم، ولكن الله جعل لهم أمداً بعيداً فلا يتوافهم حتى يبلغوه ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم إلى إشراكهم بالله تعالى ولا يُدعون آلهة كما قد دعت الأوائل.

والثالث: الاعتراف بأن منهم رسلاً لله تعالى يرسلهم إلى من يشاء من البشر.

والملائكة خلقوا من نور لحديث عائشة عند الإمام مسلم: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

ولهم أجنحة، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وهم متفاضلون، قال تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

ولما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخاري (٣٩٩٢): «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟»

قَالَ: «مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: «وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ».

وهم عدد في الكثرة بحيث لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

وفي الموقوف عن ابن مسعود رضي الله عنه عند الإمام مسلم (٢٨٤٢) وله حكم الرفع: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

وفي حديث مالك بن صعصعة عند البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) وفيه: «هذا البيت المعمور يُصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم».

وأخرجه مسلم عن أنس بنحوه رقم (١٦٢) إلى غير ذلك من الأدلة.

ومسكنهم السماوات، قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١].

وفي حديث البراء عند أحمد وغيره: «يشيعه من كل سماء مقربوها».

وفي حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم (٢٢٩): «إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا، قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ».

وهم خزان للسماء كما في حديث الإسراء والمعراج الطويل.

ونؤمن بمن سمى الله لنا منهم، وأولهم ورأيسهم ومقدمتهم: جبريل على السلام، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وقال الله سبحانه وتعالى في وصفه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

وخلقه عظيم حيث قال الله في شأنه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨].

وفي حديث ابن مسعود وغيره عند الشيخين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأى جبريل له ستمائة جناح».

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أنا أول من سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيْل رَأَيْتَهُ لَهُ سِتُّمِائَة جِنَاحُ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

وممن سماه الله: ميكائيل عليه السلام، وقد تقدمت الآية الدالة عليه.

وفي الحديث: قالت اليهود في قصتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم: لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، أخرجه أحمد (١/ ٢٧٤).

وفي حديث عائشة عند مسلم (٧٧٠) أنها قالت: «كَانَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللهمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ومنهم: إسرافيل عليه السلام، وقد تقدم الدليل عليه، وهو الملك الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم، كما عند أبي يعلى (٢/ ١٠٨٤) من حديث أبي سعيد: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ؛ فَيَنْفُخُ**» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: «**قُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى الله تَوَكَّلْنَا**».

وأما ملك الموت عليه السلام، فهذا هو اسمه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وفي حديث أبي هريرة، عند البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢): «أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام؛ فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ؛ فَرَدَّ الله عَلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ:

أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ فَسَأَلَ الله أَنْ يُدْنِيَهُ مِنْ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ؛ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ».

وممن ذكروا لنا ملائكة الإحتضار عليهم السلام: قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها عند مسلم (٩١٩): «إِذَا حَضَرْتُمْ الْمَرِيضَ أَوْ الْمَيِّتَ؛ فَقُولُوا خَيْرًا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ».

وسيأتي مزيد أحاديث في الإيمان بعذاب القبر إن شاء الله تعالى.

ومنهم: حملة العرش: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وفي حديث جابر عند أبي داود (٤٧٢٧) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ».

وعند أبي يعلى (١١/ ٦٦١٩) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض السابعة والعرش على منكبه وهو يقول: سبحانك أين كنت؟ وأين تكون؟».

ومنهم: خزنة الجنة، وخزنة النار، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٤].

وخازن النار اسمه: مالك، كما في حديث سمرة عند البخاري: «**وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ**».

وأما تسمية خازن الجنة برضوان؛ فلم يثبت في الباب شيء.

ومنهم: الكتبة الحافظون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

ومنهم: حفظة الأبدان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ١١].

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «لو دنا لتخطفته الملائكة».

ومنهم: الزبانية، قال تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وسموا، زبانية من الدفع، وهم يدفعون أهل النار.

ومنهم: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند الشيخين في شأن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم تمم المائة، وفيه: «فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب».

ومنهم: ملائكة الليل، وملائكة النهار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يتعاقب فيكم ملائكة

بالليل وملائكة بالنهار» متفق عليه من حديث أبي هريرة في البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

ومنهم: الملائكة السيارة التي تتبع حلق الذكر كما عند مسلم (٢٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ؛ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ الله عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ، مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا أَيْ رَبِّ، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي! قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»

ومنهم: حراس مكة والمدينة من دخول الدجال، كما في «الصحيحين» (خ/ ١٨٨١) (م٢٩٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: «ليس مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ؛ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسِّبْخَةِ فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ».

ومنهم: الذين يكتبون من ينتاب الجمعة كما في «الصحيحين» (خ٩٢٩)، و(م٨٥٠): «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ؛ فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوْا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي الْبَدَنَةَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْكَبْشَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الدَّجَاجَةَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَيْضَةَ».

ومنهم: ملائكة السحاب، قال الله تعالى: ﴿وَالصَّافَاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا *

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥].

وفي «الصحيحين» البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨) عن عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ».

ومنهم الملائكة الذين ينزلون القدر قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ - ٥].

ومنهم منكر ونكير الموكلين بفتنة الموتى وسيأتي دليلهما في باب عذاب القبر.

ومنهم اثنان ينزلان كل صباح يقول أحدهما: «اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» أخرجه البخاري (١٤٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومنهم ملك الرعد وملك الأرحام كما في حديث أنس عند البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦): «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ».

وملك الجبال كما في حديث عائشة عند البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) وفيه: «وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

ومنهم القرين كما في مسلم (٢٨١٤) عن ابن مسعود قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِحَقٍّ».

وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره

يعملون، و«لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة» متفق عليه عن أبي طلحة البخاري (٥٩٤٩)، ومسلم (٢١٠٦).

ولا يصحبون رفقة فيها كلب ولا جرس لحديث أبي هريرة مرفوعاً عند مسلم (٢١١٣)، وإذا خرج الإنسان للطاعة تبعه الملك برايته كما في حديث أبي هريرة عند أحمد، طائعون ساجدون لربهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

صافون عند ربهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]، وفي حديث جابر بن سمرة عند مسلم مرفوعاً: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا**».

ومن صفاتهم أنهم خلقوا من نور كما تقدم وأنهم عظيموا الخلقة ولهم قلوب تفزع من كلام الله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولهم وجوه سيأتي بيانها في حديث البراء في باب عذاب القبر ولهم أعين فقد لطم موسى ملك الموت حتى فقع عينه اتفقا عليه عن أبي هريرة البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

وتقدم حديث ذكر الأذن والعاتق والفم والجبهة، ولهم أيدي تقدم ذكر دليلها، ولهم أجنحة قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

ولهم القدرة على التكيف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

وفي حديث الحارث بن هشام عند البخاري (٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣): أنه سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى الله

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ قَالَ: «**كُلُّ ذَاكَ يَأْتِينِي الْمَلَكُ أَحْيَانًا فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، وَيَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ أَحْيَانًا رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي؛ فَأَعِي مَا يَقُولُ**».

يحبون أهل الطاعات، ويبغضون أصحاب المعاصي والسيئات وهم في ذلك بأمر ربهم عاملون، ولمراده مطبقون.

أخرج البخاري في «صحيحه» (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ لمسلم: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا؛ فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وسرعتهم خارقة في عروجهم ونزولهم، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

قال البقاعي في «نظم الدرر» (٢٠/ ٣٩١): أي: وهم أشد الخلق وأقدره على اختراق الطباق، والإسراع في النفوذ حتى يكونوا أعظم من لمح البرق الخفاق، ﴿وَالرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام، خصه تعظيماً له، أو هو خلق هو أعظم من الملائكة، وقيل: روح العبد المؤمن إذا قبض ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: محل مناجاته ومنتهى ما يمكن من العلو لمخلوقاته، وعلق بالعروج أو بواقع قوله: ﴿فِيْ يَوْمٍ﴾ أي: من أيامكم ﴿مِقْدَارُهُ﴾، أي: لو كان الصاعد آدمياً خمسين ألف سنة. اهـ

وهم مع ذلك لا يعلمون الغيب، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ومن صفاتهم: وضعهم أجنحتهم لطالب العلم رضًا بما يصنع، كما عند الترمذي (٣٥٣٥) من حديث زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ أَسْأَلُهُ عَنْ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا

يَطْلُبُ.

وهم يتكلمون، كما تقدمت الأدلة على ذلك.

وعندهم حياء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة» يعني: عثمان. أخرجه مسلم (٢٤٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ويتأذون عليهم سلام الله مما يتأذى منه بنو آدم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُنْتِنَةِ -يعني: الثوم-، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الْإِنْسُ» أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه.

وهم لا يأكلون ولا يشربون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣٦٩): وأما ما وقع في قصة الأكل من الشجرة، وأنها شجرة الخلد التي يأكل منها الملائكة؛ فليس بثابت. اهـ

وليسوا بإناث، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

ومع ذلك هم يموتون، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وذكر الشيخ المجدد رحمه الله عقيدته في ذلك والله أعلم، ردًا على الفلاسفة الضلال الملاحدة التائهين الأنذال.

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٤٦): وإنما هو من أقوال الملاحدة والفلاسفة الذين يجعلون الملائكة قوى النفس الصالحة والشياطين قوى النفس الخبيثة. اهـ

وما تقدم من الأدلة واضح جلي في رد أقوالهم البائرة التي لا تستند إلى كتاب أو سنة أو عقل صحيح.

فقد رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم جبريل، وأتى جبريل عليه السلام على صورة دحية عدة مرات، حتى رآه مجموعة من الصحابة، وملك الموت جاء موسى على صورة إنسان ولطمه حتى فقع عينه، وجبريل وميكائيل كانا يحرسان النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ورأهما غير واحد من الصحابة، ورآهم إبراهيم ولوط، وعيسى ينزل في آخر الزمان على أجنحة ملكين، كما سيأتي الدليل في بابه إن شاء الله.

ورآهم أم سلمة وسارة وهاجر ومريم وعمر بن الخطاب وجمع من الصحابة.

وقد ثبت رؤية الديكة أيضًا للملائكة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩): أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ؛ فَاسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ؛ فَتَعَوَّذُوا بِالله مِنْ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا**».

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٩/ ١٠٤-١٠٥):

وقد ذهب الفلاسفة أهل المنطق إلى جهالات قولهم: إن الملائكة هي العقول العشرة وإنها قديمة أزلية وإن العقل رب ما سواه وهذا شيء لم يقل مثله أحد من اليهود والنصارى ومشركي العرب ولم يقل أحد إن ملكا من الملائكة رب العالم كله، ويقولون: إن العقل الفعال مبدع كل ما تحت فلك القمر وهذا أيضا كفر لم يصل إليه أحد من كفار أهل الكتاب ومشركي العرب، ويقولون: إن الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته وليس عالمًا بالجزئيات ولا يقدر أن يغير العالم؛ بل العالم فيض فاض عنه بغير مشيئته وقدرته وعلمه، وأنه إذا توجه المستشفع إلى من يعظمه من الجواهر العالية كالعقول والنفوس والكواكب والشمس والقمر فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على هذا من جهة شفيعه ويمثلونه بالشمس إذا طلعت على مرآة فانعكس الشعاع الذي على المرآة على موضع آخر فأشرق بذلك الشعاع فذلك الشعاع حصل له من مقابلة المرآة وحصل للمرآة بمقابلة الشمس.

ويقولون: إن الملائكة هي العقول العشرة أو القوى الصالحة في النفس وأن الشياطين هي القوى الخبيثة وغير ذلك مما عرف فساده بالدلائل العقلية؛ بل بالضرورة من دين الرسول، فإذا كان شرك هؤلاء وكفرهم أعظم من شرك مشركي العرب وكفرهم، فأي كمال للنفس في هذه الجهالات. اهـ

وهنا مسألة يجدر الإشارة إليها، وهي مسألة الفضل بين الملائكة وصالحي البشر؟

أولاً: اعلم أنه لم يقل بتفضيل البشر على الملائكة مطلقًا أحد نعلمه من أهل العلم، وإنما المسألة المطروحة هي تفاضل الملائكة مع صالحي البشر، والمسألة مبسوطة في غير ما كتاب من كتب أهل العلم.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٤/ ٣٥٧): وكنت أحسب أن القول فيها محدث، حتى رأيتها أثرية سلفية صحابية، فانبعث الهم إلى تحقيق القول فيها، فقلنا: حينئذ بما قاله السلف.

وقال رحمه الله (٤/ ٣٥٦): وقد ذكر جماعة من المنتسبين إلى السنة: أن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة، وذهبت المعتزلة إلى تفضيل الملائكة على البشر وأتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع فيهما بشيء، وحُكي عن بعض متأخريهم أنه مال إلى قول المعتزلة، وربما حكي ذلك عن بعض من يدعي السنة ويواليها [قلت: مثل أبي العز الحنفي صاحب «شرح الطحاوية»]، وذكر لي عن بعض من تكلم في أعمال القلوب أنه قال: أما الملائكة المدبرون للسموات والأرض وما بينهما والموكلون ببني آدم؛ فهؤلاء أفضل من هؤلاء الملائكة، وأما الكروبيون الذين يرتفعون عن ذلك فلا أحد أفضل منهم، وربما خص بعضهم نبينا صلى الله عليه وسلم، واستثناؤه من عموم البشر إما تفضيلاً على جميع أعيان الملائكة أو على المدبرين منهم أمر العالم، هذا ما بلغني من كلمات الآخرين في هذه المسألة. اهـ

ولمزيد النظر في بسط المسألة، يراجع «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٥٠-٣٩٢).

والقول بالتفصيل في المسألة أولى.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٤/ ٣٧٢): إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كملوا

الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى

وكتبه[(١)].

ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه وتجلى لهم؛ يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم؛ فلينظر الباحث في هذا الأمر فإن أكثر الغالطين لما نظروا في الصنفين رأوا الملائكة بعين التمام والكمال، ونظروا الآدمي وهو في هذه الحياة الخسيسة الكدرة التي لا تزن عند الله جناح بعوضة وليس هذا بالإنصاف. اهـ

وقال ابن القيم في «البدائع» (٣/ ١٦٣): سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟

فأجاب: بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة. اهـ

(١) قوله: «وكتبه» قد تقدمت الأدلة على دخول هذا الركن في أركان الإيمان الستة بحمد الله تعالى.

والكتب جمع كتاب، وهو من الكَتْب بمعنى الجمع والضم، والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والمعلوم لنا منها صحف إبراهيم وموسى، قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٩].

والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والإنجيل الذي أُنزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

والزبور الذي أُنزل على داود عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

والقرآن العظيم الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو آخرها نزولاً والمهيمن عليها، والناسخ لأحكامها وشرائعها، وهو أفضلها وأتمها، وقد بدلت وغيرت وهو محفوظ بحفظ الله عزوجل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

والكتب كثيرة، وهذا الذي أعلمنا الله به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال العثيمين رحمه الله كما في «شرح الواسطية» (٥٠): وهذا يدل أن كل رسول معه كتاب.

ومن شروط الإيمان بالقرآن، الإيمان بأنه كلام الله حقًا المنزل على عبده صدقًا منه بدأ بلا كيفية قولاً، وإليه يعود، وأنه غير مخلوق، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى بتوسع، ونتكلم هنالك على شيء من فضائل القرآن.

ويجب علينا أن نعمل بأحكامه وأوامره ونجتنب نهيه وزجره، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

الإيمان بالرسل

ورسله[١].

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخذ بالكتاب والتمسك به، كما عند مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: «فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به».

قال السلمان في «الكواشف الجلية» (٦٢): ومعنى التمسك به القيام بحقه وحفظه وتلاوته والقيام به آناء الليل والنهار وتدبر آياته وإحلال حلاله وتحريم حرامه والإنقياد لأوامره والانزجار بزواجره والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه والوقوف عند حدوده والذب عنه لتحريف الغالين المبطلين والنصيحة له بكل معانيها والدعوة إليه على بصيرة. اهـ

قال ابن رجب رحمه الله في «شرح الأربعين» (١/ ٢٢٢): والنصيحةُ لكتابه: الإيمانُ به وتعظيمُه وتنزيهُه، وتلاوتُه حَقَّ تلاوته، والوقوفُ مع أوامره ونواهيه، وتفهُّم علومه وأمثاله، وتدبرُ آياته، والدعاءُ إليه، وذبُّ تحريف الغالين وطعنِ الملحدين عنه. اهـ

وهو معجز في نفسه لا يستطيع الخلق أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتحدى الله عزوجل الكفار أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، مع أنهم أفصح العرب، ومع ذلك عجزوا عن الآيات بما تحداهم الله عزوجل به.

[١] قوله: «ورسله» أصل الرَّسل: الانبعاث على التؤدة، قاله الراغب.

والرسالة والرسول يقال للواحد وللجمع، وجمع الرسول رُسُل، والرسل جمع رسول، وهو من أوحى الله إليه بشرع، وأرسل إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة الله إليه، هكذا عرفه شيخ الإسلام في كتابه «النبوات» (٢٥٥).

فإن أوحى الله إليه بشرع ولم يرسل إلى المخالفين وإنما كـانوا مـذكرين فهـؤلاء الأنبيـاء قـال شـيخ الإسلام في «النبوات»: فأولئك الانبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عـن الرسـول، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى الى أحدهم وحـي خـاص في قصـة معينة ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن كـما فهـم الله سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداود، فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره وبنهيـه وخـبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا الى كفار يدعونهم الى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسل قوم قال تعالى: ﴿كَـذَلِكَ مَـا أَتَـى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال: ﴿مَا يُقَالُ لَـكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت : ٤٣] فإن الرسـل ترسـل الى مخـالفين فيكـذبهم بعضـهم، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَـيْهِمْ مِـنْ أَهْـلِ الْقُـرَى أَفَلَـمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَـلَا تَعْقِلُـونَ * حَتَّـى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّـيَ مَـنْ نَشَـاءُ وَلَا يُـرَدُّ بَأْسُـنَا عَـنِ الْقَـوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف : ١٠٩ ، ١١٠] ، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَـوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلَا نَبِـيٍّ﴾ [الحـج : ٥٢] دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعلم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «العلـماء ورثـة الأنبياء»، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولا وكان على ملـة إبراهيم وداود وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة قال تعـالى عـن مـؤمن آل فرعـون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر : ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِـنْ

بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]. اهـ

وكل رسول نبي وليس كل نبي رسول والرسول أفضل من النبي، ومن شروط الرسول والنبي صلوات الله عليهم أن يكون إنساناً ذكراً حراً.

قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٦٣٥): والأنبياء جمع نبي، وقد قرئ بالهمزة فقيل هو الأصل وتركه تسهيل، وقيل الذي بالهمز من النبأ والذي بغير همز من النبوة وهي الرفعة، والنبوة نعمة يمن بها على من يشاء ولا يبلغها أحد بعلمه ولا كشفه ولا يستحقها باستعداد ولايته، ومعناها الحقيقي شرعا من حصلت له النبوة. وليست راجعة إلى جسم النبي ولا إلى عرض من أعراضه، بل ولا إلى علمه بكونه نبيا، بل المرجع إلى إعلام الله له بأني نبأتك أو جعلتك نبيا. وعلى هذا فلا تبطل بالموت كما لا تبطل بالنوم والغفلة. اهـ

وقص الله عز وجل علينا في القرآن منهم خمسة وعشرين نبياً ومجموعة في قول أحدهم:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من يعد عشر ومنهم سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذ ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

والمراد بقوله في تلك حجتنا قول الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

فهؤلاء المذكورين نؤمن بهم تفصيلاً، وأما ما عداهم فيجب الإيمان بهم إجمالاً على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم وقد جاء في حديث قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٧/ ٣١٣):

فأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، وتؤمن بأن لله سواهم رسلاً وأنبياء، لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم وإيمانك بمحمد إقرارك به، وتصديقك إياه دائبا على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أديت الفرائض، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات. اهـ

وقال رحمه الله (١٩/ ١٨٠): من أطاع رسولا واحدا فقد أطاع جميع الرسل ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع ومن عصى واحدا منهم فقد عصى الجميع ومن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع ؛ لأن كل رسول يصدق الآخر ويقول : إنه رسول صادق ويأمر بطاعته فمن كذب رسولا فقد كذب الذي صدقه ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته. اهـ

نعم قد قال الله عز وجل عن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ولم يكن ثم رسول آخر والحمد لله.

ونوح أول رسول إلى أهل الأرض كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «**فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ**» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الحافظ (٦/ ٤٥٠): فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبيا، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه، فعلى هذا فهو رسول إليهم فيكون هذا أول رسول، فيحتمل أن تكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم إلى أهل الأرض؛ لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل؛ أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وآدم إنما أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. اهـ

وآخرهم وأفضلهم محمداً صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾

[الأحزاب : ٤٠]، وقال: «لا نبي بعدي ولا رسول»، وهو القائل عن نفسه صلى الله عليه وسلم: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**» أخرجاه في «الصحيحين» من حديث جابر وهو خليل الرحمن كما في حديث: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ**» أخرجاه عن أبي سعيد.

وليس في الجن رسل، وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

قال الشنقيطي رحمه الله: قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

وقال بعض العلماء: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ [نوح:١٦]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس:١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به. لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منهما جميعاً بقوله: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً

وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحاً، كما ترى. اهـ من «أضواء البيان» (٢/ ٢٤٦-٢٤٧).

وقال القرطبي في «تفسيره» (٧/ ٧٦): قال: ﴿مِنْكُمْ﴾ وإن كانت الرسل من الإنس وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث.

وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي، كما قال: ﴿وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ﴾.

وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس.

وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنذر من الجن، قرأ ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ﴾.

وهو معنى قول ابن عباس، وهو الصحيح. اهـ

والنساء كذلك ليس منهن نبيه.

قال شيخ الإسلام في «النبوات» (٢/ ١٠٠٤): والأكثرون على أنه لا رسل فيهم، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وعن الحسن البصري قال: لم يبعث الله نبيًا من أهل البادية، ولا من الجن ولا من النساء. ذكره عنه طائفة منهم البغوي وابن الجوزي. اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٤/ ٣٩٦): وبالجملة: فأبو محمد -أي: ابن حزم- مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الفوائد العظيمة؛ له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة وهذا كقوله: إن مريم نبية، وإن آسية نبية، وإن أم موسى نبية، وقد ذكر القاضي أبو بكر، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي وغيرهم، الإجماع على أنه ليس في النساء نبية، والقرآن والسنة دلا على ذلك. اهـ

وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق،

ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيًا إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله، الإجماع على ذلك. اهـ

وقال الحافظ في «فتح الباري» شرح حديث رقم (٣٤١١) ولفظه: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء؛ إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران».

قال: استدل بهذا الحصر على أنهما نبيتان لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء، ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة فكأنه قال: ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة، ولو قال: لم تثبت صفة الصديقية أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة لم يصح لوجود ذلك في غيرهن ....

وقال رحمه الله: قال القرطبي: الصحيح أن مريم نبية لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك، وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها، وقال الكرماني: لا يلزم من لفظة الكمال ثبوت نبوتها؛ لأنه يطلق لتمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغها النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، قال: وقد نقل الإجماع على عدم نبوة النساء، كذا قال، وقد نقل عن الأشعري أن من النساء من نبئ وهن ست: حواء، وسارة، وأم موسى، وهاجر، وآسية، ومريم، والضابط عنده أن من جاءه الملك عن الله بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام مما سيأتي فهو نبي، وقد ثبت مجيء الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله عز وجل، ووقع التصريح بالإيحاء لبعضهن في القرآن.... اهـ

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] يخبر تعالى أنه إنما أرسَلَ رسُلَه من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: إن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بني آدم وَحي تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة

بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية. [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ، ٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدّيقية، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن. اهـ

وقال ابن عادل في «اللباب» (١١/ ٢٢٥): قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وهذا يدل على أنه ما بعث رسولاً إلى الخلق من النسوان ولا من البادية، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من بدا جفا». اهـ

وقال شيخ الإسلام في «النبوات» (٢/ ١٠٠٥): وقال قتادة: ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط؛ إلا من أهل القرى؛ لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور. اهـ

وقد اختلفوا في لقمان، هل كان نبيًا أم لا؟

قال الإمام الحافظ في «الفتح» (٦/ ٥٦٨): اختلف في لقمان: فقيل هل كان حبيشًا؟، وقيل: كان نوبيًا؟ واختلف هل كان نبيًا. اهـ

قال ابن كثير في «تفسيره»: اختلف السلف في لقمان عليه السلام: هل كان نبيًا؟ أو عبدًا صالحًا من غير نبوة على قولين، الأكثر على الثاني. اهـ

قال القسطلاني في شرح البخاري (٧/ ٣٧٩): قال الواقدي: كان قاضيًا في بني إسرائيل، ولم يكن نبيًا خلافًا لعكرمة، واتفق على أنه كان حكيمًا.

واختلفوا في الخضر، فقال القرطبي: هو نبي عند الجمهور، والآية تشهد بذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتعلم ممن هو دونه؛ ولأن الحكم بالباطن لا يطلع عليه إلا الأنبياء. اهـ من «الفتح» (٦/ ٥٢٧).

قال شيخ الإسلام (٤/ ٣٩٧): وأما أبو بكر والخضر؛ فهذا يبين على نبوة الخضر، وأكثر العلماء على أنه ليس بنبي وهو اختيار أبي علي بن أبي موسى؛ فعلى هذا فأبو بكر وعمر أفضل منه، والقول الثاني: أنه نبي، واختار هذا القول أبو الفرج ابن الجوزي وغيره؛ فعلى هذا هو أفضل من أبي بكر. لكن النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى أفضل منه بالاتفاق. اهـ

واختلفوا هل هو حي الآن، فذهب جمهور العلماء كما قال ابن الصلاح والعامة معهم إلى أنه حي، نقله الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٢٧-٤٢٨) والراجح أنه ميت، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد»، وهذا الذي جزم به البخاري وإبراهيم الحربي، وأبو جعفر المنادي، وأبو يعلى الفراء، وأبو طاهر العبادي، وأبو بكر بن العربي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وعليه المتأخرون من علماء السنة والكتاب، ومما يستدل به على عدم وجوده قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وحديث ابن عباس: «ما بعث الله نبيًا؛ إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه» أخرجه البخاري، ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا قاتل معه، وقد قال صلى الله عليه وسلم يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فلو كان الخضر موجودًا لم يصح هذا النفي، وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله موسى لوددنا لو كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما» فلو كان الخضر موجودًا لما حسن هذا التمني ولأحضره بين يديه وأراه العجائب وكان أدعى لإيمان الكفرة لاسيما أهل

الكتاب. اهـ بتصرف وزيادة من «فتح الباري» (٦/ ٢٥٨).

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه الماتع «فوائد حديثية» (٨١): وأما أحاديث حياة الخضر، فقد ورد فيه عدَّة أحاديث لا يصح منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء، ولولا الإطالة لسقناها وذكرنا أحوال رواتها، وقد ذكر تلك الأحاديث أبو الحسين ابن المنادي أحد أئمة الإسلام وبين بطلانها، ثم قال: والخضر وإلياس مضيا لسبيلهما، وقد روي عن أهل الكتاب، أنه شرب من ماء الحياة ولا يوثق بقولهم، قال: وجميع الأخبار في ذكر الخضر واهية الصدور والإعجاز، ولا تخلو من أمرين: إما أن تكون أدخلت في حديث بعض الرواة المتأخرين استغفالاً.

وإما أن يكون القوم عرفوا حالها فرووها على صفة التعجب!؛ فنسبت إليهم على جهة التحقيق.

قال: وأكثر المغفلين مغرور بأن الخضر باق، والتخليد لا يكون لبشر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وسُئل إبراهيم الحربي عن تعميره، وأن طائفة من أهل زماننا يرونه، ويروون عنه، فقال: من أحال على غائب لم ينتصف منه وما ألقى ذكر هذا بين الناس؛ إلا الشيطان. اهـ

ولابن الجوزي كلام نفيس في كتابه «الموضوعات» حول اغترار كثير من المهوسين أن الخضر حي. (١/ ١٩٧).

قال ابن القيم في المرجع الأول (٨٣):

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يحتج على أنه مات وليس في الإحياء بقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» ولم يكن الخضر فيهم إنما كانوا ثلاث مائة، وثلاثة عشر كلهم من الصحابة.

قال: وقد قال الخضر لموسى: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] ففارق موسى علم الرحمن، ثم أصبح ليطوف على كل مجهول، وكل جاهل لا يعرف دين الإسلام ويصاحبهم ويجتمع بهم، ويترك المساجد والجمع والجماعات، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

الإيمان بالبعث بعد الموت

والبعث بعد الموت[(١)].

قال: ومن قال: رأيت الخضر؛ فإما كاذب، وإما ملبوس بأن يرى جنيًا، فيقول له: أنا الخضر- فيصدقه بجهله. اهـ

(١) قوله: (والبعث بعد الموت) البعث لغة: التحريك والإثارة، وشرعاً: إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها والبعث هو الإخراج، والمراد به هنا إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

بل إجماع اليهود والنصارى حيث يقرون بأن هناك يوماً يبعث الناس فيه ويجازون قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ: كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي إِلَى قَوْلِهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾» أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ له.

الإيمان بالقدر خيره وشره من الله

والإيمان بالقدر خيره وشره[1].

قال الطحاوي في «عقيدته»: (ونؤمن بالبعث) قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٠٤): الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة. اهـ

والذي ينكر البعث كان مكذباً لربه سبحانه وتعالى قال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنِّي لَا أُعِيدُهُ كَمَا بَدَأْتُهُ وَلَيْسَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ أَوَّلِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ».

فيا عجباً ممن يُضيع حياته ... على حفظ مال وهو للغير يدخر
ومن تتوفى نفسه كل ليلة ... وترجع فيه كيف للبعث ينكر
بلى قادرٌ أنشأه أول مرة ... على رد روح منه في الجسم أقدر

وقد تقدمت الأدلة على ركينة الإيمان باليوم الآخر ومن الإيمان به الإيمان بكل ما أخبر به الله عز وجل، وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم أنه يقع فيه من تطاير الصحف ونصب الموازين وحشر الأجساد والصراط والحوض والجنة والنار، وسيأتي بيان كل هذا في بابه إن شاء الله عز وجل.

---

[1] قوله: «والإيمان بالقدر خيره وشره» القدر والتقدير: تبيين كمية كل شيء، فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه حسبما اقتضت الحكمة. قاله الراغب، وتقدم حديث عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما وفيها: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وفي الحديث: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**» أخرجه

مسلم عن ابن عمر.

قال القرطبي في «المفهم» (١/ ١٤٥): والإيمانُ بالقدر: هو التصديقُ بما تقدَّم ذكره، وحاصله: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقولُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وإجماعُ السلف والخلف على صِدْقِ قول القائل: ما شاء الله كان، وما لم يَشَأْ لم يكن. اهـ

ومراتبه أربعة: العلم: ودليلها قول الله تعالى: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

والثانية: الكتابة: قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وثالثها: المشيئة: قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ورابعها: الخلق: قال تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، قال النووي رحمه الله في شرح كتاب القدر من «صحيح مسلم»: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها. والله أعلم.

وسيأتي مزيد بسط لهذا الركن وبيان المخالفين فيه والرد عليهم عند قول المؤلف: (وأؤمن أن الله فعال لما يريد) إلى آخر العبارة.

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل.

بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ؛ فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه، ولا ألحد في أسمائه وآياته، ولا أكيف، ولا أمثل صفاته تعالى بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سمي له ولا كفؤ له، ولا ندله، ولا يقاس بخلقه فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل: وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل.

فقال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] [١]!.

---

[١] قوله: «ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه» هذا المعتقد الذي ذكره الإمام هو معتقد أئمة الهدى، ومصابيح الدجى من السلف السابقين، ومن اهتدى بهديهم من اللاحقين، فلا محيد عنه ولا مناص لكل من ألقى السمع، وهو شهيد، وسأتكلم إن شاء الله عز وجل على هذا الباب إجمالاً وتفصيلاً فنسأل الله العون.

فأما الإجمال فقول: «الإيمان بما وصف به نفسه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم» فيه أن من أركان الإيمان بالله التي تقدم ذكر الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته، وأن الأسماء والصفات بابها توقيفي على الدليل من الكتاب والسنة على ما يأتي بيانه.

قوله: «من غير تحريف ولا تعطيل» رد على المعطلة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة على ما يأتي بيانه إن شاء الله عز وجل، وقوله: «بل اعتقد أنه سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)» هذا هو معتقد أهل السنة وهو العمل بالكتاب والسنة إثبات مع التنزيه

بينما المعطلة غلوا في التنزيه وتركوا الإثبات والممثلة غلوا في الإثبات ولم ينزهوا فإنهم الناس بالدليل هم أهل السنة والجماعة، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ نفي ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ لأنه الرب الخالق الكامل من كل وجه سبحانه وتعالى قال الله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] أي: مثيل أو نظير.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثبات، فأثبت الله عز وجل لنفسه سمعاً وبصراً لا كصفات المخلوقين.

وقوله: «فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه» لأن الله عز وجل أعرف بنفسه وبغيره فما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم أثبتناه، وهذا هو مقتضى الإيمان بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبكتابه أما إذا أثبت الله عز وجل في كتابه وأثبت رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم تقول لا! هذا ليس من طريق أهل الإيمان، فطريقهم ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ولنبين شرف هذا الباب وبيان فضل هذا العلم بالنسبة لبقية العلوم، وذلك لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وبمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تتحقق عبودية العبد لله سبحانه وتعالى من خوف وإنابة وعلم بالله سبحانه وتعالى، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: من الآية١٨٠).

فهو يحبها وجعلت بين يدي المطلوب مقدمة من العبد في الدنيا والآخرة كما في حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه عند أبي داود وغيره أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى رجلاً دع الله ولم يثني عليه ولم يصلِ على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «عجل هذا» والحديث في "الصحيح المسند" لشيخنا مقبل رحمه الله.

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند ابن ماجه وهو في صحيح شيخنا أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام فقال: «لقد سأل الله باسمه

الأعظم الذي إذا سئل به أعط وإذا دعي به أجاب».

فانظر كيف بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فضيلة من قدم بين يدي سؤاله ثناءً وحمداً لله بأسمائه وصفاته وبين من عجل ودعاء بدونها، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول كما في حديث أنس عند البخاري ومسلم وهو حديث الشفاعة الطويل، وحديث أبي هريرة عندهما أيضاً «فأحمد ربي بمحامد يعلمنيها الله» فانظر كيف بدأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قبل شفاعته لأمته بالحمد والثناء على الله بأسمائه وصفاته.

وجاء من حديث عائشة عند مسلم رحمه الله أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يدعو الله ويقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك» إلى غير ذلك من النصوص الدالة على فضيلة الابتداء بأسماء الله وصفاته بين يدي المطلوب.

ومعرفة أسماء الله وصفاته من الضروريات للعبد، قال ابن القيم في «الصواعق» (١/ ٣٦٥-٣٦٧): من كمال حكمة الرب تبارك وتعالى وتمام نعمته وإحسانه؛ أنه كل ما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم كان بذله لهم أكثر وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل وهذا في الخلق والأمر فإن حاجتهم لما كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت كان موجودا معهم في كل مكان وزمان وهو أكثر من غيره وكذلك لما كانت حاجتهم بعده إلى الماء شديدة إذ هو مادة أقواتهم ولباسهم وفواكههم وشرابهم كان مبذولاً لهم أكثر من غيره وكذلك حاجتهم إلى القوت لما كانت أشد من حاجتهم إلى الإيواء كان وجود القوت أكثر وهكذا الأمر في مراتب الحاجات ومعلوم أن حاجتهم إلى معرفة ربهم وفاطرهم ومعبودهم جل جلاله فوق مراتب هذه الحاجات كلها فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ونهاية مرادهم وذكره والتقرب إليه قرة عيونهم وحياة قلوبهم فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالا من الأنعام بكثير وكانت الأنعام أطيب عيشا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل وإذا علم أن ضرورة العبد إلى معرفة ربه ومحبته وعبادته والتقرب إليه فوق كل ضرورة كانت الطرق المعرفة لهم ذلك أيسر طرق العلم

على الإطلاق وأسهلها وأهداها وأقربها وبيان الرب تعالى لها فوق كل بيان. اهـ

وقال في نفس الكتاب (١/ ١٦١): من في قلبه أدنى حياة أو محبة لربه وإرادة لوجهه وشوق إلى لقائه فطلبه لهذا الباب وحرصه على معرفته وازدياده من التبصر فيه وسؤاله واستكشافه عنه هو أكبر مقاصده وأعظم مطالبه وأجل غاياته وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنة إلى شيء من الأشياء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر ولا فرحها بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» (ص٩٣) مبيناً شرف هذا العلم: الوجه السابع والسبعين وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين وقيوم السموات والأرض، الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله، ولا ريب أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر إليه في تحقيق ذاته .....، فالعلم به أصل كل علم، كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده، ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه، والمفعول إلى فاعله، فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه؛ فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل الله فهو لما سواه أجهل قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:١٩).

فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام. اهـ

وقال رحمه الله في «الفوائد» (٣٠): من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه وتعالى بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله، وجماله سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته، لو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن الى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف الى قرص الشمس.

ويكفي في جماله «أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى اليه بصره من خلقه»، ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آُثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفي في جماله أن له العزة جميعًا، والقوة جميعًا، والجود كله، والاحسان كله، والعالم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة».

وقال عبد الله بن مسعود: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة اذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره».

ومن أسمائه الحسنى «الجميل» وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله جميل يحب الجمال».

وجماله سبحانه على أربعة مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء. فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة. وأما جمال الذات وما هو عليه، فأمر لا يدركه سواه، ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه الا تعريفات تعرّف بها الى من أكرمه من عباده، فان ذلك الجمال مصون عن الأغيار، محجوب بستر الرداء والازار، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري».

ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء، فانه سبحانه الكبير المتعال فهو سبحانه العلي العظيم.

قال ابن عباس: حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال، وستر بنعوت العظمة والجلال.

ومن هذا المعنى يفهم البعض معاني جال ذاته، فانه العبد يترقّى من معرفة الأفعال الى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات الى معرفة الذات فاذا شاهد شيئا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات. ومن هاهنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله، وأن أحدا من خلقه لا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وأنه يستحق أن يعبد لذاته، ويشكر لذاته، وأنه سبحانه يحب نفسه، ويثني على نفسه، ويحمد نفسه، وأن محبته لنفسه، وحمده لنفسه، وثناءه على نفسه، وتوحيده لنفسه، هو في الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه، وفوق كا يثني به عليه خلقه، وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله، فكل أفعاله حسن محبوب وان كان في مفعولاته ما يبغضه ويكرهه، فليس في أفعاله ما هو مكروه مسخوط، وليس في الوجود ما يحب لذاته، ويحمد لذاته الا هو سبحانه وتعالى، وكل ما يحب سواه فان كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يحب لأجله، فمحبته صحيحة، والا فهي محبة باطلة، وهذا هو حقيقة الالهية، فان الله الحق هو الذي يحب لذاته ويحمد لذاته. فكيف اذا انضاف الى ذلك احسانه وانعامه، وحلمه وتجاوزه وعفوه وبرّه ورحمته؟

فعلى العبد أن يعلم أنه لا اله الا الله فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة الا هو، فيحبه لاحسانه وانعامه، ويحمده على ذلك، فيحبه من الوجهين جميعًا. وكما أمه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة. والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها، فانها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك الإله سبحانه. والاشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملاً.

وحمده يتضمن أصلين: الاخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها، فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامدا. ومن أحبّه من غير اخبار بمحاسنه لم يكن حامدًا حتى يجمع

الأمرين، وهو سبحانه يحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين لـه مـن ملائكتـه وأنبيائـه ورسـله وعباده المؤمنين، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا، فان حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه، فإنه هو الذي جعل الحامد حامدًا والمسلم مسلمًا والمصلي مصليًا والتائب تائبًا، فمنه ابتدأت النعم واليـه انتهـت، فابتدأت بحمده وانتهت الى حمده، وهو الذي الأهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فـرح، وهـي مـن فضله وجوده، وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه، وما سواه فقير اليه بكل وجه، والعبد مفتقر اليه لذاته في الأسباب والغايات، فان ما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع. اهـ

وقال رحمه الله (٤٠): معرفة الله تعالى نوعان:

النوع الأول: معرفة واقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

النوع الثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشـوق الى لقائـه، وخشـيته، والانابة اليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه. وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سـواهم، وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها. وقد قال أعرف الخلق بـه: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، وأخبر انه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بـما لا يحسنه الآن.

ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكّر والتأمّل في آيات القـرآن كلهـا، والفهـم الخـاص عـن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. والباب الثاني: التفكّر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه، واحسانه وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه. وجماع ذلك: الفقه في معـاني أسـمائه الحسـنى، وجلالها وكمالها، وتفرّده بذلك، وتعلّقها بالخلق والأمر، فيكون فقيها في أوامره ونواهيـه، فقيهـا في قضائه وقدره، فقيها في أسمائه وصفاته، فقيها في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري. اهـ

وتعرف الصفات من القرآن والسنة.

وقال ابن القيم رحمه الله (٧٠): القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصـفاته، فتـارة يـتجلى في

جلباب (ليس على ظاهره، وإنما المراد بالجلباب الهيئة والصورة والصفة) الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر، كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا محبته، فاذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الآباء ، كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفا، واذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والاحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوى طمعه، وسار إلى ربه، وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلما قوي الرجاء جد في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، انقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال، والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخير، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة الحياء، فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم اليهم، ودفع المصائب

عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة اهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض اليه، والرضا به في كل ما يجريه على عبده، ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه. والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله، وحسن اختياره لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله ويختاره له.
وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت اليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.
وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف الى العبد بصفات الهيته تارّة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الالهية المحبة الخاصة، والشوق الى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد اليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق اليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية والتوكل عليه، والافتقار اليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.
وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في الهيته، والهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه واحسانه ورحمته في قيوميّته، وعدل في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه. ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.
وأنت اذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكًا قيوما فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهي، ويرسل الرسل، وينزل الكتاب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعّال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرّة فما فوقها إلا باذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا باذنه، ليس لعباده من دونه وليٌ ولا شفيع. اهـ

ولشرف هذا العلم ومنزلته بين العلوم فقد قعد له أهل العلم قواعد مهمة بمعرفتها يتوصل إلى فهم هذا الباب غاية الفهم وأدقه، وسوف نذكر في هذا المقام ما يحتاج المقام إلى ذكره مع تطويل غير ممل واختصار غير مخل إن شاء الله، وما ذلك إلا لأهمية هذا الموضوع، وبالله التوفيق.

قال ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد» (١/ ٢٨٠): ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد العظيم الصمد؛ فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل على هذا؛ فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة فمنه استمجد المرخ والغفار وأمجد الناقة علفًا، ومنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كما علمناه؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه كما تقول: «اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ولا يحسن إنك أنت السميع البصير» فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام»، ومنه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام» فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وأنه الذي لا إله إلا هو المنان فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك

بالإجابة وأعظمه موقعا عند المسئول وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة وقد فتح لمن بصره الله تعالى تفسير الاسم الإلهي العظيم والصمد، ولنرجع إلى المقصود وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال وكذلك الصمد، قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده، وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده، وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء، وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم، واشتقاقه يدل على هذا؛ فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمي أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: (الغني، الحميد، العفو، القدير، الحميد، المجيد)، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن؛ فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك العفو القدير والحميد المجيد والعزيز الحكيم فتأمله؛ فإنه من أشرف المعارف تسليط صفات السلب على أسماء الله تعالى وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتا كقوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ متضمن لكمال قدرته وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ متضمن لكمال علمه وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ متضمن لكمال صمديته وغناه وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له

وكذلك قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ متضمن لعظمته وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب ويجب أن تعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها وهذا كالمريد والفاعل والصانع فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق بل هو الفعال لما يريد فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلا وخبرا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدا أن يشتق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه الحسنى المضل الفاتن الماكر تعالى الله عن قوله فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة والله أعلم.

الرابع: أن أسماءه عز وجل الحسنى هي أعلام وأوصاف والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات دلالة على الذات والصفة بالمطابقة ودلالة على أحدهما بالتضمن ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران اعتبار من حيث الذات واعتبار من حيث الصفات فهي بالاعتبار الأول مترادفة وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفا كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلا ومصدرا ونحو السميع البصير القدير يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ﴾ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ هذا إن كان الفعل متعديا فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به نحو الحي بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله والمخلوق كماله عن فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل فالرب لم يزل كاملا فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته فأفعاله صادرة عن كماله كمل ففعل والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرًا إما علم بما كونه أو علم بما شرعه ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه فأمره كله مصلحة وحكمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة إذ مصدره أسماؤه الحسنى فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدىً ولا عبثًا وكما أن كل موجود سواه، فبإيجاده فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى ولهذا لا تجد فيها خللا ولا تفاوتا لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته، وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلا وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل فالشر ليس إليه فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله فالشر ليس إليه لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته وفرق بين الفعل والمفعول فالشر قائم بمفعوله المباين له لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿وَللهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكذلك لا يسأل إلا بها فلا يقال: يا موجود أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال يتخلق بأسماء الله فإنها ليست بعبارة سديدة وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي التعبد وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال فمراتبها أربعة أشدها إنكارا عبارة الفلاسفة وهي التشبه وأحسن منها عبارة من قال التخلق، وأحسن منها عبارة من قال التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي والسميع والبصير

والعليم والقدير والملك ونحوها: فقالت: طائفة من المتكلمين هي حقيقة في العبد مجاز في الرب وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادًا، الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد وهذا قول أبي العباس الناشئ، الثالث: أنها حقيقة فيهما وهذا قول أهل السنة وهو الصواب واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله وللعبد منها ما يليق به وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد اعتباره مضافا إلى الرب مختصا به اعتباره مضافا إلى العبد مقيدا به فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتا للرب والعبد وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد منه ما يليق به وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات والعليم والقدير وسائر الأسماء فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل ثبتت له على وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم؛ فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله، ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عالٍ عليه وكونه محمولاً به مفتقرًا إليه، محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه

القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته؛ فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين آفة التعطيل وآفة التشبيه فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب والله الموفق للصواب.

الخامس العشر : أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة أمران لفظيان وأمران معنويان فاللفظيان ثبوتي وسلبي فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها الموصوف ويخبر بها عنه والسلبي أن لا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خبرا عنه وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات فلنذكر من ذلك مثالاً واحدًا وهو صفة الكلام فإنه إذا قامت بمحل كانت هو التكلم دون من لم تقم به وأخبر عنه بها وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال: وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية وهو من أصح الأصول طردا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل كما في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» صحيح على الراجح فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحد من خلقه ولهذا قال: «استأثرت به» أي: انفردت بعلمه وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الإنفراد ثابت في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه ومن هذا قول النبي

صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: «فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن » رواه البخاري ومسلم وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته ومنه قوله: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» رواه مسلم وأبو داود وغيرهما، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة» رواه البخاري ومسلم فالكلام جملة واحدة وقوله: «ومن أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقبل والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك وقد أعدهم للجهاد فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

السابع عشر: أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ومقترنا بغيره وهو غالب الأسماء فالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم وهذا يسوغ أن يدعى به مفردا ومقترنا بغيره فتقول: يا عزيز يا حليم يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعا ونفعا وضرا وعفوا وانتقاما وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ولذلك لم تجيء مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه ولا حامدا له حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال وصفات نقص وصفات لا تقتضي كمالا ولا نقصا وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسما رابعا: وهو ما يكون كمالا ونقصا باعتبارين والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول وصفاته كلها صفات كمال محض فهو

موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمرادف محض بل هو على سبيل التقريب والتفهيم وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف وكذلك الكريم دون السخي والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل والغفور العفو دون الصفوح الساتر وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه فتأكل ذلك؛ فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالا على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها كما تقدم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد كما قال ابن عباس: فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: "الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف: الذي قد كمل في شرفه والعظيم: الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده وهو الله سبحانه إسناده ضعيف" هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفوا أحد وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار هذا لفظه وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى ففسر الاسم بدون معناه ونقصه من حيث لا يعلم فمن لم يحط بهذا علما بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه فتدبره.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه وهي معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه قال

تعالى: ﴿وَللهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل قال ابن السكيت: "الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه" ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل فتميل إليه عن غيره تقول العرب التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع: أحدها: أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم إلها وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة، الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك، وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه وقولهم: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته، ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلا وشرعا ولغةً وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب وكل من جحد شيئا عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر، وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علوًا كبيرًا؛ فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه وبرأ الله

أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنىً، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه وتنزيههم خليا من التعطيل لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنما أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدما وأهل السنة وسط في النحل كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من: ﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى فعليك بمعرفتها ومراعاتها ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلبا عاقلا ولسانا قائلا ومحلاً قابلاً وإلا فالسكوت أولى بك فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علما وعسى الله أن يعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعيا فيه أحكام هذه القواعد بريئا من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته فهو المان بفضله والله ذو الفضل العظيم. اهـ

وقال (٢/ ٦٠٣): وكذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله، وجدت كل صيغة سلامًا مما يضادها كمالها. اهـ

وقال (١/ ٤٢): أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية.

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى في "القواعد المثلى قواعد أسماء الله تعالى":

القاعدة الأولى:

أسماء الله تعالى كلها حسنى أي بالغة في الحسن غايته.

والمراد بغايته كماله: قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: من الآية١٨٠)

وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه. اهـ

وكانت أسماء الله حسنى لأربعة أمور ذكرها السعدي في تفسيره فقال رحمه الله:

فقال رحمه الله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (طـه: من الآية٨): أي له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى من حسنها أنها دالة على المدح فليس فيها اسم لا يدل على الحمد والمدح.

ومن حسنها أنها ليست أعلاماً محضة وإنما هي أسماء وأوصاف.

ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة وأن له من كل صفةٍ أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحفظها ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٨٠) ا.هـ

واعلم أن الحسن في أسماء الله يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون بإعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

قال ابن القيم رحمه الله في "البدائع" (١/ ١٦١):

صفة تحصل من اقتران الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغني صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

القاعـــدة الثـــانية:

قال العثيمين رحمه الله تعالى: أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، أعلام بإعتبار دلالتها على الذات وأوصاف بإعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالإعتبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص فـ(الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم) كلها

لمسمى واحد وهو الله سبحانه وتعالى لكن معنى الحي غير معنى العليم ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا ا.هـ

قال ابن القيم في «البدائع» (١/ ١٦٢):

أسماء الله تعالى الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

فائِدَةٌ:

العلمية والوصفية واجتماعهما إنما تكون في أسماء الله وصفاته سبحانه وتعالى، وأسماء كتابه وأسماء نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهي أعلام دالة على معاني هي بها أوصاف فلا تضاد فيها العلمية الوصف بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين أفاده بن القيم رحمه الله في كتابه "جلاء الأفهام" (ص١٠٧).

القاعدة الثالثة:

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

أسماء الله تعالى إن دلت على وصف متعد تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها الله عز وجل.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال ذلك: «السميع» يتضمن إثبات السميع اسماً لله تعالى وإثبات السمع صفة له وإثبات حكم ذلك ومقتضاه وهو أنه يسمع السر والنجوى كما قال: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة: من الآية١).

وإن دلت على وصف غير متعد تضمنت أمرين:

أحدها: ثبوت الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

مثـل: «الحـي» يتضمن إثبات الحي اسماً لله عز وجل وإثبات الحياة صفة ا.هـ

القـاعدة الرابـعـة:

قال ابن عثيمين رحمه الله تعـالى دلالـة أسـماء الله عـلى ذاتـه وصـفاته تكـون بالمطابقـة وبالتضـمن وبالالتزام:

مثالُ ذلك «الخالق» يدل على ذات الله وعلى صفة الخلق بالمطابقة ويدل على الذات وحـدها وعـلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام، ولهـذا لمـا ذكـر الله خلـق السماوات والأرض قال:﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَـاطَ بِكُـلِّ شَيْءٍ عِلْـماً﴾ (الطلاق: من الآية١٢).

قال شيخ الإسلام رحمة الله عليه كمل في درى تعارض العقل والنقل(١٠/ ١٢):

فدلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على جميع المعنى الذي عناه المتكلم.

ودلالة التضمن هي دلالة اللفظ على ما هو داخل في هذا المعنى.

ودلالة الالتزام دلالة اللفظ على ما هو لازم لذلك المعنى خارج مفهوم هذا اللفظ.

تَنْبِيهٌ:

دلالة التضمن تكون في الأسماء الحسنى على الذات كأن الاسم لم يدل إلا على صفته تعالى دون ذاته أو على الذات فيما إذا افترض عدم دلالته على الصفة، وإلا فإن الاسم لا ينفك عن الدلالـة علـيهما مجتمعين سواء استعمل استعمال الأسماء فلم يكن تابعًا لغيره، واستعمل استعمال الصفة فكان تابعًا لغيره؛ لأنه لا يعقل أن تجرد الذات عن الصفة أو الصفة عن الذات أو أن توجد ذات لا صفات لها أو صـفةٌ مُجـردة عـن القيـام بالموصـوف. اه مـن «القواعـد الكليـة» للبريكـان (ص٢٣٨-٢٣٩) بتصرف.

القاعدة الخامسة:

أسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في "البدائع" (١/ ١٦٢): باب الأسماء والصفات توقيفي.

وقال في "شفاء العليل" (ص٢٧٠): أسماء الله تعالى توقيفية ولم يسم نفسه إلا بأحسن الأسماء.

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزاد فيها ولا ينقص لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦). وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣) ا.هـ

وكذلك الصفات توقيفية كما تقدم قول ابن القيم رحمه الله.

وقد قال ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣/ ٣):

فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله نفساً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ا.هـ

وقال رحمه الله (٥/ ١٩٥): ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين، بل هو سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع والبصير، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ا.هـ

القاعدة السادسة:

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين معلوم لنا لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» رواه أحمد وابن حبان والحاكم وهو صحيح. اهـ

ويدل على ذلك أيضاً حديث عائشة رضي الله عنها عند الإمام مسلم أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقول وهو ساجد: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» والثناء على الله تعالى إنما يكون بالصفات العلى والأسماء الحسنى.

وجاء في حديثي أبي هريرة وأنس رض الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند أن يأتي إلى ربه يستأذنه في الشفاعة قال: «فيفتح عليّ من قبل» وفي رواية «لا أحسنه الآن» وهذا يدل على من أسماء الله تعالى وصفاته ما لم يطلع عليه رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدنيا.

قال شيخ الإسلام كما في «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٣٣٢-٣٣٣) في كلامه على حديث عائشة الآنف الذكر:

فأخبر صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه لا يحصي الثناء عليه لأن صفاته إنما يعبر بها عن أسمائه اهـ

والمسألة مبسوطة في غير هذا الموضع من كتب أهل العلم المطولة، وأما من ذهبوا إلى أنها محصورة فقد اضطربوا غاية الاضطراب، فذهب بعضهم إلى أنها ثلاثمائة فقط، وقال بعضهم ثلاثمائة وواحد، وذهب بعضهم إلى أنها خمسة ألف، وقال بعضهم أربعة ألف ولا دليل على هذه الأقوال كلها.

وحصرها بعضهم بتسعة وتسعين اسماً مستدلين بحديث أبي هريرة عند الشيخين «إن لله تسعة وتسعين اسماً» ولا دلالة لهم فيه وإنما قال بهذا القول ابن حزم وطائفة معه.

قال ابن حزم:

إنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مئة اسم فبطل قوله: «مئة إلا

واحد».

ورد عليه شيخ الإسلام وغيره قال رحمه الله في "درء تعارض العقل والنقل" (٣/ ٣٣٢):

والصواب الذي عليه الجمهور أن قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة».

معناه أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة وليس المراد أنه ليس له إلا تسعة وتسعين اسماً.

وقال رحمه الله: فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين قالوا ومنهم الخطابي.

قوله:« إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها»، التقييد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هذه الأسماء.

قال ابن القيم في "شفاء العليل" (٢٧٧):قوله «إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» لا ينفي أن يكون له غيرها والكلام جملةٌ واحدة أي له اسما موصوفة بهذه الصفات يقال لفلان مئة عبد أعدهم للتجارة وله مئةُ فرس أعدهم للجهاد وهذا قول الجمهور وخالفهم ابن حزم فزع أن اسمًا الله تنحصر ا.هـ

وقال النووي رحمه الله:

أتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما المقصود من الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحسن الأسماء. اهـ

وقد أفردت في هذه المسألة مصنف مستقل باسم «التبيين لخصت من حصر أسماء الله في تسع وتسعين».

فائِدَةٌ:

قال ابن القيم في "البدائع" (١/ ١٦٤):

قال: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة وهذا هو قطب السعادة ومدارة النجاة والفلاح.

المرتبةُ الأولى: أحصار ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: الدعاء بها كما قال تعالى:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: من الآية١٨٠) وهو مرتبنا وهو مرتبتان:

أحدها: دعاء ثناء وعباده.

والثاني: دعاء طلب ومسألة ا.هـ

أدلـة الأسماء والصفات وكيفية التعامل معها

ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في هذا الباب أربعةُ قواعد:

القاعدة الأولى:

الأدلة التي تثبت بها أسماء الله وصفاته هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا تثبت أسماء الله وصفاته بغيرها.

القاعدة الثانية:

الواجب نحو نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للعقل فيها.

القاعدة الثالثة:

ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر فباعتبار المعنى هي معلومة وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة.

وهذه القاعدة ردٌ على المفوضة الذين يقولون نحن نثبت اللفظ ونتوقف في المعنى ولعل الله أن

ييسر الرد عليهم في غير هذا الموضع.

القاعدة الرابعة:

ظاهر النصوص ما يتبادر إلى الذهن من المعاني وهو يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام وقد انقسم الناس في هذا الظاهر إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

من جعلوا الظاهر منها حقاً يليقُ بالله تعالى وأبقوا دلالتها على ذلك وهؤلاء هم السلف الذين اجتمعوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه.

القسم الثاني:

جعلوا الظاهر المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله وهو التشبيه والتمثيل أبقوا دلالتها على ذلك وهذا جناية في حق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١).

القسم الثالث:

من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله وهو التشبيه ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه النصوص من المعنى اللائق بالله وهم أهل التعطيل سواء كان تعطيلهم عاماً في الأسماء والصفات أم خاصاً فيهما أو في أحدهما.

واعلم أن الناس قد انقسموا في هذا الباب إلى أقسام عدة:

القسم الأول:

وهو ما ذهب له الجهمية والقرامطة ونحوهم وذلك أنهم يصفون الله بالسلوب على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحقيقه في الأعيان فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم المعدوم يقولون لا حي ولا

ميت ولا جاهل ولا عالم لأنهم بزعمهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات ولا يخفى فساد قولهم.

القسم الثاني:

طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات، فيقولون ليس بعالم ليس سميع ولا بصير ثم يرجعون وينفون النفي فيقولون ولا ليس بعالم ولا ليس بسميع ولا هو خارج العالم ولا هو داخلة.

القسم الثالث:

المعتزلة ومن وافقهم فأثبتوا له الأسماء دون ما تضمنه من الصفات فمنهم من جعل العليم والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع ولا بصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنته من الصفات.

القسم الرابع:

أهل التمثيل وهم الذين يثبتون لله سبحانه وتعالى الصفات ولكنهم يشبهونها بصفات المخلوقين رادين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١) فتعالى الله عن أقوال هذه الأقسام علواً كبيراً.

القسم الخامس:

وهم أهل التجهيل وهم أشر أهل البدع كما قال شيخ الإسلام، والمفوضة هم الذين يثبتون ألفاظ الصفات كما وردت في الكتاب والسنة مع تفويضهم العلم بمعانيها اللغوية إلى الله تعالى فلا يعلم معناها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أحد أبداً.

وهؤلاء لازم قولهم أن الله خاطبنا بكلام لا نعرف معناه والله يقول: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ١ – ٣)، وقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)، ويجهلون رسول الله ﷺ وأصحابه

الكرام أنهم لم يعرفوا مراد الله سبحانه وتعالى إلى غير ذلك مما يأتي في موضعه إن شاء الله.

القسم السادس:

وهم أهل الحق والهدي والخير والتقى المؤمنون بما جاء عن الله وبما جاء عن رسول الله في هذا الباب وفي غيره قال شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة (٢/ ٥٢٣):

وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل وتنزيل بلا تعطيل إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١).

فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

الأول: أن الله تعالى منزه عن صفات النقص كالسنة والنوم والعجز.

الثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها بما له من الصفات فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات ا.هـ

وقد أجمل هذا التقسيم ابن القيم رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (١١٤) وما بعدها: الفصل الثامن عشر في انقسام الناس في نصوص الوحي إلى أصحاب تأويل وأصحاب تخييل، وأصحاب تجهيل، وأصحاب تمثيل، وأصحاب سواء السبيل هذه خمسة أصناف انقسم الناس إليها في هذا الباب بحسب اعتقادهم ما أريد بالنصوص.

هذه خمسة أصناف انقسم الناس إليها في هذا الباب بحسب اعتقادهم ما أريد بالنصوص العذاب تفهيما للذة الروحانية بهذه الصورة والألم الروحاني بهذه الصورة، وهكذا فعلوا في وجود الرب وصفاته وأفعاله ضربوا لهم الأمثال بموجود عظيم جداً أكبر من كل موجود وله سرير عظيم، وهو مستو فوق سريره يسمع ويبصر، ويتكلم ويأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويأتي ويجيء، وينزل وله يدان ووجه ويفعل بمشيئته وإرادته، وإذا تكلم العباد سمع كلامهم، وإذا تحركوا رأى حركاتهم، وإذا هجس في قلب أحد منهم هاجس علمه، وأنه ينزل كل ليلة إليهم إلى سمائهم هذه فيقول: «من

يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له» إلى غير ذلك مما نطقت به الكتب الإلهية قالوا: ولا يحل لأحد أن يتأول ذلك على خلاف ظاهره للجمهور؛ لأنه يفسد ما وضعت له الشرائع والكتب الإلهية.

وأما الخاصة فهم يعلمون أن هذه أمثال مضروبة لأمور عقلية تعجز عن إدراكها عقول الجمهور فتأويلها جناية على الشريعة والحكمة، وإقرارها إقرار للشريعة، والحكمة قالوا: وعقول الجمهور بالنسبة إلى هذه الحقائق أضعف من عقول الصبيان بالنسبة إلى ما يدركه عقلاء الرجال وأهل الحكمة منهم والحكيم إذا أراد أن يخوف الصغير، أو يبسط أمله خوفه ورجاه بما يناسب فهمه وطبعه.

وحقيقة الأمر عند هذه الطائفة أن الذي أخبرت به الرسل عن الله وصفاته وأفعاله وعن اليوم الآخر لا حقيقة له يطابق ما أخبروا به، ولكنه أمثال وتخييل وتفهيم بضرب الأمثال، وقد ساعدهم أرباب التأويل على هذا المقصد في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته، وصرحوا في ذلك بمعنى ما صرح به هؤلاء في باب المعاد وحشر الأجساد، بل نقلوا كلماتهم بعينها إلى نصوص الاستواء والفوقية ونصوص الصفات الخبرية، لكن هؤلاء أوجبوا أو سوغوا تأويلها بما يخرجها عن حقائقها وظواهرها، وظنوا أن الرسل قصدت ذلك من المخاطبين تعريضاً لهم إلى الثواب الجزيل ببذل الجهد في تأويلها أو استخراج معان تليق بها وحملها عليها، وأولئك حرموا التأويل ورأوه عائدا على ما قصدته الأنبياء بالإبطال والطائفتان متفقتان على انتفاء حقائقها المفهومة منها في نفس الأمر.

والصنف الثالث: أصحاب التجهيل الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرأها ألفاظا لا معاني لها ونعلم أن لها تأويلا لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزلة : كهيعص مريم، و حم عسق الشورى، و المص الأعراف.

فلو ورد علينا منها ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيهاً، ولم نعرف معناه وننكر على من تأوله ونكل علمه إلى الله، وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء

والصفات، ولا يفهمون معنى قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر : ٦٧]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] وأمثال ذلك من نصوص الصفات.

وبنوا هذا المذهب على أصلين : أحدهما أن هذه النصوص من المتشابه.

والثاني أن للمتشابه تأويلا لا يعلمه إلا الله فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأنهم كانوا يقرأون : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥]، و﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤].

ويروون ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أريد به، ولازم قولهم إن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجري على ظواهرها وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلا ويقولون تجر على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا، وهؤلاء غلطوا في المتشابه وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فأخطأوا في المقدمات الثلاث، واضطرهم إلى هذا التخلص من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين، وسدوا على نفوسهم الباب وقالوا: لا نرضى بالخطأ، ولا وصول لنا إلى الصواب، فهؤلاء تركوا التدبر المأمور به والتذكر والعقل لمعاني النصوص الذي هو أساس الإيمان وعمود اليقين، وأعرضوا عنه بقلوبهم، وتعبدوا بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك، وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها، والتفكر فيها.

فأولئك جعلوها عرضة للتأويل والتحريف كما جعلها أصحاب التخييل أمثالاً لا حقيقة لها وقابلهم :

الصنف الرابع: وهم أصحاب التشبيه والتمثيل ففهموا منها مثل ما للمخلوقين وظنوا أن لا حقيقة لها سوى ذلك وقالوا: محال أن يخاطبنا الله سبحانه بما لا نعقله ثم يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة

: ٧٣]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٩]، ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص : ٢٩].

ونظائر ذلك وهؤلاء هم المشبهة، فهذه الفرق لا تزال تبدع بعضهم بعضاً، وتضلله وتجهله وقد تصادمت كما ترى فهم كزمرة من العميان تلاقوا فتصادموا كما قال أعمى البصر والبصيرة منهم:

ونظيري في العلم مثلي أعمى ... فترانا في حندس نتصادم

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات، فكان مذهبهم مذهبا بين مذهبين وهدى بين ضلالتين خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات فلا نعطل ولا نؤول ولا نمثل ولا نجهل، ولا نقول ليس لله يدان ولا وجه، ولا سمع ولا بصر، ولا حياة ولا قدرة، ولا استوى على عرشه، ولا نقول له يدان كأيدي المخلوق ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة، واستوى كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم، بل نقول له ذات حقيقة ليست كالذوات وله صفات حقيقة لا مجازا ليست كصفات المخلوقين، وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالى ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه ولا يمنعنا ذلك أن نفهم.

المراد من تلك الصفات وحقائقها كما لم يمنع ذلك من أثبت لله شيئاً من صفات الكمال من فهم معنى الصفة وتحقيقها، فإن من أثبت له سبحانه السمع والبصر أثبتهما حقيقة وفهم معناهما، فهكذا سائر صفاته المقدسة يجب أن تجري هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله سبحانه لم يكلف عباده بذلك ولا أراده منهم ولم يجعل لهم إليه سبيلا، بل كثير من مخلوقاته أو أكثرها لم يجعل لهم سبيلا إلى معرفة كنهه وكيفيته، وهذه أرواحهم التي هي أدنى إليهم من كل دان قد حجب عنهم معرفة كنهها وكيفيتها وجعل لهم السبيل إلى معرفتها والتمييز بينها وبين

أرواح البهائم، وقد أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم، ولم يعرفوا كيفيته وكنهه فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهاراً من خمر، وأنهاراً من عسل، وأنهاراً من لبن، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من فم دود القز وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلاً لما في الدنيا كما قال ابن عباس: (ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء)، ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك، فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها في الدنيا ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته سبحانه لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل : ٦٠].

الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم : ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] فنفى سبحانه المماثلة عن هذا المثل الأعلى وهو ما في قلوب أهل سمواته وأرضه من معرفته، والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته، فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون وأنس بها لعارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية المقبولة بالبراهين العقلية فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة، فإذا قال المثبت: يا الله، قام بقلبه ربا قيوماً قائماً بنفسه مستوياً على عرشه مكلماً متكلماً سامعاً رآئياً قديراً مريداً فعالاً لما يشاء يسمع دعاء الداعين، ويقضي حوائج السائلين ويفرج عن المكروبين ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي تعرج الملائكة بالأمر إليه وتنزل

بالأمر من عنده. اهـ

تنبيه:

كثير ما يمر معنا من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فما معنى هذه العبارة.

قال التميمي نقلاً عن ابن القيم من "اجتماع الجيوش الإسلامية": في معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات.

توحيد الأسماء والصفات له ضدان:

١- التعطيل.

٢- التشبيه والتمثيل.

فمن نفى صفات الرب وعطلها فقد كذب تعطيله توحيده، ومن شبهه بخلقه ومثله بهم فقد كذب تشبيهه توحيده.

وقال معنى قولهم من غير تحريف ولا تعطيل:

هذه العبارة فيها تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة أهل التعطيل:

أ- معنى التحريف:

التحريف لغة التغيير والتبديل والإمالة.

والتحريف شرعاً الميل بالنصوص على ما هي عليه، إما بالطعن فيها أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها.

أو بعبارة مختصرة هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره.

وينقسم التحريف إلى قسمين:

١- تحريف اللفظ: وله أربع صور:

١- الزيادة في اللفظ.

٢- النقصان في اللفظ.

٣- تغير حركة إعرابية.

٤- تغير حركة غير إعرابية.

من أمثلة ذلك تحريف إعراب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيماً﴾ (النساء: من الآية١٦٤) من الرفع إلى النصب، وقال: ﴿ وَكَلَّمَ اللهَ﴾ أي موسى كلم الله ولم يكلمه الله.

٢- تحريف المعنى: وهو صرف اللفظ من معناه الصحيح إلى غيره مع بقاء صورة اللفظ ومن أمثلته قول المعطلة في معنى ﴿استوى﴾ استولى وفي معنى اليد القدرة والنعمة في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة: من الآية٦٤).

مسألة الإثبات المفصل والنفي المجمل:

قال شيخ الإسلام في "التدمرية" (ص٨):

والله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم:٦٥) قال أهل اللغة: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ أي نظيراً يستحق مثل اسمه.

معنى التعطيل:

التعطيل في اللغة مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وبئر معطلة﴾ أي: أهملها أهلها وتركوا وردها والتعطيل في جانب الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

تعطيل مصنوع عن صانعه وخالقه وهو المتمثل فيمن ينكر وجود خالق لهذا الكون.

القسم الثاني:

تعطيل عبادته عز وجل أي ما يجب له عز وجل من حقيقة التوحيد وإفراده بالعبادة وهو المتمثل في أهل الشرك الذين صرفوا شيئاً من العبادة لغير الله عز وجل.

القسم الثالث:

تعطيل الله سبحانه وتعالى عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله، وهذا القسم هو المراد هنا.

فالمراد بالتعطيل في باب الأسماء والصفات هو نفي الأسماء والصفات أو بعضها عن الله تعالى.

وينقسم المعطلة إلى قسمين:

القسم الأول:

الفلاسفة وهما صنفان:

الأول: أهل الفلسفة البحتة.

الثاني: أهل الفلسفة الباطنية وهم الرافضة والصوفية.

القسم الثاني:

هم أهل الكلام وهم خمسة أصناف:

١- الجهمية: وهؤلاء نفوا الأسماء والصفات.

٢- المعتزلة: أثبتوا الأسماء ونفوا الصفات.

٣- الكلابية.

٤- الأشاعرة.

٥- الماتريدية: وهذه الثلاث الطوائف أثبتت الأسماء وبعض الصفات ونفت الباقي وسيتم الرد عليهم إن شاء الله صنفاً، صنفاً.

معنى قولهم من غير تكييف ولا تمثيل:

هذه العبارة فيها تميز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة، فالتكييف هو جعل الشيء على حقيقة من غير أن يقيدها بمماثل والتمثيل، هو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

والتكييف أعم من التمثيل فكل تمثيل تكييف لأن من مثل صفات الخالق بصفات المخلوقين، فقد

كيف تلك الصفة.

وليس كل تكييف تمثيل لأن من التكييف ما ليس فيه تمثيل مثل قولهم طوله كعرضه.

ومعنى قول أهل السنة من غير تكييف أي من غير تكييف يعقله البشر وليس المراد أنهم ينفون الكيف مطلقاً، فإن كل موجود لابد أن يكون له كيفية ما ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه.

تَنْبِيْهٌ:

التمثيل والتشبيه بمعنى واحد في هذا الباب وإن كان قد وقع بينهما فرق عند أهل اللغة.

فالمماثلة هي المساواة من كل وجه، والمشابهة هي مساواة الشيء لغيره في أكثر الوجوه.

فائِدَةٌ:

«كل معطل ممثل وكل ممثل معطل» فتعطيلهم في نفيهم لما يستحقه الله تعالى من الصفات والأسماء اللائقة به وأما تمثيل المعطلة فإنهم ما وقعوا في التعطيل حتى شبهوا صفات الله بصفات خلقه.

قال شيخ الإسلام في "التدمرية" (ص٧٩-٨٠):

في بيان المحاذير التي يقع فيها المعطل:

أحدها:

كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول الصفات هو التمثيل.

الثاني:

أنهم عطلوا النصوص عما دلت عليه من الصفات اللائقة بالله.

الثالث:

أنه ينفي هذه الصفات عن الله بغير علم فيكون معطلاً لما يستحقه الرب تعالى.

الرابع:

أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات أوصافات المعدومات.

فيكون عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالى ومثله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوق.

وأما تعطيل المعطل فمن ثلاثة أوجه:

أحدها:

أنه عطل نفس النص الذي أثبت الصفة حيث صرفه عن مقتضى ما يدل عليه فإن النص دال على إثبات صفةٌ تليق بالله لا على مشابهة الخلق.

الثاني:

إنه إذا مثل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب حيث شبه الرب الكامل بالمخلوق الناقص.

الثالث:

أنه إذا مثل الله بخلقه فقد عطل كل نص يدل على نفي مشابهة الله لخلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١)، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤).

فأهل التمثيل يقولون: إن الله لم يخبطنا إلا بما نعقل فإذا كان مستوياً على العرش فهو كاستواء الإنسان على السرير ا.هـ

قال ابن القيم رحمةُ الله عليه في "الصواعق المرسلة" (٢/ ٤٢٥):

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشي من أوضار هذه الفرقة وأدرانها وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقين فكان مذهبهم مذهباً بين مذهبين وهدي بين ضلالتين خرج من بين مذهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين كما خرج اللبن: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: من الآية٦٦).

قالوا: نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات ونفي مشابهة المخلوقين فلا نعطل ولا نؤول ولا نمثل ولا نجهل. اهـ

ثم اعلم أن معتقد أهل السنة في باب الأسماء والصفات يرتكز على ثلاث أسس:

الأول:

الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتاً ونفياً وهذا الأساس فيه رد على أهل التعطيل.

الثاني:

تنزيه الله جل وعز عن أن يشبه شيءٌ من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين وهذه الأساس ردٌ على أهل التمثيل وردٌ على أهل التعطيل من جهة أخرى.

الثالث:

قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفة.

وهذا فيه تميز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة فأهل السنة يفوضون علم الكيف فلا يعلم أحد كيفية صفات الباري إلا هو، وذلك لأن الكيفية لا تعلم إلا برؤية المكيف، أو نظيره ومثيله، أو إخبار العالم بالكيفية عنها، وهذا كله منتفى في حق الله تعالى.

أفاده التميمي في عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص٨٧).

القاعدة السابعة:

قال ابن عثيمين:

الإلحاد في أسمائه هو الميل بها عما يجب فيها وهو أنواع:

الأول:

أن ينكر شيئاً منها أو مما دلت عليه الصفات والأحكام كما فعل أهل التعطيل كالجهمية ومن سار على سيرهم.

الثاني:

أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين كما فعل أهل التشبيه.

الثالث:

أن يسمي الله تعالى بما لم يسم به نفسه كتسمية النصارى له «الأب» والفلاسفة العلة الفاعلة.

الرابع:

أن يشتق من أسمائه أسماء الأصنام كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز واللات من الإله. اهـ

قال ابن القيم في "البدائع": (١/ ١٦٩):

معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه قال تعالى:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٨٠). والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته:(ل، ح، د) ثم ذكر رحمه الله تلك الأقسام المتقدمة ومنها: وصفه تعالى بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير ا.هـ

مسألة: هل أسماء الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة؟

الجواب: معتقد أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بأن الله هو الذي سمى نفسه بأسمائه الحسنى وتكلم بها حقيقة وهي غير مخلوقة وليست من وضع البشر.

وقالت الجهمية والمعتزلة: إن أسماء الله مخلوقة وإن الله ليس هو الذي سمى نفسه بهذه الأسماء، وكذلك لم يتكلم حقيقة وإنما خلقها في غيره أو سماه بها بعض خلقه. "مجموع الفتاوى" (٦/ ١٨٦).

وذهبت الكلابية والأشاعرة والماتريدية أن أسماء الله غير مخلوقة ولكن مقصودهم بهذه العبارة أن الله بذاته غير مخلوق، وهذا مما لا تنازع فيه مع الجهمية والمعتزلة.

قواعد في صفات اللّه سبحانه وتعالى

القاعدة الأولى:

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه كالحياة والعلم والقدرة والرحمة والعزة والحكمة وغير ذلك وقد دل على هذا السمع والعقل قال تعالى:﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠] ثم بين رحمه الله أن الصفات من حيث هي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- القسم الأول: صفات كمال لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه وهذه تثبت لله سبحانه.

٢- القسم الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه فهذه تنفي عن الله سبحانه.

٣- القسم الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه فهذه تثبت لله سبحانه وتعالى حال كمالها وتنفي عنه في حال النقص كما هو معلوم فيها يسمى بصفات المقابلة كالمكر والكيد والخداع والاستهزاء فإنها في مقابلة من يعاملها كمال ا.هـ بتصرف من "القواعد المثلى"، وهذه الصفات لا تثبت مطلقًا، ولا تنفي مطلقًا.

قال ابن القيم في "البدائع": (١/ ١٦٧):

إن الصفات ثلاثة أنواع:

١- صفات كمال.

٢- وصفات نقص.

٣- وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسماً رابعاً وهو ما يكون كمالاً ونقصاً باعتبارين والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوفٌ بالقسم الأول وصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوفٌ من الصفات بأكملها وله من الصفات أكمله. اهـ

وقال شيخ الإسلام: (٦/ ٧١) بتصرف:

إن الكمال ثابت لله بل الثابت له هو أقصى ما يكمله من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت لله تعالى يستحقه بنفسه المقدسة وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه، فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت وبثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وأن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك .... ا.هـ

القاعدة الثانية:

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

باب الصفات أوسع من باب الأسماء وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله وأفعاله لا منتهى لها.

قال ابن القيم رحمه الله في البدائع: (١/ ١٦١):

إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

القاعدة الثالثة:

قال العثيمين رحمه الله:

صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

١- ثبوتية.

٢- سلبيه.

فالثبوتية: ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالحياة والعلم والقدرة.

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه وتعالى عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز.

فيجب نفيها عن الله سبحانه وتعالى مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل وذلك؛ لأن ما نفاه الله عن نفسه فالمراد به انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه لأن النفي ليس بكمال إلا أنه يتضمن ما يدل على الكمال وذلك؛ لأن النفي عدم والعدم ليس بشي.

مثال ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر : ٤٤] فنفي العجز يتضمن كمال علمه وقدرته كما قال بعده:﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤].

لأن العجز سببه الجهل بأسباب الإيجاد أو قصور القدرة وبهذا يعلم أن الصفة قد تتضمن أكثر من الكمال ا.هـ بتصرف

القاعدة الرابعة:

قال العثيمين رحمه الله: الصفات الثبوتية صفات كمال فكلما كثرت وتنوعت ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.

وأما الصفات السلبية فلم تذكر غالباً إلا في الأحوال التالية:

الأول: بيان عموم كماله كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤].

الثاني: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون كما قال تعالى: ﴿أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾.

الثالثة: دفع توهم النقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين كما في قوله: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾، ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾. اهـ

القاعدة الخامسة: قال العثيمين رحمه الله تعالى: الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين ذاتية وفعلية، فالذاتية هي التي لم يزل الله ولا يزال متصفاً بها كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة

والعلو والعظمة ومنها الصفات الخبرية كالوجه واليدين.

تنبيه: المراد بالصفات الخبرية أنها متلقاة من الخبر الكتاب والسنة؛ لأن عقولنا ليس لها مجال في إثباتها.

والفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الله إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام فإنه بإعتبار أصله صفة ذات، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية لأن الكلام يقع بمشيئته يتكلم متى شاء بما شاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢]. اهـ

والفرق بين الصفات الفعلية والذاتية من عدة أوجه:

١- الذاتية تعتبر من لوازم الذات لا تنفك عنها.

٢- الفعلية ليست من لوازم الذات ويمكن أن تنفك عنه على معنى إن الله إذا شاء ولم يفعلها.

٣- الفعلية متعلقة بالمشيئة والإرادة.

٤- أن الصفات الفعلية ترجح إلى الصفات الذاتية فهي راجعة إلى مشيئة الله وإرادته.

٥- أن النوعين يجتمعان في أنهما صفات له تعالى أزلاً وأبداً لم يزل متصفاً بهما ماضياً ومستقبلاً لائقان بجلال رب العالمين. اهـ من «القواعد الكلية» (٨٧-٨٨).

القاعدة السادسة:

قال العثيمين رحمه الله تعالى: يلزم في إثبات الصفات التخلي من محذورين عظيمين.

أحدهما: التمثيل وهو اعتقاد المثبت أن ما أثبته لله مماثل لصفات المخلوقين وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ (الإخلاص:٤)، ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧].

الثاني: التكييف فهو أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا من غير أن يقيدها بمماثل وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] ا.هـ

وإن ألقى الشيطان هذا التكييف في عقلك فقل «آمنت بالله» وانتهى كما دل عليه حديث أبي هريرة في "الصحيح" وفي رواية «فاستعذ بالله من الشيطان».

القاعدة السابعة:

قال العثيمين رحمه الله: صفات الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها، فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل عليها الكتاب والسنة، وقد تقدم الكلام في القاعدة الخامسة من قواعد الأسماء بما يغني عن الإعادة، ولأنه كما قال شيخ الإسلام: لا يعلم كيف هو إلا هو.

وتكون دلالة الكتاب والسنة على الصفة بثلاثة أوجه: الأول: التصريح بالصفة كالعزة والقوة قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٣٩].

الثاني: تضمن الاسم لها مثل الغفور متضمن للمغفرة وقد تقدم الكلام على هذا في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء.

الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا والمجيء للفصل بين العباد قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوَىَ﴾ [طه: ٥] ، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢].

أنواع الاضافات إلى الله تعالى

قال العثيمين رحمه الله في "القول المفيد" (١/ ٨٨) ط/ العاصمة:

اعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- الأول: العين القائمة بنفسها وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق كقوله تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية : ١٣].

وقوله:﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت : ٥٦].

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه كقوله تعالى:﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج : ٢٦]، وكقوله:﴿ نَاقَةَ الله وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس : ١٣]، وهذا القسم مخلوق.

٢- الثاني: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقه يقوم بها مثال قوله:﴿ورُوحٌ مِنه﴾، فإضافة هذه الروح إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفاً فهي من الأرواح التي خلقها الله وهذا المقسم مخلوقاً.

٣- الثالث: أن يكون وصف غير مضاف إلى عين مخلوقة مثال:﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف : ١٤٤]، فالرسالةُ والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف فإذا أضاف إلى نفسه صفة فهذه الصفة غير مخلوقة ومن هذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة قسمان مخلوقان وقسم غير مخلوق.

وقسمها بعضهم إلى قسمين:

قال في القواعد الكلية: (٢١٩،٢٢٠):

المضاف إلى الله نوعان أعيانٌ وصفات.

فالأعيان هي الذوات المستقبلة بنفسها عما سواها والمراد بها هنا ما نسب إلى الله نسبة خلقٍ وإيجاد.

والصفات هي المعاني القائمة بالذوات والمراد بها هنا ما نسب إلى الله على أنه وصف قائمٌ بذاته ا.هـ باختصار.

وبما أن المعتزلة والأشاعرة نفوا عن الله كثيراً من الصفات وعطلوه منها متسترين بالتأويل كان لزماً علينا أن نتكلم عليه مبينين الوجه الحق ومفندين الباطل حتى لا يبقى احتجاج لأهل الباطل وذويهم.

اعلم أن التأويل في اللغة خمسة معاني:

١- الأول: الإصلاح قال أبو العباس المبرد أصله من الإصلاح يقال [آله، يؤوله، أوْلاً]، إذا

أصلحهُ ووافقه على ذلك أبو إبراهيم إسحاق العرابي، والأزهري، وابن فارس، وهو يتعدى بنفسه.

٢- الثاني: العودة والرجوع ويتعدى:[بالى، أو بعن]، أو يكون لازماً.

قال ابن دريد: آل الرجل عن الشئ ارتد عنه.

ونقل الأزهري: عن ثعلب عن ابن الأعرابي.

قوله:[الأوول: الرجوع].

٣- الخثور: قال ابن فارس: قال الخليل: [آل اللبن يؤول وأولاً خثر].

قال الراغب:[آل اللبن يؤول إذا خثر]، كأنه رجوع إلى النقصان لقولهم في الشئ الناقص راجع وهذا يعود إلى المعنى الأول.

٤- الرابع: العاقبة ذكره الفراء.

٥- التفسير: قال ابن جرير: وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير والمرجع والمصير ا.هـ من جناية التأويل الفاسد: (١-٣).

وأما معنى التأويل في الاصطلاح:

أولاً: معنى التأويل في اصطلاح المتقدمين يطلق التأويل عند المتقدمين على معنيين:

١- تفسير اللفظ وبيان معناه كقول مجاهد رحمه الله: (وتأويل قول الله كذا أي تفسيره).

٢- الحقيقة التي يؤول إليها الشئ يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف : ٥٣].

معنى التأويل في الاصطلاح المتأخرين: هو صرف اللفظ عن ظاهره لدليل يصير به المرجوح راجحاً. قاله الطوافي ا.هـ من المرجع السابق: (٨/ ١١) مختصراً.

والتأويل ينقسم إلى قسمين:

١- تأويل صحيح وهو: حقيقة المعنى وما يؤل إليه في الخارج أو تفسيره وبيان معناه وهو

التأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها قال جابر بن عبد الله: في حديث حجة الوداع ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بين أظهرنا ينـزل عليه القرآن وهو يعلم تأويله.

٢- التأويل الباطل: هو الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ا.هـ بتصرف من "الصواعق":(١/ ١٨١-١٨٧).

وبمعنى آخر هو صرف الكلام عن ظاهره إلى المحتمل المرجوح بدليل لا يصيره راجحاً أو صرفه بغير دليل ا.هـ من "جناية التأويل":(١٨) نقلاً عن "شرح مختصر المنتهى":(٢/ ١٦٩).

وقد بين العلماء رحمهم الله تعالى أن التأويل الفاسد أصل كل بدعة ظهرت في الإسلام قال ابن القيم في "النونية":

هذا وأصل بلية الإسلام من ... تأويل ذي التحريف والبطلان

وهو الذي قد فرق السبعين بل ... زادت ثلاثاً قول ذي البرهان

وجميع ما في الكون من بدع واحد ... آث تخالف موجب القرآن

فأساسها التأويل ذو البطلان لا ... تأويل أهل العلم والإيمان

إذا ذاك تفسير المراد وكشفه ... وبيان معناه في الأذهان

ا.هـ

وبنى المتكلمون قولهم بالتأويل على أصول فاسدة تعارض العقل والنقل فمن هذه الأصول تقديم العقل على النقل والمعلوم أن العقل تابع للنقل حتى قال ابن تيمية رحمه الله: العقل الصحيح لا يعاض النقل الصحيح، وألف كتاباً ماتعاً سماه "درء تعارض العقل والنقل".

قال ابن القيم رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (١٢١) وما بعدها: التأويل يجري مجرى مخالفة الطبيعة الإنسانية، والفطرة التي فطر عليها العبد، فإنه رد الفهم من جريانه مع الأمر المعتاد المألوف إلى الأمر الذي لم يعهد ولم يؤلف، وما كان هذا سبيله، فإن الطباع السليمة لا تتقاضاه، بل تنفر منه

وتأباه، فلذلك وضع له أربابه أصولا ومهدوا له أسباباً تدعو إلى قبوله وهي أنواع :

السبب الأول: أن يأتي به صاحبه مموها مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسوا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢].

فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولا وعملا، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع ويميل إليها الطبع فيسمون أم الخبائث أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة حتى إن بعضهم لما عذل عن شيء من ذلك قال لعاذله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله وجرأة على سعة عفوه، ومغفرته، فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة.

فصل السبب الثاني: أن يخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة تنفر عنها

القلوب وتنبو عنها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولا إلى القلوب، وأشدها نفرة عنها فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ، فيسمى التدين ثقالة، وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين سوء خلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والغضب لله والحمية لدينه فتنة وشرا وفضولاً، فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل، فيسمون إثبات صفات الكمال لله تجسيما وتشبيها وتمثيلا، ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيبا ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزاً وتجسيماً، ويسمون العرش حيزا وجهة، ويسمون الصفات أعراضا والأفعال حوادث، والوجه واليدين أبعاضا، والحكم والغايات التي يفعل لأجلها أغراضا، فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة الشنيعة تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه فقالوا للأغمار والأغفال اعلموا أن ربكم منزه عن الأعراض والأغراض والأبعاض والجهات، والتركيب والتجسيم، والتشبيه فلم يشك أحد لله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الرب تعالى عن ذلك.

وقد اصطلحوا على تسمية سمعه وبصره وعلمه وقدرته وإرادته وحياته أعراضاً، وعلى تسمية وجهه الكريم ويديه المبسوطتين أبعاضاً، وعلى تسمية استوائه على عرشه وعلوه على خلقه، وأنه فوق عباده تحيزا، وعلى تسمية نزوله إلى سماء الدنيا، وتكلمه بقدرته ومشيئته إذا شاء وغضبه بعد رضاه ورضاه بعد غضبه حوادث وعلى تسمية الغاية التي يفعل، ويتكلم لأجلها غرضاً، واستقر ذلك في قلوب المتلقين عنهم، فلما صرحوا لهم بنفي ذلك بقي السامع متحيراً أعظم حيرة بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له جميع رسله وسلف الأمة بعدهم وبين إثباتها، وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقاه عنهم، فمن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم من فر إلى التعطيل، ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله وكشف زيف هذه الألفاظ وبين زخرفها وزغلها، وأنها ألفاظ مموهة بمنزلة طعام طيب الرائحة في إناء حسن اللون

والشكل، ولكن الطعام مسموم فقالوا ما قاله إمام أهل السنة باتفاق أهل السنة أحمد بن حنبل لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين، ولما أراد المتأولون المعطلون تمام هذا الغرض اخترعوا لأهل السنة الألقاب القبيحة، فسموهم حشوية ونوابت ونواصب، ومجبرة ومجسمة ومشبهة، ونحو ذلك فتولد من تسميتهم لصفات الرب تعالى وأفعاله ووجهه ويديه، وحكمته بتلك الأسماء وتلقيب من أثبتها له بهذه الألقاب لعنة أهل الإثبات والسنة وتبديعهم وتضليلهم وتكفيرهم وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها.

فصل السبب الثالث: أن يعزو المتأول تأويله وبدعته إلى جليل القدر نبيه الذكر من العقلاء، أو من آل البيت النبوي، أو من حل له في الأمة ثناء جميل ولسان صدق ليحليه بذلك في قلوب الأغمار والجهال، فإن من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه، وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم حتى إنهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله ويقولون: هو أعلم بالله ورسوله منا وبهذه الطريق توصل الرافضة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية إلى تنفيق باطلهم وتأويلاتهم، حتى أضافوها إلى أهل بيت رسول الله لما علموا أن المسلمين متفقون على محبتهم وتعظيمهم وموالاتهم وإجلالهم، فانتموا إليهم وأظهروا من محبتهم وموالاتهم، واللهج بذكرهم، وذكر مناقبهم ما خيل إلى السامع أنهم أولياؤهم، وأولى الناس بهم ثم نفقوا باطلهم وإفكهم بنسبته إليهم، فلا إله إلا الله كم من زندقة وإلحاد وبدعة وضلالة قد نفقت في الوجود بنسبتها إليهم وهم براء منها براءة الأنبياء من التجهم والتعطيل، وبراءة المسيح من عبادة الصليب والتثليث، وبراءة رسول الله من البدع والضلالات.

وإذا تأملت هذا السبب رأيته هو الغالب على أكثر النفوس، وليس معهم سوى إحسان الظن بالقائل بلا برهان من الله ولا حجة قادتهم إلى ذلك، وهذا ميراث بالتعصيب من الذين عارضوا دين الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، فإنهم لحسن ظنهم بهم وتعظيمهم لهم آثروا ما كانوا

عليه على ما جاءتهم به الرسل، وكانوا أعظم في صدورهم من أن يخالفوهم ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال وإنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كل مقلد لمن يعظمه فيما خالف فيه الحق إلى يوم القيامة.

فصل السبب الرابع: أن يكون ذلك التأويل قد قبله ورضيه مبرز في صناعة من الصناعات أو علم من العلوم الدقيقة أو الجليلة فيعلو له بها برز به ذكر في الناس ويشتهر له به صيت؛ فإذا سمع الغمر الجاهل بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له أحسن الظن به وارتضاه مذهبًا لنفسه ورضي من قبله إمامًا له، وقال: إنه لم يكن ليختار مع جودة قريحته وذكائه وصحة ذهنه ومهارته بصناعته وتبريزه فيها، على بني جنسه إلا الأصوب والأفضل من الاعتقادات والأرشد والأمثل من التأويلات، وأين يقع اختياري من اختياره فرضيت لنفسي مارضيه لنفسه؛ فإن عقله وذهنه وقريحته إنما تدله على الصواب كما دلته على ما خفي عن غيره من صناعته وعلمه.

وهذه الآفة قد هلك بها أمم لا يحصيهم إلا الله رأواالفلاسفة قد برزوا في العلوم الرياضية والطبية واستنبطوا بعقولهم وجودة قرائحهم وصحة أفكارهم ما عجز أكثر الناس عن تعلمه فضلاً عن استنباطه، فقالوا للعلوم الإلهية والمعارف الربانية أسوة بذلك فحالهم فيها مع الناس كحالهم في هذه العلوم سواء، فلا إله إلا الله كم أهلكت هذه البلية من أمة، وكم ضربت من دار، وكم أزالت من نعمة وجلبت من نقمة، وجرأت كثيرا من النفوس على تكذيب الرسل واستجهالهم وما عرف أصحاب هذه الشبهة أن الله سبحانه قد يعطي أجهل الناس به وبأسمائه وصفاته وشرعه من الحذق في العلوم الرياضية والصنايع العجيبة ما تعجز عنه عقول أعلم الناس به ومعارفهم وقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنتم أعلم بدنياكم».

وصدق صلوات الله وسلامه عليه فإن العلوم الرياضية والهندسية وعلم الأرثماطيقي والموسيقى والجغرافيا وإيرن وهو علم جر الأثقال ووزن المياه وحفر الأنهار وعمارة الحصون وعلم الفلاحة وعلم الحميات وأجناسها ومعرفة الأبوال وألوانها وصفائها وكدرها وما يدل عليه وعلم الشعر

وبحوره وعلله، وزحافه وعلم الفنيطة ونحو ذلك من العلوم هم أعلم بها وأحذق فيها.
وأما العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك فإلى الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ الله لَا يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].
قال بعض السلف: يبلغ من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفره فيعلم وزنه ولا علم له بشيء من دينه، وقال تعالى في علوم هؤلاء واغترارهم بها: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣].
وقد فاوت الله سبحانه بين عباده فيما تناله عقولهم وأذهانهم أعظم تفاوت والعقل يعطي صاحبه فائدته في النوع الذي يلزمه به ويشغله به ويقصره عليه مالا يعطيه في غيره وإن كان غيره أسهل منه بكثير كما يعطيه همته وقريحته في الصناعة التي هو معني بها ومقصور العناية عليها مالا يعطيه في صناعة غيرها وكثيرًا ما تجد الرجل قد برز في اللطيف من أبواب العلم والنظر وتخلف في الجليل منهما وأصاب الأغمض الأدق منها وأخطأ الأجل الأوضح هذا أمر واقع تحت العيان فكيف وعلوم الأنبياء ومعارفهم من وراء طور العقل والعقل وإن لم يستقل بإدراكها فإنه لا يحيلها بل إذا أوردت عليه أقر بصحتها وبادر إلى قبولها وأذعن بالانقياد إليها وعلم أن نسبة العلوم التي نالها الناس بأفكارهم إليها دون نسبة علوم الصبيان ومعارفهم إلى علوم هؤلاء بما لا يدرك.
فصل: السبب الخامس: الإغراب على النفوس بما لم تكن عارفة به من المعاني الغريبة التي إذا ظفر الذهن بإدراكها ناله لذة من جنس لذة الظفر بالصيد الوحشي الذي لم يكن يطمع فيه، وهذا شأن النفوس فإنها موكلة بكل غريب تستحسنه وتؤثره وتنافس فيه حتى إذا كثر ورخص وناله المثري والمقل زهدت فيه مع كونه أنفع لها وخيرا لها ولكن لرخصه وكثرة الشركاء فيه وتطلب ما تتميز به عن غيرها للذة التفرد والاختصاص ثم اختاروا لتلك المعاني الغريبة ألفاظًا أغرب منها وألقوها في مسامع الناس، وقالوا: إن المعارف العقلية والعلوم اليقينية تحتها فتحركت النفوس لطلب فهم

تلك الألفاظ الغريبة وإدراك تلك المعاني واتفق أن صادفت قلوبا خالية من حقائق الإيمان وما بعث الله به رسوله فتمكنت منها فعز على أطباء الأديان استنقاذها منها وقد تحكمت فيها كما قيل:

تالله ما أسر الهوى من وامق　　　　إلا وعز على الورى استنقاذه

ولمكان الاستغراب وقبول النفس لكل غريب لهج الناس بالأخبار الغريبة وعجائب المخلوقات، والألغاز والأحاجي والصور الغريبة وإن كانت المألوفة أعجب منها وأحسن وأتم خلقة.

فصل السبب السادس: تقديم مقدمات قبل التأويل تكون كالأطناب، والأوتاد لفسطاطه فمنها ذم أصحاب الظواهر وعيبهم والإزراء بهم وأنهم قوم جهال لا عقول لهم، وإنما هم أصحاب ظواهر سمعية، وينقلون من مثالبهم وبلههم ما بعضه صدق وأكثره كذب. اهـ

الأصل الآخر القول بالمجاز في نصوص الشرع

والمجاز هو ضد الحقيقة والحقيقة: ما أقر في الاستعمال على وصفه في اللغة والمجاز ما كان بعد ذلك ا.هـ من جناية التأويل الفاسد (٧٣).

وقد نفى كثير من السلف المجاز من المتقدمين والمتأخرين كابن القيم، وشيخه ابن تيمية، وابن عبد البر، والشنقيطي، والسعدي، وابن باز، والألباني، والشيخ مقبل بن هادي الوادعي، رحمهم الله وغيرهم كثير.

حتى سماه بعضهم حمار المبتدعة أي عليه يتسلقون إلى بث أقوالهم الباطلة.

الأصل الثالث:

القول بأن نصوص الشرع أدلة لفظية لا تفيد اليقين وأول من قال بهذا القول الرازي كما أشار إلى ذلك ابن القيم في "الصواعق" (٢/ ٦٤٠).

وهذا قول باطل بل هي أدلة يقينية تدل على العلم سواءً ما كان منها متواتر على زعمهم أو آحاد، فكل ما جاء في القرآن وصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجب الإيمان به لفظاً

ومعنى سواء في العقيدة أو غيرها، ولم يفرق الله سبحانه وتعالى بين متواترة وآحاده قال الله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] فلم يفرق بين الآحاد والمتواتر. اهـ

وهذا التقسيم محدث ليس من عند السلف بل هو من عند المعتزلة الضلال فلنكن على حذر منه.

فرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعثه الله إلى العالم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو واحد وبعث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم للآمر والدعاة والجباة، والعلماء كلهم آحاداً لم يبلغوا حد التواتر على زعمهم ومع ذلك أخذ منهم في باب العقيدة وغيره.

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ: «إنك تأتي قوم من أهل الكتاب فادعهم إلى أن يوحدوا الله» وتوحيد الله هو العقيدة، وتوحيد الالوهية والربوبية والأسماء والصفات.

وقد جعل الإمام البخاري في كتابه كتاب قبول خبر الآحاد وهذه الشبهة قد تصدى لها علماء المسلمين سلفاً وخلفاً فلله الحمد والمنة، وسيأتي في آخر هذا الشرح بسط لهذا الباب.

ثم اعلم أن أهل الزيغ والضلال قد تخطبوا وخلطوا في هذا الباب وغيره غاية التخليط ولتخبيط بل تجد العجب العجاب من تناقضاتهم، فيفرون من شيء فيقعون في شر منه وسنناقش بإذن الله تعالى هذا التناقض باختصار غير مخل فالله يوفق ويسدد.

الرد على الجهمية:

تقدم معتقد الجهمية في الأسماء والصفات وأنهم انقسموا إلى قسمين قسم منهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجود مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل، والوجود المطلق إنما يوجد في الذهن، والذهن قد يتخيل موجودًا لا صفات له، لكن في الشاهد ما من موجود إلا وله صفات.

وقسم يصفونه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق.

معنى قولهم: إنهم يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل أي كقولهم ليس بمستوٍ على عرشه ولا يغضب ولا يحب ولا ينزل إلى غير ذلك، وهذا كما تقدم خلاف معتقد السلف فإن طريق الرسل وأتباعهم هو الإثبات المفصل تقول سميع بصير حي مريد إلى غير ذلك، والنفي المجمل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وأما قولهم بإثبات الوجود المطلق فمعناه أن الوجود المطلق هو المجرد عن جميع الصفات، وهذا الوجود لا حقيقة له إلا في الذهن وليس له وجود خارجي بتاتاً لأن الذات لا تحقق بلا صفة أصلاً كمن يقول أثبت نخلة لا جذع لها ولا ساق ولا ليف ولا غير ذلك.

قال شيخ الإسلام في "التدمرية" بعد ذكر قولهم السابق (ص١٥-١٦):

فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفي الذات فغالبيتهم يسلبون عنه النقيضين، فيقولون لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل لأنهم بزعمهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات فسلبوا عنه النقيضين، وهذا ممتنع في بدائه العقول وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ووقعوا في شر مما فروا منه فإنهم شبهوه بالممتنعات. اهـ

ولتعلم أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان في آن واحد بل يلزم من ثبوت أحدهما عدم الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر أفاده صاحب "التحفة المهدية" (ص٤٨).

وأما قول أصحاب القسم الثاني الذين يصفونه بالسلوب والإضافات فالسلوب جمع سلب، والسلب هو النفي وذلك مثل قولهم: «إن الله ليس بجسم ولا عرض ولا متحيز».

و«الإضافات» هي الأمور المتضايفة التي لا يعقل الواحد منها إلا بتعقل مقابلة مثل قولهم إن الله مبدأ الكائنان وعلة الموجودات، أي أنه لا تعقل العلة إلا بمعلولها ولا المعلول إلا بعلته ومن أمثلة الأمور المتضايفة الأبوة والبنوة فلا تعقل الأبوة إلا ببنوة ولا بنوة إلا بأبوة.

وقولهم دون صفات الإثبات أي أن الله تعالى مجرد عن الصفات الثبوتية ليس له حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام.

قوله: «وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق» يعني أن وجود الله مشروط بسلب كل أمر ثبوتي وعدمي أو بسلب الأمور الثبوتية كما قال بعضهم، أفاده صاحب "التحفة المهدية" (ص٥٢).

قال شيخ الإسلام في "التدمرية" (ص١٧): وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن لا فيما خرج عنه من الموجودات وجعلوا الصفة هي الموصوف. اهـ

ويقال لهذا الجهمي لماذا تنفي الأسماء والصفات؟ فسيقول: لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم القدير.

قيل له: وكذلك إذا قلت: ليس بموجود ولا حي ولا عليم ولا قدير كان ذلك تشبيهاً بالمعدومات وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات.

فإن قال: أنا أنفي النفي والإثبات قيل له: فيلزمك التشبيه بالممتنعات فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجودًا معدومًا أو لا موجود ولا معدوم. اهـ "التدمرية" (ص٣٦).

الرد على المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون ما تضمنته من صفات

فهم أنقسموا إلى قسمين كما بين ذلك شيخ الإسلام في "التدمرية" قسم جعلوا أسماء الله كالأعلام المحضة المترادفات أي الأعلام الخالصة الخالية من الدلالة على شيء آخر والمترادفة على ذات واحدة.

وقسم قالوا عليم بلا علم قدير بلا قدرة فأبثتوا الاسم دون ما تضمنته من الصفات. اهـ بزيادة

وهؤلاء عطلوا الله مما يختص به سبحانه وتعالى فراراً من التشبيه فوقعوا في نظيره أي التشبيه بالمعدومات والممتنعات مع ما يلزمهم من التحريفات والتعطيلات.

قال شيخ الإسلام في "التدمرية" (ص٢٠):

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو واجب قديم بنفسه أي خالق وهو الله تعالى.

وما هو محدث ممكن أي مخلوق يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ولا يلزم من اتفاقهم في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، واتفاقهما فى اسم عام لا يقتضي تماثلهما فى مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتخصيص والتقييد، ولا في غيره؛ فلا يقول عاقل: إن العرش شيء موجود، وإن البعوض شيء موجود إنهما متماثلان هو لإتفاقهما في مسمى الشيء والوجود.

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء فكانت تلك الأسماء مختصة به، إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء، إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ولم يلزم من تماثل الاسمين تماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص ...؛ فقد سمى الله نفسه حياً قال تعالى: ﴿الله لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وسمى بعض عباده حياً فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١]، وليس هذا الحي مثل هذا الحي ثم استطرد رحمه الله في ذكر بعض ما سمى الله به نفسه وسمى به بعض مخلوقاته والخالق منزه عن مشابهة المخلوق.

ويقال للمعتزلي الذي يثبت الأسماء وينفي الصفات ما ذكره شيخ الإسلام في "التدمرية":(٣٥):

لا فرق بين إثبات الأسماء وبين إثبات الصفات فإنك إن قلت إثبات الحياةُ والعلم والقدرة يقتضي تشبيهها وتجسيماً لأننا لا نجد في الشاهد متصفًا بالصفات إلا ما هو جسم، قيل له: ولا نشهد في الشاهد مسمى بأنه حي عليمٌ قديرٌ إلا ما هو جسم فإن نفيت الصفات لكونه لا يوجد في الشاهد إلا ما هو جسم فان نفيت ما نفيت، لكونك لا تجده في الشاهد إلا جسم، فانف الأسماء بل وكل شئ لأنك لا تجد في الشاهد إلا جسم ا.هـ

وإن قال المعتزلة إثبات العلم والقدرة والإرادة يستلزم تعدد الصفات وهذا تركيبٌ ممتنع:

قيل وإذا قلتم أنه موجود واجب وعقل عاقل ومعقول فليس المفهوم من هذا هو المفهوم من هذا فهذه معاني متعددة متغايرة في العقل وهذا تركيبٌ عندكم.

فإن قالوا هذا توحيد في الحقيقة وليس تركيباً ممتنعاً ؟

قيل واتصاف الذات بالصفات الأزمة لها توحيداً في الحقيقة وليس هو تركيب ممتنع ا.هـ من "التدمرية":(صـ١٤،٤٠).

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى في "القواعد المثلى" القاعدة الثانية من قواعد الأسماء: راداً على هؤلاء المعتزلة الذين يقولون يلزم من تعدد الصفات تعدد القدماء قال:

فهذه العلة عليلة بل ميتة لدلالة السمع والعقل على بطلانها، أما السمع: فقال تعالى يصف نفسه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٦] فهذه أوصاف كثيرة لموصوف واحد.

وأما العقل فلأن الصفات ليست ذوات بائنة من الموصوف حتى يلزم من ثبوتها التعدد وإنما هي صفات من اتصف بها فهي قائمة به، وكل موجود لابد له من تعدد صفاته ففيه صفة الوجود وكونه واجب الوجود أو ممكن الوجود وكونه عيناً قائماً بنفسه أو وصفاً في غيره. اهـ

وكذلك من الرد عليهم أن القول في الصفات كالقول في الذات فإذا كان الله له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات.

وقال ابن القيم رحمه الله في "الصواعق المرسلة" (٢/ ٧٢٨):

ومن ذلك خروجهم عن صريح العقل في قولهم إن الرب عالم بلا علم سميع بلا سمع بصير بلا بصر قدير بلا قدرة حي بلا حياة فأنكر عليهم ذلك طوائف العقلاء ا.هـ

وقال رحمه الله في (٣/ ٨٢٤): ويقول أكثر العقلاء إن كون العالم عليم بلا علم وحياً بلا حياة ومريدًا بغير إرادة وسميعاً بصيراً بلا سمع ولا بصر محال بضرورة العقل.

الرد على الأشاعرة ومن وافقهم ممن يثبتون الأسماء وبعض الصفات فقط

من المعلوم أن الأشاعرة ومن وافقها يثبتون سبع صفات جمعها أحدهم نظماً:

حي مريد قادر علام　　　　له السمع والبصر والكلام

ويقولون: هذه الصفات دل عليها العقل فيجعلونها حقيقة ثم ينازعون في المحبة والرضا والسخط ويفسرونها، أما بالإرادة أو ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

فنقول لهم: القول في بعض الصفات كالقول في البعض فإن قلت له إرادة كإرادة المخلوقين كذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل بعينه وإن قال له إرادة تليق به قيل له وكذلك له محبة تليق به.

فإن قال الغضب غليان الدم في القلب لطلب الانتقام، قيل له الإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ودفع مضرة.

فإن قال هذه إرادة المخلوق، قيل له هذا غضب المخلوق، فإن قال هذه الصفات السبع إثباتها بالعقل لأن العقل الحادث دل على قدرة والتخصيص دل على الإرادة والإحكام دل على العلم، وهذه الصفات مستلزمه للحياة والحي لا يخلو من السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك.

قيل له جوابان:

الأول: افرض أن العقل لم يدل عليها فقد دل عليها دليل آخر، وهو الكتاب والسنة فإن نفيت عليك الدليل كما أن من أثبت عليه الدليل.

الثاني: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك أي بالعقل فيقال نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة وإكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم، وهكذا دواليك.

الرد على الممثلة والمشبهة

تقدم بيان معتقد هذه الفرقة الضالة وأنهم يشبهون ويمثلون الله بخلقه واعلم أنهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: من شبه ذات الرب عز وجل بذات المخلوق ومن أمثلة هذا السبئية والهاشمية، والسبئية هم

الذين قالوا إن علياً رضي الله عنه إلهاً وشبهوه بذات الإله، والهاشمية هم أتباع هشام ابن الحكم لعنه الله الذي قال: إن الله سبعة أشبار بشبر نفسه، تعالى الله عن هذا البهتان علواً كبيراً.

الثاني: من شبه صفات رب العالمين بصفات غيره من المخلوقات وضلال مذهبهم ظاهر البطلان، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. اهـ "القواعد الكلية" (ص٤٣-٤٤).

قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٢٦٤):

فليس فيها «أي النصوص والآثار» أن صفة المخلوق هي صفة الخالق بل ولا مثلها بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ا.هـ

وقال رحمه الله في (٥/ ٣٢٥): فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات، فإن الذاتين المختلفين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات.

وقال رحمه الله (٣/ ٨٧): فإن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كل واحدة ما يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق من العدم والحاجة، وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة. اهـ

الرد على أهل التفويض:

سماهم ابن القيم رحمه الله أهل التجهيل لأنهم جهلوا السلف والأنبياء رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين فقال رحمه الله في الصواعق المرسلة (٢/ ٤٢٢).

الصنف الثالث: أهل التجهيل الذين قالوا نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا ندري ما أراد الله ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بها ولكن نقرها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزلة «كهيعص»، «حم عي سق»، «المص» ... إلى أن قال رحمه

الله: وبنو هذا المذهب على أصلين، أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه، الثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله.

فنتج من هذين الأصلين تجهيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأنهم كانوا يقرأون ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويروون: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا»، ولا يعرفون معنى ذلك ولازم قولهم إن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا تجري على ظواهرها وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلاً ويقولون تجري على ظواهرها ويقولون الظاهر منها غير مراد والرب منفرد بعلم تأويلها وهل في التناقض أقبح من هذا.

فهؤلاء غلطوا في المتشابه وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله وفي جعل هذه النصوص من المتشابه فأخطؤا في المقدمات الثلاث ا.هـ

ومن الأدلة على بيان فساد منهجهم أن الله خاطب المؤمنين وأنزل عليهم ما يفهمونه ويعرفون معانيه، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿هَـذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة : ١٥]، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى واصفاً القرآن بأنه عربياً والكلام العربي يعقل ويعرف المراد منه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب.

وقد دلت النصوص على تيسير القرآن للناس حتى يفهمونه ويعقلونه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

والفرقة الناجية وسط في باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية[١].

الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وأمر بالتدبر سبحانه وإنما يكون التدبير لما يعقل ويفهم قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] إلى غير ذلك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

وكذلك كثرة الآيات الدالة على إثبات الصفات ولم يرد في حرف واحد أن الصحابة رضوان عليهم سألوا عن معانيها أو ما المراد بها لأنهم فقهوا قول الله ومراده سبحانه وتعالى.

ويستحل عقلاً أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي علمنا كل شيء حتى الخرآة كما قال سلمان رضي الله عنه وترك هذا الباب بدون بيان وهو القائل: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم»، وعلم الأسماء والصفات هو أشرف العلوم فمن المحال أنهم لا يعرفون معاني الآيات ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بين أظهرهم لا يسألونه ولا يعلمهم، وقد تقدم النقل عن ابن القيم رحمة الله عليه في بيان تناقض مذهبهم وما هذا إلا لبطلانه وفساده.

فهذه إلماحة لما ينبغي أن يعرفه من رام معرفة مولاه سبحانه وتعالى على ما سار علي السالفون من أئمة الهدى ومصابيح الدجى أصحاب العقائد السليمة، والفطر المستقيمة، والطرق القويمة، أهل الخير والأثر، والفقه والنظر، فمن سلك غير هذا السبيل في هذا الباب، ضل عن سواء السبيل.

[١] قوله: «والفرقة الناجية وسط في باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية» لما ذكر الإمام رحمه الله تعالى في أول رسالته أصول الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خير وشره، وبين أنه على عقيدة السلف في أسماء الله وصفاته مخالفاً بذلك فرقتي المعطلة والممثلة، وقرر هذا الأصل الذي هو داخل في الإيمان بالله عز وجل؛ لأن الإيمان بالله يشمل الإيمان بتوحيد الربوبية والإيمان بتوحيد الألوهية والإيمان بتوحيد الأسماء والصفات، ثم ذكر في هذه

الجملة ما يتعلق بالأصل الأخير وهو الإيمان بالقدر؛ لأن هذا وقع فيه خلاف وتفرق بين طوائف القدرية والجبرية. (أفاده الفوزان في شرحه).

قوله (وسط): أي خيار قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة : ١٤٣]، قال البخاري: قال مجاهد: أي خيار.

وما من عمل إسلامي إلا وللشيطان فيه نزغتان نزغة إلى الغلو ونزغة إلى الجفأ. (أفاده ابن القيم وابن باز رحمهما الله).

والسلامة هي في طريقة المرسلين والسابقين من أئمة الدين الذين أخبر الله عز وجل أن مشاقتهم هلاك حيث قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥].

وباب القدر هو باب عظيم القدر والنفع يُزاد به الإيمان ويتحقق به الإحسان قال الإمام الوادعي في مقدمة كتابه «الجامع الصحيح في القدر» (١٠/ ١١): وإني بحمد الله سبحانه فأول من استفاد من هذا البحث أنا فقد ازددت بحمد الله ثباتاً ومحبة لعقيدة أهل السنة والجماعة، وقال رحمه الله (١٢/ ١٣): ثمرات الإيمان بالقدر:

١- أداء عبادة الله عز وجل فالقدر مما تعبدنا الله تعالى به.

٢- قوة الإيمان فالذي يؤمن بالقدر لا يتزعزع، ولا يبالي بما ناله في سبيل الحق.

٣- الشجاعة والإقدام.

٤- الطمأنينة وتخفيف الهموم.

٥- الصبر والاحتساب.

٦- الكرم.

٧- الإخلاص.

٨- التوكل واليقين والاعتماد على الله والاستسلام له: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ [التوبة:

٥١].

٩- عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين والتمسح بأتربة الموتى ودعاء غير الله؛ لأنه يعلم أن هذه الأمور لا تملك ضراً ولا نفعاً لم يرده الله.

١٠- القناعة وعدم التكالب على الدنيا.

١١- التواضع فإذا رفعه الله بمال وجاه وعلم فهو يعلم أنه من عند الله ولو شاء الله لانتزعه منه.

١٢- إغاظة المبتدعة الذين يتحكمون في حكمة الله وشرعه. اهـ

قال السفاريني في «لوامع الأنوار» (١/ ٣٤٨): والقدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدر. اهـ

وقال: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أغدق الله الرحمة على ضريحه إن علم الله السابق محيط بالأشياء كما هي عليه ولا محو فيه، ولا تغير ولا زيادة ولا نقص فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون. اهـ

قال أبو بكر بن أبي داود:

وبالقدر المقدور أيقن فإنه دعامة عقد الدين والدين أفيح

ولأهمية هذا الباب فقد عقد له الأئمة كتباً ومصنفات وفصولاً وأبواباً ساقوا فيه الأحاديث والآيات، وردوا فيه على الأقوال البائرات والعقائد الزائغات، واعلم وفقك الله لمرضاته أن العمدة في هذا الباب هو التسليم لفعل الله ومراده وقدرته وإحاطته قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

ويدل على ذلك أيضًا ما أخرجه ابن ماجه رحمه الله في «سننه» من حديث ابن الديلمي قال: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ خَشِيتُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ دِينِي وَأَمْرِي؛ فَأَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: أَبَا الْمُنْذِرِ

إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ؛ فَخَشِيتُ عَلَى دِينِي وَأَمْرِي، فَحَدِّثْنِي مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قُبِلَ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ أَخِي عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَتَسْأَلَهُ؛ فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ فَسَأَلْتُهُ فَذَكَرَ مِثْلَ مَا قَالَ أُبَيٌّ، وَقَالَ لِي: وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ حُذَيْفَةَ، فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَا، وَقَالَ: ائْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَاسْأَلْهُ، فَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ؛ فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ.

وعند أحمد (٢/ ٢١٢) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره».

والتكذيب بالقدر أصل من أصول أهل الشرك؛ فقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَدَرِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

والقدر سر الله عزوجل لم يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٦٥٣): «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث (١٦/ ٢٠٣): قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له، وقوله: «وعرشه على الماء»، أي: قبل خلق السموات والأرض والله أعلم.

وقال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٦٦٨-٦٦٩): أي: أثبتها في الوح المحفوظ، كما قلناه آنفا، أو فيما شاء، فهو توقيت للكتب، لا للمقادير؛ لأنَّها راجعة إلى علم الله تعالى وإرادته، وذلك قديم لا أول له، ويستحيل عليه تقديره بالزمان؟ إذ ألحق سبحانه وتعالى بصفاته موجود، ولا زمان ولا مكان. اهـ

وفي شرح «اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٧٠٢).

قال الربيع بن سليمان: كنت جالسًا عند الشافعي وذكر القدر، فأنشأ يقول:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

على ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن

فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن

وإليك سوق بعض الأحاديث التي تبين أن القلم قد جف بما هو كائن، وأن الله عزوجل قد فرغ من العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

اتفق البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) على حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ؛ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؛ فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ**

إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا؛ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

وأخرج مسلم (٢٦٤٤) من حديث حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً؛ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ؛ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ».

واتفق البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ؛ فَأَتَانَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ؛ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ؛ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ الله مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَقَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

وأخرج مسلم (٢٦٤٨) عن جابر رضي الله عنه قال: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا، كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ، أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ؟ أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ» قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ زُهَيْرٌ: ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ؛ فَسَأَلْتُ مَا قَالَ: فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ».

واتفق البخاري (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩) على هذا من حديث عمران بن حصين قَالَ: قِيلَ يَا

رَسُولَ الله: أَعُلِمَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: فَقَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: قِيلَ: فَفِيمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

وفي مسلم (٢٦٥٠) عن أبي الأسود الدؤلي قال: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؛ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ الله وَمِلْكُ يَدِهِ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ الله إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَا: يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**لَا بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**».

وأخرج مسلم (٢٦٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وجاء عن سهل بن سعد متفق عليه، البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ؛ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا؛ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ؛ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها (٢٦٦٢) أنها قالت: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ طُوبَى لِهَذَا عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلْ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ**».

وفي مسلم (٢٦٦٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ**».

وتقدمت بعض الأحاديث وما فيها من سبق العلم والقدر، ولكن مع ذلك فيها الحض والحث على ملازمة الأعمال الصالحة.

قال القرطبي رحمه الله في «المفهم» (٦/ ٦٥٨): حاصل هذا السؤال أنه إذا وجبت السعادة والشقاوة بالقضاء الأزلي، والقدر الإلهي، فلا فائدة للتكليف، ولا حاجة بنا إلى العمل فنتركه، وهذه أعظم شبه النافين للقدر، وقد أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يبقى معه إشكال، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-

١٠]، ووجه الانفصال: أن الله تعالى أمرنا بالعمل، فلا بد من امتثال أمره ، وغيب عنا المقادير لقيام حجته وزجره، ونصب الأعمال علامة على ما سبق في مشيئته، وحكمته، وعزه لايسأل عما يفعل وهم يُسألون، يخضع له المتكبرون. اهـ

وبعد أن عرفت أن القدر هو علم الله الأزلي ينبغي أن تعرف أن إرادة الله عز وجل تنقسم إلى قسمين إرادة كونية قدرية وإرادة شرعية قدرية والفرق بينهما أن الإرادة الكونية واقعة لا محالة بينما الشرعية قد تقع، وقد لا تقع.

والكونية لا تعلق لها بالمحبة فتكون فيما أحبه الله عز وجل وفيما لا يحبه، أما الإرادة الشرعية فلا تكون إلا فيما يحبه الله عز وجل والإرادة الكونية مرادفة للمشيئة والإرادة الشرعية مرادفة للمحبة، والإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه والشرعية متعلقة بألوهيته وشرعه أي عبادته وأمره ونهيه.

والإرادة الكونية والشرعية تجتمعان في حق المطيع وتنفردان في حق العاصي وبهذا التقسيم تسلم من تهوكات المبطلين المنحرفين المخالفين للحق المبين من الجبرية والقدرية وسبب ضلال الطائفتين أنهم جعلوا المشيئة هي المحبة قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل» (١/ ٣٧٨): ومن لم يفرق بين المشيئة والمحبة لزمه أحد أمرين باطلين لا بد له من التزامه، أما القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسوق والعصيان، أو القول بأنه ما شاء ذلك ولا قدره ولا قضاه وقد قال بكل من المتلازمين طائفة قالت طائفه (يريد الجبرية والقدرية) لا يحبها ولا يرضاها فما شاءها ولا قضاها وقالت طائفة: هي واقعة بمشيئته وإرادته فهو يحبها ويرضاها فاشترك الطائفتان في هذا الأصل وتبايناً في لازمه. اهـ

فعلم سبب ضلال الفريقين وما وقعوا فيه من الشين والحين، واعلم وفقك الله عز وجل أن القدرية النفاة ويقال لهم: المعتزلة ينقسمون إلى قسمين نفاة العلم وهم الذين ظهروا في عهد ابن عمرو رضي الله عنهم كما في مسلم رقم (٨) قال يحيى بن يعمر: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ

الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ.

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث: واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه: أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم – سبحانه- أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى.

وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه –سبحانه وتعالى- لم يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها، وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجل عن أقوالهم الباطلة علوا كبيرا، وسميت هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر، قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر؛ ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره، تعالى الله عن قولهم. اهـ

والنوع الثاني: نفاة خلق الشر وهؤلاء يسمون مجوس هذه الأمة قال الخطابي: إنما جعلهم صلى الله عليه وسلم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة فصاروا، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره ، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعا لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقا وإيجادا وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلا واكتسابا والله أعلم .

وسيأتي الكلام عن هذه الفرقة بتوسع والرد على شبههم إن شاء الله عند قوله رحمه الله: (وأؤمن بأن الله فعال لما يريد).

والنوع الثاني من القدرية وهم أتباع الجهم بن صفوان وظهروا في آخر الدولة الأموية وزعموا أن العبد مجبور على فعله وأنه كالريشة في مهب الريح أو كالميت بين يديَّ المغسل، وتسمى هذه الفرقة بالجبرية، لزعمهم أن الإنسان مجبور في فعله، وهل هو مثاب على فعله أم معاقب؟ على قولين لهم، ووصل الحال ببعضهم أن يقول: (أصبحت مفعلاً لما ينتابني، ففعلي كله طاعات) أي: سواءً كان بفعل طاعة أم بفعل معصية.

قال الشهرستاني في «الملل والنحل» (١/ ٩٠):

الجبر: هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً؛ فأما من أثبت للقدرة أثراً ما في لفعل، وسمى ذلك كسباً؛ فليس بجبري.

قلت: بل جبرية كما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل وهؤلاء هم الأشاعرة والجبرية استدلوا بشبة ظنونها علوماً وعند المحاققة يظهر أن استدلالهم به على الباطل كان من الجهالات ويظنونها جيوشاً زاحفة وإذا بها تتقهقر أمام جاحفل الحق والسنة.

من هذه الشبهة قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩].

قال ابن تيمية رحمه الله كما في «المجموع» (٨/ ٤٨٨): لا يدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري ولا أنه ليس بقادر عليه ولا أنه ليس بمريد ؛ بل يدل على أنه لا يشاؤه إلا أن يشاء الله وهذه الآية رد على الطائفتين : المجبرة الجهمية والمعتزلة القدرية فإنه تعالى قال : ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير : ٢٨] فأثبت للعبد مشيئة وفعلا ثم قال : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩] فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله، والأولى رد على الجبرية وهذه رد

على القدرية الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله كما يقولون: إن الله يشاء ما لا يشاءون . وإذا قالوا : المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم والمعنى وما يشاءون فعل ما أمر الله به إن لم يأمر الله به . قيل : سياق الآية يبين أنه ليس المراد هذا ؛ بل المراد وما تشاءون بعد أن أمرتم بالفعل أن تفعلوه إلا أن يشاء الله فإنه تعالى ذكر الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ نفي لمشيئتهم في المستقبل، وكذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تعليق لها بمشيئة الرب في المستقبل فإن حرف (أن) تخلص الفعل المضارع للاستقبال فالمعنى: إلا أن يشاء بعد ذلك والأمر متقدم على ذلك وهذا كقول الإنسان: لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله ، وقد اتفق السلف والفقهاء على أن من حلف فقال: لأصلين غدا إن شاء الله أو لأقضين ديني غدا إن شاء الله ومضى الغد ولم يقضه أنه لا يحنث ولو كانت المشيئة هي الأمر لحنث ؛ لأن الله أمره بذلك وهذا مما احتج به على القدرية وليس لهم عنه جواب ولهذا خرق بعضهم الإجماع القديم وقال إنه يحنث.

و أيضاً فقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩] سيق لبيان مدح الرب والثناء عليه ببيان قدرته وبيان حاجة العباد إليه، ولو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بها، وإن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحا لهم ؛ لا له.

واحتج القدرية أيضاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء : ٧٨ ، ٧٩].

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٨/ ١٦١-١٦٢): فإن كثيرا من الناس يظن أن المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعات والمعاصي، ثم المثبتة للقدر يحتجون بقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ

عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء : ٧٨] فيعارضهم قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء : ٧٩]، ونفاة القدر يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم في ذلك ؛ فإن مذهبهم : أن العبد يخلق جميع أعماله ويعارضهم قوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. وإنما غلط كلا الفريقين ؛ لما تقدم من ظنهم أن الحسنات والسيئات هي الطاعات والمعاصي وإنما الحسنات والسيئات في هذه الآية النعم والمصائب. اهـ

ومن شبههم أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧].

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٣٨): فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧] فهو دليل عليهم ؛ لأنه تعالى أثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رميا ، بقوله : ﴿إِذْ رَمَيْتَ ﴾، فعلم أن المثبت غير المنفي ، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء : فابتداؤه الحذف ، وانتهاؤه الإصابة ، وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ – والله تعالى أعلم : وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب . وإلا فطرد قولهم : وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى ! وما صمت إذ صمت ! وما زنيت إذ زنيت ! وما سرقت إذ سرقت ! ! وفساد هذا ظاهر .

فأهل السنة والجماعة هم وسط بين الجبرية الذين لا يثبتون للعبد استطاعة ولا قدرة ولا مشيئة ولا فعل وبين القدرية الذين يزعمون أن أفعالهم مخلوقة لهم ومربوة لهم. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل» (١/ ١٩٩): فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قدير لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات، وهذا حق ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأنه الفاعل حقيقة، وأفعاله قائمة به، وأنها فعل له لا لله، وأنها قائمة به لا بالله». اهـ

وهكذا القول في أدلة القدرية الصحيحة فيها رد على الجبرية الذين ينفون فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره وأنه ليس بفاعل شيء والله يعاقبه على ما لم يفعله وهكذا قال ابن القيم رحمه الله:

وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب، وبعضهم أقرب إلى الصواب، وبعضهم أقرب الى الخطأ، وأدلة كل منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطاء الطائفه الأخرى لا على إبطال ما أصابوا فيه، فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قدير لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات، وهذا حق ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأنه الفاعل حقيقة، وأفعاله قائمة به وأنها فعل له لا لله، وأنها قائمة به لا بالله وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فأنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادرا على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين، فأدلة الجبرية متظافرة صحيحة على من نفى قدرة الرب سبحانه على كل شيء من الأعيان والأفعال ونفى عموم مشيئته وخلقه لكل موجود، وأثبت في الوجود شيئاً بدون مشيئته وخلقه وأدلة القدرية متظافرة صحيحة على من نفى فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره، وقال: أنه ليس بفاعل شيئاً والله يعاقبه على ما لم يفعله ولا له قدرة عليه، بل هو مضطر إليه مجبور عليه، وأهل السنة وحزب الرسول وعسكر الإيمان لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم براء من باطلهم. اهـ

وأما قول الأشاعرة بالكسب فلا يخرجهم من الجبر وذلك؛ الأشاعرة ذهبوا إلى أن للمخلوق كسباً وأن المخلوق كالآلة فعاد القول بأن المخلوق مجبور على فعله إلا أن الجهمية صرحوا بقولهم بالجبر والأشاعرة دلسوا قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٨/ ١١٧): وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون في القدر فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة : الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة، والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين فلا تكون فعلا له، وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر بل هي فعله وليست أفعالا للعباد بل هي كسب للعبد : وقالوا : إن قدرة العبد لا تأثير لها في

حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاتها، وإن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها، فيكون الفعل خلقا من الله إبداعا وإحداثا وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته وقالوا : إن العبد ليس محدثا لأفعاله، ولا موجدا لها ومع هذا فقد يقولون : إنا لا نقول بالجبر المحض، بل نثبت للعبد قدرة حادثة والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة .

وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه وبين الخلق فقالوا : الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة وقالوا : أيضاً الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه، فقال لهم الناس : هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك ؛ فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم في محل القدرة الحادثة، و أيضا فهذا فرق لا حقيقة له، فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه: وهو مبني على أصلين إن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه، وإن خلقه للعالم هو نفس العالم وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك، والثاني: إن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها، ولا يكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها، وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه، و أيضا فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجا عن المحل، و أيضا قال لهم المنازعون : من المستقر في فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل ومن فعل الظلم فهو ظالم، ومن فعل الكذب فهو كاذب، فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله، بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم. اهـ

وقال رحمه الله (٨/ ١٢٧): واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلا لله رب العالمين دون العبد، ثم أثبتوا كسبا لا حقيقة له ؛ فإنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ويقولون: ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طفرة النظام وأحوال أبي هاشم وكسب الأشعري، واضطروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في

وسطية أهل السنة بين المرجئة والوعيدية

وهم في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية[1].

المقدور بمجرد الاقتران العادي، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم ولازمه، ويقع بين المقدور والقدرة فليس جعل هذا مؤثرا في هذا بأولى من العكس ويقع بين المعلول وعلته المنفصلة عنه مع أن قدرة العباد عنده لا تتجاوز محلها، ولهذا فر القاضي أبو بكر إلى قول وأبو إسحاق الإسفراييني إلى قول وأبو المعالي الجويني إلى قول ؛ لما رأوا ما في هذا القول من التناقض. اهـ

قال ابن تيمية في «الواسطية» (١٣-١٦): هم الوسط في فرقة الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى: بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة: وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم. اهـ

[1] قوله: «وهم في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية» قال ابن الأثير في «النهاية» (٥/ ٢٠٦): وقد تكرر ذكر [الوعد والوعيد] فالوعد يستعمل في الخير والشر، يقال: وعدته خيراً، ووعدته شراً، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: الوعد والعدة، وفي الشر ـ الإيعاد والوعيد، وقد أوعده يوعده. اهـ

وسبب ضلال المرجئة أنهم نظروا إلى أدلة الوعد وغفلوا عن أدلة الوعيد بينما الوعيدية نظروا إلى أدلة الوعيد وغفلوا عن أدلة الوعد حتى قال الأشعري في «المقالات» (١/ ٢٠٤): وأجمع أصحاب الوعيد من المعتزلة أن من أدخله الله النار خلده فيها. اهـ

والمرجئة فرق عدة، وسموا بذلك لقولهم بالإرجاء وهو تأخير العمل عن مسمى الإيمان ومن التأخير قوله تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف : ١١١] وهي من أصول البدع حتى قال يوسف بن أسباط: (أصول البدع أربعة الرافضة والخوارج والمرجئة والقدرية، ومن هذه الأصول تتفرع بقية فرق المسلمين).

وكلام السلف في ذم هذه الطائفة كثير، قال يحيى ابن أبي كثير وقتادة: (ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٧٣٣)، والآجري في «الشريعة» (٣٠١) وما ذلك إلا؛ لأن المرجئة يهونون على أصحاب المعاصي معاصيهم حتى أن ميمون بن مهران خرج على جارية تغني فقال: (العجب ممن يزعم أن إيمان هذه مثل إيمان مريم ابنت عمران) أخرجه أبو عبيد في «الإيمان».

وذكر أبو بكر بن عياش رحمه الله أبا حنيفة وأصحابه الذين يخاصمون فقال: كان مغيرة يقول: (والله الذي لا إله إلا هو لأنا أخوف على الدين منهم من الفساق).

وحلف الأعمش فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما أعرف من هو شر منهم، قيل لأبي بكر: يعني: المرجئة؟ قال: المرجئة وغير المرجئة. أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنة» (٢٥٨).

وكانوا ينهون عن مجالسة المرجئة، ويزهدون فيهم لعظم ضررهم على الدين وأهله، حتى قال سلام بن أبي مطيع: كنت يومًا مع أيوب السختياني في المسجد الحرام؛ فرآه أبو حنيفة؛ فأقبل نحوه؛ فلما رآه أيوب قال لأصحابه: قوموا لا يعدنا بجربه، قوموا لا يعدنا بجربه. أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنة» (٢٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٩٧).

وكان أيوب يقول: أنا أكبر من المرجئة.

قال ابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» (٢/ ١٨٢) في تعريف المرجئة هم: من كان من قول الإيمان قول لا عمل، وفي من كان من مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان، وإنما الإيمان هو التصديق بالقول دون العمل المصدق بوجوبه.

وقال ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٢٠٦): هم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. اهـ

والمرجئة أنواع منهم مرجئة الجهمية الذين يزعمون أن الإيمان هو المعرفة فقط، وعلى هذا القول يكون فرعون وإبليس من المؤمنين؛ لأنهم عرفوا ربهم قال الله عز وجل عن فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا

بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل : ١٤]، وذهبت الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، وعلى هذا القول يكون المنافقون مؤمنون؛ لأنهم كانوا يقولون الإيمان بألسنتهم، وذهبت الماتريدية إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان شيء زايد، وذهبت مرجئة الفقهاء إلى أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب، وكل هذه التعاريف باطلة وقائمة على إخراج الأعمال من مسمى الإيمان، والقول الحق هو قول أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وسيأتي سبب قولهم بهذا القول عند قول المؤلف رحمه الله: (وهو وسط في باب الإيمان والدين).

والوعيدية ينقسمون إلى قسمين: الخوراج والمعتزلة.

أما الخوارج: فقولهم واضح في تكفير مرتكب الكبيرة، والحكم بتخليده في النار.

قال الشهرستاني في «الملل والنحل» (١/ ١٢٢): اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة؛ خرج به عن الإسلام جملة، ويكون مخلداً في النار مع سائر الكفار.

ووافق الأزارقة المكرمية من الخوارج لكن قالوا بأن من أتى كبيرة، فقد جهل حق الله سبحانه وتعالى، وبتلك الجهالة كفر لا بركوبه المعصية. اهـ «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٨٢).

وأيضًا هو قول الشراة من الخوارج، قال الملطي: والشراة كلهم يكفرون أصحاب المعاصي ومن خالفهم في مذهبهم. اهـ من كتاب «الخوارج وتاريخهم» (٣٣٨).

قال البغدادي في «الفرق بين الفرق» (٨١): فهذه قصة المحكمة الاولى وكان دينهم كفار على وعثمان وأصحاب الجمل ومعاوية واصحابه والحكمين ومن رضى بالتحكيم وإكفار كل ذى ذنب ومعصية. اهـ

وكذلك اليزيدية من الخوراج فقولهم: أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كمغار مشركون، وكل ذنب صغير أو كبير فهو شرك. اهـ «الملل والنحل» (١/ ١٣٦).

وكذا الشبيبية قالوا: من واقع حرامًا لم يعلم تحريمه فقد كفر. اهـ «الملل والنحل» (١/ ١٢٧).

والنجدات فصلوا، قال الأشعري في «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٧٥): وزعموا أن من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة؛ فأصر عليها فهو مشرك، وإن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر- فهو مسلم. اهـ وأيضًا لم يكفروا موافقيهم وإن كانوا من أهل الحدود.

قال الأشعري في «المقالات» (١/ ١٧٥): وتولوا أصحاب الحدود والجنايات من موافقيهم، وقالوا: لا ندري لعل الله يعذب المؤمنين بذنوبهم في غير النار بقدر ذنوبهم، ولا يخلدهم في العذاب، ثم يدخلهم الجنة.

وقال ابن حزم في «الفصل» (٤/ ١٩٠): وقالوا -أي: النجدات- أصحاب الكبائر منهم ليسوا بكفار، وأصحاب الكبائر من غيرهم كفار. اهـ

وأيضًا هذا قول الحسينية منهم، والتكفير بالمعاصي قول الصغرية، منهم وغيرهم من فرقهم التي ليس هذا موضع بسط معتقداتها.

وهذا القول صدر منهم لقولهم بعدم وزيادة الإيمان ونقصانه كما سيأتي بيانه في سب ضلال المرجئة والوعيدية في هذا الباب.

وأما القسم الثاني من الوعيدية فهم المعتزلة، الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين، أي: في الدنيا، لا يقال عند مرتكب الكبيرة مؤمن، ولا يقال عنه كفار، وفي الآخرة يخلد في النار، كما قالت الخوارج، وهذا القول منهم مبنيٌّ على الأصل الرابع من أصولهم الخمسة التي سيأتي ذكرها إن شاء الله.

قال الشهرستاني في «الملل والنحل» (١/ ٦٠): دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة؛ فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا؟

ففكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن

مطلقًا ولا كافر مطلقًا بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر.

ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه المعتزلة. اهـ

قال القاضي عبدالجبار المعتزلي في «شرح الأصول الخمسة»: صاحب الكبيرة له اسم بين الإسمين، فلا يكون اسمه اسم كافر، ولا اسم مؤمن، وإنما يسمى فاسقًا وكذلك صاحب الكبيرة له حكم بين الحكمين، فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين. اهـ من «المعتزلة وأصولهم الخمسة» (٢٥٦).

قال الاسفرائيني في «التبصرة في الدين» (٤٢): ومما اتفقت عليه المعتزلة من فضائحهم قولهم: إن حال الفساق الملي يكون في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا هو كافر، وإن مات قبل أن يتوب، فهو مخلدًا في النار، ولا يجوز لله تعالى أن يغفر له ولا يرحمه. اهـ من «المعتزلة وأصولهم الخمسة» (٢٥٦).

فهذان الطرفان المرجئة، الذين لا يرون أنه يضر مع الإيمان شيء من الذنوب، والخوارج والمعتزلة الذين يكفرون صاحب الكبيرة سببه عندهم، ما قاله شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٧/ ٥١٠-٥١١): ثم قالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان، وقالت المرجئة والجهمية: ليس الإيمان إلا شيئا واحدًا لا يتبعض أما مجرد تصديق القلب، كقول الجهمية أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءًا منه؛ فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهو قول المعتزلة والخوارج لكن قد يكون له لوازم ودلائل، فيستدل بعدمه على عدمه، وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين.

وسطية أهل السنة في باب الإيمان

وهم وسط في باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية[1].

وسيأتي في باب الإيمان الكلام بشيءً من التفصيل حول المسألة حتى تكون الصورة أوضح إن شاء الله عزوجل الذي يهمنا أن تعرف أن أهل السنة وسط بين طرفين، ووسط بين نقيضين، والحمد لله رب العالمين، والذي يُعلم هنا أن معتقد أهل السنة والجماعة قائم على أدلة الكتاب والسنة الصحيحة قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] قال الطحاوي رحمه الله: (وأهل الكبائر في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون) وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وإن شاء عذبهم بالنار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته. اهـ

[1] قوله: «وهم وسط في باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية» سيأتي تعريف الإيمان في بابه، وأما الدين فيأتي لعدة معان، منها: الطاعة والجزاء، واستعير للشريعة والدين كالملة، لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والإنقياد للشريعة. اهـ من «بصائر ذوي التمييز».

الحرورية هي: الخوارج وسموا بهذا الإسم؛ لأنهم لما خرجوا على جماعة المسلمين اعتزلوا وتجمعوا في منطقة يقال لها: حروراء.

قال الأشعري في «مقالات الإسلاميين» (١/ ٢٠٧): والذي سموا له حرورية نزولهم بحروراء في أول أمرهم. اهـ

وهم فرق كثيرة، ولهم معتقدات فاسدة غير ما ذكر من تكفيرهم للمسلمين، فكثيرة منهم في باب الصفات مأولة، لاسيما الإباضية منهم يسيرون على مذهب أهل الإعتزال والعياذ بالله عزوجل، كما سترى عند ذكر أصول المعتزلة الخمسة، وقد استوفيت الرد عليهم في مؤلف مستقل اسمه «تحذير العباد من غاية المراد في نظم الاعتقاد».

وينفون رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (١٢٩): المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة، ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

وفي مسألة القرآن هم على مذهب الإعتزال أيضًا، قال الأشعري في «المقالات» (١/ ٢٠٣): والخوارج جميعًا يقولون: بخلق القرآن.

وكثير منهم في باب القدر يوافق القدرية النفاة وكثير يوافقون الجبرية وبعضهم يقول بقول أهل السنة والجماعة في هذا الباب.

وذهبت طائفة منهم إلى أن الجنة والنار غير موجودتين الآن.

وأكثرهم ينكرون عذاب القبر، وينكرون الشفاعة لأهل الكبائر من هذه الأمة، قال أبو محمد بن حزم في «الفصل» (٤/ ٦٣): اختلف الناس في الشفاعة، وأنكرها قوم من المعتزلة والخوارج، وكل من تبع أن لا يخرج أحد من النار بعد دخولها. اهـ

والإباضية منهم تنكر الميزان، حتى قال النفوس الإباضي:

فوزن أفاعيل العباد تميز ... لينظر في عقبي مسيءٍ ومحسن
وليس بميزان العمود وكفه ... بل الوزن للنيات من كل دين

وسيمر معنا إن شاء الله معتقد أهل السنة في الميزان، وأنه له لسان وكفتان.

وكذلك أنكرت الإباضية الصراط مع أن أحاديثة نابتة في «الصحيحين» وغيرهما كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين: «ويضرب جسر جهنم» وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله

عزوجل.

ولهم مواقف مخالفة لكثير من معتقدات المسلمين من أهل السنة والجماعة وموافقة لمعتقدات المعتزلة والجهمية، وأصحاب علم الكلام.

وأما المعتزلة فقد تقدم سبب تسميتهم بهذا الاسم، واعلم أنهم قد جعلوا لأنفسهم خمسة أصول يسيرون عليها وينتصرون لها وظاهر هذه الأصول الخمسة الرحمة لمن لا يعرف ما عليه القوم وباطنها العذاب.

فالأصل الأول من أصولهم: التوحيد: ويقصدون بذلك تعطيل الله عز وجل مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم.

الأصل الثاني: العدل: ويريدون به نفي خلق الله عز وجل لأفعال العباد والطعن في باب القدر ويوجبون على الله أن يفعل الأصلح للعبد وكأنهم والعياذ بالله متحكمون في أفعاله تعالى الله عن قولهم.

الأصل الثالث: وأنفاذ الوعيد ويقال له الوعد والوعيد، فهم يوجبون على الله عز وجل أنفاذ ما توعد به أصحاب الكبائر مع أن الله عز وجل فعال لما يريد يغفر لمن يشاء فضلاً ويعذب من يشاء عدلاً قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (١/ ٣٢٨): إن أهل السنة قالوا: يجوز أن يعفو الله عن المذنب وأن يخرج أهل الكبائر من النار فلا يخلد فيها من أهل التوحيد أحد. اهـ

وقال ابن القيم رحمهم الله في «المدارج» (١/ ٣٩٦): هذا وعيد وإخلاف الوعيد لا يذم، بل يمدح والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد، ولا يجوز عليه خلف الوعد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فإخلافه عفو وهبة وإسقاط، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه والوعد حق عليه أوجبه على نفسه والله لا يخلف الميعاد. اهـ

وأما في الوعد فذهب المعتزلة إلى أن وجوبه على الله استحقاقاً بسبب أعمالهم تعالى عن قولهم بينما أهل السنة يقولون إن الله إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه واجباً بحكم وعده فإنه الصادق في خبره

الذي لا يخلف الميعاد. (أفاده شيخ الإسلام كما في «المنهاج» (١/ ٣١٥)

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين وقد تقدم الكلام عليها.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويريدون به الخروج على الحاكم المسلم وعدم السمع والطاعة.

وعلى هذا فلا عزو أن نرى بين الحين والآخر خروج الروافض والشيعة على ولي أمر المسلمين.

قوله: (وبين المرجئة الجهمية) تقدم الكلام على المرجئة وعلى شيء من فساد مذهبهم وكان السبب في ظهورهم كردة فعل للخوارج الذين يكفرون بالكبيرة ولما لم يحكموا الكتاب والسنة في أمرهم وقعوا في المخالفة من حيث أرادوا الإصلاح.

وأما الجهمية: فهم أتباع الجهم بن صفوان الذي تلقى معتقده من الجعد درهم الذي تلقى معتقده من لوط، وهذا بدوره أخذه من بيان بن سمعان أخٌ للبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء الأنجاس الأرجاس يزعمون أن الله عز وجل ليس له أسماء ولا صفات، بل كلها مخلوقة تعالى الله عن قولهم ويزعمون أن الجنة والنار تفنيان والإيمان عندهم قاتلهم الله عز وجل هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل بالله فقط وهم أصحاب القول بالجبر حتى قالوا: لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز ويقولون بخلق القرآن وينفون رؤية الباري وكفى بمذمتهم أنهم شابهوا اليهود في التحريف والتغيير والتبديل لشرع الله ووحيه وغير ذلك من المعتقدات والله المستعان.

وسيأتي بيان كون أهل السنة وسطهم في هذا الباب عند كلامنا على مسائل الإيمان عند قول الإمام رحمه الله: واعتقد أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. اهـ

واعلم أن أول خلاف وقع في الأمة هو من هذا الباب والمراد بالأسماء هنا أسماء الدين مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق.

معتقد أهل السنة في أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم

فالحرورية والمعتزلة ذهبوا إلى أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من صدق بجنانه وأقر بلسانه وقام بجميع الواجبات واجتنب جميع الكبائر فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمناً باتفاق الفريقين، ولكنهم اختلفوا هل يسمونه كافراً؟ فالخوارج يسمونه كافراً ويستحلون ماله ودمه، ولهذا كفروا علياً ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهما ما يستحلون من الكفار، وأما المعتزلة فقالوا: إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين، واتفق الفريقان أيضاً على أن مات على كبيرة ولم يتب منها مخلد في النار فوقع الاتفاق بينهم في أمرين:

الأول: نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة.

الثاني: خلوده في النار مع الكفار ووقع الخلاف في موضعين: أحدهما: تسميته كافراً، والثاني: استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوي.

وأما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان، ولا يستحق دخول النار فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان، فلا ينفون عنه الإيمان أصلاً كالخوارج والمعتزلة ولا يقولون بأنه كامل الإيمان كالمرجئة والجهمية وفي الآخرة عندهم أنه قد يعفوا الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته، ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق وهذا القول وسط بين من يقول بخلوده في النار وبين من يقول إنه لا يستحق على المعصية عقاباً. (أفاده الهراس في «شرح الواسطية» (١٧٣-١٧٤).

وهم وسط في باب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الروافض والخوارج[(١)].

---

(١) قوله: «وهم وسط في باب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بين الروافض والخوارج» أقول: ولو قال: والنواصب أيضاً لكان حسناً.

والصحابي: هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام ولو تخللت ردة على الأصح. (أفاده الحافظ في «النخبة»).

وقال في «النزهة» (١٤٩): والمراد باللقاء ما هو أعم من المجالسة والمماشاة ووصول أحدهما إلى الآخر وإن لم يكالمه، وتدخل فيه رؤية أحدهما الآخر ، سواء كان ذلك بنفسه أو بغيره، والتعبير بـ (اللقي) أولى من قول بعضهم: الصحابي من رأى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؛ لأنه يخرج حينئذ ابن أم مكتوم ونحوه من العميان ، وهم صحابة بلا تردد ، واللقي في هذا التعريف كالجنس.

و (في) قولي : (مؤمنا) ؛ كالفصل ، يخرج من حصل له اللقاء المذكور ، لكن في حال كونه كافرا .

وقولي: (به) فصل ثان يخرج من لقيه مؤمنا لكن بغيره من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام).

لكن: هل يخرج من لقيه مؤمنا بأنه سيبعث ولم يدرك البعثة (كبحيرة) ؟ (و) فيه نظر !

وقولي : (ومات على الإسلام) ؛ فصل ثالث يخرج من ارتد بعد أن لقيه مؤمنا به ، ومات على الردة ؛ كعبيد الله بن جحش وابن خطل، ولم يثبت ارتداده بسند صحيح.

وقولي : (ولو تخللت ردة)؛ أي: بين لقيه له مؤمنا به وبين موته على الإسلام ؛ فإن اسم الصحبة باق له، سواء أرجع إلى الإسلام في حياته صلى الله عليه وآله وسلم أو بعده، وسواء ألقيه ثانيا أم لا. اهـ

قال الله عز وجل في الثناء عليهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح : ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر : ٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال : ٧٢].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال : ٧٤].

وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة : ١١٧] في عموم آيات كثيرات مباركات.

وأما في السنة النبوية ففضائلهم مزبورة، وشمائلهم مذكورة وأفعالهم مشكورة حتى صُنفت فيها المصنفات، وجمعت فيها المؤلفات من أراد أن يقف على شيء من فضائلهم وزبدة من أعمالهم فاليراجع مثل «فضائل الصحابة» للإمام أحمد، و«فضائل الصحابة» من «صحيح البخاري»، ومن «صحيح مسلم» وغيرها كثير.

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه مسلم عن أبي موسى أنه قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ:

أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

قال النووي رحمه الله (١٦/ ٨٣): وقوله: «وأصحابي أمنة لأمتي» معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن. اهـ

وفي حديث عبد الله بن مسعود عند الشيخين، وجاء بنحوه عن عمران وانفرد به مسلم عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ، قَالَ: قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَبْدُرُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَتَبْدُرُ يَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**».

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد قال: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ فَسَبَّهُ خَالِدٌ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» هذا لفظ مسلم.

قال أبو محمد بن حزم في «المفاضلة بين الصحابة» (١٧٧) نقلاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة: فكان نصف مد شعير أو تمر في ذلك الوقت أفضل من جبل أحد ذهباً ننفقه نحن في سبيل الله عز وجل بعد ذلك قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ الله الْحُسْنَى﴾ [الحديد : ١٠]. اهـ وهذا في الصحابة بينهم فكيف بمن بعدهم.

وفي أهل بدر منهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَعَلَّ الله اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**» أخرجه الشيخان عن علي رضي الله عنه.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عن رفاعة بن رافع في قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ، قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا

مِنْ الْمَلَائِكَةِ».

وقال لأهل بيعة الرضوان كما في حديث جابر المتفق عليه: «**أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ**».

وقال الله في شأنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨].

وفي النووي في «شرح الحديث» (١٦/ ٨٥) معناها لا يدخلها أحد منهم قطعاً، وإنما قال: إن شاء الله للتبرك لا للشك. اهـ

ولما قال عبدٌ لحاطب: يَا رَسُولَ الله، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبْتَ لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ» أخرجه مسلم عن جابر.

وقال كما في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: وَالله لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ» والمرار: مهبط الحديبية.

وأما على التخصيص فأفضلهم أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم طلحة والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، فهؤلاء جمعوا في حديث سعيد بن زيد أنهم في الجنة، وفضائلهم على التخصيص أشهر من أن تذكر ومن أن تُسطر.

قال شيخ الإسلام في «الواسطية» (١٤٢-١٥١) مع شرح الهراس: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ

أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»، ويقولون: ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية، وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل؛ فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي وقدم قوم عليًا، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي وإن كانت هذه المسألة -مسألة عثمان وعلي- ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

ويحبون أهل بيت رسول الله ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي» وقال أيضًا للعباس عمه، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي» وقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصًا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده

أول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ويمسكون عما شجر من الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات مما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم»، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه؛ فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور.

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله. اهـ

وسيأتي مزيد بيان عند قول الإمام: وأن أفضل أمته أبو بكر الصديق.

والرافضة هم الذين غلوا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وغلوا في أهل البيت، ونصبوا العدواة لجمهور الصحابة، كالثلاثة الخلفاء، وعائشة وحفصة وطلحة والزبير، وفضلاء المهاجرين

والأنصار، ومن تولاهم، وكفروا من والاهم، وقالوا: لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يتولى أحد عليًا حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر، وكفروا من قاتل عليًا، وقالوا: إن عليًا إمام معصوم، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم: إن الرسالة كانت لعلي، لكن جبريل غلط فأداها إلى محمد، وآذوا جبريل عليه السلام فوصفوه بالغلط، وعدوه لذلك عدوهم المبين، وزد على ذلك أنهم في معتقداتهم على طريقة الجهمية والمعتزلة، وأوائلهم، كانوا ممثلة فهم ينكرون الرؤية والعلو وصفات الباري جل وعز، وهم معتزلة في باب القدر والإيمان، ويزعمون أن القرآن مخلوق، وبوارهم واضح، ودينهم فضائح، فالفروج عندهم مباحة إما بالإعارة، وإما بالمتعة، والتقية دينهم، والكذب شعارهم، والكفر دثارهم فلا صبحهم الله ولا مساهم بخير، ومواقفهم ضد المسلمين ظاهرة، فمسكين من اغتر بهم وتأثر بمذهبهم مع أنهم سُخفاء العقول، وبليدي الأفهام شابهوا اليهود في البهت والكذب والحسد والخيانة وتحريف الكلم عن مواضعه، وعدواة المسلمين، وأولياء رب العالمين، ونصرهم للباطل ودعوتهم إليه، وفي هذه الأيام ابتلى الله المسلمين بدولتهم الإيرانية التي زعموها إسلامية، وهي كفرية إجرامية؛ فأصبحت حربًا على المسلمين وسلمًا على اليهود والنصارى المخالفين؛ فاللهم عجل بزوالها.

ومنهم طائفة يقال لها: السبئية حرقهم علي رضي الله عنه بالنار، وفيهم قال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرا أجججت ناري ودعوت قنبرا

وذلك لما ادعوا أنه إله بإيعاز من عبدالله سبإ اليهودي، والذي قال بعد ذلك بالرجعة لعلي رضي الله عنه، وإنما ذهب لملاقاة ربه عزوجل، وسيرجع كما رجع موسى بن عمران.

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وتألبوا قبل ذلك، وقتلوا عثمان رضي الله عنه في تلك الحادثة المؤلمة التي لم يراعوا له حرمة الدين، ولا كبر السن، ولا حرمة نساءه ومحارمه، وهم الذين يكفرون الأمة؛ إلا طائفة منهم كما قد تقدم حكاية مذهبهم.

وأهل السنة وسط بين الرافضة والخوارج، حتى قال القحطاني:

واحفظ لأهل البيت واجب حقهم   واعـرف عليًا أيما عرفـــــان

لا تنتقصه ولا تزد في قـــــــدره   فعلـيه تصلى النار طائفتـــان

إحداهما لا ترتضيه خليـــــــفة   وتـنصه الأخرى إلهًا ثـــــاني

فأهل السنة والوا الجميع، وبالنسبة لما جرى بينهم، نقول كما قال عمر بـن عبـدالعزيز: نحـن قـومٌ عصم الله سيوفنا من دمائهم، فالنكف ألسنتنا من الوقيعة فيهم، فكلهم مجتهد.

وكان علي رضي الله عنه هو المصيب فله أجران، ولهم أجر.

وكما قيل:

دع الصحابة فيما جرى بينهم   فكلهم في الحشر مغفور لهم

بيان أن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود

وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[١].

---

(١) قوله : «وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم».

صفة الكلام لله عز وجل ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة فمن القرآن:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ الله﴾ [الفتح: ١٥].

﴿يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله﴾ [التوبة: ٦].

وغيرها في القرآن كثير جداً .

ثانياً: من السنة:

والأحاديث في السنة بلغت حد التواتر في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى نذكر منها قطفاً تكون نوراً للمستبصر وحجة على الزائغ المتكبر.

ما أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٨) ومسلم رقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة؟ قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمرٍ قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى».

ما أخرجه أحمد وغيره (٣/ ٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هل من رجلٍ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل» الحديث صحيح خرجه شيخنا مقبل رحمه الله في «صحيحه المسند».

حديث أبي أمامة ا عند ابن حبان وغيرن (٢٠٨٥) أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبياً كان آدم؟ «نعم مكلماً» الحديث صححه شيخنا الوادعي في صحيحه المسند.

حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري رقم (٣١٧٠) ومسلم رقم (٢٢٢): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله يوم القيامة يا آدم أخرج بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعين فعند ذاك يشيب الصغير وتضع كل ذات حملٍ حملها» الحديث.

حديث أنس عندهما البخاري رقم (٣١٦٢) ومسلم رقم (١٩٣): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول –أي الله– يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع...» الحديث.

ثالثاً: إجماع السلف رحمهم الله على إثبات صفة الكلام لله، وأن كلام الله غير مخلوق:

النصوص عن السلف الصالح من الصحابة وغيرهم على إثبات كلام الله سبحانه وتعالى كثيرة جداً نذكر منها ما تيسر:

ما أخرجه البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً يتلى ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى...»الحديث.

أخرج الدارمي عن عمرو بن دينار في رده على الجهمية (٨٨) قال: أدركت أصحاب النبي ص فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود.

قال إسحاق بن راهويه بعد ذكر قول عمرو بن دينار كما عند البيهقي في الأسماء والصفات: وقد أدرك عمرو بن دينار أجلة أصحاب النبي ص من البدرين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأجلة التابعين وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة.

وأخرج الدارمي أيضاً بسند صحيح (ص٨٨) عن جعفر بن محمد: أنه سئل عن القرآن خالق أو مخلوق؟ قال: ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله.

وأخرج أيضاً بسنده عن عبد الله بن المبارك، عند أن سئل عن القرآن: فقال: هو كلام الله غير مخلوق، وبهذا القول قال بقية بن الوليد والقاسم الجزري، والمعافى بن عمران وغيرهم كثير، وهو قول أهل السنة قاطبة من السلف والخلف ولا يخالف هذا إلا جهمي خبيث.

قال البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٣٧): القرآن كلام الله غير مخلوق.

قال الصابوني في «رسالته في السنة» (ص): ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه وتنزيله، غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم.

وقد قال اللالكائي: وهو أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري رحمه الله في كتابه «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٣١٢) رقم (٣٩٣) بعد أن ذكر رحمه الله العلماء الذين قالوا: أن القرآن كلام الله غير مخلوق من البلخين والنيسابورين وأهل خراسان وأهل الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها من البلدان، قال: قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام.

وقد أفتى كثير من العلماء بقتل من قال: إن القرآن مخلوق، نقل ذلك أبو القاسم هبة الله اللالكائي عن جماعة منهم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومفتيها، قال: من قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

وأفتى به أيضاً سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح وغيرهم كثير.

وقد أفتى أيضاً غير واحد من أهل العلم: أن امرأته تحرم عليه لأنه كافر وامرأته مسلمة كعبد الله بن المبارك وأبو الوليد الطوسي.

وقد أفتى أيضاً جمع منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة وحماد بن زيد والثوري ويزيد بن هارون، وأبو معاوية الضرير والربيع بن سليمان المرادي وغيرهم أنهم لا يورثون ولا يصلى خلفهم ولا تعاد مرضاهم ولا تشهد جنائزهم وإن موالاة الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين.

فانتبهوا أيها المسلمين من هذا القول الخطير الذي تبناه في هذا العصر الرافضة والمعتزلة من أمثال حزب التحرير وغيرهم!

كلام الله سبحانه وتعالى لرسله في الدنيا له ثلاث حالات مذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم﴾ [الشورى: ٥١].

النوع الأول: من التكليم: هو الوحي المجرد ويقع للأنبياء عليهم رحمة الله وسلامه أجمعين رؤيا كما حصل لإبراهيم عليه السلام: «إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى» وقد قال عبيد بن عمير رحمه الله كما في كتاب «الوضوء من صحيح البخاري»: رؤيا الأنبياء وحيٌ، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات : ١٠٢]، وأول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، وفي رواية الصادقة كما في حديث عائشة عند الشيخين.

والنوع الثاني: هو التكليم من وراء حجاب، وهذه أشرف المراتب، أو أشرف أنواع التكليم، وقد وقع لنبينا ص لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم : ١٠] وحديث أنس في الصحيحين: «فأوحى الله إليّ ما أوحى»، ثم ذكر أنه افترض عليه خمسين صلاة.

ووقعت قبله لموسى عليه السلام والأدلة كثيرة في ذلك منها: ﴿وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] وقد تقدم حديث أبي هريرة في محاجة آدم وموسى وقول آدم: يا موسى اصطفاك الله برسالته وبكلامه.. الحديث.

ووقعت لآدم عليه السلام قال الله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ٣٧] ومن السنة ما تقدم من حديث أبي أمامة ا عند أحمد وغيره «نبياً كان آدم؟ قال: نعم مكلماً».

النوع الثالث: التكليم بواسطة الرسل؛ لقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾ [الشورى: ٥١] كإرسال جبريل عليه السلام.

قال ابن كثير رحمه الله بعد سوق الآية السابقة: "هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النب ص شيئاً لا يتمارى أنه من الله كما جاء في صحيح ابن حبان: «إن روح القدوس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»".

قال رحمه الله وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى : ٥١] كما كلم موسى عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها، وفي الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً» وكان قد قتل يوم أُحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا.

قال: وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾ كما ينزل جبريل وغير من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام اهـ.

الفرق بين الوحي والتكليم:

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كما في «الفتاوى» (٢/ ٣٩٧-٤٠٢): بعض الفروق نلخصها في الآتي:

أولاً: الوحي: قال: هو الإعلام السريع الخفي، إما في اليقظة وإما في المنام، فإن رؤيا الأنبياء وحيٌ ورؤيا المؤمن جزء من سنة وأربعين جزاءً من النبوة، وفي اليقظة كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر»، وفي رواية الصحيح:

«مكلمون» وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١]، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ [يونس: ٨٧]، وقد يكون هذا الإيحاء يقظة أو مناماً، أو بصوت هاتف داخلي -أي في الإنسان-.

ثانياً: إرسال الرسول كما في حديث عائشة في الصحيحين عند أن سأل الحارث بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»، وهذا غير الوحي الأول، فهذا إيحاء الرسول، فهذا أحياناً يكون في الباطن مثل صلصلة الجرس، وفي الظاهر مثل تمثله له بصورة دحية وغيرها.

ثالثاً: التكليم من وراء حجاب، وذكر رحمه الله كلامه لموسى إلى أن قال رحمه الله -راداً على من زعم أن تكليم الله لموسى مثل الإلهاء والوحي: وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحي والكلام في كتاب الله بينهما عموم وخصوص، فإذا كان أحدهما عاماً اندرج فيه الآخر كما اندرج الوحي في التكليم العام فيه هذه الآية، واندرج التكليم في الوحي العام حيث قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣].

وأما التكليم الخاص، فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفي الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم، كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل كما قال تعالى لزكريا: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم قال: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: ١١] فالإيحاء ليس بتكليم ، ولا يناقض الكلام اهـ.

فتلخص لنا من كلام شيخ الإسلام: أن الإيحاء ينقسم إلى عام وخاص:

وأن الكلام ينقسم إلى عام وخاص.

وأن التكليم اندرج في الوحي العام ولم يندرج في الوحي الخاص، فتكليمه الخاص لمن أراد من رسله أو ملائكته منه إليه وقد ثبت أنه كلم موسى بصوت سمعه منه اهـ.

كلام الله لخلقه في الآخرة:

تقدم تقسيم أنواع كلام الله لخلقه ولرسله في الدنيا؛ والآن نشرع في تقسيم كلام الله لخلقه في الآخرة، وهو على ثلاثة أقسام دل عليها الكتاب والسنة:

الأول: كلام الله لأهل الموقف عامة برهم وفاجرهم إلا ما استثناه الدليل:

وهذا التكليم يقع بغير واسطة كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيد﴾ [فصلت: ٤٧] وحديث أبي هريرة وغيره: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض».

ويحرم بعض الخلق من سماع كلام الله بسبب بعض الذنوب والمعاصي، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ الله مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾[البقرة:١٧٤].

وحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه وغيرهم.

الثاني: كلام الله لأهل الجنة منة منه وفضل:

كما في حديث أبي سعيد ا «أن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ قالوا: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» متفق عليه.

الثالث: تكليم الله لأهل النار توبيخاً وتقريعاً:

كما قال الله لهم: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ وكما في حديث: «يقول الله لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها..» الحديث في مسلم من حديث أنس.

افتراق الناس في مسألة الكلام:

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالى في «شرح الطحاوية» (١٧٩): وقد افترق الناس في مسألة الكلام إلى تسعة أقوال:

الأول: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعال عن بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة والفلاسفة.

الثاني: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وذها قول المعتزلة.

الثالث: أنه معنى واحد قائماً بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب والأشعري وغيره.

الرابع: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

الخامس: أنه حروف وأصوات؛ لكن تكلم الله بها بعد إن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

السادس: أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي في كتابه المطالب العالية.

السابع: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهو قول الماتريدي.

الثامن: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي وأتباعه.

التاسع: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا قول أئمة الحديث والسلف اهـ.

العاشر: زاد ابن القيم رحمه الله كما في «مختصر الصواعق» (٢/ ٢٨٦) مذهب أهل الاتحاد القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود هو كلام الله نظمه ونثره، وحقه باطله سحره وكفره، والسب والشتم والهجر والفحش كما قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا مبنيٌ على مذهبهم الذي أصلوه، أن الله تعالى وتنزه عن قولهم عين الوجود اهـ.

الرد على الفلاسفة والصائبة في تعريف الكلام:

الناظر في تعريفهم للكلام يرى أنهم جعلوا كلام الله لا وجود له خارج نفس الرسول، وإنما هو ما يفيض على النفوس من المعاني أو هو ما يفيض من العقل الفعال أو غيره.

وربما قالوا: العقل الفعال هو جبريل وربما قالوا غيره.

ويقولون: كلام الله محدث في نفس النبي والكلام الذي سمعه موسى كان موجوداً في نفسه لم يسمع موسى كلاماً خارج عن نفسه.

وقد كفر شيخ الإسلام رحمه الله أصحاب هذا القول بقوله: "وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول القرآن مخلوق" «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٦٣).

وقول (١٢/ ٤٢) وقد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً، وأبعدهم عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصائبة –ثم ذكر بعض الأقوال السابقة–، وقول هؤلاء في الحقيقة:

تعطيل صفة الكلام لله رب العالمين على الحقيقة.

تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن القرآن منزل على الحقيقة.

تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن الذي كان ينزل القرآن هو جبريل عليه السلام، وليس هو العقل الفعال.

عدهم ألفاظ القرآن وحروفه من إنشاء النبي ص لأن العقل الفعال فاض عليه بالمعاني والألفاظ.

موافقتهم الجهمية في كونه مخلوقاً.

قاله صاحب «العقيدة السلفية في كلام رب البرية» ص٢٩٥-٢٩٦).

الرد على المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن:

تقدم في باب افتراق الناس في مسألة الكلام: أن المعتزلة والجهمية يرون أن القرآن مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه.

وقد استدل المعتزلة على هذا القول ببعض الشبه التي سرعان ما تتهاوى أمام البراهين الدامعة من الكتاب والسنة والحجج الساطعة من أئمة السنة.

الشبهة الأولى: القرآن شيء، وقد قال الله: ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ولفظ كل في يفيد العموم، فالقرآن داخل في هذا العموم.

قال ابن أبي العز (ص١٨٣) وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] والقرآن شيء فيكون داخلاً في عموم (كل) فيكون مخلوقاً، فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعاً لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم (كل) وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر والآخر بآخر... إلى أن قال رحمه الله: وعموم كل في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرآن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء

دمرته الريح، وذلك أن المراد بالتدمير كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير، وكذلك قوله سبحانه حكاية عن بلقيس: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرآن الكلام.

والمراد بقوله: ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله، فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى وصفاته ليست غيره اهـ. والله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بأنه نفس قال تعالى عن عيسى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فهل يدخل الجهمي نفس الله تعالى في هذا العموم؟

الشبهة الثانية: قالوا القرآن مجعول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] والجعل الخلق.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالى (ص١٨٦): وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف: ٣]، فما أفسده من استدلال، فإن (جعل) إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل: ٩١] وقال سبحانه: ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] وغيرها إلى قوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] اهـ.

فلو كان هنا جعل بمعنى خلق لكان من أفسد الفساد كيف يجوز أن يقال: "وقد خلقتم الله"، فنعوذ بالله من الضلال ومن اتباع الهوى.

الشبهة الثالثة: قالوا القرآن محدث والمحدث، مخلوق قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِين﴾ [الشعراء: ٥].

والجواب: عن هذه الشبهة: اعلم أن محدث في اللغة هو كون الشيء بعد أن لم يكن، قال أبو عبيدة القاسم بن سلام، كما في خلق أفعال العباد للبخاري رحمه الله (ص٣٧)، "محدث" حدث عند النبي ص وأصحابه لما عَلَّم الله ما لم يكن يُعْلَم.

وقال ابن قتيبة في «الاختلاف في اللفظ»: المحدث ليس هو في مَوْضِع بمعنى مخلوق، فإن أنكروا ذلك فليقولوا في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] أنه يخلق كذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] أي يحدث لهم القرآن ذكراً، والمعنى يجدد عندهم ما لم يكن، وكذلك قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك اهـ.

وقال شيخ الإسلام (١٢/ ٥٢٢) فإن احتج بعضهم بهذه الآية ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ قال: هذه الآية حجة عليك فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ علم أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث.

ويُعلم: أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديداً، فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخر" اهـ.

الشبهة الرابعة: قالوا جعل الله أمره مقدوراً والمقدور المخلوق، وأمره هو كلامه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

قال صاحب «العقيدة السلفية» (ص٣١٠): ولفظ الأمر إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:

الأول: يراد به المصدر كقوله تعالى: ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ وهو غير مخلوق، وهذا يجمع على "أوامر".

والثاني: يراد به المفعول الذي هو المأمور المقدور كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، فالأمر هنا هو المأمور، وهذا يجمع على "أمور"، وهو مخلوق، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله في احتجاجه على الجهمية، قال الله: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ ففرق بين الخلق والأمر.

وقال أيضاً: وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله﴾ وقال: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ فأخبر بالخلق، ثم قال: والأمر، وأخبر أنه الأمر غير مخلوق، وبهذا الجواب أجاب سفيان بن عيينة شيخ الإمام أحمد رحمهما الله، فقال: ما يقول هذا الدويبة –يعني المريسي بشر–؟ قالوا: يا أبا محمد يزعم أن القرآن مخلوق، فقال: كذب، قال الله: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ فالخلق خلق الله تبارك وتعالى، والأمر القرآن" اهـ.

وقال شيخ الإسلام (٨/ ٤١٢): ففي قوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ المراد به المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، وأما في قوله: ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ الله أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنما أنزل القرآن، وهذا كقوله: ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ فهذا الأمر هو كلامه.

وقال رحمه الله قبل ذلك (٨/ ٤١٢): ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول، فالمفعول مخلوق مثل: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾ وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ فهنا المراد به المأمور به، ليس المراد به أمره الذي هو كلامه، ثم بين رحمه الله أن مصدر الأمر هو كلامه، وهو غير مخلوق اهـ.

ومما استدل بها هؤلاء الضُّلال على أن القرآن مخلوقاً قول الله تعالى: ﴿نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ قالوا: إن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها.

وهذا القول بيّن فساده ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» ( ) فقال: استدلوا بالآية على أن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ﴾ والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة: "يا موسى إني أنا الله رب العالمين"، وهو قال: ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾ غير ربّ العالمين، ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ صدقاً؛ إذ كلام الكلامين عندهم مخلوق، قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد أن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: باب ما أنكرت الجهمية من أن الله كلم موسى، فقلنا لهم: لم أنكرتم؟ قالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، إنما كون شيئاً فعبر عن الله خلق صوتاً فأسمعه، فقلنا لهم: هل يجوز أن يكون لمكوَّن غير الله أن يقول: ﴿يا موسى إني أنا ربك﴾ أو يقول: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾، فمن زعم أن ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية، ولو كان كما زعم الجهمية أن الله كون شيئاً كان يقول ذلك المكوَّن يا موسى إن الله رب العالمين، ولا يجوز أن يقول: ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾" اهـ.

الشبهة الخامسة: قالوا فقد قال الله: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم﴾ وهذا يدل على أن الرسول أحدثه إما جبريل أو محمد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في جواب هذه الشبهة كما في «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٢١): "قال: وإن احتج بقوله: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قيل: له فقد قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون، وَلاَ بِقَوْلِ

كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾، فالرسول في هذه الآية محمد ص والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران، فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث، ولهذا قال: لقول رسول، ولم يقل ملك ولا نبي ولا شك أن الرسول بلغه كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، فكان النبي ص يعرض نفسه على الناس في الموسم، ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»" اهـ.

وقال ابن أبي العز رحمه الله تعالى (ص١٨٧): ذكر الرسول معرِّف أنه مبلِّغ عن مرسله؛ لأنه لم يقل إنه قول ملك أو قول نبي، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه إنشاء من جهة نفسه، وأيضاً الرسول في إحدى الآيتين جبريل وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

وأيضاً فقوله: رسول أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسله بتبليغه، ولا ينقص منه، وأيضاً فإن الله قد كفر من جعله قول البشر، ومحمد ص بشر فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جني أو ملك.

والكلام كلام من قاله مبتدأ لا من قاله مبلغاً، ومن سمع قائلاً يقول: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «إنما الأعمال بالنيات» قال هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم..﴾ قال: هذا كلام الله، ولهذا لو سمع أحد من أحدٍ نظماً أو نثراً يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أم كلام غيرك؟

الشبهة السادسة: قالوا: إن الله سبحانه وتعالى سمى عيسى عليه السلام كلمته، فقال: "إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم" وقال: ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وعيسى مخلوق، فالكلمة مخلوقة.

ومعنى الآية: أن عيسى عليه السلام مخلوق خلقه الله بأمره حين قال له: ﴿كن﴾ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون﴾ و﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون﴾.

والكلمة "كن" لا عين عيسى، والمكون هو عيسى عليه السلام، وبهذا جاب غير واحد من الأئمة اهـ أفاده صاحب كتاب «العقيدة السلفية».

وقال السلمان في «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» (ص٣٨٠-٣٨١): وأما قوله: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ فالمعنى أنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من الروح، فعيسى ناشئ عند الكلمة وليس هو نفس الكلمة، وقوله: ﴿وروح منه﴾ يعني أنه كائن منه تعالى، أي موجده وخالقه فهو روح من الأرواح التي خلقها الله كما قال: ﴿وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعا منه﴾ أي مخلوقة بأمره اهـ.

ومن شبه هؤلاء النوكا أنهم يقولون يلزم من إثبات كلام الله التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتلكم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا تر أنه قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا الله الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحرج كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف، أفاده ابن أبي العز رحمه الله (ص١٨١).

ومن قولهم أيضاً قالوا: القرآن ترد عليه سمات الحدوث والخلق من وجوه عدة:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ فأخبر عن وقوع النسخ فيه.

هو حروف متعاقبة يسبق بعضها بعضاً.

لا يكون إلا بمشيئة واختيار، فيلزم منه أن تسبقه الحوادث ويتأخر عنها.

له ابتداء وانتهاء وأول وآخر.

هو متبعض متجزئ.

منزل والنزول لا يكون إلا بحركة وانتقال وتحول.

مكتوب في اللوح والمصاحف وما حد وحصر فهو مخلوق.

وهذه الصفات وما يشببها صفات للمخلوق المُحْدَث.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٩٩)ك هذه المعاني جميعاً مبنية على أصلهم الذي ابتدعوه لإثبات خلق العالم، وقد الصانع وهو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركة، فقالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام إنما هو بحدوث الأعراض القائمة بها الحركة والسكون، فهذا الأصل المبتدع هو الذي جرهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات والأفعال لله تعالى اهـ.

ولو أنهم استسلموا لله سبحانه وتعالى وامتثلوا قوله وصاروا على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقة السلف لما وقعوا في هذه الأصول الفاسدة، فنسأل الله السلامة.

ومن شبه المعتزلة أيضاً، قولهم: إن إضافة الكلام إلى الله إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله.

وقد تقدم الكلام حول الإضافة إلى الله سبحانه وتعالى، وأنها تنقسم إلى قسمين: إضافة أعيان، وإضافة صفات، وتقدم أن الأعيان التي تقوم بنفسها إضافتها إلى الله تكون إضافة تشريف أو خلق وملك وغير ذلك.

وإن كانت معاني لا تقوم بنفسها، فإضافتها إلى الله تعالى إضافة صفة إلى موصوف.

الرد على القدرية النفاة

وأومن بأن الله فعال لما يريد، ولا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره ولا محيد لأحد عن القدر المحدود ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور[١].

فمن ها يتبين أن إضافة الكلام إلى الله تعالى هو من النوع الثاني، أي إضافة الصفات ككلام الله، وعلم الله، وقدره الله وغيرها.

تقدم الرد على الجهمية والمعتزلة وبيان فساد اعتقادهم في مسألة الكلام، وأنه مخالف لما عليه أئمة الدين من الصحابة فما بعدهم إلى يومنا هذا، وليس لهم من دليل إلا الشبهات وسرعان ما تتهاوى إمام قول الله سبحانه وتعالى وقول رسوله، مع فهم السلف الصالح بعيداً عن علم الكلام والجدل.

ولتعلم: أن المعتزلة قد فرخوا وباضوا، ومن هذه الأفراخ الأشاعرة ومن وافقهم من ماتريدية وسالمية وكلابية، وإن اختلفوا في بعض الأمور والتعريفات؛ لكنهم لم يصفوا معتقدهم من شوائب البدع والضلال.

(١) قوله: «وأومن بأن الله فعال لما يريد ...إلخ» قد تقدم الكلام على تقسيم القدرية، وعلم أنهم ينقسمون إلى قسمين: القدرية النفاة، وهم: المعتزلة، والقدرية الجبرية.

وهذه الفقرة رد على النفاة منهم: الذين يزعمون أن أفعال العباد مخلوقة لهم، مع أن الله عزوجل يقول عن نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (١٣٢): والآية تدل على أمور:

أحدها: أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله

سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

الثالث: أنه إذا أراد شيئا فعله، فإن (ما) موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله.

الرابع: أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فعل، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق؛ فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريده، فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، هذا هو المعقول في الفطر، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري عباده نفسه، وأن يتجلى لهم كيف شاء، ويخاطبهم، ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه تعالى فعال لما يريد. اهـ

وقد تقدمت مراتب القدر الأربع: وهي العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، وهذا الكلام الذي ساقه المؤلف رحمه الله تعالى يشير إلى المرتبة الثالثة وهي: المشيئة.

قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل» (١/ ١٢٥): وهذه المرتبة قد دل عليها اجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضع، وأن كان منهم في موضع آخر فجوزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء الله وأن يشاء ما لا يكون وخالف الرسل كلهم وأتباعهم من نفى مشيئة الله بالكلية ولم يثبت له سبحانه مشيئة واختياراً أو جدبها الخلق كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم والقرآن والسنة مملوآن بتكذيب الطائفتين فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ

مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران : ٤٠]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [الأنعام : ١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس : ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود : ١١٨]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام : ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ الله لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد : ٤]، وقال: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء : ٨٦]، وقال: ﴿فَإِنْ يَشَإِ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى : ٢٤]، وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء : ١٣٣]، وقال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ﴾ [الفتح : ٢٧]، وقال عن نوح أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِنْ شَاءَ﴾ [هود : ٣٣]، وقال إمام الحنفاء وأبو الأنبياء لقومه: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الأنعام : ٨٠]، وقال الذبيح له: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢]، وقال خطيب الأنبياء شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى الله تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف : ٨٩]، وقال الصديق الكريم ابن الكريم ابن الكريم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٩]، وقال حمو موسى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص : ٢٧]، وقال كليم الرحمن للخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف : ٦٩] وقال قوم موسى له: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، وقال لسيد ولد آدم وأكرمهم عليه ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ الله﴾ [يونس: ٤٩]، وقال عن أهل الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وعن أهل النار كذلك ليبين أن الأمر راجع إلى مشيئته ولو شاء

لكان غير ذلك، وقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤]، وقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠]، وقال: ﴿يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿مَنْ يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ١٦]، وقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ فأخبر أن مشيئتهم وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم هذا، وهذا، وقال: ﴿قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقال: ﴿وَالله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، وقوله: ﴿وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقوله: ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقوله: فيبسطه في السماء كيف يشاء وقوله إن

ربي لطيف لما يشاء وقوله يؤتي الحكمة من يشاء وقوله ولو نشاء لطمسنا على أعينهم وقوله ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم وقوله إن يشأ يسكن الريح وقوله لو نشاء لجعلناه حطاما لـو نشـاء لجعلناه أجاجا وقوله فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء وقوله إن يشأ يـذهبكم ويسـتخلف مـن بعدكم ما يشاء وقوله ولو شاء الله لأعنتكم وقوله الله يجتبي إليه من يشاء وقوله عن كليمة موسـى إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وهـذه الآيـات ونحوهـا تتضـمن الـرد عـلى طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهـداهم وضـلالهم وهـو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته وتارة إن ما لم يشأ لم يكـن وتـارة أنـه لـو شـاء لكـان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه وأنه لو شاء ما عصى وأنه لـو شـاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه رب العالمين وكونه القائم بتدبير عباده فـلا خلـق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا إضلال ولا هـدى ولا سـعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غـيره قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَـا نَشَـاءُ﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطـار: ٨]، وقـال: ﴿للهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًـا وَيَهَـبُ لِمَـنْ يَشَـاءُ الـذُّكُورَ﴾ [الشـورى: ٤٩]، وقـال: ﴿يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

ثم ساق رحمه الله، أحاديث كثيرة في إثبات مشيئة الله سبحانه وتعالى، ثم قال: ولو ذهبنا نـذكر كـل حديث أو أثر جاء فيه لفظ المشيئة وتعليق فعل الرب بها لطال الكتاب جدًا. اهـ

وقال رحمه الله (١/ ١٣٨-١٤١): وأما الارادة؛ فورودها في نصوص القرآن والسنة معلـوم أيضـا كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]؛ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَـا أَشُـدَّهُمَا﴾ [الكهـف: ٨٢] ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُـمُ الْعُسْرَ﴾

[البقرة: ١٨٥]، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقول نوح: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]، وأخبر أنه إذا لم يرد تطهير قلوب عباده لم يكن لهم سبيل إلى تطهيرها، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَأَنَّ الله يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]، ﴿إِنَّ الله يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، وقول صاحب يس: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقوله: ﴿يُرِيدُ الله أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، والنصوص النبوية في إثبات إرادة الله أكثرمن أن تحصر كقوله: «من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين» «من يرد الله به خيرًا يصب منه»، «إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق»، «إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها»، «إذا أراد الله هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأقر عينه بهلكها»، «إذا أراد الله بعبد

خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، إذا أراد الله بعبد شرًا أمسك عنه توبته حتى يوافي يوم القيامة كأنه عير»، «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة»، «إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم باب الرفق»، «إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب من كان فيهم، ثم بعثوا على نياتهم» والآثار النبوية في ذلك أكثر من أن نستوعبها. اهـ

إلا أنه يجب التفطن هنا لتفصيل مهم تزول به شبهات القوم، وإشكالات كثيرة وهو أن إرادة الله عزوجل، تنقسم إلى قسمين: إرادة كونه، وهي التي ترادف المشيئة، وإرادة شرعية وهي التي ترادف المحبة.

قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل» (١/ ١٤١-١٤٢): وههنا أمر يجب التنبيه عليه والتنبه له وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن بم يحط به علمًا، وهو أن الله سبحانه له الخلق والأمر وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي؛ فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكرهه كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعًا فهو محبوب للرب واقع بمشيئته كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته فلفظ المشيئة كوني ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية، فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة إذا عرفت هذا، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره فإن المحبة غير المشيئة والأمر غير الخلق. اهـ

قال الطحاوي رحمه الله كما في «شرح الطحاوية» (١٤٥): قوله: (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن).

فذكر الأدلة التي تقدم ذكرها، ثم قال: فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى، إذ قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

قيل: قد أجيب على هذا بأجوبة، من أحسنها: أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم ذلك، أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به، أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به، أو أنه أنكر عليهم معارضة شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة، والجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر. اهـ

وما يدل على عموم خلق الله عزوجل لجميع المخلوقات برها وفاجرها، خيرها وشرها، مؤمنها وكافرها قوله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وفي حديث حذيفة: «الله خالق كل صانع وصنعته» أخرجه البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد».

والعجب من هؤلاء المعتزلة، أنهم أدخلوا القرآن الذي هو كلام الله عزوجل وصفته في عموم (كل) في قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢]، وأخرجوا منها ما هو داخل فيها من أفعالهم وأقوالهم؛ فسبحان مقلب القلوب.

وهم يحتجون أيضًا على نفي خلق الله عزوجل لأفعال العباد بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «والشر ليس إليك» أخرجه مسلم عن علي رضي الله عنه في حديث قيام الليل.

قال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» (٦/ ٥٩): قوله: «**والخير كله في يديك والشر ليس إليك**» قال الخطابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى، ومدحه بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب، وأما قوله: «والشر ليس إليك» فمما يجب تأويله لأن مذهب أهل الحق أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها، وحينئذ يجب تأويله وفيه خمسة أقوال:

أحدها: معناه: لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن خزيمة، والأزهري وغيرهم.

والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني، وقاله غيره أيضا معناه: لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال: يا خالق القردة والخنازير، ويا رب الشر ونحو هذا، وإن كان خالق كل شيء ورب كل شيء وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه والشر لا يصعد إليك إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.

والرابع: معناه والشر ليس شرًا بالنسبة إليك فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: حكاه الخطابي أنه كقولك فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو صفوه إليهم. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل» (١/ ١٤٥): المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر وهي: مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها.

قال: وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار، وخالف في ذلك مجوس الأمة؛ فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وهي أشرف ما في العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقون لها ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته. اهـ

ثم استطرد رحمه الله في ذكر الأدلة والإحتجاج لها.

وقوله: (**لا محيد**) أي: لا مفر عن القدر المحدود يدل على ذلك حديث أبي هريرة عند مسلم: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ».

وفي الحديث: أرأيت ما نعمل أمر مستئنف، قال: «بل فيما جفت به الأقلام» وقد تقدمت الأدلة.

وقد تقدمت الأدلة على إثبات تقدم علم الله وكتابته على الفعل، والحمد لله رب العالمين.

وقوله: (ولا يتجاوز ما خُط في اللوح المسطور):

اللوح ما يكتب فيه من الخشب، وقوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] استأثر الله بالعلم بكيفيته، وليس لأحد بحقيقته علم؛ إلا بقدر ما رؤي لنا في الآثار الصحيحة، وهو المعبر عنه بالكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]، والجمع ألواح، قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]. أفاده الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٤٦٨).

قال الطحاوي رحمه الله: ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

قال ابن أبي العز رحمه الله (٢٦٣): اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه. اهـ

وما في اللوح المحفوظ، لو اجتمع الخلق كلهم على تغييره وتبديله لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، دل على ذلك حديث ابن عباس عند الترمذي وغيره: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ

الإيمان باليوم الآخر

وأعتقد الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت[(١)].

قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

(١) قوله: «وأعتقد الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مما يكون بعد الموت» هذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وقد تقدمت الأدلة عليه عند قول المؤلف رحمه الله: (من الإيمان بالله وملائكته) والأدلة من الكتاب والسنة الدالة على ثبوته من الكتاب والسنة الدالة على ثبوته أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تسطر بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم في قوم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت حيث قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩، ٥١].

وقال تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٨].

وفي حديث خباب رضي الله عنه قَالَ: كَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي: لَنْ أَقْضِيَكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ، ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ، قَالَ وَكِيعٌ: كَذَا قَالَ الْأَعْمَشُ، قَالَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

[مريم: ٧٧-٨٠].

وقال تعالى مبينًا قدرته عزوجل على خلقهم مرة أخرى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٠ - ٢٢].

ومن أراد النظر في أدلته الواضحات وآياته الباهرات فاليقرأ مثل سورة الواقعة، وسورة التكوير، وسورة الإنفطار والإنشقاق، وآخر سورة المؤمنون ووسط سورة ق، والقارعة والحاقة، والزلزلة وغيرها من سور القرآن التي تدل على تقرير هذا الركن العظيم من أركان الإيمان، بل إن تقريره كان من بدايات الدعوة كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٤٩٩٣): «**إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]**».

قال القرطبي رحمه الله في «المفهم» (١/ ١٤٥): والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والنشر والحشر، والحساب والميزان والصراط، والجنة والنار، وأنها دار ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين إلى غير ذلك مما صح نصه، وثبت نقله. اهـ

وسيأتي الكلام على بقية هذا الباب تباعاً إن شاء الله تعالى، ونذكر ما يجري على الإنسان منذ الغرغرة

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

فأومن بفتنة القبر ونعيمه[(١)].

إلى دخول الجنة والنار، والواجب على المسلم تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان بكل ما أخبر من أمور الغيب في هذا الباب وغيره قال تعالى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ – ٥].

(١) قوله: «فأؤمن بفتنة القبر ونعيمه» وهذا من التفصيل بعد الإجمال فإن القبر أول منازل الآخرة كما ثبت بذلك الدليل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكما سترى في طيات هذه الفقرة من البيان العظيم في هذه المسألة إن شاء الله وأنا متوسع فيه لحاجة الناس إلى ذلك وكونه قد نبت في عصرنا وظهر قرن الروافض حتى أصبح كثير من خطبائهم ينكرونه على المنابر ويصرح بالتكذيب به في الدفاتر وفي المحابر وهو مرتب على فصول وأبواب وليس التطويل مذموم في جميع الأوقات قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم».

فصل الأدلة من القرآن على عذاب القبر

اعلم هداك الله: أن عذاب القبر ونعيمه ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع أهل السنة، أما الكتاب فأدلته متنوعة وإليك بعضها:

قال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾: وهو الغرق في

اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور. اهـ

قال الحافظ في «الفتح» (٣/ ٢٩٩): قال القرطبي: الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر.

وقال غيره: وقع ذكر عذاب القبر في هذه الآية مفسراً؛ لكنه حجة على من أنكر عذاب القبر اهـ

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الطور: ٤٥-٤٧].

قال في شرح الطحاوية: وهذا يحتمل أن يراد به القتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثير منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو أن المراد أعم من ذلك.اهـ

وقد بوب البخاري في صحيحة: (باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله تعالى: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[الأنعام:٩٣].

وقوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٥-٤٦].

قال الحافظ رحمه الله في شرح الآية الأولى (٣/ ٢٩٩): وهذا وإن كان قبل الدفن، فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه، ولكون الغالب على الموتى أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة، يعذب بعد موته، ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله. وفي تفسير الآية الأخرى قال: روي عن

الحسن من طريق محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر.

وقال الحافظ رحمه الله: وقال الطبراني بعد أن ذكر اختلافاً: والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع، أو السبي، أو الإذلال أو غير ذلك ا.هـ

وقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧].

أخرج الإمام البخاري رحمه (٤٦٩٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧] نزلت في عذاب القبر.

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى كما في «أهوال القبور» (٥٨): وأما نعيم القبر فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٨٨-٩١].

وأقول: عذاب القبر يدل عليه في هذه الآية أيضاً: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة: ٩٢-٩٤].

واستدل كذلك ابن القيم في كتابه «الروح» بهذه الآية على النعيم والعذاب في القبر.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابة «الروح» ومنها: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

وقد أحتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس على عذاب القبر.اهـ

وقال ومنها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * وَادْخُلِي جَنَّتِي * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾[الفجر: ٢٧-٢٩].

قال: وقد أختلف السلف متى يقال لها ذلك فقال طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي تجردت عن البدن، وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله في حديث البراء وغيره: «فيقال لها: أخرجي راضية مرضياً عنك»

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:٢٩] مطابق لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم الرفيق الأعلى».اهـ

وقد استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر: ١-٢]، لكن من باب الفائدة الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم(٣٣٥٢) من طريق حجاج بن أرطأة، عن المنهال، عن زر بن حبيش، عن علي قال: (ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر: ١-٢]). ضعيف.

حجاج ابن أرطأة الراجح: ضعفه. والمنهال بن عمرو: لم يسمع من زر كما في «التهذيب».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾[طه:١٢٤]، استدل بها على عذاب القبر، والدلالة ما سيأتي في حديث أبي هريرة عند الحاكم، وابن حبان، وابن جرير وغيرهم، وسيأتي بطوله في باب استطراد في ذكر عذاب القبر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠] قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر الآية: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ.اهـ

بشرى الموتى عند خروج الروح بالصلاة أوباللعن

أخرج الإمام مسلم رحمه الله (٢٨٧٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال: يقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسدٍ كنت تعمرينه فينطلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل».

قال: «وإن الكافر إذا خرجت روحه – قال حماد: وذكر من نتنها وذكر لعناً، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض قال: فيقال: أنطلقوا به إلى آخر الأجل».

قال أبو هريرة: «فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ريطة كانت عليه على أنفه هكذا».

أخرج ابن حبان رحمه الله كما في «الإحسان» رقم (٣٠١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: أخرجي إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتون به باب السماء فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتون بها أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم: فيقولون قد مات فلان أما أتاكم فيقال ذُهب به إلى أمة الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسوح فيقولون: أخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض ».

هذا حديث صحيح زيد ثقة حافظ كما في «التقريب».

وقسامة بن زهير تابعي ثقه قاله العجلي، وقال ابن سعد: كان ثقة إن شاء الله أ.هـ من «التهذيب».

وأخرجه رقم (٣٠١٣): عن أبي هريرة بنحو ما تقدم وفيه: «فيسأل ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ قال: وأما الكافر، فإذا قبضت نفسه وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه فتبلغ بها إلى الأرض السفلى» هذا الحديث رجاله رجال الشيخين وأبو الجوزاء هو أوس بن عبد الله الربعي تابعي ثقة.

كلام الجنازة حين حملها إلى القبر

أخرج الإمام البخاري رحمه الله (١٣١٤): عن سعيد المقبري، عن أبيه سمع أبا سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: ياويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه صعق».

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله (٢/ ٢٩٢) أن أبا هريرة قال حين حضره الموت: لا تضربوا عليّ فسطاطاً، ولا تتبعوني بمجمر، وأسرعوا بي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا

وضع الرجل الصالح على سريره قال: قدموني قدموني، وإذا وضع الرجل السوء على سريره قال: ياويلها أين تذهبون بي».

هذا حديث حسن؛ من أجل عبد الرحمن بن مهران وبقية رجال ثقات.

القبر أول منازل الآخرة

أخرج الإمام الترمذي رحمه الله رقم (٢٣٠٨) عن هانئ مولى عثمان قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! قال: إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه».

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفضع منه».

قال الترمذي رحمه الله: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من رواية هشام بن يوسف.

هذا حديث حسن.

بيان النبي صلى الله عليه وسلم لفتنة القبر

أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى (١٣٧٣) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تقول: قام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة.

وأخرجه رحمه الله (٨٦) عن أسماء قالت: أتيت عائشة وهي تصلي فقلت: ما شأن الناس؟ فأشارت إلى السماء فإذا الناس قيام فقالت: سبحان الله، قلت: آية فأشارت برأسها أي نعم فقمت حتى علاني الغشي، فجعلتُ أصب على رأسي الماء، فحمد الله عز وجل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيء لم أكن أُريته إلا رأيته في مقامي حتى الجنة والنار، فأوحى الله إليّ أنكم تفتنون في قبوركم» (مثل) أو(قريباً) لا أدري أي ذلك قالت أسماء من فتنة المسيح

الدجال.

يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما (المؤمن) أو (الموقن) لا أدري أيهما قالت أسماء فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وأتبعنا، هو محمدٌ ثلاثاً فيقال: نم صالحاً قد علمنا إن كنت لموقناً به، وأما (المنافق) أو (المرتاب) لا أدري أي ذلك قالت أسماء فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. أخرجه مسلم (٩٠٥).

الدعاء للميت بعد الدفن بالثبات

أخرج الإمام أبو داود رحمه الله رقم (٣٢٢) عن هانيء مولى عثمان، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل». هذا حديث حسن، وعبد الله بن بحير وثقه بن معين.

إثبات عذاب القبر واستعاذة النبي صلى الله عيله وسلم منه

أخرج الإمام البخاري رحمه الله (١٣٧٢) عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن عذاب القبر، فقال: «نعم عذاب القبر» قالت عائشة: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.

وقال: أن عائشة قالت: دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعندي أمرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبر؟ قالت: فأرتاع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال: «إنما تفتن يهود» قالت عائشة: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هل شعرت أنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور» قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى

الله عليه وعلى آله وسلم بعد يستعيذ بالله من عذاب القبر.

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله (٥٨٥) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد ذلك يستعيذ من عذاب القبر.

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله (٦٣٦٦) عن عائشة قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقها فخرجتا، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين وذكرتُ له فقال: «صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها»، فما رأيته بعد في صلاة ألا تعوذ من عذاب القبر. أخرجه مسلم برقم(٥٨٦).

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله (١٣٧٦) عن موسى بن عقبه، حدثتنى ابنة خالد بن سعيد بن العاص: أنها سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يتعوذ من عذاب القبر.

وموسى بن عقبة: لم يسمع من أحد من الصحابة إلا منها، كما صرح بذلك هو عند أحمد.

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله (١٣٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنه المحيا والمات، ومن فتنة المسيح الدجال». أخرجه مسلم برقم (٥٨٨).

والأحاديث في الباب كثيرة، ضمَّنها كتابنا «عذاب القبر ونعيمه».

النور في القبر للمؤمن

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله (٩٢٠) عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر- فضج ناس من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، ثم قال: «اللهم أغفر لأبي سلمة، وأرفع درجته في المهدين، وأخلفه في عقبه في الغابرين، وأغفر لناوله يا

رب العالمين، وفسح له في قبره ونور له فيه».

مسألة في سماع الأموات

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله (٢٨٧٤) عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل ابن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة ابن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً»، فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون وقد جيفوا؟ قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدروا أن يجيبوا»، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر.

تقدم حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أخرجه الإمام مسلم رقم(٢٨٧٤)، وفي حديث عمر عن مسلم رقم (٢٧٨٣) أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نادى أهل القليب، ثم قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً».

وجاء أيضاً حديث عائشة عند البخاري رقم(٣٩٧٩)، ومسلم رقم(٩٣٢) وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال: «إنهم لسيمعون ما أقول»، «إنما قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول حقاً»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾[النمل:٨٠]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢]، وقد أحتج بالحديث الأول طائفة وادعت: أن الأموات يسمعون مطلقاً، وذهبت طائفة أخرى: إلى أنهم لا يسمعون واحتجوا بحديث عائشة، وجعلوا قصة أهل القليب إنما هي معجزة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من باب التوبيخ، كما جاء عن قتادة في البخاري رقم(٣٩٧٦) قال: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً، ونقمة وحسرة وندامة».

وقال القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٣/ ٣٧٢): إعتد بعض الناس بحديث القليب فقال: إن الميت يسمع، وهذا غير صحيح عند أهل الأصول؛ لأن الحياة شرط في السمع فلا يسمع غير حي، وحمل بعض الناس ذلك أنهم أعيدت إليهم الحياة حتى سمعوا تقريعه عليه السلام لهم.اهـ

وهذا القول أظهر من القول الأول، ويؤيده قول قتادة المنقول سابقاً.

وإلى القول بالخصوصية في أهل القليب، ذهب المازري كما نقله عنه الإمام النووي في «شرح مسلم» (٧/ ٢٠٦).

وقال الحافظ في «الفتح» تحت باب دعاء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كفار قريش وهلاكهم يوم بدرٍ.

وقال السهيلي (ما محصله): إن في نفس الحديث ما يدل على خرق العادة بذلك للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقول الصحابة له: تخاطب أقوماً قد جيفوا؛ فأجابهم بالقول المتقدم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».اهـ

وقال أيضاً رحمه الله: في باب ما جاء في عذاب القبر في كلام طويل: وقال ابن التين: لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتى لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله إسماع ما ليس من شأنه السمع لا يمتنع.اهـ

قال الألوسي في الآيات البينات في عدم سماع الأموات(٦٨) نقلاً عن السفاريني في كتابه «البحور الزاخرة في أحوال الآخرة»: وأنكرت عائشة رضي الله عنها سماع الموتى، وقالت: ما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنهم ليسمعون الآن ما أقول» إنما قال: «ليعلمون الآن ما كنت أقول لهم، إنه حق» ثم قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل : ٨٠]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].اهـ

قال ابن رجب في «أهوال القبور»: وقد وافق عائشة على نفي سماع الموتى كلام الأحياء طائفة من العلماء، ورجحه القاضي أبو يعلي من كبار أصحابنا في كتابه «الجامع الكبير» واحتجوا بما احتجت

به وأجابوا على حديث قليب بدر، بما أجابت به عائشة رضي الله عنها، وبأنه يجوز أن يكون ذلك معجزة مختصة بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم توبيخاً وتصغيراً، ونقمة وحسرة وندامة، وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماع الموتى كلام الأحياء في الجملة.اهـ

والراجح في المسألة أن الموتى لا يسمعون مطلقاً، وإنما يسمعون متى أراد الله إسماعهم كما في أحاديث المسألة وغيرها.

وهذا هو القول الذي تدعمه الأدلة، وأما إسماع أهل القليب فكما تقدم أنه خصيصة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أراد بها إهانتهم وتبكيتهم، وزيادة الحسرة عليهم، وراجع إن شئت «الآيات البينات في عدم سماع الأموات».

وقال ابن التين: لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتى لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله تعالى إسماع ما ليس من شانه السماع لم يمتنع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] الآية.

وسيأتي في المغازي قول قتادة إن الله تعالى أحياهم، حتى سمعوا كلام نبيه عليه الصلاة والسلام توبيخاً ونقمة.اهـ من الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ج١/ ص٣١)، وقال ايضاً في الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ج١/ ص٣٥)، ومما يؤيد مذهب الحنفية والموافقين لهم بعدم السماع، أن الميت لو كان يسمع مطلقا لما ورد أن الروح ترجع إليه وقت المسألة في القبر، ثم تذهب فافهم.اهـ

إثبات ضمة القبر للموحد وغيره إلا من شاء الله

أخرج الإمام أحمد رحمه الله (٣/ ٣٦) عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً إلى سعد بن معاذ حين توفي قال: فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وعلى

آله وسلم عليه ووضع في قبره، وسُوِّيَ عليه سبح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فسبحنا طويلاً، ثم كبر فكبرنا فقيل: يا رسول الله، لم سبحت ثم كبرت قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره، حتى فرجه الله عنه.

وأخرج الإمام ابن حبان كما في «الإحسان» (٣١١٢) عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «للقبر ضغطه لو نجا منها أحدٌ لنجا سعد بن معاذ». هذا حديث صحيح الإسناد.

وأخرج الإمام النسائي (٢٠٥٧) عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه». هذا حديث صحيح.

قال السفاريني في «لوامع الأنوار» (٢/ ١٦): قال أبو القاسم السعدي: والفرق بين المسلم والكافر في ضمة القبر دوامها للكافر، وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نزوله إلى قبره، ثم يعود الانفساح له فيه.. قال: والمراد بضغطة القبر إلتقاء جانبيه على جسد الميت، وقال الحكيم الترمذي: سبب هذه الضغطة أن ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما، وإن كان صالحاً فجعلت هذه الضغطة جزاءً لها، ثم تدركه الرحمة، ولذلك ضغط سعد بن معاذ رضي الله عنه.

قال: وأما الأنبياء فلا نعلم أن لهم في القبور ضمة، ولا سؤالاً لعصمتهم؛ لأن السؤال عن الأنبياء وما جاء به فكيف يُسألون عن أنفسهم.اهـ

أقول قال بعضهم: أن ضمة القبر للمؤمن كضمة الأم الحنون، والحديث ردٌ على هذا القول، فرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «قد ضم ضمة ثم فرج عنه»، فلفظه فرج تدل على شدة، والله الموفق للصواب.

ذكر من لا يفتن في قبره

١ – الأنبياء:

لأنهم يسأل عنهم، ولا يسألون عن أنفسهم والفتنة تكون بهم كما في حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه الإمام أحمد رحمه الله (٦/ ١٣٩) قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أنبئنا ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ذكوان، عن عائشة وفيه: «وأما فتنة القبر فبي تفتنون وعني تسألون...» الحديث.

٢- الشهيد:

أخرج الإمام النسائي (٢٠٥٥) عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنون يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفي ببارقة السيوف على رأسه فتنة».

هذا حديث صحيح، ورجاله كلهم ثقات.

٣- المرابط في سبيل الله:

أخرج الإمام مسلم رحمه الله (١٩١٣) عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «رباط يوم وليله خير من صيام شهر وقيامة، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجريَّ عليه رزقه وأمن من الفتان».

عودة الروح إلى الجسد بعد الدفن وأن السؤال واقع على المؤمن والكافر ويقع على الروح والجسد

أخرج الإمام البخاري (١٣٧٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: أنظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً.

قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري فيقال له: لا دريت ولا تليت، كنت أقول ما يقول الناس، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».

أخرجه مسلم مختصراً (٢٨٧٠).

قال الحافظ في «الفتح» (٣/ ٣٠١): وقد أخذ ابن جرير وجماعة من الكرامية بهذه القصة: أن العذاب في القبر يقع على البدن فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم.

وذهب ابن هبيرة، وابن حزم إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، من غير عود إلى الجسد.

وذهب الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه، كما ثبت في الحديث ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص.

والحامل للقائلين أن السؤال يقع على الروح فقط: أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسائلة، لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب.

وجوابهم: أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه، وإنما أتى اللفظ على ما قبله، والظاهر أن الله صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك، وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمر الملكوت، إلا من شاء الله، وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور.اهـ

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» نقلاً عن ابن القيم (٢٤٢): والشرع لا يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.

وليس السؤال في القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح، والأحاديث الصحيحة ترد القولين.اهـ

فنعم أن العذاب يقع على الروح والبدن، كما في حديث سمرة وغيره وسيذكر بطوله في هذه الرسالة

في (باب أسباب عذاب القبر).

وقال ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٨٩) بعد ذكر حديث البراء الطويل: فقد صرح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد، وباختلاف أضلاعه، وهذا بيَّن أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

ونقل ابن القيم رحمه الله في «الروح» (٩٥) وكما هو في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٢) عن شيخ الإسلام قوله: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً بإتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما مجتمعين في هذه الحالة.

ثم ذكر أقوال طوائف ممن يثبتون عذاب القبر، ومذاهبهم فقال: وهؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط.

ثم قال رحمه الله: والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة، ثم قال: فجميع هذه الطوائف في أمر البرزخ ضُلاَّل، إلا أنهم خير من الفلاسفة، فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى، فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقي بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل لها النعيم أو العذاب. اهـ بتصرف وانظر «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٤).

وقال ابن رجب رحمه الله في «أهوال القبور» (٨١):

مسألة تعلقات الروح بالجسد

إن كثيراً من المنكرين لعذاب القبر أنكروه بسبب اضطرابهم، وجعلهم أحوال الآخرة كأحوال الدنيا، وهذا غلط محض، بل عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ثابت بالكتاب والسنة، ولا تتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير المألوفة في الدنيا.اهـ من «شرح الطحاوية» (٣٩٩).

وقال ابن القيم في «الروح» (٨٤) في معرض رده على ابن حزم إنكاره لعودة الروح إلى الجسد، على أن قوله ثم تعاد روحه إلى بدنه، لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن، وتعلق به، فإن الروح لم تزل متعلقة ببدنها، وإن بلي وتمزق وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغاير في الأحكام:

الأول: تعلقها به في بطن أمه.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه على وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به متعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه، فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة، وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا رد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً.اهـ

ومما يأتي من الأحاديث كحديث البراء وغيره رضي الله عنهم يدل على أن الروح تعود إلى الجسد، حال سؤال منكر ونكير.

مسألة هل عذاب القبر يقع على كل مستحق قبر أو لم يقبر

قال ابن القيم رحمه الله في «الروح» (١٠٦): ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر، هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيب منه، قبر أم لم يقبر، فلو أكلته السباع أو حرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.اهـ

ثم استدل رحمه الله بحديث سمرة الطويل المخرج في البخاري، وسيأتي بطوله وبنحوه ذكر السفاريني في «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٢٦).

وقال الحافظ رحمه الله في «فتح الباري»: وإنما أضيف العذاب إلى القبر؛ لكون معظمه يقع فيه، وكون الغالب على الموتى أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته، ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا ما شاء الله.اهـ

قال صديق حسن خان رحمه الله، كما في «الاعتقاد» (٤٩٨): إن الله يُلقي في الميت نوعاً من الحياة التي يشعر بها الألم واللذة، وهذا يستلزم إعادة الروح في الجسد، حتى يتحرك الميت ويضطرب، والغريق والمأكول في بطون السباع والمصلوب يعذبون، ونحن لا نشعر بهم، ومن تأمل في عجائب ملك الله وغرائب قدرته وجبروته لا يستبعد مثل هذه الأمور، ولا ينكرها.اهـ

وقال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» (١٧/ ١٩٨) في كلامه حول عذاب الميت: ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تفرقت أجزاؤه، كما نشاهد في العادة، أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أن الله يعيده للحشر، وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك، فكذلك يعيد الحياة إلى جزء منه، أو أجزاء، وإن أكلته السباع والحيتان.اهـ

مسألة تلقين الميت وهو في قبره

اعلم أن مسألة التلقين قبل الموت لم نعلم فيها خلافاً، وأما بعد الموت وهي التي تقدم ذكرها في

الهداية وغيرها، فاختلف الأئمة والعلماء فيها فالحنفية لهم فيها ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يلقن بعد الموت لعود الروح للسؤال.

والثاني: لا يلقن.

والثالث: لا يؤمر به ولا ينهى عنه.

وعند الشافعية: يلقن كما قال ابن حجر في «التحفة».

ويستحب تلقين بالغ، عاقل، أو مجنون سبق له تكليف، ولو شهيداً كما اقتضاه إطلاقهم بعد تمام الدفن لخبر فيه، وضعفه أعتضد بشواهد على أنه من الفضائل فاندفع قول ابن عبد السلام أنه بدعة.اهـ

وأما عند الإمام مالك نفسه: فمكروه، قال الشيخ علي المالكي في كتابه «كفاية الطالب الرباني لختم رسالة ابن أبي زيد القيرواني» ما لفظه وأرخص بمعنى استحب بعض العلماء هو ابن حبيب في القراءة عند رأسه، أو رجليه، أو غيرهما ذلك بسورة (يس) لما روي أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ما من ميت يقرأ عند رأسه سورة يس إلا هون الله تعالى عليه»، ولم يكن ذلك أي ما ذكر من القراءة عند المحتضر عند مالك رحمه الله تعالى أمراً معمولاً، وإنما هو مكروه عنده، وكذا يكره عند تلقينه بعد وضعه في قبره.اهـ

وأما الحنبلية: فعند أكثرهم يستحب، قال الشيخ عبد القادر بن عمر الشيباني الحنبلي في «شرح دليل الطالب» ما لفظه واستحب الأكثر تلقينه بعد الدفن.اهـ

واستفيد منه أن غير الأكثر من الحنابلة يقول بعدم التلقين بعد الموت أيضاً، وأما الظاهرية: فالظاهر من كلام أبي محمد بن حزم الذي هو من أجلّ العلماء الظاهرية: عدم التلقين أيضاً، كما سيأتي في الفصل الثالث فلا تغفل.اهـ من «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» (ص١٨-٢٣).

وما ذهب إليه من عبد السلام من بدعية التلقين هو الحق؛ لعدم وجود الدليل الصحيح، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وكذلك قراءة ﴿يس﴾ عند الميت سواءً قبل الدفن أو بعده، يعتبر من المحدثات لضعف حديث: «اقرؤا على موتاكم يس». ففيه عدة علل:

أبو عثمان ليس بالنهدي: ضعيف. ووالده: مجهول. والحديث أيضاً مضطرب كما نص على ذلك أهل العلم.

مسألة هل السؤال خاص بهذه الأمة

في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: أنه خاص بهذه الأمة، وإليه ذهب الحكيم الترمذي وحجتهم في ذلك حديث: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها». وحديث: «أوحيَ إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم»، وحديث: «إنكم فيَّ تمتحنون وعني تُسألون». وقال الحافظ في «الفتح»: هنالك من زعم أن السؤال إنما يقع على من يدعي الإيمان، إن محقاً وإن مبطلاً، ومستندهم في ذلك ما رواه عبد الرزاق، عن عبيد بن عمير أحد كبار التابعين قال: «إنما يفتن رجلان مؤمن ومنافق، وأما الكافر فلا يسأل عن محمدٍ ولا يعرفه»، وهذا موقوف، والأحاديث الناصة على أن الكافر يسأل مرفوعة مع كثرة طرقها الصحيحة أولى بالقبول.

الثاني: أنه عام، وأن هذه الأخبار لا تدل على الاختصاص، بل المراد بالأمة في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جماعة من الناس كما قال الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾، وذهب إلى هذا القول عبد الحق الإشبيلي، والقرطبي.

الثالث: التوقف، وإليه ذهب ابن عبد البر رحمه الله، وبه يقول صديق حسن خان.

□ قال ابن القيم في «الروح» (١٤٣): قال أبو عمرو بن عبد البر في كتابه «التمهيد»: والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق، كان منسوباً إلى أهل القبلة، ودين الإسلام يظهر الشهادة، وأما الكافر والجاحد المبطل، فليس ممن يُسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن

هذا أهل الإسلام ويثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.اهـ

فقال رحمه الله راداً عليه: والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم، قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم:٢٧]، وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يُسأل من ربك؟ وما دينك؟ وما نبيك؟ ثم ساق رحمه الله حديث أنس وفيه: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس؛ فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين...»، إلى أن قال: وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر : ٩٢]، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف : ٦] ، فإذا سُئِلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم؟ فليس لما ذكر أبو عمرو رحمه الله عليه وجه.

وهذا هو القول الراجح أن السؤال حاصله للكافر والمسلم.اهـ

وهذا والله أعلم هو القول الراجح في المسألة، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه الأمة لأنه يخاطبها وأيضاً يدل على عمومه، حديث أنس رضي الله عنه قال الإمام البخاري(١٣٧٤):

حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً».

قال قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيقال

له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت، كنت أقول ما يقول الناس، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».

مسألة هل يمتحن الأطفال في قبورهم؟

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الروح» (١٤٩): اختلف الناس في ذلك على قولين: هما وجهان لأصحاب أحمد، وحجة من قال إنهم يسألون أنه يشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم، وسؤال الله أن يقيهم من عذاب القبر، وفتنة القبر، ثم استدل بحديث أبي هريرة عند مالك وقال فيه: «اللهم قه من عذاب القبر».

واحتجوا بحديث عائشة أنه مرّ عليها بصبي صغير في جنازة، فبكت فقيل لها: ما يبكيك؟ فقالت: هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمه القبر، وذهب آخرون أنه لا يسأل، وإنما السؤال يكون لمن عقل الرسول والمرسل، فيُسال: هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا؟ وقالوا: كيف يقال للطفل الذي لا تمييز له ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم، ولا فائدة في هذا السؤال وجزم القرطبي في «التذكرة» أنه يُسأل.اهـ «الفتح».

وقد ذكر شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧ – ٢٧٧) قال: وإذا مات الطفل فهل يمتحن في قبره، ويسأله منكر ونكير؟

فيه قولان في مذهب أحمد وغيره:

الأول: أنه لا يمتحن، وإن المحنة إنما تكون على من كلف في الدنيا، قاله طائفة منهم أبو يعلي وابن عقيل.

والثاني: أنهم يمتحنون، ذكره أبو حكيم الهمداني، وأبو الحسن عبدوس، ونقله عن أصحاب الشافعي... وقد روى مالك، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى على طفل فقال: «اللهم قه عذاب القبر، وفتنة القبر»، وهذا موافق لقول من قال: إنهم يمتحنون في الآخرة، وإنهم مكلفون يوم القيامة، كما هو قول أكثر أهل العلم، وأهل السنة من أهل الحديث،

والكلام وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره، وهو مقتضي سؤال الإمـام أحمد.اهـ

وهذا هو الراجح من عموم الأدلة: «إذا وضع الميت في قبره جاءه ملكان فيجلسـان فيقـولان: مـن ربك؟ وما دينك؟ وما نبيك؟» الحديث.

حال المؤمن في القبر

أخرج الإمام ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٨٦٦) عن جابر قال: قال رسـول الله صـلى الله عليـه وعلى آله وسلم: «إذا أدخل المؤمن قبر فأتاه ملكان فاستشهداه فيقوم كما يهب النائم فيسألانه: مـن ربك؟ وما دينك؟ وما نبيك؟ فيقول: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي. فيقولان له: صدقت. فيقال: افرشوه من الجنة، فيقول: دعوني حتى آتي أهلي فيقولان له: أسكن». حديث إسناده صحيح على شرط مسلم.

وأخرجه برقم (٨٦٧) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسـلم: «إذا أدخل الميت القبر مثلت له الشمس عند الغـروب، فـيجلس فيمسـح عينيـه ويقـول: دعـوني أصلي». هذا حديث حسن.

مستقر أرواح الشهداء

أخرج الإمام أحمد رحمه الله (٣/ ١٣٥) عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تعجبه الرؤيا الحسنة، فربما قال: «هل رأي أحد منكم رؤيا؟» فإذا رآى الرجل رؤيا سأل عنه، فـإن كان ليس به بأس كان أعجب لرؤياه إليه، قال: فجاءت امرأة فقالت: يـا رسـول الله، رأيـت كـأني دخلت الجنة فسمعت بها وجبة أرتجت لها الجنة، فنظرت فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفـلان بـن فلان حتى عدت اثنا عشر رجلاً، وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسـلم سريـة قبـل ذلك قالت: فجيئ بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم قال: قيل: أذهبـوا إلى نهـر السـدخ أو

قال إلى نهر البيدج، فغمسوا فيه فخرجوا منه وجوههم كالقمر ليلة البدر قال: ثم أتوا بكراسي من ذهب فقعدوا عليها، وأتي بصحفة أو كلمة نحوها فيها بسرة، فأكلوا منها فما يقلبونها الشق إلا أكلوا من فاكهة، ما أرادوا وأكلت معهم.

قال فجاء البشير من تلك السرية فقال: يا رسول الله، كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان حتى عدَّ الأثني عشر الذين عدتهم المرأة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «عليَّ بالمرأة» فجاءت قال: «قصي عليَّ هذا رؤياك»، فقصت قال: هو كما قالت لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. هذا حديث صحيح.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٢٦٦) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً».

هذا حديث حسن من أجل محمد بن إسحاق.

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى (٣٩٨٢) عن حميد قال: سمعت أنس قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة صبرت واحتسبت، وإن تكن الآخرة ترى ما أصنع، قال: «ويحك أو هبلت جنة واحدة هي؟ إنها جنان، وإنه في جنة الفردوس».

وأخرجه رحمه الله (٣١٥٩) عن المغيره قال: وأخبرنا نبينا عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط.

وأخرجه رحمه الله (٣١٨٢) عن سهل بن حنيف قال: فجاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار قال: «بلى».

مستقر بعض أرواح المؤمنين

وأخرج الإمام النسائي رحمه الله (٢٠٧٥) عن عبد الرحمن بن كعب أنه أخبره: أن أباه كعب بن مالك كان يحدث، عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنما نسمة المؤمن طائرٌ في شجر الجنة حتى يبعثه الله عز وجل إلى جسده يوم القيامة».

هذا حديث صحيح على شرط البخاري.

وإن كان أحمد بن صالح قد قال: إن رواية الزهري، عن عبد الرحمن مرسلة، وإنما روي عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب كما في «التهذيب».

لكن قد أخرج البخاري في صحيحة حديث رقم(٢٩٥٠) «كتاب الجهاد والسير» (باب من أراد غزو ووارى بغيرها):

قال: حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا هشام، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خرج يوم الخميس إلى غزوة تبوك. الحديث.

وقد رجح الحافظ بن حجر رحمه الله في شرح الحديث أنه قد سمع من عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب، ومن عبد الرحمن بن كعب.

مستقر أرواح أطفال المؤمنين والمشركين

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى (٧٠٤٧) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال: «أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني، وإنهما قال لي: انطلق، وإني انطلقت معهما» فذكر الحديث إلى قوله: «فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل

من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا ما هؤلاء؟.. .. قالا: وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأما الوالدان الذين حوله: فكل مولود مات على الفطرة»، قال: فقال بعض المسلمين يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وأولاد المشركين».

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله (٢٦٦٣) عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، قال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم».

أخرج الإمام مسلم رحمه الله (٢٦٦١) عن ابن عباس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن أطفال المشركين؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم».

قال الإمام النووي رحمه الله (١٦/ ٢٠٧):

أجمع من يعتد به من علماء المسلمين، على أن من مات من أطفال المسلمين فهو في الجنة، وتوقف بعض من لا يعتد به؛ لحديث عائشة فقال العلماء: لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، ويعلم أنه قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة.

مسألة أين مستقر الأرواح بين الموت إلى يوم القيامة؟

هذا المسألة من المسائل التي خاض فيها الناس كثيراً بالحق تارة، وبالباطل تارات.

قال ابن القيم رحمه الله في «الروح» (١٥٤): هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس، واختلفوا فيها وهي إنما تتلقى من السمع فقط، واختلف في ذلك فقال قائلون: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء أم غير شهداء، إذ لم يحبسهم عن الجنة كبيرة، ولا دين وتلقاهم ربهم بالعفو والرحمة لهم، وهذا مذهب ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما، وقالت طائفة: هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من

روحها ونعيمها، ورزقها.

وقالت طائفة: الأرواح على أفنية قبورها.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقال الإمام أحمد: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار، وقالت طائفة: أرواح المؤمنين في زمزم، وأرواح الكافرين في برهوت، وذهب ابن حزم إلى أن مستقرها حيث كانت قبل الخلق إلى غير ذلك من الأقوال.

ثم أستطرد رحمه الله في الرد على كل قول، وبين ما يراه وهو الذي إن شاء الله تدعمه الأدلة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «الروح» (ص١٨٧-١٨٨):

مبيناً الترجيح في مستقر أرواح الموتى: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت فمنها: أرواح في أعلى علين في الملاء الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وهم متفاوتون في منازلهم، كما رآها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة الإسراء، وبهذا قال ابن رجب في «أهوال القبور» (٩١): وأما الأنبياء عليهم السلام فليس فيهم شك أن أرواحهم عند الله في أعلى علين، واستدل بحديث: «اللهم الرفيق الأعلى»، أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، أو غيره.

ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة كما في حديث: «رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة».

ومنهم من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشمله التي غلها ثم استشهد فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «والذي نفسي بيده إن الشملة لتهب عليه ناراً».

ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس: «الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية». رواه أحمد.

ومنهم من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلى الملاء الأعلى.

ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد، بل روح في أعلى عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض.اهـ

قال ابن رجب رحمه الله في «أهوال القبور» (٩٦):

وأما بقية المؤمنين سوى الشهداء فينقسمون إلى أهل تكليف وغير أهل تكليف، فهذان قسمان:

أحدهما: غير أهل التكليف كأطفال المؤمنين، فالجمهور على أنهم في الجنة، وقد حكى الإمام أحمد على ذلك الإجماع.

قُلْتُ: وكذلك نقل الإجماع النووي في «شرح مسلم» (١٦/ ٢٠٧)، وكذا نص الشافعي على أن أطفال المسلمين في الجنة.. ..

ويستدل لهذا القول بحديث سمرة عند البخاري (١٣٨٦).

وفيه: «فانطلقنا حتى أتينا على روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان...» الحديث.

ثم قال: والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله أولاد الناس.اهـ

ويؤيد هذا أيضاً حديث أبي هريرة عند مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «صغارهم دعاميص أهل الجنة، يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بثوبه، أو قال: بيده كما أخذ بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهي أو قال: ينتهي حتى يدخله الله وآباه الجنة».اهـ بتصرف

وهذا هو الراجح في المسألة أنه يجزم لأولاد المؤمنين بالجنة، لهذا الأدلة وغيرها، وكذلك أولاد المشركين للحديث المتقدم، ولفظة في البخاري رقم (٧٠٤٧) قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة». قال: فقال بعض المسلمين وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين».اهـ

هذا وقد انقسم الناس في أولاد المشركين إلى ثلاثة أقسام:
الأكثرون: أنهم في النار مع آبائهم، وتوقفت طائفة، والثالث: وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون: أنهم من أهل الجنة.اهـ أفاده النووي «شرح مسلم» (١٦/ ٢٠٨).
وما أحسن الرجوع إلى الآية والحديث، وترك الخوض فيما لا طائل تحته، وأما حديث: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، فلعله قاله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قبل أن يُوحى إليه أنهم في الجنة.
ثانياً: أهل التكليف من المؤمنين سوى الشهداء.
وقد اختلف فيهم العلماء قديماً وحديثاً، والمنصوص عن الإمام أحمد: أن أرواح المؤمنين في الجنة، ذكر ذلك الخلال في كتاب «السنة» عن غير واحد، عن حنبل قال: سمعت أبا عبد الله يقول: أرواح المؤمنين في الجنة، وأروح الكفار في النار، والأبدان في الدنيا يعذب الله من يشاء، ويرحم من يشاء، ويستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك: «نسمة المؤمن إذا مات طائر يعلق في شجره الجنة.. حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه».
ويستدل أيضاً للقول بأن أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكفار في النار من القرآن بأدلة منها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٣-٩٤].
فجعل كل هذا متعقباً للاحتضار والموت.اهـ باختصار من «أهوال القبور» (١٠٠-١٠٦).
ثم قال رحمه الله تعالى (١٨٩): وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها معرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتنفعل بفناء القبر والبدن فيه، فهي أسرع شيء حركة

وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن، بكثير فهنالك لها الحبس والألم، والحسرة والعذاب، والمرض وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذا الدار.اهـ

ذكر عدد من أسباب عذاب القبر

ثم أعلم أن جميع المعاصي من الشرك فما دونه من أسباب عذاب القبر، إلا أن يتجاوز الله فيما دون الشرك، وقد ذكرنا أسباب عذاب القبر في الرسالة المشار إليها آنفًا.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[الجن:٢٣] الآية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤].

استطراد في ذكر القبر وما فيه من النعيم والعذاب وسؤال منكر ونكير

أخرج الإمام أحمد رحمه الله (٦/ ١٣٩) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ يَهُودِيَّةٌ فَاسْتَطْعَمَتْ عَلَى بَابِي فَقَالَتْ: أَطْعِمُونِي أَعَاذَكُمْ الله مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَمِنْ فِتْنَةِ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَتْ: فَلَمْ أَزَلْ أَحْبِسُهَا حَتَّى جَاءَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا تَقُولُ هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ؟ قَالَ: «وَمَا تَقُولُ؟» قُلْتُ: تَقُولُ أَعَاذَكُمْ الله مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَمِنْ فِتْنَةِ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَامَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا يَسْتَعِيذُ بِالله مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَمِنْ فِتْنَةِ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا فِتْنَةُ الدَّجَّالِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ إلا قَدْ حَذَّرَ أُمَّتَهُ، وَسَأُحَذِّرُكُمُوهُ تَحْذِيرًا لَمْ يُحَذِّرْهُ نَبِيٌّ أُمَّتَهُ، إِنَّهُ أَعْوَرُ وَالله عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بِأَعْوَرَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، فَأَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أُجْلِسَ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلا

مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: فِي الاسْلامِ، فَيُقَالُ: مَا هَـذَا الرَّجُـلُ الَّـذِي كَـانَ فِـيكُمْ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جَاءَنَـا بِالْبَيِّنَـاتِ مِـنْ عِنْـدِ الله عَـزَّ وَجَـلَّ، فَصَدَّقْنَاهُ فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا فَيُقَالُ لَهُ: «هَذَا مَقْعَـدُكَ مِنْهَـا، وَيُقَـالُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ الله».

وأخرج رحمه الله: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قـال: «إن الميـت تحضـره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: أخرجي أيتهـا الـنفس الطيبـة كانـت في الجسـد الطيـب، وأخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخـرج، ثـم يعرج بها إلى السماء فيستفتح له فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أدخلي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فإذا كان الرجل السـوء قـالوا: أخرجـي أيتهـا الـنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، أخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وأخر من شـكله أزواج، فما يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث أرجعي ذميمة فإنـه لا يفـتح لـك أبـواب السماء، فترسل في السماء، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح» فيقال: له ويـرد مثـل مـا في حديث عائشة سوء.

هذا حديث صحيح.

الحديث ذكره الوادعي في «الصحيح المسند».

وأخرج الإمام أبو بكر بن أبي شيبه في «المصنف» (٣/ ٣٨٠) عن البراء قال: خرجنا مع رسـول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجلسنا حوله كأنما على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكـت بـه فرفـع رأسة فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر»، ثلاث مرات أو مرتين، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا

كان في انقطاع عن الدنيا وإقبال من الآخرة، نـزل إليـه مـن السـماء ملائكـة بـيض الوجـوه، كـأن وجوههم الشمس، حتى يجلسوا منه مد البصر معهم كفن من أكفان الجنـة، وحنـوط مـن حنـوط الجنة، ثم يجئ ملك الموت فيقعد عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفـرة مـن الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فإذا أخذوها لم يدعوها في يده طرفة عـين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملك من الملائكـة إلا قـالوا: مـا هـذا الـروح الطيب؟ فيقولون: هذا فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهون بهـا إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، قـال فيقـول الله: أكتبـوا كتـاب عبـدي في عليين في السماء الرابعة، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقـولان لـه: مـن ربـك؟ فيقـول: ربي الله، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان: ما عملك؟ فيقـول: قرأت كتاب الله، وآمنت به، وصدقت به، فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبـدي، فافرشـوه مـن الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باب إلى الجنة، فيأتيه من طيبها وروحها، ويفتح له في قبره مـد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنـت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الذي يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقـول: رب أقـم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سـود الوجوه، معهم المسوح حتى يجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلـس عنـد رأسـه فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط الله وغضبه، قال: فتتفرق في جسده، قال: فتخرج فينقطع معها العروق والعصب كما تُنزع السفود من الصوف المبلـول، فيأخـذوها فـإذا أخـذوها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة

وجدت على ظهر الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله عز وجل: أكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فتطرح روحه طرحاً: قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج: الآية٣١]، قال: فتعاد روحه في جسده ويأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ها ها لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ها ها لا أدري، فينادى منادٍ من السماء أفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف عليه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، وقبيح الثياب، فيقول: أبشر بالذي يسؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربي لا تقم الساعة ربي لا تقم الساعة».

قال الوادعي رحمه الله: هذا حديث حسن.

مسألة هل عذاب القبر دائم أم منقطع

قال ابن القيم في «الروح» (١٥١) جوابها أنه نوعان: (نوع دائم) سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾[يّس:٥٢] ويدل على دوامه قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾[غافر:٤٦]، ويدل عليه ما تقدم من حديث سمرة الذي رواه البخاري في رؤيا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وفيه: «فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة».

وفي حديث ابن عباس في قصة الجريدتين: «لعله يخفف عنهما مالم تيبسا»، فجعل التخفيف مقيد برطبتهما فقط.

وفي حديث الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شيءٌ».

وفي الصحيح في قصة الذي لبس بردين، فجعل يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وفي حديث البراء رضي الله عنه في قصة الكافر: «ثم يفتح له باب إلى النار، فينظر فيأتيه من دخانها وغمها إلى يوم القيامة».

النوع الثاني: مدة، ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه كما يعذب في النار، ثم يزول عنه العذاب.

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج.اهـ

وإلى هذا ذهب ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠١) تحقيق الألباني وقال ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٩٦): لا يجب أن يكون دائماً، وفي كل وقت، بل يجوز أن يكون في حالة دون حال.اهـ

المنكرون لعذاب القبر

ذهب إلى إنكار عذاب القبر الملاحدة والفلاسفة الذين لا يؤمنون بالغيبيات، وإنما إيمانهم بالحسيات، وقد وافقهم على إنكاره من فرق المسلمين الخوارج والمعتزلة، فقد قال ابن حزم في الفصل (٤/ ٥٥-٦٥): (ذهب ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر، وهو قول من لقينا من الخوارج، وذهب أهل السنة وبشر بن المعتز والجبائي وسائر المعتزلة إلى القول به وبه نقول).اهـ

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في مقالات الإسلامين (١/ ٢٠٦): (والخوارج لا يقولون بعذاب القبر، ولا ترى أحداً يعذب في قبره).اهـ

وقال النووي رحمه الله (١٧/ ١٩٨): والمقصود أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر، كما ذكرنا خلافاً للخوارج، ومعظم المعتزلة وبعض المرجئة.اهـ

وقال بهذا إيضاً القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٨/ ٤٠١): (خلافاً لجميع الخوارج ومعظم المعتزلة ولبعض المرجئة).

وقال الحافظ في «الفتح» (٣/ ٢٩٦) في كلامه حول تبويب البخاري: باب ما جاء في عذاب القبر: (واكتفي بإثبات وجوده خلافاً لمن نفاه مطلقاً من الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر المريسي ومن وافقهما وخالفهما في ذلك أكثر المعتزلة وجميع أهل السنة وغيرهم وأكثروا من الاحتجاج له وذهب بعض المعتزلة كالجبائي إلى أنه يقع على الكفار دون المؤمنين، وبعض الأحاديث الآتية ترد عليهم.اهـ

قال أبو الحسن الأشعري أيضاً في كتابه «إبكار الأفكار» الفصل الثالث في عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير: وقد اتفق سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، وأكثر بعد ظهوره على إثبات إحياء الموتى في قبورهم، ومساءلة الملكين لهم، وتسمية أحدهما منكراً والآخر نكير، وعلى إثبات عذاب القبر للمجرمين والكافرين. وذهب أبو الهذيل وبشر بن المعتمر إلى أن من ليس بمؤمن، فإنه لا يسأل، ويعذب فيما بين النفختين أيضاً، وذهب الصالحي من المعتزلة وابن جرير الطبري وطائفة من الكرامية إلى تجويز ذلك على الموتى في قبورهم، وذهب بعض المتكلمين إلى أن الآلام تجتمع في أجساد الموتى، وتتضاعف من غير حس بها، فإذا حشروا أحسوا بها دفعة واحدة، وذهب ضرار بن عمرو وبشر المريسي، وأكثر المتآخرين من المعتزلة إلى إنكار ذلك كله.اهـ من «الآيات البينات».

فانظر هداك الله وألهمك الصواب: أن المنكرين لعذاب القبر هم أهل الزيغ والضلال، والجهل والجدال، الذين عدلوا عن منهج السلف إلى سبيل المجرمين، الذين أمر الله سبحانه بمخالفة

طريقهم، وتبين ضلالهم ليحذره الناس بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام:٥٥].

وقد اتفق سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، وأكثرهم بعد ظهوره على إثبات إحياء الموتى في قبورهم، ومسألة الملكين لهم، وتسمية أحدهما منكر والآخر نكيراً، وعلى إثبات عذاب القبر للمجرمين والكافرين.اهـ

شبهة المنكرين لعذاب القبر

قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[غافر:١١] والمراد بالإماتتين ما بين الموتة التي قبل مزار القبور والموتة التي بعد مساءلة منكر ونكير والمراد بالحياتين الحياة الأولى، والحياة لأجل المساءلة على ما قاله المفسرون، فإن قيل: لانسلم أن المراد بالإماتتين والحياتين ما ذكرتموه، وما ذكرتموه عن المفسرين فهو معارض بما يناقضه من قول غيرهم من المفسرين أيضاً، فإنه قد قيل إن المراد بالإماتتين:

الموتة الأولى: في أطوار النطفة قبل نفخ الروح فيها.

والثانية: التي قبل مزار القبور، والمراد بالحياتين الحياة التي قبل مزار القبور، والمراد بالحياتين الحياة التي قبل مزار القبور، والحياة لأجل الحشر وليس أحد القولين أولى من الآخر، بل هذا القول أولى؛ لأنه لو كان كذلك فيكون على وفق المفهوم من قوله تعالى، وأحييتنا اثنتين أثنين حيث يدل بمفهومه على نفي حياة ثالثة، وما ذكرتموه يلزم منه أن يكون الإحياء ثلاث مرات:

الأحياء الأول: قبل مزار القبور. والأحياء الثاني: للمسألة. والأحياء الثالث: للحشر وهو خلاف المفهوم.

قلنا: بل ما ذكرناه أولى لوجهين الأول: أنه الشايع المستفيض بين أرباب التفسير، وما ذكرتموه نقول شذوذ لا يؤبه لهم.

الثاني: أنه حمل الإماتة على حالة أطوار النطفة، مخالف للظاهر فإن الإماتة لا تطلق إلا بعد سابقة الحياة.

منها قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[يّس:٥٢]، فإنه دليل على أنهم لم يكونوا معذبين قبل ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾[الدخان:٥٦]، وهي خلاف قول من قال: بأن الميت يحيى للمسائلة، ثم يموت إلى أن قال: والجواب: أما ما ذكروه من الشبهة الأولى، فقد اختلف المتكلمون في جوابها، فمنهم من قال بالتزام الثواب والعقاب في حق الموتى، من غير حياة كما حكاه عن الصالحي، وابن جرير الطبري، وبعض الكرامية، وأما أصحابنا فقد اختلفوا، فمنهم من قال: ترد الحياة إلى بعض أجزاء البدن، وأخصها منها بذلك، والمسائلة والعذاب.

وقال القاضي أبو بكر: لا يبعد أن ترد الحياة، وان كنا نحن لا نشعر بها كما قال صاحب السكة. اهـ

والأحاديث الدالة على عذاب القبر متواترة بما لا يدع مجال في التشكك فيها، ولو لم تكن متواترة لوجب الإيمان بها.

قال ابن رجب رحمه الله: وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في عذاب القبر والتعوذ منه.اهـ

وقال الشوكاني رحمه الله في «نيل الأوطار» بعد ذكر حديث عائشة: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر»: فيه رد على المنكرين لذلك، والأحاديث في هذا الباب متواترة.

وقال صديق حسن خان رحمه الله: «وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره، وفي جوابه عليهم، وفي عذاب القبر وفتنتة».

وقال رحمه الله بعد ذكر آية: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٥٤]، وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر للعصاة، وأن المطيعين لله يصل

إليهم ثوابهم، وهم في قبورهم في البرزخ، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة، ودلت عليه الآيات ألقرآنية.اهـ نقلاً عن السيد صديق حسن خان، وآراؤه الاعتقادية، وموقفه من «عقيدة السلف». (ص٤٩٢).

وقال النووي رحمه الله «شرح مسلم» (١٧/ ١٩٧):

أعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾[غافر:٤٦] الآية، وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة.اهـ

قال عياض في «أكمال المعلم» (٨/ ٤٠٠): عذاب القبر ثابت عند أهل السنة وقد وردت به الاثار. وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦].اهـ

قال الناصر الحنفي: وقد تواترت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، لمن كان لذلك أهلاً، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فيجب الاعتقاد بثبوت ذلك.

وأما قولهم بسؤال منكر ونكير للميت في قبره عن ربه، ودينه، ونبيه، وقولهم بإن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، فإنما قالوا ذلك بما تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذلك كله، ولا تفاق الصحابة رضي الله عنهم بثبوته.اهـ «أصول الدين عند أبي حنيفة» للخميس (ص٥٠٤).

وقال القرطبي رحمه الله «شرح مسلم» (٧/ ١٤٥): قد تقدم القول على عذاب القبر، وأنه مما يجب الإيمان به، وقد صحت الأخبار عنه في الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، ولا يلتفت لاستبعاد المبتدعة.اهـ

قال الألوسي في «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» (ص٨٢): عذاب القبر للكافرين وبعض عصاة المؤمنين، وتنعيم أهل الطاعة في القبر، بما يعلمه الله تعالى ويريده، والنصوص في ذلك

صحيحة كثيرة، يبلغ معناها حد التواتر.اهـ

وقال أبو الحسن الأشعري في كتابه «الإبانة» (ص١٦٦): وأنكرت المعتزلة عذاب القبر أعاذنا الله منه، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وما روي عن أحدٍ منهم أنه أنكره ونفاه وجحده، فوجب أن يكون إجماعاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

مسألة لماذا لم يذكر عذاب القبر في القرآن صريحاً

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الروح» (١٣١): الجواب من وجهين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين، وأوجب على عباده الإيمان بهما، والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[الجمعة:٢].

والكتاب: هو القرآن والحكمة، هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول، فهو عن الله، فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أوتيت القرآن ومثله معه».

وأما الجواب المفصل فهو أن نعيم البرزخ مذكور في القرآن في غير موضع، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام: ٩٣].

ومنها: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦].اهـ مختصراً

الإيمان ببعث الأجساد وإعادة الأرواح إليها

وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا تدنو منهم الشمس[١].

وقد تقدمت الأدلة من القرآن على إثبات عذاب القبر، وتفسير العلماء لها، فلله الحمد والمنة.

حكم من أنكر عذاب القبر

قال ابن القيم رحمه الله في «الروح» (١٠٤): قال المروزي: قال أبو عبد الله: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل.اهـ

وقال ابن القيم أيضاً بعد أن ذكر قول المريسي والجبائي، وضرار بن عمرو وغيرهم، ممن أنكر عذاب القبر، فهذه أقوال أهل الخزية والضلالة.اهـ

قال الآجري في «الشريعة» بعد أن ذكر أدلة عذاب القبر: ما أسوأ حال من كذب بهذه الأحاديث، لقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً.اهـ

قال السفاريني في «لوائح الأنوار السنية»: وأنكرت الملاحدة والزنادقة عذاب القبر وضيقه وسعته.. . وقال أخوانهم من أهل البدع والضلال والإفك والإعتزال: كل حديث يخالف مقتضى العقول، نقطع بتخطئة ناقله.اهـ

وهذا حق من أنكره جاهلاً أو متأولاً، أما من أنكره راداً للأحاديث والآيات التي تدل على عذاب القبر بعد إقامة الحجة، فهو كافر زنديق، نسأل الله السداد.

[١] قوله: «وبإعادة الأرواح إلى الأجساد .... إلخ» هذه من عقيدة السلف التي يخالفون فيها الملاحدة والقلاسفة قال السفاريني في «منظومته»:

واجزم بأمر البعث والنشور	والحشر جزماً بعد نفخ الصور

كـذا وقــوف الخلق للحســـــاب	والصحف والميزان للثـــواب
كذا الصراط ثم حوض المصطفى	فيــا هنـا لمن نـال بـه الشِّفــا
عــنـه يُـذادُ المفــتري كـــما ورد	ومن نحا سبل السلامـة لم يُرَد
فـكن مـطيعاً واقْـفُ أهل الطاعة	في الحوض والكوثر والشفاعة
فـإنهـــا ثابتـــةٌ للمــصـطـفـى	كغيره مـن كـل أرباب الـوفــا
من عـــالم كـــالرُّسْــل والأبـــرار	سوى التي خُصت بذي الأنوار

والرَّوْح والرُّوح في الأصل واحد، وجعل الرُّوح اسمًا للنفس، وقد اختلف العلماء في مسمى الرُّوح والنفس، هل بمعنى واحد، والذي يظهر لي أنهما شيء واحد؛ ففـي حـديث أم سـلمة عنـد مسلم (٩٢٠) قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ».

وفي حديث أبي هريرة عنده (٩٢١): «أَلَمْ تَرَوْا الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ شَخَصَ بَصَرُهُ؟» قَالُوا: بَـلَى، قَـالَ: «فَذَلِكَ حِينَ يَتْبَعُ بَصَرُهُ نَفْسَهُ».

قال القاضي: وفيه حجة لمن يقول الروح والنفس بمعنى. اهـ

والأرواح موتها بخروجها من الجسد ومفارقتها له، وإلا فإنها لا تفنى، وهي ما استثنا الله عزوجـل من الفناء على ما يأتي بيانه في كلامنا عن الجنة والنار.

والروح مخلوقة مربوبة، وأما قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِـي﴾ [الحجـر: ٢٩] فمعنـاه مـن الأرواح التي عندي، وإضافتها إلى الله عزوجل إضافة خلق وإيجاد، لا إضافة صفة إلى موصوف.

وفي «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢١٩): وقول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يقول من أمـره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًـا مِنْـهُ﴾ [الجاثيـة: ١٣] يقول من أمره وتفسير روح الله؛ أنها روح بكلمة الله خلقها الله كما يقال: عبد الله وسماء الله. اهـ

و(٤/ ٢١٥) سُئل رحمه الله عن الروح: هل هي قديمة أو مخلوقة؟

فأجاب رحمه الله: روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسـائر أهـل السـنة وقـد

حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل: محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف أو من أعلمهم، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في «كتاب اللقط» لما تكلم على خلق الروح قال: النسم الأرواح، قال: وأجمع الناس على أن الله خالق الجثة، وبارئ النسمة أي: خالق الروح، وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة: سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة، قال: هذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب، إلى أن قال: والروح من الأشياء المخلوقة وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردودًا على من يزعم أنها غير مخلوقة.

وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتابا كبيرًا في «الروح والنفس» وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئًا كثيرًا؛ وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره، والشيخ أبو يعقوب الخراز، وأبو يعقوب النهرجوري، والقاضي أبو يعلى وغيرهم؛ وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى بن مريم لا سيما في روح غيره. اهـ

فالذي نريد بيانه هنا: أن الأرواح لا تفنى، تكون أرواح المؤمنين في الجنة على ما تقدم بيانه، وأرواح الكفار في النار؛ فإذا أراد الله عزوجل إعادة الناس يوم القيامة وبعثهم رد أرواحهم إلى أجسادهم.

ففي البخاري (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقوله: «يقوم الناس لرب العالمين» مطابق لقول الله عزوجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وفي حدي ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

قال الطحاوي رحمه الله في «شرح الطحاوية» (٤٠٤): الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ،

والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورد على المنكرين ، في غالب سور القرآن، وذلك : أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله ، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري ، كلهم يقر بالرب ، إلا من عاند ، كفرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفي بين تفصيل الآخرة بيانا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري ! .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى ، في غير موضع . وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى ، وينكرون معاد الأبدان ، ويقول من يقول منهم : أنه لم يخبر به إلا محمد صلى الله عليه وسلم على طريق التخييل ! ! وهذا كذب ، فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء ، من آدم إلى نوح ، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام.

وقد أخبر الله بها، من حين أهبط آدم ، فقال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥]، ولما قال إبليس اللعين: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٨].

وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح : ١٧ ، ١٨].

وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء : ٨٢] إلى آخر القصة، وقال: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٤١]، وقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة : ٢٦٠].

وأما موسى عليه السلام ، فقال الله تعالى لما ناجاه : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ

بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه : ١٥ ، ١٦].

بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد ، وإنما آمن بموسى ، قال تعالى حكاية عنه: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ الله مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ الله مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى الله إِنَّ الله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٣٢- ٤٦]، وقال موسى: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر الله في قصة البقرة : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ٧٣].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، في آيات من القرآن ، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر : ٧١]، وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد، يذكر ذلك فيها : في الدنيا والآخرة .

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد ، فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ : ٣] الآيات، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس : ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧].

وأخبر عن اقترابها ، فقال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : ١]، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١]. وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ الله ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج : ١ - ٧].

وذم المكذبين بالمعاد ، فقال : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام : ٣١]، ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى : ١٨]، ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ الله مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨] ، إلى أن قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل : ٣٩]، ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر : ٥٩]، ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى

أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٧ - ٩٩]، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥٢].

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل: فإنهم قالوا أولاً: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]؟! فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم، فهلا كنتم خلقًا لا يفنيه الموت، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟! فإن قلتم: كنا خلقا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء؛ فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا؟!

وللحجة تقدير آخر، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام، مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة؛ فما الذي يعجزه فيما دونها؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ [الإسراء: ٥١] إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ [الإسراء: ٥١]، فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم حكمها، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع، وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

ومن هذا قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] إلى آخر السورة، فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحة البرهان لما قدر؛ فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جوابًا، فكان في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ما وفى بالجواب، وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها، فقال:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]؛ فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟.

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان ظاهر، يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]؛ فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة، من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي علي، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار كان على حمل أوقية أشد اقتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]؟ فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض، على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميًما، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر، وهو أنه

ليس فعله بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون: (كن)، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]؛ فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملاً عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] إلى آخر السورة، فإن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع، والأعصاب والرباطات التي هي أشده، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب، بالقول الوجيز، الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل، الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب، الذي لا تقع الظنون على أقرب منه. اهـ

واعلم أن المنكرين للبعث أقسام:

القسم الأول: الفلاسفة الإلهيون، قالوا كما في «الملل والنحل» (٢/ ٣-٤): وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد من الجنة والنار؛ مثل: قصور، وأنهار، وطور، وثمار في الجنة؛ فترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم، وسلاسل وأغلال، وخزي ونكال في النار فترهيبات للعوام؛ بما ينزجر عنه طباعهم؛ وإلا ففي العالم العلوي لا يتصور أشكال جسمانية، وصور جرمانية. اهـ

ووافق هؤلاء مشركي العرب كما تقدم لكن لا يقولون هذه عبارة عن تخيلات.

القسم الثاني: المنكرون لبعث الأجساد.

قال ابن أبي العز عن بعض الفلاسفة (٤٥٧): وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى، وينكرون بعث الأجساد.

وقال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (٤٧): وقد أنكرت الفلاسفة بعث الأجساد ورد الأرواح إلى الأبدان. اهـ

وقال ابن رشد كما في «تهافت الفلاسفة» (٢٩٢): وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد: هو أحث على الأعمال مما قيل في غيرها، ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية.

وقال خوجه زاده كما في «تهافت الفلاسفة» (٢/ ١٠٧): وثانيها ثبوت المعاد الروحاني فقط، وهو قول الفلاسفة الإلهين. اهـ

القسم الثالث: القسم بالتناسخ.

القول بالتناسخ، يعني: انتقال روح الميت إلى جسد آخر بعد خروجها من جسدها الأول. راجع «الملل والنحل» (٢/ ٥٥).

والقول الحق هو قول أهل الحق من المسلمين أهل السنة ومن وافقهم، وهو أن الله عزوجل يحشر الأجساد بعد أن تصاد فيها الأرواح، يدل على ذلك ما تقدم من آيات البعث والنشور.

قال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣-

٤].

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٣].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وفي حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم (٢٩٥٥) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً. قَالَ: «**أَبَيْتُ، ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وفي رواية: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ». اهـ

وفي حديث ابن عباس المتفق عليه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام، أَلَا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؛ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قَالَ: فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ».

وحديث ابن عباس في الرجل الذي وقصته الناقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أغسلوه

بماء وسدر وكفنوه في ثوبين، ولا تخمروا رأسه؛ فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا»، وفي رواية: «ملبدًا» متفق عليه.

ومما يدل أيضًا على حشر الأجساد، حديث أبي هريرة، وأبي سعيد؛ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ، فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَالله لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ؛ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ، أَوْ قَالَ: مَخَافَتُكَ؛ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ».

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٦٤): والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل ترابًا، ثم ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النشأة الأولى: فإنه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة، ثم صار عظامًا ولحمًا، ثم أنشأه خلقا سويًا، كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب.

ومع ذلك معلوم أن الأنبياء لا تأكل أجسادهم الأرض، كما في حديث أوس بن أوس الذي أخرجه النسائي وغيره: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وكذلك قد وجد بعض الشهداء لم تأكل أجسادهم الأرض.

قال ابن القيم رحمه الله:

والأنبياء فإنهم تحت الثرى ... أجسادهم حفظت من الديدان

ما للبلى بلحومهم وجسومهم ... أبدًا وهم تحت التراب يدان

وكذلك عجب الظهر لا يبلى بلى ... منه يركب خلقة الإنسان

ومما يجب الإيمان به الإيمان بالنفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس : ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه : ١٠٢]، وقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ

فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر : ٨ ، ٩].

والصور قرن ينفخ فيه وقد تقدم الدليل في باب الإيمان بالملائكة، والنفخة نفختان نفخة يصعق بها العباد قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله﴾ [الزمر : ٦٨].

والنفخة الأخرى نفخة الإعادة قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨].

وزاد بعض أهل العلم نفخة ثالثة وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل : ٨٧].

وتكون هذه النفخة في أرض المحشر لحديث: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَوْ بُعِثَ قَبْلِي» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» متفق عليه، وقد تقدم حديث ابن عباس رضي الله عنه بمعناه.

والكفار يمشون على وجوهم كما عند مسلم من حديث أبي هريرة فقالوا: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، و«يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا» كما عند الشيخين البخاري (٦٥٢٢)، ومسلم (٢٨٦١) عن أبي هريرة وفيه.

ونؤمن في ذلك اليوم بدنو الشمس من الخلائق مقدار ميل كما عند مسلم (٢٨٦٤) من حديث المقداد: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ قَالَ: فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ».

وفي ذلك اليوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ – ١٠٧]، وقال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال الله: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١ – ١١].

وعند تبديل الأرض يكون الناس في الظلمة دون الجسر كما في حديث ثوبان وعائشة رضي الله عنها عند مسلم.

وتكون الأرض كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، ولا ظل في ذلك اليوم إلا ظل عرش الجبار جل وعز قال صلى الله عليه وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

«يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ» كما في مسلم من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنه.

الإيمان بالميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة

وتنصب الموازين وتوزن بها أعمال العباد ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣][1].

وتقع في ذلك اليوم من الأهوال ما الله به عليم نسأل الله السلامة والحفظ والإعانة إنه على ذلك قادر يوم قال الله عنه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] الآيات.

ويجيء الله عز وجل للفصل بين العباد كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ويأتي مع ملائكته قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

وتطاير الصحف، وتنصب الموازين، وتقع الشفاعات كما سيأتي بيانه في باب إن شاء الله تعالى.

[1] قوله: «وتنصب الموازين .... إلخ» قال محمد ابن زمنين رحمه الله: وأهل السنة يؤمنون بالميزان يوم القيامة وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ - ٩]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]. اهـ

ومن الآيات التي تدل على إثبات الميزان أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ٨]، وقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٣]، وقوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف : ٨، ٩].

وأما من السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة بلغت التواتر منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمام مسلم والبخاري (٤٧٢٩) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

ومنها حديث البطاقة الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ».

ومنها حديث أبي سلمى راعي النبي صلى الله عليه وسلم: «بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ» أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة».

ومنها حديث أبي مالك الأشعري عند الإمام مسلم والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ».

ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي

مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ».

ومنها حديث وصية نوح عليه السلام لولده أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٩-١٧٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وفيه: «فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ» الحديث، وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا رحمه الله.

وأخرج أبو داود (٥٠٦٥)، وأحمد من طريق شعبة عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «خَصْلَتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ قَالَ: يَأْتِي أَحَدَكُمْ يَعْنِي الشَّيْطَانَ فِي مَنَامِهِ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا» هذا حديث حسن، فشعبة قد سمع من عطاء قبل الاختلاط.

قال ابن أبي العز رحمه الله (٤٧٢): قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. اهـ

واعلم أن الميزان واحد وأما قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، فالمراد به الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال وهذا هو القول الصحيح وإلا فقد قيل بأن لكل أمة ميزان.

قال ابن عطية في «التفسير» (٧/ ١٣): الناس على خلافه (أي لكل أمة ميزان) وإنما لكل واحد وزن يختص به والميزان واحد. اهـ

ثم اعلم أيضاً أن الميزان الذي دلت عليه السنة له كفتان حسيتان مشاهدتان والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عمرو السابق وفيه: « **فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ**».

ومما تقدم من الأحاديث يعلم أن الذي يوزن العامل كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ويوزن العمل كما في حديث أبي هريرة: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ الله الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ» متفق عليه.

وكما في حديث أبي سلمى راعي النبي صلى الله عليه وسلم، وكما في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وتوزن الصحف كما في حديث البطاقة.

والذين أنكروا الميزان من الملاحدة وأهل الاعتزال وغيرهم بزعم أن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام.

فالجواب: أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساماً كما تقدم وكما في حديث أبي سعيد: «أنه يؤتى بالموت على صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار» أخرجه البخاري ومسلم.

والحكمة من نصب الميزان مع أن الله محيط بكل شيء علماً، فالحكمة من ذلك إظهار العدل وبيان الفضل حيث أن الله يزن مثاقيل الذر من خير وشر.

وهل يوزن أعمال الكفار؟

ذهب العلماء في هذه المسألة إلى قولين:

الأول: أنها توزن لعمون قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف : ٩].

وقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤].

وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إِنَّهُ لَيَأْتِي

الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]» والحديث ليس فيه نص أنه لا يوزن وإنما فيه وزنه لا يقام له قدر؛ لأنه لا حسنات له.

وقد رجح هذا القول القرطبي رحمه الله في «التذكرة» (ص٢٧٢-٢٧٣): قال فصل فإن قيل أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنى يتحقق في أعماله الوزن؟

فالجواب أن ذلك من وجهين:

أحداهما: أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره وسيئاته في إحدى كفيته ثم يقال له: هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى فلا يجد فيشال الميزان فترفع الكفة الفارقة وتقع المشغولة فهذه خفت موازينه وهذا ظاهر الآية.

الثاني: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق مملوك وغيرها مما لو كانت للمسلم لكانت طاعة فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار، فإنها تجمع وتوضع في ميزانه غير أن الكفر إذا قابلها رجح بها. اهـ

هل يقام الوزن لكل الناس؟

قال القرطبي رحمه الله في «التذكرة» (ص٢٧١): فصل الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله عليه السلام فيقال: «يَا مُحَمَّد، أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ» الحديث، وقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين، وقد يكون للكافرين على ما ذكرنا ويأتي.

فائِدَةٌ:

نقل ابن كثير في «النهاية» عن القرطبي قوله: وقد روى عن مجاهد والضحاك والأعمش أن الميزان

هنا بمعنى العدل والقضاء وذكرالوزن والميزان ضرب مثل كما يقال هذا الكلام في وزن هذا.
قُلْتُ -أي ابن كثير-: لعل هؤلاء إنما فسروا هذا عند قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].
فههنا المراد بالميزان أن الله تعالى وضع العدل بين عباده وأمر عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، فأما الميزان الموضوع يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث كما رأيت وهو ظاهر القرآن العظيم: ﴿وأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-١٠] وهذا يكون لشيء محسوس.
قال ابن كثير رحمه الله في «النهاية» بعد نقل كلام القرطبي: إن من لا حساب عليه ولا عذاب لا توزن أعماله، وكذلك المجرمون الذين يعرفون بسيماهم، وفي هذا نظر والله أعلم.
وقد توزن أعمال السعداء، وإن كانت راجحة لإظهار شرفهم وفضلهم على رؤوس الأشهاد والتنويه بسعادتهم ونجاتهم، وإن كانوا لا حساب عليهم.
وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم يكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بها كفرهم ....؛ فتوزن لإظهار شقائهم وتوبيخهم وفضيحتهم على رؤس الأشهاد.
فائِدَةٌ:
قال ابن كثير رحمه الله أيضًا: قال القرطبي وغيره: من ثقلت حسناته على سيئاته ولو بزوانة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أثقل ولو بزوانة دخل النار، إلا أن يغفر الله، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف.
وروي مثل هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه.
قُلْتُ: يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠].

لكن ما أعلم: من ثقلت حسناته على سيئاته بحسنة أو بحسنات، هل يدخل الجنة ويرتفع في درجاتها بجميع حسناته. ويكون قد أحبطت السيئات التي قابلتها؟ أو يدخلها مما يبقي له من الحسنات الراجحة على السيئات وتكون الحسنات قد أسقطت ما وراءها من السيئات؟. اهـ

فائِدَةٌ:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «النهاية» (٢/ ٣٦):

بعد ذكر حديث أنس الذي أخرج الإمام الترمذي رحمه الله أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي يوم القيامة قال: «أنا فاعل» قال: فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله؟ قال: «اطلبني أول ما تطلبني على الصراط» قلت: فإن لم ألقك؟ قال: «فاطلبني عند المنبر»، قال: فإن لم ألقك؟ قال: «فأنا عند الحوض لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة».

قال: أن الحوض قبل الصراط، ظاهر هذا الحديث يقتضي أن الحوض بعد الصراط، وكذلك الميزان أيضاً، وهذا لا أعلم به قائلاً، اللهم إلا أن يكون يراد بهذا الحوض حوض آخر يكون بعد الجواز على الصراط، كما جاء في بعض الأحاديث، ويكون ذلك حوضاً ثانياً، لا يذاد عنه أحد، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ

وقال ابن كثير في «النهاية»: ثم ينتهي الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط وهو جسر على جهنم، كما تقدم في حديث عائشة ....، وفي هذا الموضع يميز المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقونهم المؤمنون، ويحال بينهم وبينهم بسور يمنعهم الوصول إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[الحديد: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

الإيمان بنشر الدواوين والصحف يوم القيامة

وتنشر الدواوين فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله[1].

---

[1] قوله: «وتنشر الدواوين .....إلخ» والدواوين هي: الكتب التي كتبت فيها أعمال بني آدم، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الإنشقاق: ١ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٣٤].

وقال الله عزوجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

والجمع بين الآيتين ما قاله الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب» (٣٤٤): قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن من لم يعطِ كتابه بيمينه أنه يعطاه وراء ظهره، وقد جاءت آية يُفهم منها أنه يؤتاه بشماله وهو قول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ والجواب ظاهر وهو أنه لا منافاة بين أخذه بشماله وإتيانه وراء ظهره؛ لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه وتجعل

يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه. اهـ

وقد تقدم حديث عبد الله بن عمرو في نشر الدواوين وهذه الصحف والكتب ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذه من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها كما دل عليها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

قال السفاريني في «لوامع الأنوار» (٢/ ١٨٠): والحاصل أن نشر الصحف وآخذها باليمين أو الشمال مما يجب الإيمان به وعقد القلب بأنه حق لثبوت الكتاب والسنة والإجماع. اهـ

والحكمة من الأتيان بالصحف كما قال السفاريني في «اللوامع» (٢/ ١٨٠): إلزاماً للعباد ورفعاً للجدال والعناد. اهـ

يدل على ذلك ما أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ، قَالَ: قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلْمِ، قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

الإيمان بحوض نبينا الكريم صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم الذي وعده اللّه به

وأومن بحوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعرصة القيامة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل آنيته عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً[1].

---

[1] قوله: «وأومن بحوض نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم» أهل السنة يؤمنون بأن للنبي محمد صلى الله عليه وسلم حوضاً أعطاه الله إياه من شرب شربة لم يظمأ بعدها أبداً، فقد دل عليه القرآن، ودلت عليه السنة وعليه إجماع الصحابة قاطبة فقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ – ٣].

والكوثر هو: النهر الذي يمد الله عزوجل منه الحوض؛ ففي حديث أنس الذي أخرجه مسلم رحمه الله قال صلى الله عليه وسلم: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ، فَقُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ».

وأما السنة فإن الأحاديث متواترة في إثبات الحوض حتى قال بعضهم:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتاً واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذه بعض

وقد يسر الله بجمع هذه الأحاديث ضمن «الصحيح المسند» من أحاديث الإيمان نسوق منها: قال الله عزوجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، والكوثر قد فسره النبي صلى الله عليه وسلم كما في مسلم قال: «نهرٌ وعدنيه الله عزوجل، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة».

والحوض ثابت في الكتاب والسنة؛ فقد بوب الإمام النووي رحمه الله على «صحيح الإمام مسلم»:

[باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته] ذكر مسلم رحمه الله تحت هذا الباب هذه الأحاديث وكثير منها مذكورة في كتاب الرقاق من «صحيح البخاري» (باب في الحوض) من حديث رقم (٦٥٧٥) إلى (٦٥٩٣):

- عن جُنْدَب يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ».

- عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ».

وعن عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ؛ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ وَالْجَارِيَةُ تَمْشُطُنِي، فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ»؛ فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ: اسْتَأْخِرِي عَنِّي، قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرِّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ، فَقُلْتُ: إِنِّي مِنْ النَّاسِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ؛ فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيُذَبُّ عَنِّي كَمَا يُذَبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا».

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَالله لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَالله مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا».

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالْمُوَدِّعِ

لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ، إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا وَتَقْتَتِلُوا؛ فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

قَالَ عُقْبَةُ: فَكَانَتْ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْهِ كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ».

وعَنْ عَبْدِ اللهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ فِيهِ أَبَارِيقُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ وَرَدَهُ فَشَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا».

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا؛ أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنْ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ».

وعَنْ ثَوْبَانَ؛ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ، أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ»؛ فَسُئِلَ عَنْ عَرْضِهِ؟، فَقَالَ: «مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ» وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ؟، فَقَالَ: «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنْ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَأَذُودَنَّ عَنْ حَوْضِي رِجَالًا كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنْ الْإِبِلِ».

وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَدْرُ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنْ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنْ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ».

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحَبَنِي،

حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَرُفِعُوا إِلَيَّ، اخْتُلِجُوا دُونِي، فَلَأَقُولَنَّ: أَيْ رَبِّ أُصَيْحَابِي أُصَيْحَابِي، فَلَيُقَالَنَّ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ».

ولي بحمد الله مؤلف في «أحاديث الحوض» يسر الله إتمامه بالنظر فيه يتبين لك أن أحاديث الحوض متواترة، وقد أفردت أحاديث الحوض من «مسند بقي بن مخلد»، وهو مطبوع.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٥٦٩): قال عياض: أخرج مسلم أحاديث الحوض عن ابن عمر وأبي سعيد وسهل بن سعد وجندب وعبد الله بن عمرو وعائشة وأم سلمة وعقبة بن عامر وابن مسعود وحذيفة وحارثة بن وهب والمستورد وأبي ذر وثوبان وأنس وجابر بن سمرة، قال: ورواه غير مسلم عن أبي بكر الصديق وزيد بن أرقم وأبي أمامة وأسماء بنت أبي بكر وخولة بنت قيس وعبد الله بن زيد وسويد بن جبلة وعبد الله الصنابحي والبراء بن عازب، وقال النووي بعد حكاية كلامه مستدركًا عليه: رواه البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة ورواه غيرهما من رواية عمر وعائذ بن عمرو وآخرين، وجمع ذلك كله البيهقي في البعث بأسانيده وطرقه المتكاثرة، **قُلْتُ:** أخرجه البخاري في هذا الباب عن الصحابة الذين نسب عياض لمسلم تخريجه عنهم إلا أم سلمة وثوبان وجابر بن سمرة وأبا ذر، وأخرجه أيضًا عن عبد الله بن زيد وأسماء بنت أبي بكر وأخرجه مسلم عنهما أيضًا وأغفلهما عياض، وأخرجاه أيضا عن أسيد بن حضير، وأغفل عياض أيضًا نسبة الأحاديث، وحديث أبي بكر عند أحمد وأبي عوانة وغيرهما، وحديث زيد بن أرقم عند البيهقي وغيره، وحديث خولة بنت قيس عند الطبراني، وحديث أبي أمامة عند ابن حبان وغيره، وأما حديث سويد بن جبلة؛ فأخرجه أبو زرعة الدمشقي في مسند الشاميين وكذا ذكر ابن منده في الصحابة وجزم ابن أبي حاتم بأن حديثه مرسل، وأما حديث عبد الله الصنابحي فغلط عياض في اسمه وإنما هو الصنابح بن الأعسر وحديثه عند أحمد وابن ماجه بسند صحيح ولفظه: «إني فرطكم

على الحوض، وإني مكاثر بكم» الحديث؛ فإن كان كما ظننت وكان ضبط اسم الصحابي، وأنه عبد الله فتزيد العدة واحدًا لكن ما عرفت من خرجه من حديث عبد الله الصنابحي وهو صحابي آخر غير عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي التابعي المشهور وقول النووي إن البيهقي استوعب طرقه يوهم أنه أخرج زيادة على الأسماء التي ذكرها حيث قال وآخرين ، وليس كذلك فإنه لم يخرج حديث أبي بكر الصديق ولا سويد ولا الصنابحي ولا خولة ولا البراء ، وإنما ذكره عن عمر وعن عائذ بن عمرو وعن أبي برزة ولم أر عنده زيادة إلا من مرسل يزيد بن رومان في نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وقد جاء فيه عمن لم يذكروه جميعا من حديث ابن عباس كما تقدم في تفسير سورة الكوثر ، ومن حديث كعب بن عجرة عند الترمذي والنسائي وصححه الحاكم ، ومن حديث جابر بن عبد الله عند أحمد والبزار بسند صحيح وعن بريدة عند أبي يعلى ، ومن حديث أخي زيد بن أرقم ويقال إن اسمه ثابت عند أحمد ، ومن حديث أبي الدرداء عند ابن أبي عاصم في السنة وعند البيهقي في الدلائل ، ومن حديث أبي بن كعب وأسامة بن زيد وحذيفة بن أسيد وحمزة بن عبد المطلب ولقيط بن عامر وزيد بن ثابت والحسن بن علي وحديثه عند أبي يعلى أيضا وأبي بكرة وخولة بنت حكيم كلها عند ابن أبي عاصم ، ومن حديث العرباض بن سارية عند ابن حبان في صحيحه ، وعن أبي مسعود البدري وسلمان الفارسي وسمرة بن جندب وعقبة ابن عبد وزيد بن أوفى وكلها في الطبراني ، ومن حديث خباب بن الأرت عند الحاكم ، ومن حديث النواس بن سمعان عند ابن أبي الدنيا ومن حديث ميمونة أم المؤمنين في الأوسط للطبراني ولفظه: «يرد علي الحوض أطولكن يدًا» الحديث، ومن حديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد بن منيع في مسنده ، وذكره ابن منده في مستخرجه عن عبد الرحمن بن عوف ، وذكره ابن كثير في نهايته عن عثمان بن مظعون ، وذكره ابن القيم في الحاوي عن معاذ ابن جبل ولقيط بن صبرة وأظنه عن لقيط بن عامر الذي تقدم ذكره ، فجميع من ذكرهم عياض خمسة وعشرون نفسًا، وزاد عليه النووي ثلاثة ، وزدت عليهم أجمعين قدر ما ذكروه سواء فزادت العدة على الخمسين ، ولكثير من هؤلاء

الصحابة في ذلك زيادة على الحديث الواحد كأبي هريرة وأنس وابن عباس وأبي سعيد وعبد الله بن عمرو وأحاديثهم بعضها في مطلق ذكر الحوض وفي صفته بعضها وفيمن يرد عليه بعضها وفيمن يدفع عنه بعضها ، وكذلك في الأحاديث التي أوردها المصنف في هذا الباب ، وجملة طرقها تسعة عشر طوقا ، وبلغني أن بعض المتأخرين وصلها إلى رواية ثمانين صحابيًا. اهـ

فائِدَةٌ:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «النهاية» (٢/ ٣٦) بعد أن ذكر حديث أنس الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «إني فاعل» قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ، قَالَ: «اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ» قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ؛ فَإِنِّي لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ»، قال: إن الحوض قبل الصراط، قال: والظاهر هذا الحديث أن الحوض بعد الصراط وكذلك الميزان وهذا لا أعلم به قائلاً اللهم إلا أن يكون يراد بهذا الحوض حوض آخر يكون بعد الجواز على الصراط كما جاء في بعض الأحاديث ويكون ذلك حوضاً ثانياً لا يزاد عنه أحد والله سبحانه وتعالى أعلم ا.هـ

مسألة: المطرودون عن الحوض صنفان أهل بدع ويدل على ذلك ما تقدم في حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم، وحديث أم سلمة رضي الله عنها عند مسلم، وعائشة رضي الله عنها عند مسلم، وأسماء رضي الله عنها عند البخاري ومسلم.

وحديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند البخاري ومسلم، وحديث أبي سعيد رضي الله عنه عند البخاري ومسلم، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عندهما وغيرهما من الأحاديث.

وكما تبين طرد من غير وبدل قال ابن عبد البر رحمه الله (٢٠/ ٢٦٢):

كل من أحدث في الدين مالا يرضاه الله ولم يأذن به الله عز وجل فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وأصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المترفون في الجور وطمس الحق وقتل

أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي وجميع أهل الزيغ والأهواء والبدع، فكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بهذا الخبر ا.هـ

وقال عقبه رحمه الله: ولا يخلد في النار إلا كل كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

ويطرد عنه بعض أهل المعاصي ويدل عليه حديث جابر عند الإمام أحمد (٢٢/ ٣٣٢) «فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد عليَّ الحوض».

هذا وقد ذكر القرطبي في «المفهم» أن عدد من روى أحاديث الحوض عن النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة نيف وثلاثين منهم في «الصحيحين» ما ينيف على العشرين.

وذكر الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٦٧) أنه أوصلها إلى خمسين صحابياً قال: وبلغني عن بعض المتأخرين أنه أوصلها إلى ثمانين صحابياً. اهـ

قال ابن أبي العز رحمه الله (٢٥١): والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضا من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو في غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وفي بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع ، وأنه ينبت في حال من المسك والرضراض من اللؤلؤ قضبان الذهب ، ويثمر ألوان الجواهر ، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء . اهـ

وقد أخرج الإمام الآجري في «الشريعة» أثراً عن أنس رضي الله عنه ينكر على من أنكر الحوض من طريق حميد عن أنس رضي الله عنه قال: دخلت على ابن زياد وهم يتذاكرون الحوض، فلما رأوني طلعت عليهم ، قالوا: قد جاءكم أنس فقالوا: يا أنس ما تقول في الحوض؟ فقلت: «والله ما شعرت أني أعيش حتى أرى أمثالكم تشكون في الحوض، لقد تركت عجائز بالمدينة ، ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها عز وجل أن يوردها حوض محمد صلى الله عليه وسلم».

مسألة: المطرودون عن الحوض صنفان أهل بدع ويدل على ذلك ما تقدم في حديث أنس رضي الله

الإيمان بالصراط المنصوب على متن جهنم

وأؤمن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم[1].

عنه عند مسلم، وحديث أم سلمة رضي الله عنها عند مسلم، وعائشة رضي الله عنها عند مسلم، وأسماء رضي الله عنها عند البخاري ومسلم، وحديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند البخاري ومسلم، وحديث أبي سعيد رضي الله عنه عند البخاري ومسلم، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عندهما، وغيرهما من الأحاديث.

وكلما تبين طرد من غير وبدل، قال ابن عبد البر رحمه الله (٢٠/ ٢٦٢): وكل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه والله أعلم، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم مثل الخوارج على اختلاف فرقها والروافض على تباين ضلالها والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم يبدلون وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم، وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي وجميع أهل الزيغ والأهواء والبدع كل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بهذا الخبر. اهـ

وقال عقبة رحمه الله: ولا يخلد في النار إلا كل كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

وأهل المعاصي، ويدل عليه حديث جابر عند الإمام أحمد (٢٢/ ٣٣٢): «فمن صدقهم بظلمهم وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس بوارد عليَّ الحوض».

وجاء بمعناه من حديث عبدالرحمن بن سمرة عند الطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٣٧٦) وسنده ضعيف فيه سعيد بن بشير وعنعنة الحسن، لكن يشهد له ما قبله.

وجاء أيضًا من حديث حذيفة عند ابن أبي عاصم (٧٥٩).

وراجع «الطرد والإبعاد عن حوض يوم المعاد» للشيخ محمد بن عبدالوهاب.

[1] قوله: «وأومن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم» أهل السنة

يؤمنون بالصراط، وأن المؤمنين يمرون عليه يوم القيامة على قدر أعمالهم.

قال ابن منظور في«اللسان»: الصراط والسراط والزراط، الطريق.

قال الشاعر:

أكر على الحروريين مهري وأحملهم على وضح الصراط

وقال الزبيدي: الصراط بالكسر: السبيل الواضح، وبه فسر قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي: ثبتنا على المنهاج الواضح.

وقال الفيروز آبادي: الصراط بالكسر: الطريق، وهو جسر ممدود على متن جهنم.

والإيمان بالصراط من أمور العقيدة التي يجب الإيمان بها، وتدخل في الإيمان باليوم الآخر.

قال الطحاوي رحمه الله: ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان. اهـ

وقد وردت أدلة كثيرة في صفة الصراط منها:

ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ؛ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ؛ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...» الحديث.

وجاء وصفه أيضًا في حديث أبي هريرة عند مسلم: «وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ».

ومعنى «دحض» أي: مزلقة.

ومعنى «مزلة»: من زوال الأقدام، وسقوطها.

وله جنبتان: كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يحمل الناس على الصراط يوم القيامة، فتتقادع بهم جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار، فينجي الله

برحمته من يشاء، ثم إنه يؤذن في الشفاعة للملائكة، والنبيين، والشهداء، والصديقين؛ فيشفعون ويخرجون؛ فيشفعون ويخرجون من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٠٣).

ومعنى «فتتقادع» أي: تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض. قاله ابن الأثير في «النهاية في غريب الأثر».

وأما مرور الناس عليه؛ فقد بينه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمام مسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ»، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «**أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، قَالَ: وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ**».

ويعطى الناس أنوارًا يمرون بها، ويستعينون بها على الرؤية على قدر أعمالهم؛ فينطفئ نور المنافق، ويبقى نور المؤمن، كما في حديث جابر عند مسلم أنه قال: «نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ، قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَوَّلُ؛ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ، فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ؛ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَإِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ، ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ وَيَجْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَرُشُّونَ عَلَيْهِمْ الْمَاءَ حَتَّى يَنْبُتُوا نَبَاتَ الشَّيْءِ فِي السَّيْلِ، وَيَذْهَبُ حُرَاقُهُ، ثُمَّ يَسْأَلُ حَتَّى تُجْعَلَ لَهُ الدُّنْيَا وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهَا

مَعَهَا».

وتكون الأمانة والرحم على جنبتي الصراط.

يدل على ذلك حديث أبي هريرة وحديث حذيفة عند الإمام مسلم قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ؛ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمْ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا؛ فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ؛ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ»، قَالَ: قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، قَالَ: وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» قال أبو هريرة رضي الله عنه: وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا.

وهذا لعظم شأن الأمانة والرحم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا إيمان لمن لا أمانة له».

وأما الرحم فحقها أيضًا عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ

﴿لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة قاطع» متفق عليه عن جبير رضي الله عنه.

وأول من يجيز على جسر جهنم هو النبي صلى الله عليه وأمته، كما في حديث أبي هريرة السابق: «فأكون أنا وأمتي أول من يجيز».

والأنبياء يقفون على الصراط يدعون ويقولون: اللهم سلم سلم، كما جاء في حديث أبي هريرة السابق.

وكما في حديث أبي سعيد عند ابن أبي عاصم (٦٣٤) مرفوعًا: «والأنبياء بجنبتي الصراط، وأكثر قولهم: اللهم سلِّم سلم».

وأما حال الناس على الصراط؛ فقد تقدم في حديث أبي سعيد وأبي هريرة، وأن الناس على ثلاثة أقسام: إما ناج بلا خدوش، وإما ناج مخدوش، وهالك من أوله، وهذا كله على قدر أعمالهم.

فإذا خلص الناجون منه فرحوا كثيرًا كما في حديث ابن مسعود: «فإذا خلصوا، قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله مالم يعط أحد».

ثم بعد الصراط يخلص الناس إلى القنطرة الذي دل عليها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري رحمه الله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ؛ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

والقنطرة هي: تتمة الصراط وطرفه الذي يلي الجنة، كما رجح ذلك الحافظ في «الفتح» من كتاب المظالم.

وقد قال الله عزوجل مخبرًا عن مرور المؤمنين من على متن جهنم: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

قال الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٢٤): هناك من قال: إن الورود هو الدخول، ومن قال: إن المرور هو الدخول عليها، قال: فهذان القولان أصح ما ورد في ذلك ولا تنافي بينهما، لأن من عبر بالدخول تجوز به عن المرور، ووجهه أن المار عليها فوق الصراط في معنى من دخلها.اهـ

وقال ابن أبي العز رحمه الله في «شرح الطحاوية» (٤٧١): واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، وفي «الصحيح» أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة**»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال: «**ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾**»، أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم. اهـ

وقال ابن أبي العز رحمه الله أيضًا في «شرح الطحاوية» (٤٦٩): وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَة دُونَ الْجِسْرِ**»، -قلت: جاء أيضًا من حديث ثوبات عند مسلم- وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم.

قال الله عزوجل: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ

الإيمان بشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم

وأومن بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه أول شافع وأول مشفع، ولا ينكر شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم إلا أهل البدع والضلال، ولكنها لا تكون إلا من بعد الإذن والرضى.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وهو لا يرضى إلا التوحيد؛ ولا يأذن إلا لأهله.

وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨][1].

أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٢-١٤].

[1] قوله: «وأومن بشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم .... إلخ» الشفاعة مأخوذة من الشفع، وهو ضم الشيء إلى الآخر، وهو ضد الوتر.

وفي الإصطلاح: الوساطة للمحتاج في قضاء حاجته عند من يملكها؛ لأن طالب الحاجة واحد؛ فإذا انضمت إليه واسطة صار شفعًا بعد أن كان واحدًا. أفاده العلامة الفوزان في شرحه.

والشفاعة قسمان:

الأولى: شفاعة عند الله عزوجل، وسيأتي الكلام عليها، وشفاعة عند الخلق، وهي تنقسم إلى قسمين:

١) شفاعة حسنة. ٢) شفاعة سيئة.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

ومن أمثلة الشفاعة الحسنة: الشفاعة في قضاء الحوائج، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب» متفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما الشفاعة السيئة؛ فالشفاعة في إسقاط الحدود، إذا بلغت السلطان، أو الشفاعة في شراء محرم أو إعطاءه، وغير ذلك من المحرمات.

يدل على ذلك حديث عائشة عند البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨): أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله**»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**».

قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أي: من سعى في أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته. اهـ

ولأهمية هذا الموضوع، فقد أفرده العلماء بالتصنيف، منهم: الإمام الذهبي رحمه الله، وكذلك

العلامة مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله له كتاب حشد فيه ما في الباب من الآيات والأحاديث، التي ترد على أهل البدع باطلهم، والحمد لله.

قال الإمام الوادعي رحمه الله في مقدمة كتابه (١٤): وإن مما دفعني على اختيار الكتابة في هذا الموضوع، أن هناك بعض مقامات الشّفاعة قد أنكرها بعض ذوي الأهواء، فمن ثمّ أدرج الشّفاعة أهل السّنة رحمهم الله في كتب العقيدة، فقلّ أن تجد مؤلفًا يؤلف في العقيدة إلا وقد عقد كتابًا أو فصلاً في كتابه للشّفاعة، بيانًا للحق، وقمعًا للباطل، ونصرةً للعقيدة الحقّة، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا. اهـ

وقبل الدخول في صلب الموضوع، وتقسيم الشفاعات وإثباتها، ينبغي التنبيه على أمر، وهو ما قاله العلامة الوادعي رحمه الله في كتابه «الشفاعة» (١٩): وبما أنّها قد وردت آيات تنفي الشّفاعة والشفيع، وآيات تثبتها رأيت أن أذكر الآيات التي تنفي الشّفاعة والشّفيع، والآيات التي تثبتها ثم أذكر الجمع بين هذه الآيات حسبما جمع بينها أهل العلم رحمهم الله.

أولاً: الآيات الواردة في نفي الشّفاعة والشفيع:

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال تعالى حاكيًا عن بعض الصالحين: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

قال: في هذه الآيات نفي الشفاعة.

ثم قال: وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ الله وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وذكر آيات كثيرات من هذا الباب، ثم قال: وفي هذه الآيات نفي الشفيع.

ثانيًا: الآيات في إثبات الشفاعة والشفيع:

قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وذكر رحمه الله آيات كثيرات في هذا الباب، ثم قال: هذه الآيات تدل على الشفاعة المثبتة بشروط ستأتي إن شاء الله.

ثم قال رحمه الله: الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية:

يتحصل من هذا أن النفي مقصود به الشّفاعة التي تطلب من غير الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٤]، والشّفاعة المثبتة لا تقبل إلا بشروط:

١- قدرة الشافع على الشّفاعة كما قال تعالى في حق الشافع الذي يطلب منه وهو غير قادر على

الشّفاعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

٢- إسلام المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، والمراد بالظالمين هنا: الكافرون.

٣- الإذن للشافع، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥].

٤- الرّضا عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦].اهـ

ذ العظمى، وهي المقام المحمود في الفصل بين العباد غير منكورة حتى عند المبتدعة من الخوارج والمعتزلة، ولكن الخلاف في الشفاعة في أهل الكبائر، كما سيأتي، وهذه الشفاعة يدل عليها عدة أحاديث منها: حديث أنس بن مالك رضي الله عند البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَيَقُولُ: ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ الله خَلِيلًا، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ الله، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا عِيسَى، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنْ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ

فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ».

وأيضًا حديث أبي هريرة عندهما البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤) ولفظه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ: يَجْمَعُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ؛ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؛ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ؛ فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ؛ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؛ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ؛ فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؛ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى؛ فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ الله فَضَّلَكَ الله بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؛ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ؛ فَاشْفَعْ لَنَا

إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا نَفْسِي- نَفْسِي- اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَأْتُونِّي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؛ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ، لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

فهذه الشفاعة كما تقدم متفق عليها بين الأمة، وبقيت شفاعات أخرى للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال الذهبي رحمه الله في «إثبات الشفاعة» (٢٠-٢٢): فشفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم سبعة:

أولها: شفاعته الكبرى العامة في الخلائق الخاصة به حين يرغب الخلق إليه؛ فيشفع في أهل الموقف ليقضي بينهم، وذلك هو المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

الثانية: شفاعته إذ يسجد ويحمد ربه، ثم يقول: « أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ» والحديث في «الصحيح».

الثالثة: شفاعته صلى الله عليه وسلم في دخول سائر أهل الجنة، الجنة، كما أخرجه مسلم من طريق أنس رضي الله عنه.

الرابعة: شفاعته صلى الله عليه وسلم في من دخل النار من أهل الكبائر، قال: «فيحد لي حدًا؛ فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، إلى أن قال في الثالثة: يا رب مما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود».

الخامسة: شفاعته في بعض أهل النار حتى يخفف عنهم من عذابه، كما في «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عمه أبا طالب؛ فقال: «لعله تنفعه شفاعتي؛ فيجعل في ضحضاح من النار، يبلغه كعبيه، يغلي منهما دماغه» متفق عليه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

وفي حديث العباس، قال: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك، وينصرك، ويغضب لك؛ فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات النار؛ فأخرجته إلى ضحضاح» رواه مسلم (٢٠٩).

السادسة: شفاعته في قوم استوجبوا دخول النار بذنوبهم، فشفع فيهم فلا يدخلون النار، ويدخلون الجنة.

السابعة: يشفع في رفع درجات أقوام، وزيادة نعيمهم، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها، أنه صلى الله عليه وسلم دعا لأبي سلمة لما قبض؛ فقال: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين» وذكر الحديث. أخرجه مسلم (٩٢٠).

واعلم أن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم له شفاعة، وإنما اختص عنهم بالشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود؛ وإلا ففي حديث أنس: «شفع الملائكة، وشفع النبييون، وشفع المؤمنون، ولم يبقى إلا أرحم الراحمين ؛ فيقبض قبضة من النار؛ فيخرج منها قوم لم يعملوا خيرًا قط».

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٢٣٥): ثم إن الناس في الشفاعة على ذلك أقوال: فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر، وأما أهل السنة والجماعة؛ فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدًا، كما في الحديث «الصحيح»، حديث الشفاعة: «**إنهم يأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد، فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأذهب، فإذا**

رأيت ربي خررت له ساجدًا، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي، لا أحسنها الآن، فيقول: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأقول: ربي أمتي، فيحد لي حدًا، فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حدًا ذكرها ثلاث مرات».

وأما قوله: «وأنه أول شافع، وأول مشفع» فهذا يدل عليها حديث أنس عند مسلم (١٩٦)، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (٢٢٧٨): «أنا سيد الناس يوم القيامة، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من ينشق عنه القبر».

قال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٤٩): قوله: «وأول شافع، وأول مشفع»: قد تقدَّم القول في الشفاعة وأقسامها في الإيمان، ومقصود هذا الحديث أن يُبيِّن أنه لا يتقدَّمه شافع؛ لا من الملائكة، ولا من النبيين، ولا من المؤمنين، في جميع أقسام الشفاعات، على أن الشفاعة العامة لأهل الموقف خاصَّة لا تكون لغيره، وهذه المنزلة أعظم المراتب وأشرف المناقب. اهـ

وأما قوله: «ولا ينكر شفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا أهل البدع والضلال» فقد تقدم أن الخوارج والمعتزلة ينكرون الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بناءً على مذهبهم الكاسد، ورأيهم الفاسد في تخليد أصحاب الكبائر في النار، وشبههم أوهى من خيط العنكبوت تتهاوى أمام براهين الحق الواضحة، وحججه الدامغة.

وقد أخرج الإمام مسلم في «صحيحه» (١٩١) عن يَزِيدُ الْفَقِيرُ قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ؛ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ الله مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ وَالله يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ وَ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾؛ فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ، قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَام -

يَعْنِي: الَّذِي يَبْعَثُهُ الله فِيهِ- قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ الله بِهِ مَنْ يُخْرِجُ، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ، قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ؛ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاطِيسُ؛ فَرَجَعْنَا قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَرَجَعْنَا فَلَا وَالله مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ.

وأما أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر؛ فهي أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تسطر نشير إلى بعضها، ونحيل في الأخريات إلى كتاب العلامة الوادعي «الشفاعة».

وقد تقدم فيما ذكرنا من الأحاديث خروج قوم من النار، وهؤلاء من أهل الكبائر من أهل التوحيد، أما أهلها الذين هم أهلها حقًا من الكافرين والمنافقين؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلا يموتون فيها ولا يحيون» ولكن -أي: الذين يخرجون منها- قوم أصابتهم النار بذنوبهم؛ فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة؛ فجيء بهم ضبائر، ضبائر؛ فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: «يا أهل الجنة أفيضوا عليهم؛ فينبتون نبات الحبة في حميل السيل» متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومما يدل أيضًا على خروج قوم من النار بعد دخولهم فيها حديث ابن مسعود عند الشيخين، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ: رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ حَبْوًا؛ فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى؛ فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ الله لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي أَوْ أَتَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ»، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ الإيمان بأن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما لا تفنيان أبداً ولا تبيدان

وأومن بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما اليوم موجودتان، وأنهما لا يفنيان[١].

ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً.

وأخرج الإمام ابن ماجه (٤٣١١) عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى؛ أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ».

وتقيدها قد جاء عند أحمد (٥/ ٢٣٢): «إني أجعل شفاعتي لمن مات لا يُشرك بالله شيئًا».

وفي حديث أنس عند الترمذي (٢٤٣٥) وغيره: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» والحديث مخرج في كتاب الشفاعة للإمام الوادعي رحمه الله رقم (٥٦) وقوله: «وهو لا يرضى إلا التوحيد ولا يأذن إلا لأهله» تقدم بيان شروط الشفاعة وهي إذن الله عز وجل للشافع ورضاه عن الشافع والمشفوع له والله لا يرضى إلا التوحيد لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (١٧١٥) «ويرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» قوله: «وأما الكفار فليس لهم من الشفاعة نصيب» قد تقدم حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم وغيره من الأحاديث التي فيها «فهي نائلة إن شاء الله لمن من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» أخرجه مسلم (١٩٩) وهذه إشارات، وإلا فالموضوع أوسع مما تقدم.

[١] قوله: «وأؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما اليوم موجودتان، وأنهما لا يفنيان» الجنة دار أولياء الله عز وجل، والنار دار أعدائه ففي حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا

ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

ومن قول أهل السنة أن الجنة والنار قد خلقتا، قال عزوجل: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

الشرح: هذا هو معتقد أهل السنة قاطبة، ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع من المعتزلة والخوارج، والأدلة على ذلك متوافرة متواترة استقصينا كثيرًا منها في كتاب الإيمان ولله الحمد منها قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ، وقوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٨]، وقوله تعالى في الجنة: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ومن السنة ما خرجاه في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه، في قصة الإسراء، وفي آخره: «ثم انطلق بي جبرائيل، حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه: «ينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها»، وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء.

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «خسفت الشمس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم»؛ فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رأيتني آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني تقدمت، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا حين رأيتموني تأخرت».

وفي «الصحيحين» واللفظ للبخاري، عن عبد الله ابن عباس قال: «انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ....» فذكر الحديث، وفيه: «فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: «إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»، قالوا: بم، يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت خيرا قط!!».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس: «وايم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار».

وفي «الموطأ» و«السنن» من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة»، وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي «صحيح مسلم» و«السنن» و«المسند» من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها؛ فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها؛ فأمر بالجنة، فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: ثم

أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحد سمع بها؛ فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»، ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف في ذلك معروف.

وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وقد روى الترمذي في «جامعه» من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» قال: هذا حديث حسن غريب.

وفيه أيضا من حديث أبي الزبير، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال: سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة» قال: هذا حديث حسن صحيح، قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانًا، ولم يكن لهذا الغراس معنى، قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣٢٥٦): قوله: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: أي موجودة الآن، وأشار بذلك إلى الرد على من زعم من المعتزلة أنها لا توجد إلا يوم القيامة، وقد ذكر المصنف في الباب أحاديث كثيرة دالة على ما ترجم به؛ فمنها ما يتعلق بكونها موجودة الآن، ومنها ما يتعلق بصفتها، وأصرح مما ذكره في ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد قوي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لَمَّا خَلَقَ الله الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ

جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ الله النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

قال الطحاوي رحمه الله تعالى: والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه.

قال ابن أبي العز رحمه الله: أما قوله: (إن الجنة والنار مخلوقتان) فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة!! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة! وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث! لأنها تصير معطلة مددا متطاولة!! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم. اهـ

وقال ابن القيم في «حادي الأرواح» (٣٧-٣٨) ط/ أم القرى:

الباب الأول: في بيان وجود الجنة الآن:

لم يزل أصحاب رسول الله والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن

نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن وقالت بل الله ينشئها يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة فيما يفعله الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث فإنها تصير معطلة مددا متطاولة ليس فيها سكانها.

قالوا ومن المعلوم أن ملكا لو أتخذ دارا وأعد فيها ألوان الأطعمة والآلات والمصالح وعطلها من الناس ولم يمكّنهم من دخولها قرونا متطاولة لم يكن ما فعله واقعا على وجه الحكمة ووجد العقلاء سبيلا إلى الاعتراض عليه فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وشبهوا أفعاله بأفعالهم وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب أو حرفوها عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالفهم فيها والتزموا فيها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء.

ولهذا يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون في ذلك. اهـ

وتقدم في الباب الأول بيان أن الجنة والنار موجودتان الآن، وسوق الأدلة على ذلك وبيان أن ذلك هو مذهب أهل السنة قاطبة، ولم يخالف في ذلك إلا الشواذ من أهل البدع والريب، ويلتحق بهذا الباب الكلام على أبديتهما.

قال شيخ الإسلام في رسالته «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» (٤١): وللناس في ذلك ثلاثة أقوال:

قوم قالوا بفنائهما جميعا، وقوم قالوا ببقائهما جميعا، وقوم قالوا: بفناء دار الجزاء، وبقاء دار الإفضال، والإنعام، والإكرام.

أما القول بفنائها: فما رأينا أحدا حكاه عن أحد من السلف، من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان،

وإنما حكوه عن الجهم بن صفوان، وأتباعه الجهمية.

وهذا مما أنكره عليه أئمة الإسلام، بل ذلك مما أكفروهم به، كما ذكره عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة» والأثرم في كتاب «السنة»، وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد»، وغيرهم عن خارجة بن مصعب، أنه قال: كفرت الجهمية بآيات من كتاب الله - عز وجل - ، في غير موضع بأربع آيات من كتاب الله: بقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾، وهم يقولون: لا يدوم، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾، وهم يقولون ينفد، وبقوله تعالى: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾، فمن قال: إنها تنقطع، فقد كفر .... اهـ

قال ابن أبي العز رحمه الله في «شرح الطحاوية»: قوله: (لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان) هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، وقال ببقاء الجنة، وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال بفناء الجنة والنار: الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث! اهـ

قلت: والأدلة من الآيات البينات، والأحاديث الصحيحات على هذه المسألة كثيرات وواضحات لا يعتقد خلافها إلا أهل الضلالات.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: مقطوع.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

وقال عزوجل مؤكدًا خلود أهل الجنة فيها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] وهذا الاستثناء منقطع، والمراد به أنهم ماتوا في الوقت الذي لم يكونوا في الجنة.

ومن الأدلة على أبدية الجنة من السنة: ما أخرجه مسلم (٢٨٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» وأخرجه الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر بلفظ: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من يدخل الجنة يحيى فيها لا يموت، وينعم فيها لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (٣٢٣): الباب السابع والستون: في أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد: وهذا مما يعلم بالإضطرار أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر به قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: مقطوع، ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

وقال (ص٣٢٨): والمقصود أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة.

وقال (٣٢٩-٣٣٠): وأما أبدية النار ودوامها، فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين.

قال: قلت: هاهنا أقوال سبعة:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبدًا، بل كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي، قال في فصوصه الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد، والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات؛ فيثني عليها بصدق الوعد لا بصدق

الوعيد بل بالتجاوز ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، ولم يقل: وعيده، بل قال: ويتجاوز عن سيئاتهم مع أنه توعد على ذلك وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد، وقد زال الإمكان في حق الحق لما فيه من طلب المرجح.

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فانهم على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد والامر واحد وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عذابا من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صاين

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي فأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود فهم شيوخ أر بابه والقائلين به وقد دل القران والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، وقال: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ وقال: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول يخرجون منها وتبقى نارًا على حالها ليس فيها أحد يعذب، حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضًا يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه

الإيمان بالرؤية

وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته[(١)].

وأبديته، وهذا قول جهنم بن صفوان وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادًا لا يتحركون، ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة طردًا لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول من يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى؛ فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، ثم تفنى ويزول عذابها، قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهم وغيرهم. اهـ

أقول: ولا يصح عن أحد من أهل السنة والجماعة القول بفناء الجنة والنار.

وذكر ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» هذا التقسيم، وقال في آخره: السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاءً لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله، وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان. اهـ

(١) قوله: «وأن المؤمنين يرون ربهم ...إلخ» هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة المؤيد بالأدلة الجلية والبراهين النقلية والشواهد العقلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «لاميته»:

والمؤمنون يرون حقًا ربهم ... وإلى السماء بغير كيف ينزل

وقال أبو بكر بن أبي داود في «حائيته»:

وقل يتجلى الله للخلقِ جـــهرةً		كما البدر لا يخفى وربك أوضحُ
وليس بمولدٍ وليس بوالـــــدٍ		وليـــــس له شِبْهٌ تعالى المُسبحُ
وقد يُنكِر الجهمي هذا عندنـــا		بمصداقِ ما قلنا حديثٌ مصرحُ
رواه جريرٌ عن مقالِ محُمـــــدٍ		فقلُ مِثل ما قد قال في ذاك تنْجحُ

قال الطحاوي رحمه الله (١٨٨) مع الشرح:

والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكلما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول لله صلى الله عليه وسلم؛ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد. اهـ

وأدلة الرؤية متواترة متظافرة حتى قيل:

مما تواتر حديث من كذب		ومن بنى لله بيتًا واحتسب
ورؤية شفاعة والحـوض		ومسح خفين وهذي بعض

وقد أفرد هذا الباب بمصنفات منها: «الرؤية» للدارقطني، «والتصديق بالنظر إلى وجه الله» للآجري، و«الرؤية» لأبي شامة، وقوله: «يرون ربهم بأبصارهم» هذا هو الحق في هذه المسألة أنها رؤية عين على ما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل.

والناس في الرؤية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول الصحابة والتابعين وأئمة السنة والهدى أن الله عز وجل يراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عياناً.

القول الثاني: قول الجهمية إن الله عز وجل لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا قول باطل يخالف أدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف.

القول الثالث: قول الحلولية والاتحادية ومن إليهم بأن الله يُرى في الدنيا والآخرة وهذا قول الزنادقة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٢/ ٣٣٦): وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فمن قال إن أحدا من الناس يراه؛ فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتابا من السماء. اهـ

والله عز وجل يُرى يوم القيامة في موضعين، الأول: في عرصات القيامة، والثاني: في الجنة ولا ينكر هذا لا المعطلة الضلال قال ابن تيمية رحمه الله كما في «المجموع» (٦/ ٤٨٥): وإنما المهم الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة وبعد ما يدخلون الجنة على ما تواترت به الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم عند العلماء بالحديث؛ فإنه أخبر صلى الله عليه وسلم: «أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر والشمس عند الظهيرة لا يضام في رؤيته»، ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين؛ وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به.

والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر؛ فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر. اهـ

باب ذكر الأدلة على رؤية المؤمنين ربهم عزوجل في عرصات القيامة

قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا

مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وأخرج البخاري رحمه الله (٧٤٣٧): **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ**؛ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: **«فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ: الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ: الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ: الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا -شَكَّ إِبْرَاهِيمُ-؛ فَيَأْتِيهِمُ الله، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا؛ فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ الله فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَيَتْبَعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟»** قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: **«فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا الله، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمُ الْمُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ أَوِ الْمُوثَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُخَرْدَلُ أَوِ الْمُجَازَى أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ الله أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ؛ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ؛ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتُحِشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ؛ فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو الله بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ الله: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ؛ فَيَصْرِفُ الله وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ**

وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ وَيَدْعُو اللهَ حَتَّى يَقُولَ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ؛ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ؛ فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ؛ فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ، فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ لَا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ؛ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ مِنْهُ؛ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ: تَمَنَّهْ؛ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» والحديث أخرجه مسلم (١٨٢).

وأخرج رقم (٧٤٣٦): عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ».

الحديث أخرجه مسلم (٦٣٣) وفي الحديث تشبيه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (١١/ ٤٨٠): فشبه صلى الله عليه وسلم الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي ؛ فإن العباد لا يحيطون بالله علما ؛ ولا تدركه أبصارهم . كما قال تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام : ١٠٣]، وقد قال غير واحد : من السلف والعلماء إن الإدراك هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عيانا ولا يحيطون به . اهـ

وأخرج (٧٤٣٩): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟**» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ؛ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا، ثُمَّ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا

يَعْبُدُونَ؛ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا؛ فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ، وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ؛ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ؛ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ؛ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا؛ فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ؛ فَيَأْتُونَهُمْ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ اذْهَبُوا: فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ

فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾؛ «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا؛ فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ؛ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ اللُّؤْلُؤُ؛ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمْ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» الحديث أخرجه مسلم (١٨٣).

وقوله: «لا يضامون في رؤيته» قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (١٦/ ٨٤-٨٥): فإن قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تضامون» يروى بالتخفيف، أي: لا يلحقكم ضيم في رؤيته كما يلحق الناس عند رؤية الشيء الحسن كالهلال؛ فإنه قد يلحقهم ضيم في طلب رؤيته حين يرى، وهو سبحانه يتجلى تجليا ظاهرا فيرونه كما ترى الشمس والقمر بلا ضيم يلحقكم في رؤيته، وهذه الرواية المشهورة.

وقيل: «لا تضامون» بالتشديد أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض كما يتضام الناس عند رؤية الشيء الخفي كالهلال، وكذلك «تضارون» و«تضارون»؛ فإما أن يروى بالتشديد ويقال: «لا تضامون» أي: لا تضمكم جهة واحدة؛ فهذا باطل، لأن التضام انضمام بعضهم إلى بعض، فهو تفاعل كالتماس والتراد ونحو ذلك، وقد يروى «لا تضامون» بالضم والتشديد أي لا يضام بعضكم بعضًا، وبكل حال فهو من التضام الذي هو مضامة بعضهم بعضًا. اهـ

وأخرج البخاري (٤٦٨٥) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، قَالَ: بَيْنَا ابْنُ عُمَرَ يَطُوفُ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَوْ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ سَمِعْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّجْوَى، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ» وَقَالَ هِشَامٌ: «يَدْنُو الْمُؤْمِنُ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ

كَنَفَهُ؛ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ، فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تُطْوَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ أَوْ الْكُفَّارُ فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾» وأخرجه مسلم (٢٧٦٨).

وأخرج مسلم (١٩٣) **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ**؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ، وقَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ: فَيُلْهَمُونَ لِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْخَلْقِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ؛ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ نُوحًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ؛ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنْ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا؛ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ؛ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ؛ فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيَأْتُونِي؛ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي؛ فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنْ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا؛ فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي؛ فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا؛ فَأُخْرِجَهُمْ مِنْ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ، قَالَ: فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ؛ إِلَّا مَنْ

حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَيْ: وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ» الحديث أخرجه البخاري (٦٥٦٥).

وأخرج مسلم في «صحيحه» (١٩١) عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله قال: «نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ، قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَوَّلُ؛ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ، فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ؛ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَإِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ، ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ وَيَجْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَرُشُّونَ عَلَيْهِمْ الْمَاءَ حَتَّى يَنْبُتُوا نَبَاتَ الشَّيْءِ فِي السَّيْلِ، وَيَذْهَبُ حُرَاقُهُ، ثُمَّ يَسْأَلُ حَتَّى تُجْعَلَ لَهُ الدُّنْيَا وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهَا مَعَهَا».

وأخرج البخاري (٦٥٧١) عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ: رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ حَبْوًا؛ فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى؛ فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ الله لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي أَوْ أَتَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ»، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً. وأخرجه مسلم (١٨٦).

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (٢٧٢): قوله تعالى: ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ووجه الاستدلال بها أنه سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفار

كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضا محجوبين عنه وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره من المزي قال سمعت الشافعي يقول في قوله عز وجل: ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة، وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضي. اهـ

اعلم وفقك الله عزوجل: أن العلماء اختلفوا في رؤية أهل الموقف لربهم عزوجل إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الكفار لا يرون ربهم بحال لا المظهر للكفر ولا المسر به.

الثاني: يراه المنافقون دون الكفار، وهذا قول ابن خزيمة، وأبي يعلى.

الثالث: يراه أهل الموقف كلهم، مؤمنهم، وكافرهم، برهم وفاجرهم، ثم يحتجب بعد ذلك عن الكفار، فلا يرونه وإليه ذهب بعض الحنابلة.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٤٨٧-٤٨٨): والأقوال الثلاثة في رؤية الكفار:

أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال لا المظهر للكفر ولا المسر له، وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

الثاني: أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها وغبرات من أهل الكتاب، وذلك في عرصة القيامة، ثم يحتجب عن المنافقين؛ فلا يرونه بعد ذلك، وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة، وقد ذكر القاضي أبو يعلى نحوه في حديث إتيانه سبحانه وتعالى لهم في الموقف الحديث المشهور.

الثالث: أن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب -كاللص إذا رأى السلطان-، ثم يحتجب عنهم ليعظم عذابهم ويشتد عقابهم، وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه وقول غيرهم، وهم في

الأصول منتسبون إلى الإمام أحمد بن حنبل وإلى سهل بن عبد الله التستري، وهذا مقتضى قول من فسر اللقاء في كتاب الله بالرؤية؛ إذ طائفة من أهل السنة منهم أبو عبد الله بن بطة الإمام قالوا في قول الله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٥]، وفي قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وفي قول الله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] وفي قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وفي قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ [الأنعام: ٣١] إن اللقاء يدل على الرؤية والمعاينة.

وعلى هذا المعنى فقد استدل المثبتون بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ومن أهل السنة من قال: اللقاء إذا قرن بالتحية فهو من الرؤية.

وقال ابن بطة: سمعت أبا عمر الزاهد اللغوي يقول: سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبًا يقول في قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣-٤٤] أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار. اهـ

وقال رحمه الله (٦/ ٤٦٦-٤٦٨): وقد تنازع الناس في الكفار هل يرون ربهم مرة ثم يحتجب عنهم أم لا يرونه بحال تمسكًا بظاهر قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ولأن الرؤية أعظم الكرامة والنعيم والكفار لا حظ لهم في ذلك.

وقالت طوائف من أهل الحديث والتصوف: بل يرونه ثم يحتجب كما دل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي في الصحيح وغيره من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن، قالوا: وقوله: ﴿لَمَحْجُوبُوْن﴾ يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فعلم أن الحجب كان يومئذ، فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم وذلك إنما هو في الحجب بعد الرؤية؛ فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال في الدنيا والآخرة.

قالوا: ورؤية الكفار ليست كرامة ولا نعيما ؛ إذ اللقاء ينقسم إلى لقاء على وجه الإكرام، ولقاء على

وجه العذاب؛ فهكذا الرؤية التي يتضمنها اللقاء.

ومما احتجوا به الحديث الصحيح حديث سفيان بن عيينة حدثنا سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟».

وقد روى مسلم وأبو داود وأحمد في «المسند» وابن خزيمة في «التوحيد» وغيره قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس ليست في سحابة؟» قالوا: لا، قال: «والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، قال: فيقول: فظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم قال: يلقى الثاني فيقول له: مثل ذلك، فيقول: أي رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا، قال: ثم يقال: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؛ فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي؛ فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، فذلك المنافق ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله عليه وتمام الحديث، قال: «ثم ينادي مناد ألا تتبع كل أمة ما كانت تعبد فتتبع الشياطين والصليب أولياؤهم إلى جهنم وبقينا أيها المؤمنون فيأتينا ربنا فيقول: ما هؤلاء؟ فنقول: من عباد الله المؤمنين آمنا بربنا ولم نشرك به شيئا وهو ربنا تبارك وتعالى وهو يأتينا وهو يثبتنا وهو ذا مقامنا حتى يأتينا ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقول: انطلقوا، فننطلق حتى نأتي الجسر وعليه كلاليب من نار تخطف عند ذلك حلت الشفاعة لي اللهم سلم اللهم سلم؛ فإذا جاوزوا الجسر فكل من أنفق زوجًا من المال في سبيل الله مما يملك فتكلمه خزنة الجنة تقول: يا عبد الله يا مسلم هذا خير»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إن هذا عبد لا توى عليه يدع بابًا ويلج من آخر؟ فضرب كتفه وقال: «إني أرجو أن تكون منهم» قال سفيان بن عيينة: حفظته أنا وروح بن القاسم وردده علينا مرتين أو ثلاثًا، وسئل سفيان عن قوله: «ترأس وتربع» فقال: كان الرجل إذا كان رأس القوم كان له الرباع وهو

الربع، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم حيث قال: يا رسول الله إني على دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك إنك مستحل الرباع ولا يحل لك»، وهذا الحديث معناه في «الصحيحين» وغيرهما من وجوه متعددة يصدق بعضها بعضاً.

وفيه أنه سئل عن الرؤية فأجاب بثبوتها، ثم أتبع ذلك بتفسيره، وذكر أنه يلقاه العبد والمنافق وأنه يخاطبهم، وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة: «أنه يتجلى لهم في القيامة مرة للمؤمنين والمنافقين بعد ما تجلى لهم أول مرة، ويسجد المؤمنون دون المنافقين». اهـ

وهنا آداب تجب مراعاتها في هذه المسألة، قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٦/ ٥٠٣-٥٠٤): منها: أن من سكت عن الكلام في هذه المسألة ولم يدع إلى شيء؛ فإنه لا يحل هجره وإن كان يعتقد أحد الطرفين، فإن البدع التي هي أعظم منها لا يهجر فيها إلا الداعية دون الساكت فهذه أولى.

ومن ذلك: أنه لا ينبغي لأهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة وشعارًا يفضلون بها بين إخوانهم وأضدادهم؛ فإن مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله، وكذلك لا يفاتحوا فيها عوام المسلمين الذين هم في عافية وسلام عن الفتن، ولكن إذا سئل الرجل عنها أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك ألقى إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به، بخلاف الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة؛ فإن الإيمان بذلك فرض واجب، لما قد تواتر فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وسلف الأمة.

ومن ذلك: أنه ليس لأحد أن يطلق القول بأن الكفار يرون ربهم من غير تقييد لوجهين: أحدهما: أن الرؤية المطلقة قد صار يفهم منها الكرامة والثواب ففي إطلاق ذلك إيهام وإيحاش وليس لأحد أن يطلق لفظاً يوهم خلاف الحق؛ إلا أن يكون مأثورا عن السلف وهذا اللفظ ليس مأثورًا.

الثاني: أن الحكم إذا كان عاما في تخصيص بعضه باللفظ خروج عن القول الجميل؛ فإنه يمنع من التخصيص، فإن الله خالق كل شيء ومريد لكل حادث ومع هذا يمنع الإنسان أن يخص ما يستقذر من المخلوقات وما يستقبحه الشرع من الحوادث بأن يقول على الانفراد: يا خالق الكلاب ويا

مريدًا للزنا ونحو ذلك، بخلاف ما لو قال: يا خالق كل شيء، ويا من كل شيء يجري بمشيئته؛ فكذلك هنا لو قال: ما من أحد إلا سيخلو به ربه وليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان، أو قال: إن الناس كلهم يحشرون إلى الله فينظر إليهم وينظرون إليه، كان هذا اللفظ مخالفًا في الإيهام للفظ الأول، فلا يخرجن أحد عن الألفاظ المأثورة، وإن كان قد يقع تنازع في بعض معناها؛ فإن هذا الأمر لا بد منه، فالأمر كما قد أخبر به نبينا صلى الله عليه وسلم، والخير كل الخير في اتباع السلف الصالح، والاستكثار من معرفة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فيه، والاعتصام بحبل الله، وملازمة ما يدعو إلى الجماعة، والألفة ومجانبة ما يدعو إلى الخلاف والفرقة؛ إلا أن يكون أمرا بينا قد أمر الله ورسوله فيه بأمر من المجانبة فعلى الرأس والعين. اهـ

قال أبو بكر بن خزيمة في «التوحيد» (٣١٢-٣١٣): في هذه الأخبار دلالة على أن قوله جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] إنما أراد الكفار الذين كانوا يكذبون بيوم الدين، بضمائرهم، فينكرون ذلك بألسنتهم، دون المنافقين الذين كانوا يكذبون بضمائرهم ويقرون بألسنتهم بيوم الدين، رياء وسمعة ألا تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ٤-١١] أي قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] أي: المكذبون بيوم الدين ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعلم أن منافقي هذه الأمة يرون الله حين يأتيهم في صورته التي يعرفون هذا في خبر أبي هريرة، وفي خبر أبي سعيد: «فيكشف عن ساق؛ فيخرون سجدًا أجمعون» وفيه ما دل على أن المنافقين يرونه للاختبار والامتحان، فيريدون السجود فلا يقدرون عليه، وفي خبر أبي سعيد: «فلا يبقى من كان يعبد صنمًا ولا وثنًا ولا صورة إلا ذهبوا حتى يتساقطوا في النار» فالله سبحانه وتعالى يحتجب على هؤلاء الذين يتساقطون في النار، ويبقى من كان يعبد الله وحده من بر وفاجر ومنافق، وبقايا أهل الكتاب، ثم ذكر في الخبر أيضا أن من كان يعبد

غير الله من اليهود والنصارى يتساقطون في النار، ثم يتبدى الله عز وجل لنا في صورة غير الصورة التي رأيناه فيها، وفي هذا الخبر ما بان وثبت وصح أن جميع الكفار قد تساقطوا في النار، وجميع أهل الكتاب الذين كانوا يعبدون غير الله، وأن الله جل وعلا إنما يتراءى لهذه الأمة برها وفاجرها ومنافقها بعدما تساقط أولئك في النار فالله جل وعلا كان محتجبًا عن جميعهم، لم يره منهم أحد كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيْمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٤] ثم يقال: هذا الذي كنتم به تكذبون، فأعلمنا الله عز وجل أن من حجب عنه يومئذ، هم المكذبون، بذلك في الدنيا، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧] وأما المنافقون: فإنما كانوا يكذبون بذلك بقلوبهم ويقرون بألسنتهم رياءً وسمعة، فقد يتراءى لهم رؤية امتحان واختبار، وليكن حجبه إياهم بعد ذلك عن رؤيته حسرة عليهم وندامة، إذ لم يصدقوا به بقلوبهم وضمائرهم، وبوعده ووعيده، وما أمر به ونهى عنه، بيوم الحسرة والندامة وفي حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: «فيلقى العبد فيقول: أي قل: ألم أكرمك؟ -إلى قوله:- فاليوم أنساك كما نسيتني»؛ فاللقاء الذي في هذا الخبر غير الترائي؛ لأن الله عز وجل يترائى لمن قال له هذا القول، وهذا الكلام الذي يكلم به الرب جل ذكره عبده الكافر يوم القيامة كلام من وراء الحجاب، من غير نظر الكافر إلى خالقه، في الوقت الذي يكلم به ربه عز وجل وإن كان كلام الله إياه كلام توبيخ وحسرة وندامة للعبد، لا كلام بشر وسرور وفرح ونضرة وبهجة ألا تسمعه يقول في الخبر بعد ما يتبع أولياء الشياطين واليهود والنصارى أولياءهم، إلى جهنم قال: ثم نبقى أيها المؤمنون فيأتينا ربنا، فيقول: على ما هؤلاء قيام؟ فيقولون: نحن عباد الله المؤمنون، وعبدناه وهو ربنا، وهو آتنا ويثبتنا، وهذا مقامنا، فيقول: أنا ربكم ويضع الجسر، أفلا تسمع إلى قوله: «فيأتينا ربنا»، إنما ذكره بعد تساقط الكفار واليهود والنصارى في جهنم فهذا الخبر دال أن قوله: فيلقى العبد، وهو لقاء غير الرؤية قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقال: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي

طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]، وقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، والعلم محيط: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بقوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به دخل النار» لم يرد من يرى الله وهو يشرك به شيئًا، واللقاء غير الرؤية، والنظر ولا شك، ولا ارتياب أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٤٧] ليس معناه رؤية الآخرة. اهـ

هذا مذهب ابن خزيمة رحمه الله ومن وافقه.

قال أبو بكر الآجري في «الشريعة» (٢/ ٩٨١): اعلم رحمك الله أن عند أهل العلم باللغة أن اللقاء هاهنا، لا يكون؛ إلا معاينة يراهم الله تعالى ويرونه، ويسلم عليهم، ويكلمهم ويكلمونه. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «حادي الأرواح» (٢٦٩): الدليل الثاني قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ﴾ وقوله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلام﴾ وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿أَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧] فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة بل والكفار أيضًا، كما في «الصحيحين» من حديث التجلي يوم القيامة ......، وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة: أحدها: أن لا يراه إلا المؤمنون، والثاني: يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار؛ فلا يرونه بعد ذلك، والثالث: يراه المنافقون دون الكفار، والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد وهي لأصحابه، وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم، وشيخنا في ذلك منصف مفرد، وحكى فيه أقوال الثلاثة، وحجج أصحابها، وكذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ إن عاد الضمير على العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورًا مثبتًا، وإن عاد على الرب سبحانه وتعالى

فهو لقاؤه الذي وعد به. اهـ

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله عزوجل لا يُرى في الدنيا.

قال الله تعالى مُخبرًا عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وأخرج مسلم في «صحيحه» (٢٩٣٠) بعد ذكر قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع ابن صياد وذكره للدجال: ...... قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عُمَرُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ؛ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ حَذَّرَ النَّاسَ الدَّجَّالَ: «إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ، أَوْ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَقَالَ: تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ».

وأخرجه البزارعن عبادة بن الصامت.

وعن أبي أمامة عند ابن أبي عاصم (٤٣٨) وفيه: «ولن تروا ربكم حتى تموتوا».

ومن زعم أنه يرى ربه في الدنيا بعينيه كفر، والناس في الرؤية ثلاثة أصناف:

الأول: أهل السنة والجماعة، أثبتوا الرؤية في الآخرة دون الدنيا.

والثاني: الصوفية حيث أثبتوا الرؤية في الدنيا والآخرة.

والثالث: الجهمية حيث نفوا الرؤية في الدنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كما في «المجموع» (٦/ ٥١٢): أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم في الآخرة، وأجمعوا على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم ولم يتنازعوا إلا في النبي صلى الله عليه وسلم.

وثبت عنه في «الصحيح» أنه قال: «واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت»، ومن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة

وإجماع سلف الأمة؛ لا سيما إذا ادعوا إنهم أفضل من موسى، فإن هؤلاء يستتابون؛ فإن تابوا وإلا قتلوا. اهـ

وقول الله عزوجل: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ كما أنه دليل على انتفاء الرؤية في الدنيا؛ ففي الآية دلالة على إثبات الرؤية في الآخرة من عدة أوجه ذكرها ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح (٢٦٧): أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه بل ما هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه؛ فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه ويجب له واشد تنزيهًا له منه.

الوجه الثاني: إن الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً؛ لأنكره عليه ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه ولما سأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦-٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ولم يقل لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار؛ فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف.

الوجه الخامس: إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا مكانه وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية، ولو كانت مجالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو

كانت الرؤيا محالاً لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل واشرب وأنام فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى؛ فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له، ولا عقاب عليه؛ فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم، ويريهم نفسه؛ فأعلم سبحانه وتعالى موسى إن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار؛ فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز. اهـ

مسألة: هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه؟

قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ١١-١٤].

قال الإمام مسلم رحمه الله (١٧٧): حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ؛ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ: قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلْ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ: رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**»، فَقَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ الله يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ الله يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ

رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ، وَالله يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ، وَالله يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا الله﴾. أخرجه البخاري (٤٦١٢) بألفاظ متقاربة.

وأخرج مسلم (١٧٨) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ، فَقَالَ: «**رَأَيْتُ نُورًا**».

وأخرج رحمه الله: عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، -وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ:- النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ، مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وأخرج البخاري (٤٨٥٦) فقال: حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنْ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله: أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ. أخرجه مسلم (١٧٤).

وأخرج (٤٨٥٨) عَنْ عَبْدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قَالَ: «رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ».

وأخرج مسلم (١٧٤): عن الشَّيْبَانِي، قَالَ: سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ.

وأخرج (١٧٥): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَأَى جِبْرِيلَ.

وأخرج (١٧٦): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، قَالَ:

رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ.

وأخرج ابن أبي عاصم (٤٤٤): عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه.

هذا موقوف صحيح.

وأخرج (٤٤٢): عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت ربي عزوجل».

صحيح.

والصحيح من هذا أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم ير ربه رؤية يقضة، وهذا الأمر قد نقل إجماع الصحابة عليه، وما جاء عن ابن عباس قد روي مطلقًا ومقيدًا بالفؤاد، فحمل المطلق على المقيد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٦/ ٥٠٩-٥١٠): وأما الرؤية فالذي ثبت في «الصحيح» عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين» وعائشة أنكرت الرؤية، فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد. والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد تارة يقول: رأى محمد ربه، وتارة يقول: رآه محمد؛ ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه، وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية؛ وتارة يقول: رآه بفؤاده؛ ولم يقل أحد إنه سمع أحمد يقول رآه بعينه؛ لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين.

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك؛ بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل؛ كما في «صحيح مسلم» عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه».

وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر

ذلك أولى.

وكذلك قوله: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٢-١٨] ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به.

وهذه رؤيا الآيات؛ لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج فكان ذلك فتنة لهم حيث صدقه قوم وكذبه قوم ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه. اهـ

باب كون رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه في الدنيا منامية

قال ابن أبي عاصم (٤٦٥): ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا يحيى بن أبي بكير، ثنا إبراهيم بن طهمان، ثنا سماك بن حرب، عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ تَجَلَّى لِي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَسَأَلَنِي: فِيمَ اخْتَصَمَ الْمَلأَ الأَعْلَى؟ قَالَ: فَقُلْتُ: رَبِّي لاَ عِلْمَ لِي بِهِ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ، أَوْ وَضَعَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَمَا سَأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ عَلِمْته».

وهذا إسناد حسن، وللحديث شواهد كثيرة ساقها الدارقطني رحمه الله في «كتاب الرؤية»، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة».

باب سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ربه لذة النظر إلى وجهه الكريم

قال الإمام ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٨٦): ثنا عمرو بن عثمان، ثنا أبي، عن محمد بن مهاجر، عن ابن حلبس، عن أم الدرداء، أن فضالة بن عبيد، كان يقول: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر في وجهك، والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»، وزعم أنها دعوات كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام الوادعي رحمه الله في «الجامع الصحيح»: هذا حديث صحيح، وأبو عمرو بن عثمان هو: عثمان بن سعيد بن كثير الحمصي، وابن حلبس هو: يونس بن ميسرة بن حلبس.

وقال ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٣٤): حدثنا أبو الربيع، حدثنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عمار، ذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «وأسأل لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقاك».

هذا حديث صحيح، وحماد بن زيد سمع من عطاء قبل الإختلاط.

وقال رحمه الله (٤٣٥): حدثنا محمد بن عوف، ثنا أبو المغيرة، ثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن أبي الدرداء، عن زيد بن ثابت، أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه دعاءً، وأمره أن يتعاهده ويتعاهد به أهله: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر في وجهك، وشوقًا إلى لقاك».

وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم، لكنه يصلح في الشواهد.

باب رؤية المؤمنين ربهم في الجنة

قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [يونس:

٢٥-٢٦].

وقال تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قال ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» (٢٧٣): قال الطبراني: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عزوجل، وقاله من التابعين: زيد بن وهب وغيره. اهـ

أخرج مسلم رحمه الله (١٨١): عَنْ صُهَيْبٍ؛ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟؛ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ، قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.

وقال الإمام البخاري رحمه الله (٤٨٧٨): حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ أَبِي الْأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الْعَمِّيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» الحديث أخرجه مسلم (١٨٠).

وأخرج الآجري في الشريعة بسند صحيح (٥٩) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعن مسلم بن نذير، عن حذيفة في قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قالا: «النظر إلى الله تعالى»، وحديث حذيفة أيضًا عند ابن أبي عاصم (٤٨٢).

قال ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» (٢٧٠): فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم كذلك فسرها رسول الله الذي انزل عليه القران فالصحابة من بعده، ثم ذكر حديث صهيب المتقدم. اهـ

وقال رحمه الله (٢٧٢): وقال غير واحد من السلف في الآية: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾

بعد النظر إليه والأحاديث عنهم بذلك صحيحة، ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على إنها أمر آخر من وراء الجنة وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان؛ فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى. اهـ

باب كون الله عزوجل يراه المؤمنون يوم القيامة من غير إحاطة لعظمته سبحانه

قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» (٢٧٤): فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ﴾ فلم ينف عن موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أئنا لمرئيون فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم، بقوله: ﴿كَلَّا﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى﴾ فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية ....

وقال رحمه الله (٢٧٥): فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته، وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ من أدل شيء على أنه يرى ولا يدرك. اهـ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «حادي الأرواح» (٣١٩): قد دل القران والسنة المتواترة وإجماع الصحابة، وأئمة الإسلام، وأهل الحديث عصابة الإسلام، ونزل الإيمان، وخاصة رسول الله على أن الله سبحانه وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانًا كما يرى القمر ليلة البدر صحوًا، وكما ترى الشمس في الظهيرة. اهـ

قال الآجري رحمه الله (٢/ ٩٨١): وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وكان مما بينه لأمته في هذه الآيات؛ أنه أعلمهم في غير حديث: «إنكم ترون ربكم تعالى» روى عنه جماعة من صحابته رضي الله عنهم، وقبلها العلماء عنهم أحسن القبول، كما قبلوا عنهم علم الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وعلم الحلال والحرام، كذا قبلوا منهم الأخبار: أن المؤمنين يرون الله تعالى لا يشكون في ذلك، ثم قالوا: من رد هذه الأخبار فقد كفر. اهـ

- وأخرج الآجري رحمه الله (٥٧٧): عن أحمد بن حنبل، وبلغه عن رجل أنه قال: إن الله تعالى لا يرى في الآخرة، فغضب غضبًا شديدًا ثم قال: من قال بأن الله تعالى لا يرى في الآخرة فقد كفر، عليه لعنة الله وغضبه، من كان من الناس، أليس الله عز وجل قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. هذا دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى.

وقال رحمه الله: من قال: إن الله تعالى لا يُرى فهو كافر. أخرجه الآجري رقم (٥٨٠) وسنده صحيح.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام كما في «الشريعة» للآجري (٥٨١) بسند صحيح: وذكر عنده هذه الأحاديث في الرؤية فقال: هذه عندنا حق، نقلها الناس بعضهم عن بعض، قال محمد بن الحسين رحمه الله: فمن رغب عما كان عليه هؤلاء الأئمة الذين لا يستوحش من ذكرهم، وخالف الكتاب والسنة، ورضي بقول جهم وبشر المريسي وبأشباههما، فهو كافر. اهـ

قال الطبري رحمه الله في «التبصير في معالم الدين» (١٤٩): فأما الرؤية؛ فإن جوازها عليه مما يدرك عقلاً، والجهل بذلك كالجهل بأنه عالم وقادر، وذلك أن كل موصوف فغير مستحيل الرؤية عليه؛ فأما إيجاب أنه لا محالة يُرى، وفي أي وقت لا يُرى؛ فذلك مما لا يدرك علمه إلا سماعًا.

وبالخبر قلنا: إنه في الآخرة يُرى، وإنه مخصوص برؤية أهل الجنة دون غيرهم. اهـ

المنحرفون في باب رؤية الله عزوجل

قال ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» (٣٢٠): والمنحرفون في باب رؤية الرب تبارك وتعالى نوعان:

أحدهما: من يزعم أنه يرى في الدنيا ويحاضر ويسامر.

والثاني: من يزعم أنه لا يرى في الآخرة ألبتة، ولا يكلم عباده، وما أخبر الله به ورسوله، وأجمع عليه الصحابة والأئمة يكذب الفريقين، وبالله التوفيق. اهـ

قال ابن جرير في «التبصير» (٢١٣): فقال جماعة القائلين بقول جهم: لا تجوز الرؤية على الله تعالى ذكره، ومن أجاز الرؤية على الله تعالى ذكره، ومن أجاز الرؤية عليه فقد حده ومن حده فقد كفر.

وقال ضرار بن عمرو: الرؤية جائزة على الله تعالى ذكره، ولكنه يُرى يوم القيامة بحاسة سادسة.

وقال هشام وأصحابه وأبو مالك النخعي ومقاتل بن سليمان: الرؤية على الله جل ثناؤه جائزه بالأبصار التي هي أبصار العيون.

وقال جماعة متصوفة ومن ذكر ذلك مثل بكر بن أخت عبد الواحد: الله جل وعز يُرى في الدنيا والآخرة، وزعموا أنهم قد رأوه، وأنهم يرونه كلما شاءوا؛ إلا أنهم زعموا أنه يراه أولياءه دون أعدائه، ومنهم من يقول: يراه الوالي، والعدوا في الدنيا والآخرة؛ إلا أن الولي يثبته إذا هو رآه؛ لأنه يتراءى في صورة إذا رآه بها عرفه، وأن العدوا لا يشبه إذا رآه.

وقال بعض أهل الأثر: يراه المؤمنون يوم القيامة بأبصارهم ويدركونه عيانًا ولا يحيطون به.

وقال آخرون: منهم يراه المؤمنون بأبصارهم ولا يدركونه، قالوا: إنما زعمنا أنهم لا يدركونه؛ لأنه قد نفى الإدراك عن نفسه يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فهذه جملة أقاولهم. اهـ

شبهات المخالفين

قالوا: المراد بقول الله عزوجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] أي: منتظرة، أو منتظرة لثوابه، ويُرد عليهم بما قاله ابن القيم في «حادي الأرواح» (٢٣٧-٢٣٨):

وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحًا إن الله سبحانه يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلاً؛ فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها؛ إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا، وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين وإخلاء الكلام من قرينه، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بالي خلاف حقيقة وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله فان النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ وأن عدى بـ:"في" فمعناه التفكر والاعتبار كقوله أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وأن عدى بـ: "إلى" فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر. اهـ

وقال رحمه الله كما في «الصواعق المرسلة» (١/ ١٩٣-١٩٤): يستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب؛ فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله وعداه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا، ووصف الوجوه بالنضرة التي لا تحصل؛ إلا مع حضور ما يتنعم به لا

مع التنغيص بانتظاره، ويستحيل مع هذا التركيب. اهـ

وأما الأشاعرة؛ فإنهم ذهبوا إلى إثبات رؤية الجبار يوم القيامة، لكن زعموا أن الله عزوجل يُرى لا في جهة، وهذا من الأقوال العجيبة الناتجة عن المقدمات الفاسدة؛ فإنهم حيث زعموا أن الله عزوجل ليس في العلو، وعطلوه من صفة العلو التي دلت عليها أدلة الكتاب والسنة والإجماع، اضطربوا وزعموا أن الله يُرى لا في جهة، فعلى هذا يُثبت من أدلة الرؤية علو الله عزوجل، والدليل أنه يُرى في جهة العلو قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس في الظهيرة»، وهذه تُرى في العلو.

قال ابن أبي العز رحمه الله (١٩٥): وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهًا لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه. وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال: يرى لا في جهة، فليراجع عقله !! فإما أن يكون مكابرا لعقله أو في عقله شيء، وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفي الرؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤية بغير جهة.

وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل، خر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين، بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته، إلا من أيده الله كما أيد نبينا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

قال غير واحد من السلف: لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ يشتبه عليهم: هل هو بشر أو ملك ؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا

رسولاً منا.

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه. لكن قـول مـن أثبت موجودا يرى لا في جهة، أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجودا قائما بنفسه لا يـرى ولا في جهة.

ويقال لمن قال بنفي الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة: أتريد بالجهة أمرا وجوديا أو أمرا عدميا ؟ فإن أراد بها أمرا وجوديا كان التقدير: كل ما ليس في شيء موجود لا يرى، وهذه المقدمـة ممنوعـة، ولا دليل على إثباتها، بل هي باطلة، فإن سطح العالم يمكن أن يـرى، ولـيس العـالم في عـالم آخـر. وإن أردت بالجهة أمرا عدميا، فالمقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس في جهة بهذا الاعتبار. اهـ

محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين

وأؤمن بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته[1].

---

[1] قوله: «وأؤمن أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاتم النبيين ... إلخ» وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

قد تقدم الكلام على وجوب الإيمان بالرسل، وأن الإيمان بهم من أركان الإيمان الستة ودعائمه العظام، والفرق بين النبوة والرسالة وأن بينهما عموم وخصوص؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، وأما كونه خاتم النبيين؛ فقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وفي البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «....... الحديث» وفيه: «وختم بي النبيون».

وفي «الصحيحين» البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يَمْحُو الله بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ».

وفي «الصحيحين» البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا

فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ؛ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؛ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

وفي «الصحيحين» البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) عن جابر رضي الله عنه؛ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ».

وفي حديث ثوبان عند أحمد: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي».

قال الطحاوي رحمه الله في «عقيدته»: وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ المصطَفى، ونبيُّه المجْتبى، ورَسُولُهُ المُرْتَضى، وأنَّه خَاتمُ الأنبياءِ، وإِمَامُ الأتْقِيَاءِ، وسيِّدُ المرسَلينَ، وحَبيبُ ربِّ العالَمِين، وكُلُّ دَعْوى النُّبوةِ بَعدَهُ فَغَيٌّ وَهَوى، وَهُو المبعوثُ إلى عَامَّةِ الجِنِّ وكَافَّة الوَرَى بالحقِّ والهدى، وبالنُّور والضِّياء. اهـ

وفضائله صلى الله عليه وسلم مشهورة مزبورة، وفي كلام ربنا مذكورة، وأركان الإيمان به طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والإنتهاء عما نهى عنه وزجر، وإليك هذه الأدلة على فضل أتباعه، والأخذ بطريقته وسنته لعل الله أن يبلغنا المراد، وأن يوفقنا للصواب، إنه على ذلك قادر، والحمد لله رب العالمين.

ومن المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال ربنا مخبراً عنه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

وهو بشارة عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[الصف:٦].

وفي حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضى الله عنهما، عند البخاري أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ التي في الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الأحزاب:٤٥] قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: «يَا أَيُّهَا النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عبدي ورسولي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ».أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدْ الْمَاءَ»، وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى. أخرجه مسلم (٥٢٢).

وفي رواية قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ».

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ الله زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم». أخرجه أحمد.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ الله النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا

تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ الله فَضَّلَكَ الله بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٤٩).

وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ». أخرجه البخاري (٣٥٣٤)، وأخرجه مسلم (٢٢٨٧).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ». أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

ومن فضائله أنه صاحب الحوض المورود

عن جندب قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». أخرجه البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٨٩).

وعن سهل بن سعد قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُم». أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠).

وعن عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

وعن أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي، وَمِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ: أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَالله مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»، قَالَ: فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا. أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُبَيْدِ الله بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: «وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ فَوَالله

لَيُقْتَطَعَنَّ دُونِي رِجَالٌ فَلأَقُولَنَّ: أَيْ رَبِّ مِنِّي، وَمِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ». أخرجه مسلم (٢٢٩٤).

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ وَالْجَارِيَةُ تَمْشُطُنِي فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ، فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ: اسْتَأْخِرِي عَنِّي قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرِّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ فَقُلْتُ: إِنِّي مِنَ النَّاسِ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ، فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيُذَبُّ عَنِّي كَمَا يُذَبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: سُحْقًا». أخرجه مسلم (٢٢٩٥).

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَالله لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَالله مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا». البخاري(٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

وعَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَأُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا، ثُمَّ لَأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ». البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧).

وعَنْ حَارِثَةَ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْرِدُ: أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ: الْأَوَانِي قَالَ: لَا، فَقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ: تُرَى فِيهِ الْآنِيَةُ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ». البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨).

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْهِ كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ». البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَكَوَاكِبِهَا أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ يَشْخَبُ، فِيهِ مِيزَابَانِ مِنْ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ». أخرجه مسلم (٢٣٠٠).

وعَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ نَبِيَّ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي، أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ، أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ فَسُئِلَ عَنْ عَرْضِهِ فَقَالَ: مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ فَقَالَ: أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنْ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ». أخرجه مسلم (٢٣٠١).

ومنها أنه صاحب المقام المحمود

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نَعَمْ، قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ، وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ، أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا

بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ، فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهَّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ الله لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ، وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الْجِسْرُ، قَالَ: دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهَّ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ للهَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا

فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتْ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ قَالَ: فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمْ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُ: رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وعن جابر عند مسلم (١٩١)، وفيه: فإنه مقام.

وقال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (١٦٦): قَوْلُهُ: (وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى، بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ).

ش: أَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، فَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ وَكَذَا سُورَةُ الْجِنِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمْ يَبْعَثِ اللهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَبْلَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ. فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رَسُولٌ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا، وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَفِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ لِأَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وَالْمُرَادُ: مِنْ أَحَدِهِمَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى كَافَّةِ الْوَرَى، فَقَدْ قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

وَقَالَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَالَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَكَوْنُهُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مَبْعُوثًا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً: فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا صَدَّقُوا بِالرِّسَالَةِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَالرَّسُولُ لَا يَكْذِبُ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا، فَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَبَعَثَ كُتُبَهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ وَالْمُقَوْقِسِ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْأَطْرَافِ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ.

وهو أول من يدخل الجنة وأول من يستفتح

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ».

وقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ». أخرجه مسلم (١٩٧).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ». أخرجه مسلم (١٩٧).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرج البخاري (٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٩).

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ: أَنَّ نَبِيَّ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَاهَا لِأُمَّتِهِ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه مسلم (٢٠٠).

عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله قَالَ: عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، وَخَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه مسلم (٢٢٠١)، هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، وقطرة من مطرة، من فضائل هذا النبي الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وتجب على الناس متابعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فلا يقبل الله عزوجل عمل عامل إلا بالإخلاص لله عزوجل أولاً، وبالمتابعة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثانيًا، ولا فكاك بينهما.

والمتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جل ودق وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً من أعظم وسائل حفظ الدين والعمل به، قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ومن الفتن العظيمة: إنهيار الدعوات، والرجوع إلى القهقرى.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

والمتابعة هي قطب رحى الدين، وحبله المتين، وحصنه الحصين، وعروته الوثقى التي لا تنفصم، والطريق اللاحب الوحيد الذي يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، والنور المضيء الذي تحيا به القلوب والنفوس، وتستقيم به الحياة كلها، والضرورة اللازمة لاستمرار الحياة، وهو سبب الرسالة التي هي ضرورة في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا بالاتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه، في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده.

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد صلى الله عليه وسلم، أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلمتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره.

فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وبصر به من العمي، وأرشد به من الغي، وجعله قسيم الجنة والنار، وفرق ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته، ومخالفته. إلى آخر ما ذكره شيخ الإسلام من كلامه النفيس، كما في «المجموع» (١٩/ ٩٩-١٠٥).

ومن أعظم ما يدل على أن الإتباع سبب للإستمرار في الخير، والإبتداع سبب للإنحراف والضير: ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله (١٧٥٩) من حديث عائشة قالت: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك، وقال: لست تاركًا شيئًا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ.

ونقل الإمام الذهبي في «السير» (٨/ ٩٨): عن الإمام مالك ابن أنس قوله: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننًا الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال بطاعة الله، وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها من اهتدي بها فهو مهتد، ومن

استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وسائت مصيرًا.

وكان السلف رضوان الله عليه يرون الإتباع كالجهاد في سبيل الله.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام كما في «السير» (١٠/ ٤٩٩): المتبع السنة، كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب بالسيف في سبيل الله.

ومعلوم أن الضرب بالسيف في سبيل الله عزوجل من أسباب انتشار الدين واستمرارية عزته، قال صلى الله عليه وسلم: «وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري».

قوله: «ولا يتم إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويؤمن بنبوته» هذا القول هو الحق، وهو رد على من يزعم أن محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول الله عزوجل إلى العرب فقط.

ففي «صحيح مسلم» (   ) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

قال ابن أبي العز رحمه الله في «شرح الطحاوية» (١٦٦): أما كونه مبعوثا إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضًا، قال مقاتل: لم يبعث الله رسولاً إلى الإنس والجن قبله، وهذا قول بعيد. فقد قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر. وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠] يدل على أن موسى مرسل إليهم أيضًا. والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة. وفي الاستدلال بها على ذلك نظر لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد: من أحدهما.
وأما كونه مبعوثا إلى كافة الورى، فقد قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وأنذر من بلغه. وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية [يونس: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].
وَقَالَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.
وَقَالَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

وأما قول بعض النصارى أنه رسول إلى العرب خاصة: فظاهر البطلان، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به، وقد قال أنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتما، فقد أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام. اهـ

وقد توسعنا في بيان ذلك في كتاب الذي رددت فيه على أصحاب وحدة الأديان.

فضائل الصحابة رضوان الله عليهم

وأن أفضل أمته أبو بكر الصديق؛ ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضي، ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان، ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم[١].

---

(١) قوله: «وأن أفضل أمته أبو بكر ..... إلخ» هذا باتفاق أهل السنة والجماعة أن أفضل هـذه الأمـة بعد نبيها وأحقهم بالخلافة هو: أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، وكان في بدايـة الأمـر خـلاف حول تقديم علي على عثمان، ثم انعقد الإجماع على تقديم عثمان، ثم انعقد الإجماع على تقديم عثمان، وأنهم في الفضل والمزية على ترتيبهم في الخلافة وفضـائلهم محفوظـة مشـهورة، وفي غيرمـا كتـاب مذكورة، وقد تقدم الإشـارة إلى بعضـها، وفي هـذا الكـلام رد عـلى الخـوارج والـروافض الـذين يعادونهم ويتنكرون لهم.

قال شيخ الإسلام في «الواسطية»: ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين عـلى بـن أبي طالـب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما -بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر- أيهما أفضل فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي وقدم قوم عليا وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي وإن كانت هذه المسألة -مسألة عثمان وعلي- ليسـت مـن الأصـول التـي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي ومن طعن في خلافـة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله. اهـ

والصحبة مزية عظيمة لا يُعادلها شيءٌ.

قال الطحاوي رحمه الله (٤٦٧) مع الشرح: (ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان).

قال ابن أبي العز رحمه الله في الشرح: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب، وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم، يستغفرون

لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبًا، بنص القرآن، وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه». انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن، دون البخاري، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد ونحوه: « لا تسبوا أصحابي »، يعني عبد الرحمن وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية.

والمقصود أنه نهى من له صحبة أخرى أن يسب من له صحبة أولى، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه.

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة؛ فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة؟ رضي الله عنهم أجمعين.

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف، فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة، لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة.

وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»

فهو حديث ضعيف، قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر، قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: إن ناسًا يتناولون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أبا بكر وعمر! فقالت: «وما تعجبون من هذا! انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر».

وروى ابن بطة بإسناد صحيح، عن ابن عباس، أنه قال: لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فلمقام أحدهم ساعة –يعني: مع النبي صلى الله عليه وسلم– خير من عمل أحدكم أربعين سنة، وفي رواية وكيع: خير من عبادة أحدكم عمره.

وفي «الصحيحين» من حديث عمران بن حصين وغيره، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة؟، الحديث.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، الآيات.

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم، حيث قال: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ الله حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ الله سَيِّئٌ) وَفِي رِوَايَةٍ: (وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَخْلِفُوا أَبَا بَكْرٍ).

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ ...» إِلَخْ، عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ:

(وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ).

فمن أضل ممن يكون في قلبه حقد على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؟ بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة، قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد!! لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة. اهـ

قال شيخ الإسلام في «لاميته»:

حب الصحابة كلهم لي مذهب ومودة القربى بها أتوسل

ولكلهم قدر علا وفضائل لكنما الصديق منهم أفضل

وكان الإمام مالك يكفر من سب أصحاب النبي صلى الله عليه استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وأفضلهم كما أشار الشيخ رحمه الله: أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، وهو عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي.

وهو أفضل الصحابة وخيرهم، وأبرهم، وأعلمهم، وأخشاهم لربه، وطاعة لنبيه صلى الله عليه وسلم يكفي في علو قدره، ورفيع منزلته، أنه لما تغاضب رضي الله عنه مع عمر، غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يقول: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي، إن الله بعثني إليكم؛ فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت» الحديث أخرجه البخاري (٣٦٦١).

وقدمه رسول الله يصلي بالناس كما صح هنا من حديث عائشة، وأبي موسى، وأنس وجمع رضي الله

عنهم وكلها في «الصحيح.

ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه للهجرة وهذه مزية لم تتحصل لغيره أخرج البخاري (٣٩٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ».

وأنزل الله عز وجل فيه قرآناً يتلى قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] فقد أخرج البخاري ومسلم في «صحيحه» من حديثه قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا».

وهو أول من أسلم من الرجال وقد أسلم على يديه من المشهود لهم بالجنة خمسة عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.

قال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٢٣٧) في تعليقه على كلام ابن الجوزي جملة ما حفظ له من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة واثنان وأربعون حديثاً: ومن المعلوم القطعي ، واليقين الضرروري أنه حفظ من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لم يحفظ أحدٌ من الصحابة ، وحصل له من العلم ما لم يحصل لأحد منهم ؛ لأنَّه كان الخليل المباطن ، والصَّفي الملازم ، لم يفارقه سفرًا ولا حضرًا ، ولا ليلاً ولا نهارًا ، ولا شدَّة ولا رخاءً ؛ وإنَّما لم يتفرغ للحديث ، ولا للرواية ؛ لأنَّه اشتغل بالأهم فالأهم. اهـ

وقال رحمه الله (٦/ ٢٣٨): فالمقطوع بفضله ، وأفضليته بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أهل السُّنَّة – وهو الذي يقطع به من الكتاب والسُّنَّة – أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضى الله عنه ـ ، ثم عمر الفاروق ، ولم يختلف في ذلك أحدٌ من أئمة السَّلف ، ولا الخلف ، ولا مبالاة بأقوال أهل الشيع ،

ولا أهل البدع ، فإنهم بين مُكفَّر تُضرب رقبته ، وبين مبتدع مُفسَّق لا تُقبل كلمته ، وقد حض المفهم لما أشكل من تلخيص حُجَّته.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنه كما عند الشيخين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ».

قال القرطبي (٦/ ٢٤٠-٢٤١): فقد تضمن هذا الكلام: أن لأبي بكر من الفضائل، والحقوق ما لا يشاركه فيها مخلوق، ووزن أَمَنَّ: أفعل، من المنَّة بمعنى الامتنان؛ أي: أكثر منَّة، ومعناه: أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ له من الحقوق ما لو كانت لغيره لامتن بها، وذلك: أنه ـ رضى الله عنه ـ بادر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتَّصديق، والناس كلهم مكذبون، وبنفقة الأموال العظيمة، والناس يبخلون، وبالملازمة والمصاحبة، والناس ينفرون، وهو مع ذلك بانشراح صدره، ورسوخ علمه يعلم: أن لله ولرسوله الفضل والإحسان، والمنة والامتنان.

وعند الشيخين من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل قال: «فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قَالَ: عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ، فَقَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ، قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَعَدَّ رِجَالًا».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تبعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَا فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وفضائله أكثر من أن تذكر وتسطر في هذه العجالة، وهو من العشرة المشهود لهم بالجنة الذين سيأتي ذكرهم قريباً إن شاء الله.

وقد اختلفوا هل كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه بالنص أم بالإشارة بعد إن انعقد الإجماع على خلافته فقال قوم خلافته بالنص لحديث عائشة: «ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكِ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى وَيَأْبَى الله وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ» متفق عليه.

وفي حديث جبير بن مطعم عندهما أيضاً: «أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَتْهُ فِي شَيْءٍ، فَأَمَرَهَا بِأَمْرٍ فَقَالَتْ: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ الله، إِنْ لَمْ أَجِدْكَ قَالَ: إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ».

وقال قوم كان بالإشارة حيث قدمه في الصلاة كما تقدم ورد الإمام القرطبي على من زعم أن الخلافة كانت بالنص وشنع فقال رحمه الله في شرح حديث عائشة: «من كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستخلفًا لو استخلف» يدلّ على: أن من المعلوم عندهم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يستخلف أحدًا، وكذلك قال عمر ـ رضى الله عنه ـ: لما طعن، وقيل له: ألا تستخلف فقال: إن أتركهم؟ فقد تركهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإن أستخلف فقد استخلف أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ ، وهذا بمحضر من الصحابة، وعلي والعباس ـ رضى الله عنهم ـ ، ولم ينكر أحدٌ منهم على عمر، ولا ذكر أحدٌ من الناس نصًّا باستخلاف على أحد، فكان ذلك دليلاً على كذب من ادَّعى شيئًا من ذلك؛ إذ العادات تحيل أن يكون عندهم نصٌّ على أحد في ذلك الأمر العظيم المهم ، فيكتموه ، مع تَصَلُّبِهم في الدِّين ، وعدم تقيَّتهم ، فإنَّهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وكذلك اتفق لهم عند موت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنَّهم اجتمعوا لذلك ، وتفاوضوا فيه مفاوضة من لا يتقي شيئًا ، ولا يخاف أحدًا ، حتى قالت الأنصار : منا أمير ، ومنكم أمير ، ولم يذكر أحدٌ منهم نصًّا ، ولا ادَّعى أحدٌ منهم أنه نصَّ عليه ، ولو كان عندهم من ذلك شيء لكانوا هم أحق بمعرفته ، ونقله ، ولَمَا اختلفوا في شيء من ذلك، ومن العجب الا يكون عند أحدٍ من هؤلاء نصٌّ على ذلك ، ولا يذكره مع قرب العهد ، وتوفر الدِّين والجدّ ، ودعاء الحاجة الشديدة إلى ذلك ، ويأتي بعدهم بأزمان متطاولة ، وأوقات مختلفة ، وقلة علم ، وعدم فهم من يدَّعي: أن عنده من العلم بالنصِّ على واحد معين ما لم يكن عند أولئك الملأ الكرام ، ولا سمع منهم، هذا محض

الكذب الذي لا يقبله سليم العقل ؛ لكن غلبة التعصُّب والأهواء تورِّط صاحبها في الظلماء ، وقد ذهبت الشيعة على اختلاف فرقها إلى : أنه نصَّ على خلافة علي ـ رضى الله عنه ـ وذهبت الراوندية إلى أنه نصَّ على خلافة العباس ـ رضى الله عنه ـ واختلق كل واحد منهما من الكذب ، والزور، والبهتان ما لا يرضى به من في قلبه حبة خردل من الإيمان ، وما ذكرناه من عدم النَّص على واحد بعينه هو مذهب جمهور أهل السُّنَّة من السَّلف والخلف ، لا على أبي بكر، ولا غيره، غير أنهم استندوا في استحقاق أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ للخلافة إلى أصول كليِّة، وقرائن خالية، ومجموع ظواهر جليِّة حصلت لهم العلم بأنه أحق بالخلافة، وأولى بالإمامة، يعلم ذلك من استقرأ أخباره، وخصائصه. اهـ

ومما يدل على ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى الله قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَالله لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَالله لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا قَالَ عُمَرُ: فَوَالله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ الله صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ».

ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب عمر وحصل منه ما حصل كما سيأتي فقام أبو بكر معبراً مبيناً موضحاً يدل على ذلك ما أخرجه البخاري (١٢٤١-١٢٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ بَكَى فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ الله لَا يَجْمَعُ الله عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا.

قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ خَرَجَ وَعُمَرُ رَضِيَ الله عَنْهُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ فَأَبَى، فَقَالَ: اجْلِسْ فَأَبَى، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَتَرَكُوا عُمَرَ فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ﴾ وَالله لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الله أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا.

وأما ما تزعمه الرافضة قبحهم الله وأخزاهم من عدم رضى علي رضي الله عنه، عن خلافة أبي بكر فيرده، ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم: عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا أَفَاءَ الله عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكٍ، وَمَا بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَالِ، وَإِنِّي وَالله لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا، فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ؛ فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ، وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيٌّ لَيْلًا، وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا، وَكَانَ لِعَلِيٍّ مِنْ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وُجُوهَ النَّاسِ فَالْتَمَسَ مُصَالَحَةَ أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ؛ فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ ائْتِنَا وَلَا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ، فَقَالَ عُمَرُ: لَا وَالله لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا عَسَيْتَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي، وَالله لَآتِيَنَّهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ فَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ وَمَا أَعْطَاكَ الله، وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ الله إِلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ اسْتَبْدَدْتَ عَلَيْنَا بِالْأَمْرِ، وَكُنَّا نَرَى لِقَرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصِيبًا، حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ،

قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي، وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ؛ فَلَمْ آلُ فِيهَا عَنْ الْخَيْرِ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِأَبِي بَكْرٍ: مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةَ لِلْبَيْعَةِ، فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَقِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ؛ فَتَشَهَّدَ، وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيٍّ وَتَخَلُّفَهُ عَنْ الْبَيْعَةِ وَعُذْرَهُ بِالَّذِي اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ؛ فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ، وَحَدَّثَ أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَا إِنْكَارًا لِلَّذِي فَضَّلَهُ الله بِهِ، وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ نَصِيبًا؛ فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا؛ فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَالُوا: أَصَبْتَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا حِينَ رَاجَعَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ.

نعم، قد وقع في نفس فاطمة رضي الله عنها على أبي بكر من شأن ما ذكر، لكن الحق كان مع أبي بكر رضي الله عنه، لأنه آخذ بالنص المعصوم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفضائل هذا الصديق كثيرة، ولا يطعن فيه؛ إلا من في قلبه نفاق والعياذ بالله.

وأما عمر الفاروق؛ فهو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي رضي الله عنه ابن عبد العزي بن رياح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي، أبو حفص أمير المؤمنين.

هو ثانيهما، والمقدم بعدهما، أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ، قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ؛ فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَجُلٌ آخِذٌ مَنْكِبِي، فَإِذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى الله بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ الله إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ الله مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

قال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٢٥٢): وهذا الحديث ردٌّ من عليّ رضى الله عنه على الشيعة فيما يتقوَّلونه عليه من بُغضه للشيخين، ونسبته إياهما إلى الجور في الإمامة، وأنهما غصباه، وهذا كله

كذب وافتراء؛ عليٌّ رضى الله عنه منه براء، بل المعلوم من حاله معهما تعظيمه ومحبَّته لهما، واعترافه بالفضل لهما عليه وعلى غيره.

وفي الحديث: «إني لأحسب الشيطان يفرق منك يا عمر».

ولهما عن سعد رضي الله عنه: «ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط؛ إلا سلك فجًا غير فجك».

وفي حديث أنس؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد جبل أحد ومعه أبو بكر، وعمر وعثمان، فرجف بهم؛ فضرب برجله، فقال: «اثبت أحد؛ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنه وشأن أبي بكر: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة».

وعن عائشة رضي الله عنها؛ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ» أخرجه مسلم.

وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري.

قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٦٤): قوله: «محدثون» بفتح الدال جمع محدث، واختلف في تأويله فقيل: ملهم، قاله الأكثر قالوا: المحدث بالفتح هو الرجل الصادق الظن، وهو من ألقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره به، وبهذا جزم أبو أحمد العسكري، وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد. اهـ

وقد وافق عمر القرآن في أربعة عشر موضعًا، ذكرها الحافظ في «الفتح»، وجاء عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر. أخرجه مسلم.

وكان رضي الله عنه زاهدًا، ورعًا، خائفًا من ربه، وبلغت الفتوح في عهده كل مبلغ؛ فلله دره، تزلزلت على يديه دولة الفرس والروم، وأغنى الله المسلمين، وأذل الشرك والمشركين، ومات شهيدًا رضي الله عنه قتله المجوسي أبو لؤلؤة لعنه الله.

أخرج البخاري (٣٧٠٠): عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: «رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيَّامٍ بِالْمَدِينَةِ وَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: كَيْفَ فَعَلْتُمَا أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ، قَالَا: حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ مَا فِيهَا كَبِيرُ فَضْلٍ قَالَ: انْظُرَا أَنْ تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ، قَالَ: قَالَا: لَا؛ فَقَالَ عُمَرُ: لَئِنْ سَلَّمَنِي اللهُ لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا، قَالَ: فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ، قَالَ: إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، قَالَ: اسْتَوُوا حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ أَوْ النَّحْلَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ لَا يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ حَتَّى طَعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا، فَلَمَّا ظَنَّ الْعِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ فَمَنْ يَلِي عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي الْمَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً، فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي فَجَالَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: غُلَامُ الْمُغِيرَةِ، قَالَ: الصَّنَعُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَاتَلَهُ اللهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مِيتَتِي بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ الْعُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَكْثَرَهُمْ رَقِيقًا، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ أَيْ إِنْ شِئْتَ قَتَلْنَا، قَالَ: كَذَبْتَ بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ وَصَلَّوْا قِبْلَتَكُمْ وَحَجُّوا حَجَّكُمْ، فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ فَقَائِلٌ يَقُولُ: لَا بَأْسَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: أَخَافُ عَلَيْهِ، فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ فَخَرَجَ مِنْ جُرْحِهِ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَجَاءَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدَمٍ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ

وَلَا لِي، فَلَمَّا أَدبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الْأَرْضَ، قَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الْغُلَامَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ؛ فَإِنَّـهُ أَبْقَى لِثَوْبِكَ وَأَتْقَى لِرَبِّكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنْ الدَّيْنِ فَحَسَبُوهُ فَوَجَدُوهُ سِـتَّةً وَثَمَانِـينَ أَلْفًا أَوْ نَحْوَهُ، قَالَ: إِنْ وَفَى لَهُ مَالُ آلِ عُمَرَ فَأَدِّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَإِلَّا فَسَلْ فِي بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ فَإِنْ لَمْ تَفِ أَمْوَالُهُمْ فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ وَلَا تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ فَأَدِّ عَنِّي هَذَا الْمَالَ، انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَـةَ أُمِّ الْمُـؤْمِنِينَ فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلَامَ وَلَا تَقُلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، ثُمَّ دَخَـلَ عَلَيْهَـا فَوَجَـدَهَا قَاعِـدَةً تَبْكِـي، فَقَالَ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ السَّلَامَ وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَـعَ صَـاحِبَيْهِ، فَقَالَـتْ: كُنْـتُ أُرِيـدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي فَلَمَّا أَقْبَلَ قِيلَ هَذَا عَبْدُ اللهِ بْـنُ عُمَـرَ قَـدْ جَـاءَ، قَـالَ: ارْفَعُـونِي فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ، قَالَ: الْحَمْدُ للهِ مَـا كَـانَ مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمْ، فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّـابِ فَـإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي رُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَـاءَتْ أُمُّ الْمُـؤْمِنِينَ حَفْصَـةُ، وَالنِّسَـاءُ تَسِيرُ مَعَهَا فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا فَوَلَجَتْ عَلَيْهِ فَبَكَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ فَوَلَجَـتْ دَاخِـلًا لَهُـمْ فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا مِنْ الدَّاخِلِ، فَقَالُوا: أَوْصِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَخْلِفْ، قَالَ: مَا أَجِدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَـذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ أَوْ الرَّهْطِ الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ وَهُـوَ عَـنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَقَالَ: يَشْـهَدُكُمْ عَبْـدُ اللهِ بْـنُ عُمَـرَ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ؛ فَإِنْ أَصَابَتْ الْإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ، وَقَالَ: أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِـنْ بَعْـدِي بِالْمُهَـاجِرِينَ الْأَوَّلِـينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا: ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِـنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِأَهْـلِ الْأَمْصَـارِ خَـيْرًا؛ فَـإِنَّهُمْ رِدْءُ الْإِسْلَامِ وَجُبَـاةُ الْمَـالِ، وَغَـيْظُ الْعَـدُوِّ، وَأَنْ لَا يُؤْخَـذَ مِـنْهُمْ إِلَّا فَضْـلُهُمْ عَـنْ رِضَـاهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَعْرَابِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ وَمَـادَّةُ الْإِسْـلَامِ أَنْ يُؤْخَـذَ مِـنْ حَـوَاشِي أَمْـوَالِهِمْ وَيُـرَدَّ عَـلَى

فُقَرَائِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَلَا يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ؛ فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي فَسَلَّمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَتْ: أَدْخِلُوهُ، فَأُدْخِلَ فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ فَلَمَّا فُرِغَ مِنْ دَفْنِهِ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ طَلْحَةُ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عُثْمَانَ، وَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَيُّكُمَا تَبَرَّأَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَنَجْعَلُهُ إِلَيْهِ وَاللهُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ لَيَنْظُرَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِي نَفْسِهِ فَأُسْكِتَ الشَّيْخَانِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفَتَجْعَلُونَهُ إِلَيَّ وَاللهُ عَلَيَّ أَنْ لَا آلُ عَنْ أَفْضَلِكُمْ، قَالَا: نَعَمْ فَأَخَذَ بِيَدِ أَحَدِهِمَا، فَقَالَ: لَكَ قَرَابَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقَدَمُ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ فَاللهُ عَلَيْكَ لَئِنْ أَمَّرْتُكَ لَتَعْدِلَنَّ، وَلَئِنْ أَمَّرْتُ عُثْمَانَ لَتَسْمَعَنَّ وَلَتُطِيعَنَّ، ثُمَّ خَلَا بِالْآخَرِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَخَذَ الْمِيثَاقَ، قَالَ: ارْفَعْ يَدَكَ يَا عُثْمَانُ؛ فَبَايَعَهُ فَبَايَعَ لَهُ عَلِيٌّ، وَوَلَجَ أَهْلُ الدَّارِ فَبَايَعُوهُ».

قال السفاريني رحمه الله في «لوائح الأنوار شرح حائية أبي داود» (٢/ ٧): وعلى كل حال؛ فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الصديق الأعظم، أفضل هذه الأمة من غير شك، ولا مراء بالنص والإجماع خلافًا للشيعة الذين يزعمون أن أفضل هذه الأمة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وخلافًا للراوندية الذين يزعمون أن أفضل الصحابة العباس رضي الله عنه.

وثالثهم: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أمير المؤمنين، أبو عبدالله وأبو عمرو.

وأمه: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس أسلمت، وأمها: البيضاء بنت عبدالمطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هاجر الهجرتين، وأسلم قديمًا، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، بشر بالشهادة، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه مع من بُشر أخرج البخاري ومسلم، قال أبو موسى: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ مِنْ حَائِطِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ يَرْكُزُ

بِعُودٍ مَعَهُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ، إِذَا اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ: «افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» قَالَ: فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ؛ فَفَتَحْتُ لَهُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: «افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» قَالَ: فَذَهَبْتُ؛ فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَفَتَحْتُ لَهُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تَكُونُ» قَالَ: فَذَهَبْتُ فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، قَالَ: فَفَتَحْتُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: وَقُلْتُ: الَّذِي قَالَ، فَقَالَ: اللهمَّ صَبْرًا، أَوْ الله المُسْتَعَانُ.

تزوج بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم: رقية، وأم كثلوم، فسمي ذو النورين، لذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة تستحي منه، كما في حديث عائشة عند مسلم، وتخلف عن غزوة بدر، يمرض بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم.

كان غنيًّا مسرورًا ينفق في أوجه الخير؛ فقد اشترى بئر دومة وله الجنة، وجهز جيش العسرة، وفعل، وفعل فالله يرضى عنه.

ولي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه، واتفق عليه المسلون وقد تقدمت قصة بيعته رضي الله عنه، ومات رحمه الله شهيدًا مظلومًا.

قال السفاريني في «لوائح الأنوار» (٢/ ١٨): قال العلماء: ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره؛ فلذلك سمي بذي النورين، فهو رضي الله عنه من السابقين الأولين، وأول المهاجرين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم عنهم راضٍ، وأحد الصحابة الذين جمعوا المصحف، وأحد الخلفاء الراشدين، وكان جميلاً، صوامًا قوامًا، وكثيرًا التلاوة للقرآن.

وأما علي بن أبي طالب؛ فهو علي بن عبد مناف بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره، تزوج فاطمة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين، وله منها: الحسن والحسين «سيدا شباب أهل الجنة» وغيرهما.

كان شجاعًا، قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا

نبي بعدي» أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص.

وهو من دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكساء، وأنزل الله عزوجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال عنه يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه»، فلما أصبح دعى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. أخرجه مسلم عن سعد، وعن أبي هريرة، واتفقا عليه من حديث سهل بن سعد.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند أحمد من حديث بريدة وغيره: «من كنت مولاه، فعلي مولاه».

وفضائله مشهورة، ومات شهيدًا رضي الله عنه قتله عبدالرحمن بن ملجم قتله الله؛ فهؤلاء هم الخلفاء الراشدون الأئمة المهديون، الذين قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: «فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ».

وأفضليتهم على حسب ترتيبهم في الخلافة، وخلافتهم خلافة نبوة، كما في حديث سفينة: «خلافة النبوة ثلاثين سنة» فقال سفينة لسعيد بن جهيمان: امسك عليَّ: أبو بكر سنتين، وعمر عشر، وعثمان اثنا عشر، وعلي ست، ثم بعد ذلك ملك يؤتيه الله من يشاء.

والعشرة: جمعهم حديث عبدالله بن زيد، وعبدالله بن سرجس؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ».

قال ابن أبي داود في «حائيته»:

وقل إنَّ خيرَ النَّاسِ بعد محمَّدٍ	وزيراهُ قِدَماً ثم عثمانُ الارجَحُ
ورابعهُمْ خيرُ البريَّة بعدهُم	عليٌّ حليفُ الخيرِ بالخيرِ مُنْجِحُ

وإنَّهم للرَّهطُ لا ريبَ فـــــــيهمُ	على نُجب الـــــفردوس بالنُّور تَسرحُ
سعيدٌ وسعدٌ وابن عوفٍ وطــــلحةٌ	وعامــــــــــرُ فهرٍ والزبيرُ الممدَّح
وقل خيرَ قولٍ في الصحابة كـلِّهم	ولا تـــــــــك طعَّاناً تعيبُ وتجرحُ
فقد نطقَ الوحيُ المبينث بفضلـــهم	وفـــــــي الفتح آيٌ للصَّحابةِ تمدحُ

فأما سعد فهو سعد بن مالك أبي وقاص.

من فضائله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليت رجلاً صالحًا يحرسن الليلة» فجاء سعد كما في «الصحيحين» عن عائشة.

وكان مجاب الدعوة، مسدد الرمية نزل فيه من القرآن ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وذلك أن أمه قالت له: تزعم أن دينك يأمرك بطاعتي، فلن أكل طعامًا، ولن أذوق ذوقًا حتى تكفر بمحمد؛ فأبى رضي الله عنه؛ فأنزل الله الآية.

وجمع له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواه يوم أحد، وجعل يقول: «أرم فداك أبي وأمي» أخرجاه عن علي رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة عند مسلم؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على حراء فتحرك الجبل؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اسْكُنْ حِرَاءُ؛ فَمَا عَلَيْكَ؛ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ»، وَعَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ.

وفي «صحيح البخاري» قال سعد رضي الله عنه: رأيتني وأنا ثلث الإسلام، وما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة، وإني لثلث الإسلام.

وفي «الصحيحين» عنه قال: إني لأول العرب رمى بسهم في الإسلام.

وسعيد هو: ابن زيد بن عمر بن نفيل، أبوه يبعث يوم القيامة أمة واحدة كان على الحنيفية المسلمة، أخرج البخاري في «صحيحه»؛ عن زيد بن حارثة قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ أَبِي كَانَ كَمَا قَدْ رَأَيْتَ

تولي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم

وأتولى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، وأذكر محاسنهم وأترضى عنهم وأستغفر لهم وأكف عن مساويهم وأسكت عما شجر بينهم، وأعتقد فضلهم عملا بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠](1).

وَبَلَغَكَ، وَلَوْ أَدْرَكَكَ لَآمَنَ بِكَ وَاتَّبَعَكَ فَاسْتَغْفِرْ لَهُ، قَالَ: «نَعَمْ؛ فَأَسْتَغْفِرُ لَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً».

وأما أبو عبيدة؛ فهو عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن حضية بن الحارث بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة القرشي.

أسلم هو وعثمان بن مظعون، بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وثبت معه يوم أحد، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» أخرجاه، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو عنه راضٍ، كما تقدم في قصة قتل عمر رضي الله عنه.

(1) قوله: «وأتولى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأذكر محاسنهم ..... إلخ» قال الله عزوجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، والصحابة داخلون في هذه الآية ابتداء؛ لأنهم ذروة المؤمنين، فتجب محبتهم وتوليهم، والدعاء لهم على ما يأتي بيانه إن شاء

الترضي عن أمهات المؤمنين المطهرات

وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء[(١)].

الله.

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٧٠-٤٧١): وقوله: (ولا نتبرأ من أحد منهم) كما فعلت الرافضة! فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما!! وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها، بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب؛ فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد. اهـ

(١) قوله:«وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات» قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم، وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعي على أنه يقال ذلك، وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليبا؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي، رحمه الله.

وقد روي عن أُبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم"، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا لكم بمنزلة الوالد

أعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه"، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان.

والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال ابن القيم رحمه الله في «الزاد» (١/ ١٠٥-١١٤): فصل: في أزواجه صَلَّى الله عليه وسلم: أولاهن خديجة بنت خُويلد القرشية الأسدية، تزوجها قبل النبوة، ولها أربعون سنة، ولم يتزوجْ عليها حتى ماتت، وأولاده كلُّهم منها إلاَّ إبراهيمَ، وهي التي آزرته على النبوة، وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله إليها السلامَ مع جبريل، وهذه خاصة لا تُعرف لامرأة سواها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

ثم تزوج بعد موتها بأيام سَوْدة بنت زَمْعَة القُرشية، وهي التي وهبت يومها لعائشة.

ثم تزوج بعدها أمَّ عبد الله عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، المبرَّأة من فوق سبع سماوات، حبيبة رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وعرضها عليه المَلَكُ قبل نكاحها في سَرَقَةٍ من حرير وقال: "هذه زوجتك" تزوج في شوال وعمرها ست سنين، وبنى بها في شوال في السنة الأولى من الهِجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوج بكراً غيرها، وما نزل عليه الوحي في لِحاف امرأة غيرها، وكانت أحبَّ الخلق إليه، ونزل عذرُهَا مِن السماء، واتفقت الأمة على كفر قَاذِفِها، وهي أفقه نسائه وأعلمُهن، بل أفقهُ نساءِ الأمّة وأعلمهُنَّ على الإِطلاق، وكان الأكابرُ مِنْ أصحاب النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجعون إلى قولها ويستفتونها. وقيل: إنها أسقطت من النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِقْطاً، ولم يثبت.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكر أبو داود أنه طلقها، ثم راجعها.

ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية، من بني هلال بن عامر، وتوفيت عنده بعد ضمه لها بشهرين.

ثم تزوج أمَّ سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية، واسم أبي أمية حذيفة بن المغيرة، وهي آخر نسائه موتاً. وقيل: آخرهن موتاً صفية.

واختلف فيمن ولي تزويجها منه؟ فقال ابن سعد في "الطبقات": ولي تزويجها منه سلمة بن أبي سلمة دون غيره من أهل بيتها، ولما زوج النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمة بن أبي سلمة أمامة بنت حمزة التي اختصم فيها علي وجعفر وزيد قال: "هل جزيتُ سلمة" يقول ذلك، لأن سلمة هو الذي تولى تزويجه دون غيره من أهلها، ذكر هذا في ترجمة سلمة، ثم ذكر في ترجمة أم سلمة عن الواقدي: حدثني مجمع بن يعقوب، عن أبي بكر بن محمد بن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب أم سلمة إلى ابنها عمر بن أبي سلمة، فزوَّجهَا رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يومئذٍ غلام صغير.

وقال الإمام أحمد في "المسند": حدثنا عفان، حدثنا حمّاد بن أبي سلمة، حدثنا ثابت قال: حدثني ابن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أم سلمة أنها لما انقضت عِدَّتهَا مِنْ أبي سلمة، بعث إليها رسولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: مَرْحَبَاً برسول صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إني امرأة غَيرى، وإني مُصْبِيَةٌ، وَلَيْسَ أحدٌ من أوليائي حاضراً... الحديث، وفيه فقالت لابنها عمر: قم فزوج رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فزوجه، وفي هذا نظر، فإن عمر هذا كان سنُّه لما توفي رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع سنين، ذكره ابن سعد، وتزوجها رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شوال سنة أربع، فيكون له من العمر حينئذٍ ثلاث سنين، ومثل هذا لا يزوِّج قال ذلك ابن سعد وغيره، ولما قيل ذلك للإمام أحمد، قال: من يقول: إن عمر كان صغيراً؟! قال أبو الفرج بن الجوزي: ولعل أحمد قال هذا قبل أن يقف على مقدار سِنّه، وقد ذكر مقدار سِنّه جماعةٌ من المؤرّخين، ابن سعد وغيره. وقد قيل: إن الذي زوجها من رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عمّها عمر بن الخطاب، والحديث "قم يا عمر فزوج رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ونسب عمر، ونسب أم سلمة يلتقيان في كعب، فإنه عمر بن الخطاب بن نفيل، بن عبد العزى، بن رياح، بن عبد الله بن قُرط، بن رزاح بن عدي بن كعب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، فوافق اسمُ

ابنها عمر اسمَه، فقالت: قم يا عمر، فزوج رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فظن بعض الرواة أنه ابنها، فرواه بالمعنى وقال: فقالت لابنها، وذهل عن تعذر ذلك عليه لصغر سنه، ونظير هذا وَهْم بعض الفقهاء في هذا الحديث، وروايتهم له، فقال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قم يا غلام فزوج أمك" قال أبو الفرج بن الجوزي: وما عرفنا هذا في هذا الحديث، قال: وإن ثبت، فيحتَمِلُ أن يكون قاله على وجه المداعبة للصغير، إذ كان له من العمر يومئذٍ ثلاث سنين، لأن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوجها في سنة أربع، ومات ولعمر تسعُ سنين، ورسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفتَقِرُ نِكاحُه إلى ولي. وقال ابن عقيل: ظاهر كلام أحمد أن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُشترط في نكاحه الوليُّ، وأن ذلك من خصائصه.

ثم تزوج زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وبذلك كانت تفتخِر على نساء النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتقول زوجكُنَّ أهاليكُن، وزوجني الله مِن فوق سبع سماوات.

ومن خواصها أن الله سبحانه وتعالى كان هو وليَّها الذي زوجها لرسوله مِن فوق سماواته، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبنَّاه، فلما طلقها زيد، زوَّجه الله تعالى إيَاها لتتأسَّى به أُمَّته في نكاح أزواج من تبنَّوْه.

وتزوج في صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُويْرِيَة بنت الحارث بن أبي ضرار الْمُصْطَلِقِيَّة، وكانت من سبايا بني الْمُصْطَلِقِ، فجاءته تستعينُ به على كِتابتها، فأدى عنها كتابتَها وتزوجها.

ثم تزوج أمَّ حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان صخرِ بن حرب القرشية الأموية. وقيل: اسمها هند، تزوجها وهي ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت في أيام أخيها معاوية. هذا هو المعروف المتواتر عند أهل السِّير والتواريخ، وهو عندهم بمنزلة نكاحه لخديجة بمكّة، ولحفصة بالمدينة، ولصفية بعد خيبر.

وأمّا حديث عكرمة بن عمّار، عن أبي زُميل، عن ابن عباس أن أبا سفيان قال للنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَسْأَلُكَ ثَلاَثَاً، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُنْ، مِنْهَا: وَعِنْدِي أَجْمَلُ العَرَبِ أُمُّ حَبِيبَةَ أُزَوِّجكَ إِيَّاهَا".

فهذا الحديث غلط لا خفاء به، قال أبو محمد بن حزم: وهو موضوع بلا شك، كَذَبَهُ عكرمة بن عمار، وقال ابن الجوزي في هذا الحديث: هو وهم من بعض الرواة، لا شك فيه ولا تردد، وقد اتهموا به عكرمة بن عمار، لأن أهل التاريخ أجمعوا على أن أم حبيبة كانت تحت عبد الله بن جحش، وولدت له، وهاجر بها وهما مسلمان إلى أرض الحبشة، ثم تنصَّر، وثبتت أم حبيبة على إسلامها، فبعث رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي يخطبها عليه، فزوجه إيَاها، وأصدقها عنه صداقاً، وذلك في سنة سبع من الهجرة، وجاء أبو سفيان في زمن الهُدنة فدخل عليها، فثنت فِراش رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا يجلسَ عليه، ولا خلاف أن أبا سفيان ومعاوية أسلما في فتح مكة سنة ثمان.

وأيضاً ففي هذا الحديث أنه قال له: وتؤمِّرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم. ولا يعرف أن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّرَ أبا سفيان البتة.

وقد أكثر النَّاسُ الكلام في هذا الحديث، وتعددت طرقهم في وجهه، فمنهم من قال: الصحيح أنه تزوجها بعد الفتح لهذا الحديث، قال: ولا يُرد هذا بنقل المؤرِّخين، وهذه الطريقة باطلة عند من له أدنى علم بالسّيرة وتواريخ ما قد كان.

وقالت طائفة: بل سأله أن يجدد له العقد تطييباً لقلبه، فإنه كان قد تزوجها بغير اختياره، وهذا باطل، لا يُظن بالنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يليق بعقل أبي سفيان، ولم يكن من ذلك شيء.

وقالت طائفة منهم البيهقي والمنذري: يحتمِل أن تكون هذه المسألة من أبي سفيان وقعت في بعض خرجاته إلى المدينة، وهو كافر حين سمع نعي زوج أم حبيبة بالحبشة، فلما ورد على هؤلاء ما لا حِيلة لهم في دفعه مِن سؤاله أن يؤمره حتى يقاتل الكفار، وأن يتخذ ابنه كاتباً، قالوا: لعلّ هاتين المسألتين وقعتا منه بعد الفتح، فجمع الراوي ذلك كله في حديث واحد، والتعسُّفُ والتكلف الشديد الذي في هذا الكلام يُغني عن رده.

وقالت طائفة: للحديث محمل آخر صحيح، وهو أن يكون المعنى: أرضى أن تكون زوجتَك الآن، فإني قبل لم أكن راضياً، والآن فإني قد رضيت، فأسألك أن تكون زوجتَك، وهذا وأمثاله لو لم يكن

قد سُوِّدَتْ به الأوراق، وصنفت فيه الكُتب، وحمله الناس، لكان الأولى بنا الرغبةَ عنه، لضيق الزمان عن كتابته وسماعه والاشتغال به، فإنه من زُبْدِ الصدور لا من زُبْدها.

وقالت طائفة: لما سمع أبو سفيان أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلق نساءه لما آلى منهن، أقبل إلى المدينة، وقال للنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال، ظناً منه أنه قد طلقها فيمن طلق، وهذا من جنس ما قبله.

وقالت طائفة: بل الحديث صحيح، ولكن وقع الغلط والوهم من أحد الرواة في تسمية أم حبيبة، وإنما سأل أن يزوجه أختها رملة، ولا يبعد خفاء التحريم للجمع عليه، فقد خفي ذلك على ابنته، وهي أفقه منه وأعلم حين قالت لرسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل لك في أختي بنت أبي سفيان؟ فقال: "أفعل ماذا؟" قالت: تَنكِحُها. قال: "أو تحبين ذلك؟" قالت: لست لك بمُخْلِيةٍ، وأَحَبُ مَنْ شَرِكَني في الخير أُختي، قال: "فإنَّها لاَ تَحِلُّ لي". فهذه هي التي عرضها أبو سفيان على النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسماها الراوي من عنده أم حبيبة. وقيل: بل كانت كنيتها أيضاً أم حبيبة، وهذا الجواب حسن لولا قوله في الحديث: فأعطاه رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سأل، فيقال حينئذٍ: هذه اللفظة وهم من الراوي، فإنه أعطاه بعض ما سأل، فقال الراوي: أعطاه ما سأل، أو أطلقها اتكالاً على فهم المخاطب أنه أعطاه ما يجوز إعطاؤه ممّا سأل، والله أعلم.

وتزوج صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفيَّة بنتَ حُيي بن أَخْطَبَ سيد بني النضير من ولد هارون بن عمران أخي موسى، فهي ابنة نبي، وزوجة نبي، وكانت مِنْ أَجمل نساءِ العالمين.

وكانت قد صارت له من الصَّفيِّ أمة فأعتقها، وجعل عِتقها صداقَها، فصار ذلك سُنَّةً للأمّة إلى يوم القيامة، أن يَعْتِقَ الرجل أمَته، ويجعل عتقها صداقها، فتصير زوجته بذلك، فإذا قال: أعتقت أمتي، وجعلت عِتقها صَدَاقها، أو قال: جعلت عِتق أمتي صداقها، صح العتق والنكاح، وصارت زوجتَه من غير احتياج إلى تجديد عقد ولا ولي، وهو ظاهر مذهب أحمد وكثيرٍ من أهل الحديث.

وقالت طائفة: هذا خاص بالنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مما خصه الله به في النكاح دون الأمة، وهذا قول الأئمة الثلاثة ومن وافقهم، والصحيح القول الأول، لأن الأصل عدم الاختصاص

حتى يقوم عليه دليل، والله سبحانه لما خصه بنكاح الموهوبة له، قال فيها: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ولم يقل هذا في المعتقة، ولا قاله رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقطع تأسي الأمة به في ذلك، فالله سبحانه أباح له نكاح امرأة مَن تبنّاه، لئلا يكون على الأمة حرجٌ في نكاح أزواج من تبنَّوه، فدلَ على أنه إذا نكح نِكاحاً، فلأمَّتِه التأسي به فيه، ما لم يأتِ عن الله ورسوله نصٌ بالاختصاص وقطع التأسي، وهذا ظاهر.

ولتقرير هذه المسألة وبسط الحجاج فيها - وتقرير أن جواز مثل هذا هو مقتضى الأصولِ والقياس - موضعٌ آخر، وإنما نبهنا عليه تنبيهاً.

ثم تزوج ميمونةَ بنت الحارث الهِلالية، وهي آخر من تزوج بها، تزوجها بمكة في عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح. وقيل: قبل إحلاله، هذا قول ابن عباس، ووهم رضي الله عنه، فإن السفير بينهما بالنكاح أعلم الخلق بالقِصة، وهو أبو رافع، وقد أخبر أنه تزوجها حلالاً، وقال: كنت أنا السفير بينهما، وابن عباس إذ ذاك له نحو العشر سنين أو فوقها، وكان غائباً عن القصة لم يحضرها، وأبو رافع رجل بالغ، وعلى يده دارت القصة، وهو أعلم بها، ولا يخفى أن مثل هذا الترجيح موجب للتقديم وماتت في أيام معاوية، وقبرها بـ"سَرِفَ".

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت زيد النضرية. وقيل: القرظية، سبيت يوم بني قريظة، فكانت صفيَّ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعتقها وتزوجها، ثم طلقها تطليقة، ثم راجعها.

وقالت طائفة: بل كانت أمتَه، وكان يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها، فهي معدودة في السراري، لا في الزوجات، والقول الأول اختيارُ الواقدي، ووافقه عليه شرف الدين الدمياطي. وقال: هو الأثبت عند أهل العلم، وفيما قاله نظر، فإن المعروف أنها من سراريه، وإمائه، والله أعلم.

فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهن، وأما من خطبها ولم يتزوجها، ومن وهبت نفسَها له، ولم يتزوجها، فنحو أربع أو خمس، وقال بعضهم: هن ثلاثون امرأة، وأهل العلم بسيرته وأحواله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعرفون هذا، بل ينكرونه، والمعروف عندهم أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها، فدخل عليها ليخطبها، فاستعاذت منه، فأعاذها ولم يتزوجها، وكذلك الكلبية، وكذلك التي رأى

بكشحها بياضاً، فلم يدخل بها، والتي وهبت نفسها له فزوجها غيره على سور من القرآن، هذا هو المحفوظ، والله اعلم.

ولا خلاف أنه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي عن تسع، وكان يقسم منهن لثمان: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وسودة، وجويرية.

وأول نسائه لحوقاً به بعد وفاته صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينبُ بنت جحش سنة عشرين، وآخِرهن موتاً أم سلمة، سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد، والله أعلم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما مر عليهن في الليلة الواحدة بغسل واحد كما في حديث أنس في «الصحيحين».

وربما مر عليهن يغتسل عند كل واحدة منهن، واختلف هل القسمة واجبة عليه أم مستحبة إلى قولين لأهل العلم.

وقد وهبت سودة رضي الله عنها ليلتها لعائشة رضي الله عنها لما خشيت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى هذا، فحديث أنس رضي الله عنه قال: «**كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعُ نِسْوَةٍ فَكَانَ إِذَا قَسَمَ بَيْنَهُنَّ لَا يَنْتَهِي إِلَى الْمَرْأَةِ الْأُولَى إِلَّا فِي تِسْعٍ، فَكُنَّ يَجْتَمِعْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَأْتِيهَا فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ فَجَاءَتْ زَيْنَبُ فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ: هَذِهِ زَيْنَبُ فَكَفَّ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فَتَقَاوَلَتَا حَتَّى اسْتَخَبَتَا، وَأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ذَلِكَ فَسَمِعَ أَصْوَاتَهُمَا فَقَالَ: اخْرُجْ يَا رَسُولَ الله إِلَى الصَّلَاةِ وَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: الْآنَ يَقْضِي النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ فَيَجِيءُ أَبُو بَكْرٍ فَيَفْعَلُ بِي وَيَفْعَلُ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ أَتَاهَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهَا قَوْلًا شَدِيدًا، وَقَالَ: أَتَصْنَعِينَ هَذَا**».

قال الشوكاني رحمه الله في «النيل» (١٢/ ٣٥٨) ط/ ابن الجوزي: فيه دليل على أن القسمة كانت بين تسع، ولكن المشهور أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم بين ثمان من نسائه فقط، فكان يجعل لعائشة يومين يومها ويوم سودة الذي وهبته لها، ولكن واحدة يوماً. اهـ

واختلف العلماء في أفضلهن فذهب قوم إلى تفضيل خديجة رضي الله عنها لسابقيتها ونصرتها في

بداية الدعوة ولمحبة النبي صلى الله عليه وسلم لها حتى أنه كان يكرم صديقتها وكان يقول: «كانت وكانت وكان لي منها الولد» يخبر بمنزلتها عندها، وبشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة ببيت من نصب لا صخب فيه ولا نصب.

وذهب قوم إلى تفضيل عائشة رضي الله عنها لعلمها ولحب النبي صلى الله عليه وسلم، ولقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله عمرو بن العاص: «من أحب الناس إليك، قال: عائشة» أخرجه مسلم.

وحديث أبي موسى: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وغير ذلك من فضائلها رضي الله عنها وأرضاها، والذي نختاره هنا ما ذكره ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد» (٣/ ١٦٢-١٦٣) قال رحمه الله: ومنها -أي من المفاضلات- أنه سئل عن خديجة وعائشة أمي المؤمنين أيهما أفضل فأجاب بأن سبق خديجة، وتأثيرها في أول الإسلام، ونصرها وقيامها في الدين لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به غيرها، فتأمل هذا الجواب الذي لو جئت بغيره من التفضيل مطلقاً لم تخلص من المعارضة.اهـ

وفي معرفة حق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ردٌ على الروافض قبحهم الله والخوارج الذين يتنقصون زوجاته،لاسيما عائشة، حتى أن الروافض قاتلهم الله عزوجل يتهمونها بما برأها الله عزوجل منه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمَ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ١١- ٢٦].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند الشيخين البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠) ذكر هذه القصة والبرآة ولا يجادل بعد ذلك إلا ناقم على الإسلام وأهله.

قالت عائشة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ؛ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا؛ فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ؛ فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُنْزَلُ فِيهِ مَسِيرَنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوِهِ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي؛ فَإِذَا عِقْدِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي؛ فَحَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِيَ الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، قَالَتْ: وَكَانَتْ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُهَبَّلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ، وَسَارُوا وَوَجَدْتُ

عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ، وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ، ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَادَّلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ؛ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِيَ الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ؛ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ؛ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ**» فَذَاكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَ مَا نَقَهْتُ، وَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّنَزُّهِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا؛ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ؛ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَبِنْتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؟ قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذَا، قَالَ: قَالَتْ: فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي؛ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**» قُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا؛ فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ؛ فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ

وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ، وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي وَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنْ الْوُدِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُمْ أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ قَالَتْ: وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى

ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي الله وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ فَقَالَ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ إِنِّي وَالله لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُونَنِي، وَإِنِّي وَالله مَا أَجِدُ لِي، وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي قَالَتْ: وَأَنَا وَالله حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ الله مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَالله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا قَالَتْ: فَوَالله مَا رَامَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ فَقَالَتْ: لِي أُمِّي قُومِي إِلَيْهِ فَقُلْتُ: وَالله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا الله هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ عَشْرَ آيَاتٍ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ بَرَاءَتِي قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو

بَكْرٍ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ، وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾.

قَالَ حِبَّانُ بْنُ مُوسَى: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَمْرِي مَا عَلِمْتِ أَوْ مَا رَأَيْتِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ.

قال شيخ الإسلام في «الصارم المسلول على شاتم الرسول» (٥٦٥-٥٦٧): فأما من سب أزواج النبي صلى الله عليه و سلم فقال القاضي أبو يعلى: من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف و قد حكى الإجماع على هذا غير واحد و صرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم؛ فروي عن مالك: من سب أبا بكر جلد، ومن سب عائشة قتل قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَعِظُكُم الله أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْن﴾ [النور: ١٧].

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: سمعت القاسم بن محمد يقول لإسماعيل بن إسحاق: أتي المأمون بالرقة برجلين شتم أحدهما: فاطمة، والآخر: عائشة؛ فأمر بقتل الذي شتم فاطمة وترك الآخر، فقال إسماعيل: ما حكمهما إلا أن يقتلا؛ لأن الذي شتم عائشة رد القرآن، و على هذا مضت سيرة أهل الفقه و العلم من أهل البيت و غيرهم.

قال أبو السائب القاضي: كنت يوما بحضرة الحسن بن زيد الداعي بطرستان وكان يلبس الصوف، ويأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ويوجه في كل سنة بعشرين ألف دينار إلى المدينة السلام يفرق على سائر ولد الصحابة، وكان بحضرته رجل؛ فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة فقال: يا غلام

اضرب عنقه فقال له العلويين: هذا رجل من شيعتنا فقال: معاذ الله هذا رجل طعن على النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي صلى الله عليه و سلم خبيث فهو كافر فاضربوا عنقه؛ فضربوا عنقه، وأنا حاضر رواه اللالكائي.

و روي عن محمد بن زيد أخي الحسن بن زيد: أنه قدم عليه رجل من العراق فذكر عائشة بسوء فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله، فقيل له: هذا من شيعتنا، ومن بني الآباء، فقال: هذا سمى جدي قرنان و من سمى جدي قرنان استحق القتل فقتله.

وأما من سب غير عائشة من أزواجه صلى الله عليه و سلم ففيه قولان:

أحدهما: أنه كساب غيرهن من الصحابة على ما سيأتي.

و الثاني: وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين، فهو كقذف عائشة رضي الله عنها وقد تقدم معنى ذلك عن ابن عباس، وذلك؛لأن هذا فيه عار وغضاضة على رسول الله صلى الله عليه و سلم و أذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده. اهـ

ثم هل هنَّ من آل البيت أم لا؟ اختلف في هذه المسألة على قولين.

قال ابن القيم رحمه الله في «جلاء الأفهام» (٢٣٦-٢٣٨): واختلف في آل النبي صلى الله عليه وسلم على أربعة أقوال:

فقيل: هم الذين حرمت عليهم الصدقة، وفيهم ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها : أنهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في رواية عنه.

والثاني : أنهم بنو هاشم خاصة، وهذا مذهب أبي حنيفة، والرواية عن أحمد واختيار ابن القاسم صاحب مالك.

والثالث: أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب، فيدخل فيهم بنو مطلب، و بنو أمية، و بنو نوفل،

ومن فوقهم إلى بني غالب، وهذا اختيار أشهب من أصحاب مالك، حكاه صاحب الجـواهر عنـه، وحكاه اللخمي في التبصرة عن أصبغ، ولم يحكه عن أشهب.

وهذا القول في الآل أعني أنهم الذين تحرم عليهم الصدقة هو منصوص الشافعي وأحمد والأكثرين، وهو اختيار جمهور أصحاب أحمد والشافعي.

والقول الثاني: أن آل النبي صلى الله عليه وسلم هم ذريته وأزواجه خاصة، حكاه ابن عبـد الـبر في التمهيد قال في باب عبد الله بن أبي بكر، في شرح حـديث أبي حميـد السـاعدي: اسـتدل قـوم بهـذا الحديث على أن آل محمد هم أزواجه وذريته خاصة، لقوله في حديث مالك عن نعـيم المجمـر، وفي غير ما حديث: «اللهم صل على محمد على آل محمد» و في هـذا الحـديث يعنـي حـديث أبي حميـد: «اللهم صل على محمد وعلى وأزواجه وذريته»، قالوا: فهذا تفسير ذلك الحديث، ويبين أن آل محمد هم أزواجه وذريته، قالوا: فجائز أن يقول الرجل لكل من كـان مـن أزواج محمـد صـلى الله عليـه وسلم ومن ذريته صلى الله عليك، إذا واجهه، وصلى الله عليـه إذا غـاب عنـه، ولا يجـوز ذلـك في غيرهم.

قالوا: والآل والأهل سواء، وآل الرجل وأهله سواء، وهم الأزواج والذرية بدليل هذا الحديث.

والقول الثالث: أن آله صلى الله عليه وسلم أتباعه إلى يوم القيامة حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم، وأقدم من روي عنه هذا القول جابر بن عبـد الله، ذكـره البيهقـي عنـه، ورواه عـن سـفيان الثوري وغيره، واختاره بعض أصـحاب الشـافعي، حكـاه عنـه أبـو الطيـب الطـبري في تعليقـة، ورجحه الشيخ محيي الدين النواوي في شرح مسلم واختاره الأزهري.

والقول الرابع: أن آله صلى الله عليه وسلم هم الأتقياء من أمته، حكاه القـاضي حسـين والراغـب وجماعة. اهـ

وأقر بكرامات الأولياء ومالهم من المكاشفات؛ إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئاً ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله [1].

---

(١) الكرامات جمع كرامة، وهي الأمر الخارق للعادة، ويكون من الله عزوجل، ولا دخل للبشر فيه، وإن جرى على يد نبي فهو معجزة.

ويجريه على يد الوالي، إما تكريمًا له، وإما إظهار للحق الذي قام به.

والإيمان بكرامات أولياء الله عزوجل من معتقد أهل السنة والجماعة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» (٧/ ٣٨٣): والمشهور عن أهل السنة إثبات الكرامات مطلقًا.

وقال الطحاوي رحمه الله: ولا نفضل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء، ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم. اهـ

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٩٤): فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين، ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما؛ فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي، وجماعها الأمر الخارق للعادة. اهـ

ومع ذلك؛ فالخوارق تنقسم إلى قسمين: ممدوح، ومذموم.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١١/ ٣١٩): فالخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينًا وشرعا، إما واجب، وإما مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرًا، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم، أو نهي تنزيه، كان سببًا للعذاب أو البغض كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعام بن باعوراء ....، والثاني: أن يدعو على غيره بما لا يستحقه، أو يدعو للظالم بالإعانة ويعينه بهمته: كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال؛ فإن كان صاحبه من عقلاء المجانين والمغلوبين

غلبة بحيث يعذرون، والناقصين نقصًا، لا يلامون عليه كانوا برحية، وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامية فإن من أتى بخارق على وجه منهي عنه، أو لمقصود منهي عنه فإما أن يكون معذورًا معفوًا عنه كبرح أو يكون متعمدًا للكذب كبلعام، فتلخص أن الخارق ثلاثة أقسام: محمود في الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود، ولا مذموم في الدين. اهـ

وقال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٩٥): قال أبو علي الجوزجاني: كن طالبًا للاستقامة، لا طالبًا للكرامة؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الإستقامة. اهـ

ومن الأقول المشهورة عن ابن تيمية رحمه الله: أكبر كرامة دوام الإستقامة.

إي والله إذا أكرمك الله عزوجل بالثبات على المنهج السلفي الحث والعقيدة السلفية التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام؛ فهذه هي الكرامة.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؟ وهؤلاء ليسوا كما تدعيهم الصوفية، والشيعة، وغيرهم، من فرق الضلال ولكنهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٣-٦٤].

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (   ) يقول الله تعالى: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

فهذا الحديث مع الآية فيه: الطريق إلى ولاية الله لحقه.

قال الشوكاني رحمه الله في كتابه «قطر الولي على حديث الولي» (٢١) قال في الصحاح: والولي ضد

العدو. اهـ الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة، والتقرب كما ذكره أهل اللغة، وأصل العداوة البغض البعد.

قال: وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته، المخلص في عبادته. اهـ، قال الشوكاني رحمه الله: وهذا التعريف للولي هو المناسب لمعنى الولي المضاف إلى الرب سبحانه، ويدل على ذلك ما في الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وكقوله: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وغير ذلك من الآيات؛ فأولياء الله هم خلص عباده القائمون بطاعته المخلصون له.

وأفضل أولياء الله هم الأنبياء وأفضل الأنبياء هم المرسلون.

وأفضل الرسل، وأفضل أولي العزم: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أنزل الله سبحانه عليه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

والولاية طبقات.

قال الشوكاني رحمه الله (٢٦): قال الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: فصل وأولياء الله على طبقتين: سابقون، ومقربون، وأبرار وأصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه في أول الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، والطففين، وفي سورة فاطر؛ فإنه ذكر في الواقعة القيامة الصغرى، والقيامة الكبرى؛ فقال في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا

ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١-١٤].

ثم قال في آخر السورة: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا، ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥].

وقال (٣٠): وقد ذكر الله أولياءه المقتصدين، والسابقين في سورة فاطر بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥] وهذه الأصناف الثلاثة عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ثم ذكر رحمه الله المفاضلة بين طوائف الأولياء. اهـ

والعصمة لا تكون للأولياء من غير الأنبياء؛ فهم يصيبون ويخطؤن.

قال الشوكاني رحمه الله (٣٥): واعلم أن أولياء الله غير الأنبياء ليسوا بمعصومين، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين، لكنهم قد صاروا في رتبة رفيعة ومنزلة علِّية فقل: أن يقع منهم ما يخالف الصواب، وينافي الحق؛ فإذا وقع ذلك فلا يخرجهم من كونهم أولياء الله، كما يجوز أن يخطئ المجتهد، وهو مأجور على خطئه حسبما تقدم أنه إذا اجتهد؛ فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر. اهـ

وقال رحمه الله (٣٦): ولا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله سبحانه فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره، بل الواجب عليه أن يعرض أقواله

وأفعاله على الكتاب والسنة فإن كانت موافقة لها فهو حق وصدق وكرامة من الله سبحانه وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك فليعلم أنه مخدوع ممكور به قد قطع منه الشيطان فلبس عليه. اهـ

ومتى يسمى الرجل صاحب كرامة.

قال الشوكاني رحمه الله (٦٤): والحاصل أن من كان من المعدودين من الأولياء إن كان من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره مقيمًا لما أوجب الله عليه، تاركًا لما نهاه الله عنه، مستكثرًا من طاعته فهو من أولياء الله، وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع فهو موهبة من الله عزوجل، لا يحل لمسلم أن ينكرها، ومن كان بعكس هذه الصفات فليس من أولياء الله سبحانه، وليست ولايته رحمانية، بل شيطانية، وكراماته من تلبس الشيطان عليه وعلى الناس، وليس هذا بغريب؛ فكثير من الناس من يكون مخدومًا بخادم من الجن أو بأكثر؛ فيخدمونه في تحصيل ما يشتهيه، وربما كان محرمًا من المحرمات.

وقد قدمنا أن المعيار الذي لا يزيغ، والميزان الذي لا يجور هو ميزان الكتاب والسنة؛ فمن كان متبعًا لهما معتمدًا عليهما فكراماته، وجميع أحواله رحمانية.

ومن لم يتمسك بهما ويقع عند حدودهما؛ فأحواله شيطانية. اهـ

كيفية الطريق إلى الولاية:

قال الشوكاني رحمه الله (١٨٦-١٩١): التقرب بالفرائض قول: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» قال ابن حجر في «الفتح»: ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية، وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله تعالى فريضته .....

ونقل عن الطوفي قوله: فالفرض كالأصل، والأس والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترامه وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية، وذل

العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل. اهـ

قال رحمه الله: واعلم أن من أعظم فرائض الله سبحانه ترك معاصيه التي هي حدوده التي من تعداها كان عليه من العقوبة ما ذكره الله في كتابه العزيز. اهـ

وشروط الكرامة:

١- كون صاحبها مؤمنًا بربه مصدقًا بوعده، ووعيده، مؤتمرًا بأمره، متقيًا لنهيه، كما وصفه الحق بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

٢- لا يزكي نفسه بالولاية.

٣- ألا تخالف ما جاء به الكتاب والسنة، وسار عليه سلف الأمة.

٤- أن يكون حريصًا على كتمانها مستكتمًا ما جرى له فيها.

قال القرطبي في «الجامع» (١١/ ٢١): والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شروطها الاستتار، والمعجزة من شروطها الإظهار، وقيل الكرامة ما تظهر من غير دعوى والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان؛ فيظهر أثر ذلك.

٥- أن تتسبب في ترك شيء من المأمور أو ارتكاب شيء من المحضور.

وراجع لهذه الشروط مقدمة «كتاب كرامات الأولياء» للشيخ عبدالرقيب الإبي.

وأما كتاب «الجامع لكرامات الأولياء» للنبهاني، فالفرار منه أشد الفرار من الأسد، لما يحوي في طياته من العطب ومن السم الزعاف، كما تلاحظ ذلك في ترجمته للعيدروس أو للمحضار، ولغيره من أبواب التصوف ووحدة الوجود.

قال الشوكاني رحمه الله في «قطر الولي» (٣٢٨-٣٤٩): وما أقبح ما يُحكي عن بعض المتلاعبين بالدين المدعين للتصوف أنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى ربهم، فانقطعت عنهم التكاليف الشرعية، وخرجوا من جبل المسلمين المؤمنين، وسقط عنهم ما كلف الله به العباد في هذه الدار؛ فإذا صح هذا فما يقوله أحد من أولياء الرحمن بل يقوله أولياء الشيطان؛ لأنهم خرجوا إلى حزبه وصاروا من

جملة أتباعه. اهـ

قال السفاريني رحمه الله في «عقيدته»:

وكل خارق أتى عن صالح ... من تابع لشرعنا وناصح

فإنها من الكرمات التي ... بها نقول فاقفُ الأدلةِ

ومن نفاها من ذوي الضلال ... فقد أتى في ذاك بالمحال

لأنها شهيرة ولم تزل ... في كل عصرٍ يا شقي أهل الزلل

قال السفاريني في «لوامع الأنوار» (٢/ ٣٩٧): قال بعض المحققين للولي أربعة شروط:

الأول: أن يكون عارفًا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق، والنبي والمتنبي.

الثاني: أن يكون عالمًا بأحكام الشريعة نقلاً وفهمًا ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد، قال السفاريني: وهذا غير معتبر ولا مشترط في مطلق الولي من غير تردد.

الثالث: أن يتخلق بالأخلاق المحمودة التي دل عليها الشرع والعقل من الورع عن المحرمات بل والمكروهات وامتثال المأمورات وإخلاص العمل وحسن المتابعة والإقتداء.

الرابع: أن يلازمه الخوف أبدًا، واحتقار النفس سرمدًا، وأن ينظر إلى الخلق يعني: الرحمة والنصيحة، وأن يبذل جهده في مراقبة محاسن الشريعة، ومطالعة عيوب النفس وآفاتها، والخوف بملاحظة السابقة والخاتمة، ويجمع ذلك كله ويزيد عليه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. اهـ

وقد أنكر كرامات الأولياء المعتزلة.

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٩٨): وقول المعتزلة في إنكار الكرامة: ظاهر البطلان، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات، وقولهم: لو صحت لاشتبهت بالمعجزة، فيؤدي إلى التباس النبي بالولي، وذلك لا يجوز! وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة، وهذا لا يقع،

ولو ادعى النبوة لم يكن وليًا، بل كان متنبئًا كذابًا. اهـ

ومما ينبغي التنبيه عليه أن كرامة الولي تعتبر معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال العثيمين رحمه الله في «شرح السفارينية» (٦٤٨): قال العلماء: وكل كرامة لولي؛ فإنها آية للنبي الذي اتبعه؛ لأن هذه الكرامة شهادة من الله، أن هذا الولي على حق؛ فإذا كان يتبع نبيًا من الأنبياء؛ فهي أيضًا نستلزم أن هذا النبي حق، وإلا لما أيد وليه بهذه الكرامة.

قال العثيمين رحمه الله (٦٥١): الخارق للعادة أربعة أنواع:

١- أعلاها الآية. ٢- ثم الكرامة. ٣- ثم الإهانة. ٤- ثم الفتنة.

وقد عقد اللالكائي في «شرح أصول معتقد أهل السنة فصلاً في هذا الباب، فقال: سياق ما دل من كتاب الله عزوجل، وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضي الله عنهم، والتابعين من بعدهم، والخالفين لهم رحمة الله عليهم في كرامة أولياء الله تعالى، وإظهار الآيات فيهم ليزداد المؤمنون إيمانًا والمرتابون بها خسارة.

ثم ساق رحمه الله الروايات في ذلك.

والناس في باب إثبات الكرامات طرفان ووسط.

أما الطرفان: فالمعتزلة ومن وافقهم من أهل الضلال ينفونها، ولا يؤمنون بها، والصوفية غلوا فيها.

وأهل السنة: هم الوسط في هذا الباب، وغيره من الأبواب. أفاده الفوزان.

ولشيخ الإسلام كلام نفيس في هذا الباب نذكره إن شاء الله ولو بشيء من التطويل لما فيه من الفائدة، في هذا الباب.

قال رحمه الله في كتابه «النبوات» (١/ ١٢٩-١٦٢): **فصل في معجزات الأنبياء التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين**: وللنظار طرق في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها.

أما الأول: فان منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فانه معجزة وهو الخارق للعادة إذا إقترن بدعوى النبوة، وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول؛ فيلزم أن يكون كل من خرقت له

العادة نبيا، فقالت طائفة: لا تخرق العادة إلا لنبي وكذبوا بها يذكر من خوارق السحرة والكهان وبكرامات الصالحين، وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن حزم وغيره بل يحكى هذا القول عن أبي إسحاق الاسفراييني، وأبي محمد بن أبي زيد، ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطًا، وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين، وهؤلاء يقولون: إن ما جرى لمريم وعند مولد الرسول فهو إرهاص أي توطئة وإعلام بمجيء الرسول فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي، فيقال لهم: وهكذا الأولياء إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول فكما أن ما تقدمه هو من معجزاته فكذلك ما تأخر عنه وهؤلاء يستثنون ما يكون أمام الساعة لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبياء والمنازع لهم يقول: هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء، وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء فكيف يكذبون بما شهدوه ويصدقون بما غاب عنهم ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره.

وقالت طائفة: بل كل هذا حق وخرق العادة جائز مطلقًا، وكل ما خرق لنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين بل ومن السحرة والكهان، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوة النبوة وهو التحدي وقد يقولون: إنه لا يمكن أحد أن يعارضها بخلاف تلك، وهذا قول من إتبع جهمًا على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادات مطلقا على يد كل أحد واحتاجوا مع ذلك الى الفرق بين النبي وغيره فلم يأتوا بفرق معقول بل قالوا هذا يقترن به التحدي؛ فمن إدعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له ويكون دليلاً على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك؛ فإن هذين قولان لهم، فقيل لهم: لم أوجبتم هذا في هذا الموضع دون غيره، وأنتم لا توجبون على الله شيئًا، فقالوا: لأن المعجزة علم الصدق؛ فيمتنع أن تكون لغير صادق؛ فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة أو هذان مع السلامة عن المعارض، فقيل لهم: ولم قلتم إنه علم الصدق على قولكم، فقالوا: إما لأنه يفضي منع ذلك إلى عجزه وإما لأنه علم دلالته على الصدق بالضرورة، فقيل لهم: إنما يلزم العجز

لو كان التصديق على قولكم ممكنًا وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم لكنه يناقض أصولكم، ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلومًا بالضرورة دون نظيره، وهذا ممتنع؛ فإنكم تقولون: يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة والساحر والصالح لكن إن إدعى النبوة دلت على صدقه، وإن لم يدع النبوة لم تدل على شيء مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة وغير مدعي النبوة بل كلاهما جائز فيه، فإذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاًدون الآخر، ولم إقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلا على يد صادق، وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور وخلقها على يد الكذاب مقدور.

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الأنبياء فرقًا، بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لنبي يجوز أن يخرق للأولياء حتى معراج محمد وفرق البحر لموسى وناقة صالح وغير ذلك، ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقًا معقولاً بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك لكن بينهما فرق دعوى النبوة وبين الصالح والساحر البر والفجور وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل إبن سينا وهو أفضل طائفتهم ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس لكن الفرق أن النبي والصالح نفسه طاهرة يقصد الخير والساحر نفسه خبيثة، وأما الفرق بين النبي والصالح؛ فمتعذر على قول هؤلاء.

ومن الناس من فرق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، بفروق ضعيفه، مثل قولهم: الكرامة يخفيها صاحبها أو الكرامة لا يتحدى بها ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي المشي على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر، وإظهار أبي مسلم لما ألقي في النار أنها صارت عليه بردًا وسلامًا، وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين؛ فإنه قد يطفئها إلا أنها لا تصير عليه بردا وسلاما، وإطفاء النار مقدور للإنس والجن، ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الاسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم، وكالغلام الذي أتى الراهب، وترك الساحر وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه، وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله ومثل

هذا كثير.

فيقال: المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثم كرامات الصالحين، ثم خوارق الكفار والفجار، كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين، أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء؛ فإنهم يقولون: نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الانبياء ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء كما صارت النار بردا وسلاما على أبي مسلم، كما صارت على إبراهيم وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبي صلى الله عليه وسلم، أو إحياء الله ميتًا لبعض الصالحين، كما أحياه للأنبياء، وهي أيضا من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين فلا تبلغ كرامات أحد قط مثل معجزات المرسلين كما أنهم لا يبلغون أعمالهم وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه تجب طاعته في كل ما يقوله، ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم؛ فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة؛ فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط؛ فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبيا إدعى النبوة ودلت المعجزة على صدقه والنبي معصوم وهنا المعجزة ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوما ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبياء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل وبين ما يكون دليلا على صدق صاحبه كمدعي النبوة وبين مالا يكون دليلا على صدق صاحبه فإن الدليل لا يكون دليلا حتى يكون مستلزما للمدلول متى وجد وجد المدلول وإلا فاذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه فليس بدليل فآيات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ومدعي

النبوة إما صادق وإما كاذب والكذب يناقض النبوة فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها وليس هنا شيء مخالف لها ولا مناقض فإن الكفر والسحر والكهانة كل ذلك يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة.

والناس رجلان: رجل موافق لهم، ورجل مخالف لهم؛ فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك؛ فيقال: جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعن مقدور جنس الحيوان، وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل قتل الساحر وتمريضه لغيره فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية وغير ذلك حتى تطير به وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد هذا فعل مقدور للحيوان؛ فان الطير يفعل ذلك، والجن تفعل ذلك وقد أخبر الله أن العفريت، قال لسليمان: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] وهذا تصرف في أعراض الحي فان الموت والمرض والحركة أعراض والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأغراض ليس في هذا قلب جنس إلى جنس ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ولا ما تختص به الملائكة وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب أو غير ذلك من الغيب وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان وهذا تفعله الإنس والجن لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيرا بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها فهذا لا يقدر عليه أنسي ولا جني وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار فهذا تفعله الجن كثيرا مع الكهان وهو معتاد لهم مقدور بخلاف اخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك فهذا لا تظهر عليه الشياطين وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله وأيضا فخبر المسيح وغيره من الأنبياء ليس فيه كذب قط والكهان لا بد لهم من الكذب والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس؛ فتخبره ببعض الأمور الغائبة لكن ذكر الفرق فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-

٢٢٣] كذلك مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته؛ فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به فهذا لا يقدر عليه الجن وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى، ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به، وهذا كما قال في الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٣-١٨].

كذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فهذا غيب الرب الذي اختص به مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق فان هذا لا يقدر عليه إلا الله والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب فلا بد لهم من الكذب والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس، وأما ما يخبر به الرسول من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل: إخباره «إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين، ذلف الأنوف، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة»، وقوله: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى» ونحو ذلك؛ فهذا لا يقدر عليه جني ولا إنسي والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس فهو من جنس المقدور لهم وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

والآيات الخارقة جنسان جنس في نوع العلم وجنس في نوع القدرة، فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس والجن وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الإنس لأن الجن هم من جملة من دعاهم الأنبياء إلى الإيمان وأرسلت الرسل اليهم قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ومعلوم أن النبي اذا دعا الجن إلى الإيمان به فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن فلا بد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن وما يأتي به الكاهن من خبر الجن وغايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، وما أعطاه الله سليمان مجموعه يخرج عن قدرة الانس والجن كتسخير الرياح والطير، وأما الملائكة؛ فالأنبياء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم والخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم لا تكون للكفار والسحرة والكهان، ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاء بالقرآن ملك لا شيطان، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢٥]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣] فينبغي أن يتدبر هذا الموضع وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبياءوبين ما يشتبه بها كما يعرف الفرق بين النبي وبين المتنبي وبين ما يجيء به النبي وما يجيء به المتنبي فالفرق الحاصل بين صفات هذا وصفات هذا وأفعال هذا وأفعال هذا وأمر هذا وأمر هذا وخبر هذا وخبر هذا وآيات هذا وآيات هذا إذ الناس محتاجون الى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم الى غيره والله تعالى يبينه وييسره، ولهذا أخبر أنه أرسل

رسله بالآيات البينات وكيف يشبه خير الناس بشر الناس ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره، قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

وقد تنازع الناس في الخوارق هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله والتحقيق أن من كان مؤمنا بالأنبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله، كقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع كقوله لما ذكر السحرة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] وقوله عن يوسف: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، وقوله في قصة صالح: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]، وهذه طريقة الصحابة والسلف.

أما دلالتها على ولاية المعين؛ فالناس متنازعون هل الولي والمؤمن من مات على ذلك بحيث إذا كان مؤمنا تقيا وقد علم أنه يموت كافرا يكون في تلك الحال عدوا لله أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة وهما قولان معروفان، فمن قال بالأول؛ فالولي عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال والخوارق لا تدل على ذلك، ولذلك قال هؤلاء كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما إنها لا تدل، وأما من قال: الولاية تتبدل فالولاية هنا كالايمان وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة، وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره؛ فهذا لا يمتنع لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة، وفيها ثلاثة أقوال: قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي وعلى بن المديني وغيرهم، وقيل: يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبرا صحيحا كمن شهد له النبي بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم، وقيل: يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما وكان أبو ثور يشهد لاحمد بن حنبل بالجنة وقد جاء في الحديث الذي في «المسند»: «يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار» قالوا: بماذا يا

رسول الله. قال: «بالثناء الحسن، والثناء السيء»، وفي «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال: «وجبت، وجبت» ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرًا، فقال: «وجبت، وجبت» فقيل: يا رسول الله ما قولك وجبت، وجبت؟ قال: «هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير، فقلت: وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرًا، فقلت: وجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض»، وفي حديث آخر: «إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت؛ فقد أسأت»، وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم، ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية: لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم؛ فصار لنا عثمان ابن مظعون في السكنى؛ فمرض فمرضناه، ثم توفي فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل؛ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي أن قد أكرمك الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أن الله قد أكرمه» قالت: لا والله لا أدري، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما هو فقد أتاه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» قالت: فوالله لا أزكي بعده أحدًا أبدًا، قالت: ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عينًا تجري؛ فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ذاك عمله».

وأما من لم يكن مقرًا بالأنبياء فهذا لا يعرف الولي من غيره إذ الولي لا يكون وليا إلا إذا آمن بالرسل لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء، لكونهم من أتباع الأنبياء كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على صحة دينهم كما صارت النار على أبي مسلم بردا وسلاما، وكما شرب خالد السم وأمثال ذلك؛ فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبياء وقد يجتمع كفار ومسلمون ومبتدعة وفجار فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين ولكن جنهم وشياطينهم أقرب الى الإسلام فيترجحون بها على أولئك الكفار عند من

لا يعرف النبوات كما يجري لكثير من المبتدعة والفجار مع الكفار مثل ما يجري للأحمدية وغيرهم مع عباد المشركين البخشية قدام التتار كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب الى الاسلام وعند من هو أحق بالاسلام منهم لا تظهر خوارقهم بل تظهر خوارق من هو أتم إيمانا منهم وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة فإنهم وإن ضلوا من هذا الوجه فهم خير من أولئك الكفار لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول يضره هؤلاء ومن كان جائرا نفعه هؤلاء بل كلام أبي حامد ينفع المتفلسف ويصير أحسن فان المتفلسف مسلم به إسلام الفلاسفة والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة وهذا بخلاف ذاك.

والخوارق ثلاثة أنواع: إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى؛ فهذه أحوال نبينا ومن أتبعه خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين والثاني: أن تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة؛ فهذا متوسط وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان والأول مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الإيمان فهذا أكمل من إستخدام الجن في بعض الامور المباحة كاستخدام سليمان لهم في محاريب وتماثيل، وجفان كالجوابي، وقدور راسيات، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، ونبينا صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته كما أرسل إلى الإنس؛ فإذا اتبعوه صاروا سعداء فهذا أكمل له ولهم من ذاك كما أن العبد الرسول أكمل من النبي الملك ويوسف وداود وسليمان أنبياء ملوك أما محمد فهو عبد رسول كابراهيم وموسى والمسيح، وهذا الصنف أفضل وأتباعهم أفضل، والثالث: أن تعينه على محرمات

الشهادة

ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني أرجو للمحسن وأخاف على المسيء[(١)].

مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم؛ فإنهم يستعينون بها على الشرك وقتل النفوس بغير حق والفواحش وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنونا وشاعرا وكاهنا فإن إخبارهم بالمغيبات عن شياطين تنزل عليهم كالكهان وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم وهم من جنس المجانين وقد قال شيخهم إن أصحاب الأحوال منهم يموتون على غير الاسلام، وأما سماعهم ووجدهم فهو شعر الشعراء ولهذا شبههم من رآهم بعباد المشركين من الهند الذين يعبدون الأنداد. اهـ

وأما قوله: وماهم من المكاشفات، فالمكاشفات هي: الفراسة، قاله ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين».

(١) قوله: «ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار ... إلخ» هذا معتقد أهل السنة والجماعة.

قال الطحاوي رحمه الله تعالى: ونرجوا للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقطنهم. اهـ

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٣/ ١٥٣): ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة كالعشرة وكثابت ابن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة. اهـ

وقال (٣٥/ ٦٨): ولهذا لا يشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص، ولا يشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص؛ ولا يشهد لهم بمجرد الظن من اندراجهم في العموم؛ لأنه قد يندرج في العمومين فيستحق

الثواب والعقاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] والعبد إذا اجتمع له سيئات وحسنات فإنه وإن استحق العقاب على سيئاته فإن الله يثيبه على حسناته، ولا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه؛ وإنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر ، وأنهم لا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها وأن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الإيمان شيء، وهذه أقوال فاسدة ، مخالفة للكتاب، والسنة المتواترة، وإجماع الصحابة. اهـ

ويدل على عدم الشهادة لمعين بالجنة ما أخرجه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن شماسة قال: «**لَمَّا حَضَرَتْ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ الْوَفَاةُ بَكَى فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ، عَبْدُ الله لِمَ تَبْكِي أَجَزَعًا عَلَى الْمَوْتِ، فَقَالَ: لَا وَالله، وَلَكِنْ مِمَّا بَعْدُ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ كُنْتَ عَلَى خَيْرٍ، فَجَعَلَ يُذَكِّرُهُ صُحْبَةَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتُوحَهُ الشَّامَ فَقَالَ عَمْرٌو: تَرَكْتَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله إِنِّي كُنْتُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَطْبَاقٍ لَيْسَ فِيهَا طَبَقٌ إِلَّا قَدْ عَرَفْتُ نَفْسِي فِيهِ، كُنْتُ أَوَّلَ شَيْءٍ كَافِرًا فَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَوْ مِتُّ حِينَئِذٍ وَجَبَتْ لِي النَّارُ، فَلَمَّا بَايَعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً مِنْهُ، فَمَا مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا رَاجَعْتُهُ فِيمَا أُرِيدُ حَتَّى لَحِقَ بِالله عَزَّ وَجَلَّ حَيَاءً مِنْهُ، فَلَوْ مِتُّ يَوْمَئِذٍ قَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لِعَمْرٍو أَسْلَمَ، وَكَانَ عَلَى خَيْرٍ فَمَاتَ فَرُجِيَ لَهُ الْجَنَّةُ، ثُمَّ تَلَبَّسْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسُّلْطَانِ وَأَشْيَاءَ فَلَا أَدْرِي عَلَيَّ أَمْ لِي، فَإِذَا مِتُّ فَلَا تَبْكِيَنَّ عَلَيَّ وَلَا تُتْبِعْنِي مَادِحًا وَلَا نَارًا وَشُدُّوا عَلَيَّ إِزَارِي، فَإِنِّي مُخَاصِمٌ، وَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا، فَإِنَّ جَنْبِيَ الْأَيْمَنَ لَيْسَ بِأَحَقَّ بِالتُّرَابِ مِنْ جَنْبِي الْأَيْسَرِ، وَلَا تَجْعَلَنَّ فِي قَبْرِي خَشَبَةً وَلَا حَجَرًا، فَإِذَا وَارَيْتُمُونِي، فَاقْعُدُوا عِنْدِي قَدْرَ نَحْرِ جَزُورٍ وَتَقْطِيعِهَا أَسْتَأْنِسْ بِكُمْ**».

والشاهد منه قوله: «**فَلَوْ مِتُّ يَوْمَئِذٍ قَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لِعَمْرٍو أَسْلَمَ، وَكَانَ عَلَى خَيْرٍ فَمَاتَ فَرُجِيَ لَهُ الْجَنَّةُ**».

وحديث أم العلاء عند البخاري (١٢٤٣): أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِمْ قَدْ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ طَارَ لَهُ سَهْمُهُ فِي السُّكْنَى حِينَ أَقْرَعَتْ الْأَنْصَارُ سُكْنَى

الْمُهَاجِرِينَ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ: فَسَكَنَ عِنْدَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَاشْتكى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى إِذَا تُوُفِّيَ وَجَعَلْنَاهُ فِي ثِيَابِهِ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ الله، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله أَكْرَمَهُ، فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ وَالله الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَالله مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ الله مَا يُفْعَلُ بِهِ قَالَتْ: فَوَالله لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا وَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ قَالَتْ: فَنِمْتُ فَأُرِيتُ لِعُثْمَانَ عَيْنًا تَجْرِي فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ذَاكِ عَمَلُهُ**».

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (١٨/ ٣١٣-٣١٤): فمن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة شهدنا له بالجنة وأما من لم يشهد له بالجنة، فقد قال طائفة من أهل العلم: لا نشهد له بالجنة ولا نشهد أن الله يحبه وقال طائفة: بل من استفشى من بين الناس إيمانه وتقواه، واتفق المسلمون على الثناء عليه كعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي وعبد الله بن المبارك - رضي الله عنهم - وغيرهم، شهدنا لهم بالجنة ؛ لأن في «الصحيح»: «أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: وجبت وجبت، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت وجبت، قالوا: يا رسول الله، ما قولك: وجبت وجبت، قال: هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت: وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت: وجبت لها النار، قيل: بم يا رسول الله، قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ». اهـ

وقال ابن عثيمين رحمه الله كما في «فتاوي العقيدة» (٣/ ١٤): والشهادة بالجنة نوعان:

١ - شهادةٌ بوصف.

٢ - وشهادةٌ بشخص.

فأما الشهادة بالوصف : فأن نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة على سبيل العموم.

وأما الشهادة بالشخص: فأن نشهد لشخص بعينه بأنه من أهل الجنة، وكلاهما أو وكلتاهما أي

الشهادتان قد دل عليها الكتاب والسنة، فمثلاً: بيَّن الله تعالى في القرآن أن الجنة أعدت للمتقين فنشهد لكل متقي أنه في الجنة، لكن هل نشهد لفلان أنه في الجنة إذا رأيناه تقياً ؟

لا ، لاحتمال أنْ يرد عليه في آخر عمره أشياء تصرفه عن التقوى فلا نشهد بالجنة بالتعيين إلا لمن عينه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا نشهد بالوصف إلا لمن شهد له الله ورسوله والشهادة بالوصف لا تجوِّز الشهادة بالعين ، فمثلاً نقول: كل مؤمن فإنه في الجنة كل تقي في الجنة، لكن هل نشهد بأن فلان المعين في الجنة ؟

لا ، كذلك أيضاً في الشهادة كل من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، لكن لو رأينا رجلا مسلما قتل في المعركة هل نقول إنه شهيد ؟ لا ، لأننا لو قلنا بأنه شهيد للزم من ذلك أن نشهد له بالجنة وهذا لا يجوز.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: من أجمعت الأمة أو كادت أن تجمع على الثناء عليه فإننا نشهد له بالجنة ، واستدل لذلك: بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] فإنه قد مرت جنازة والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه ، فأثنوا عليها خيرا ، فقال : «وجبت ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شراً ، فقال : وجبت فقالوا: يا رسول الله، ما وجبت، قال: مرت الجنازة الأولى فأثنيتم عليها خيراً، فقلت: وجبت أي وجبت له الجنة والثانية أثنيتم عليها شراًّ، فقلت: وجبت أي وجبت له النار أنتم شهداء الله في أرضه».

وعلى رأي شيخ الإسلام رحمه الله يجوز أن نشهد للإمام أحمد بأنه من أهل الجنة لاتفاق الناس أو جملتهم عليه. اهـ

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩) قال: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ نَبِيُّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ نَبِيُّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقُلْتَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ**

فَقُلْتَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ».

قال النووي رحمه الله (٧/ ١٨-١٩): وأما معناه ففيه قولان للعلماء : أحدهما : أن هذا الثناء بالخير لمن أثنى عليه أهل الفضل فكان ثناؤهم مطابقا لأفعاله فيكون من أهل الجنة ، فإن لم يكن كذلك فليس هو مرادا بالحديث .

والثاني : وهو الصحيح المختار أنه على عمومه وإطلاقه وأن كل مسلم مات فألهم الله تعالى الناس أو معظمهم الثناء عليه كان ذلك دليلا على أنه من أهل الجنة ، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا ، وإن لم تكن أفعاله تقتضيه فلا تحتم عليه العقوبة ، بل هو في خطر المشيئة ، فإذا ألهم الله عز وجل الناس الثناء عليه استدللنا بذلك على أنه سبحانه وتعالى قد شاء المغفرة له ، وبهذا تظهر فائدة الثناء، وقوله صلى الله عليه وسلم: «وجبت وأنتم شهداء الله» ولو كان لا ينفعه ذلك إلا أن تكون أعماله تقتضيه لم يكن للثناء فائدة ، وقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم له فائدة . فإن قيل : كيف مكنوا بالثناء بالشر مع الحديث الصحيح في البخاري وغيره في النهي عن سب الأموات ؟ فالجواب : أن النهي عن سب الأموات هو في غير المنافق وسائر الكفار ، وفي غير المتظاهر بفسق أو بدعة ، فأما هؤلاء فلا يحرم ذكرهم بشر للتحذير من طريقتهم ، ومن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم ، وهذا الحديث محمول على أن الذي أثنوا عليه شرا كان مشهورا بنفاق أو نحوه مما ذكرناه . اهـ

وجاء عند البخاري (١٣٦٨) من حديث أبي الأسود قال: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وَقَدْ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ فَمَرَّتْ بِهِمْ جَنَازَةٌ فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ الله عَنْهُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ الله عَنْهُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِالثَّالِثَةِ فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا شَرًّا فَقَالَ: وَجَبَتْ، فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: فَقُلْتُ: وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: قُلْتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ فَقُلْنَا: وَثَلَاثَةٌ، قَالَ: وَثَلَاثَةٌ، فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ، قَالَ: وَاثْنَانِ، ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنْ الْوَاحِدِ»**.

النهي عن تكفير المسلمين

ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنب، ولا أخرجه من دائرة الإسلام[(١)] .

قال الحافظ رحمه الله في «الفتح»: قوله: قال: «هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة» فيه بيان؛ لأن المراد بقوله: «وجبت» أي: الجنة لذي الخير، والنار لذي الشر والمراد بالوجوب الثبوت إذ هو في صحة الوقوع كالشيء الواجب، والأصل أنه لا يجب على الله شيء، بل الثواب فضله والعقاب عدله لا يسأل عما يفعل. اهـ

ويدل على قوله: «ونرجوا للمحسنين» وهذا هو الحق حديث أبي هريرة عندهما البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: وَلاَ أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ».

جاء عن جابر عند مسلم (٢٨١٧) وعائشة رضي الله عنها نحوه عندهما البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).

وأيضاً المحسن وعده الله عز وجل بأجور جزيلة، ومراتب فضيلة فهو حاصل عليها؛ لأن الله لا يخلف وعده ولا ينقص عهده، إلا أنه قد يحصل من هذا المكلف ما يؤدي إلى عدم حصوله على الفضل بسبب أعمال قلبية، أو نحو ذلك من الأعمال التي تؤدي إلى حبط الأعمال.

ونخاف على المسيء لأدلة الوعيد في ذلك مثل أدلة وعيد الزناة والزواني، وآكلي الربا والقتلة، وأصحاب الغيبة والنميمة، وقول الزور، وشراب الخمور، وكذلك وعيد السافرات العاهرات، والمجاهرات بالمنكرات إلى غير ذلك فأصناف العصاة من الموحدين إن لم تدركهم رحمة الله عز وجل، فإنهم على خطر عظيم.

(١) قوله: «ولا أكفر أحدًا من المسلمين بذنب، ولا أخرجه من دائرة الإسلام» وهذا القول الذي ذكره هو معتقد أهل السنة والجماعة قاطبة خالفوا فيه فرقة الخوارج المبتدعة التي تكفر المسلمين بالكبيرة وتستحل دمائهم وأموالهم ومحارمهم، وقد تقدم الكلام عليهم وهم الذين قال رسول

صلى الله عليه وسلم فيه: «قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ» متفق عليه عن علي رضي الله عنه.

وسماهم «كلاب النار» كما حديث أبي أمامة عند أحمد.

وتكفير المسلمين جريمة عظيمة حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشدة فقد جاء عند البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»، وفي لفظ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**».

ولهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ عَدُوَّ الله وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**».

قال النووي رحمه الله (٢/ ٤٩): هذا الحديث مما عده بعض العلماء من المشكلات من حيث إن ظاهره غير مراد ؛ وذلك أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر المسلم بالمعاصي كالقتل والزنا وكذا قوله لأخيه يا كافر من غير اعتقاد بطلان دين الإسلام، وإذا عرف ما ذكرناه فقيل في تأويل الحديث أوجه: أحدها: أنه محمول على المستحل لذلك، وهذا يكفر، فعلى هذا معنى (باء بها) أي بكلمة الكفر، وكذا حار عليه، وهو معنى رجعت عليه أي : رجع عليه الكفر، فباء وحار ورجع بمعنى واحد.

والوجه الثاني : معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره .

والثالث : أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا الوجه نقله القاضي عياض - رحمه الله - عن الإمام مالك بن أنس ، وهو ضعيف ؛ لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون : أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع .

والوجه الرابع : معناه أن ذلك يئول به إلى الكفر ؛ وذلك أن المعاصي ، كما قالوا ، بريد الكفر ، ويخاف على المكثر منها أن يكون عاقبة شؤمها المصير إلى الكفر . ويؤيد هذا الوجه ما جاء في رواية

لأبي عوانة الإسفراييني في كتابه (المخرج على صحيح مسلم) : فإن كان كما قال وإلا فقد باء بالكفر ، وفي رواية إذا قال لأخيه (يا كافر) وجب الكفر على أحدهما .

والوجه الخامس : معناه فقد رجع عليه تكفيره ؛ فليس الراجع حقيقة الكفر بل التكفير ؛ لكونه جعل أخاه المؤمن كافرا ؛ فكأنه كفر نفسه ؛ إما لأنه كفر من هو مثله ، وإما لأنه كفر من لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام، والله أعلم. اهـ

قال الطحاوي رحمه الله (٣١٦): ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

قال ابن أبي العز رحمه الله: واعلم رحمك الله وإيانا أن باب التكفير ، باب عظمت الفتنة والمحنة فيه ، وكثر فيه الافتراق ، وتشتتت فيه الأهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم . فالناس فيه ، في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة ، المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر ، والمخالفة لذلك في اعتقادهم ، على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية : فطائفة تقول : لا نكفر من أهل القبلة أحدا ، فتنفي التكفير نفيا عاما ، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع ، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم ، وهم يتظاهرون بالشهادتين .

وأيضاً: فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك فإنه يستتاب ، فإن تاب ، وإلا قتل كافرا مرتدا . والنفاق والردة مظنتهما البدع والفجور ، كما ذكره الخلال في كتاب السنة ، بسنده إلى محمد بن سيرين ، أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء. وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام : ٦٨].

ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدا بذنب ، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب، كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفي العام ونفي العموم ، والواجب إنما هو نفي العموم ، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب، ولهذا - والله أعلم - قيده الشيخ رحمه الله بقوله: " ما لم يستحله " .

وفي قوله : " ما لم يستحله " إشارة إلى أن مراده من هذا النفي العام لكل ذنب ، الذنوب العملية لا العلمية، وفيه إشكال فإن الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل ، وليس العمل مقصورا على عمل الجوارح ، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبع . إلا أن يضمن قوله : " يستحله " بمعنى : يعتقده ، أو نحو ذلك. اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٤٥): فإن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب، والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله ليس لأحد في هذا حكم.

وقال رحمه الله في «منهاج السنة» (٥/ ٩٢-٩٣): فإن الكفر والفسق أحكام شرعية ليس ذلك من الأحكام التي يستقل بها العقل، فالكافر من جعله الله ورسوله كافراً، والفاسق من جعله الله ورسوله فاسقاً، كما أن المؤمن والمسلم من جعله الله ورسوله مؤمناً ومسلماً. اهـ

وقال رحمه الله مبيناً أن المكلف إنما يكفر بمخالفة الرسول لا بمجرد مخالفة العقل كما في «المجموع» (١٢/ ٥٢٥): وليس كل من خالف شيئا علم بنظر العقل يكون كافراً، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفرا في الشريعة، وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع . اهـ

ومع ذلك إذا وقع من المخالف لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ما يوجب الكفر لابد من التفريق بين التكفير المطلق والتكفير المعين قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٣/ ٢٢٩-٢٣٠): هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني: أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية كما أنكر شريح قراءة من قرأ: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات : ١٢] وقال : إن الله لا يعجب ، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال:

إنما شريح شاعر يعجبه علمه، كان عبد الله أعلم منه وكان يقرأ:﴿ بَلْ عَجِبْتَ﴾، وكما نازعت عائشة وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ربه وقالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ومع هذا لا نقول لابن عباس ونحوه من المنازعين لها : إنه مفتر على الله، وكما نازعت في سماع الميت كلام الحي وفي تعذيب الميت ببكاء أهله وغير ذلك، وقد آل الشر بين السلف إلى الاقتتال، مع اتفاق أهل السنة على أن الطائفتين جميعا مؤمنتان ، وأن الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم ؛ لأن المقاتل وإن كان باغيا فهو متأول والتأويل يمنع الفسوق. اهـ

وقال رحمه الله تعالى (١٢/ ٤٩٧-٤٩٨): فهذا الكلام يمهد أصلين عظيمين: أحدهما: أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق فنفي الصفات كفر والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة أو أنه على العرش أو أن القرآن كلامه أو أنه كلم موسى أو أنه اتخذ إبراهيم خليلاً كفر وكذلك ما كان في معنى ذلك وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث.

والأصل الثاني: أن التكفير العام -كالوعيد العام- يجب القول بإطلاقه وعمومه. اهـ

ويتلخص من هذا أن هنالك فرق بين أن تقول هذا القول كفر، أو هذا الفعل كفر، وبين القول زيد كافر.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٣/ ٢٣٠-٢٣١): وكنت أبين لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة [الوعيد] فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله: ﴿إِنَّ الذِيْنَ يَأْكُلونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية، وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا، فإن هذه مطلقة عامة، وهي بمنزلة قول من قال من السلف من قال كذا: فهو كذا، ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه: بتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة.

والتكفير هو من الوعيد؛ فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد

يكون الرجل لا يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا، وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم؛ فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدا من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك؛ فغفر له».

فهذا رجل شك في قدرة الله وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلا لا يعلم ذلك وكان مؤمنا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول أولى بالمغفرة من مثل هذا. اهـ

والواجب عليك أيها المسلم:

١) الحكم بالظاهر، ويدل على ذلك حديث أسامة عند مسلم، وفيه: «أَقْتَلتهُ بَعْد أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا كَانَ مُتعَوِّذًا، قَالَ: فَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

٢) الإحتياط في تكفير المعين، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

٣) إقامة الحجة حتى يرفع عنه الجهل والتأويل.

٤) عدم التكفير بكل ذنب.

وموانع التكفير للمعين خمسة إذا وُجد أحدها أو كلها، لا يكفر المعين:

الأول: الخطأ؛ لقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله (١٩/ ١٢٧): فمن ذمهم ولامهم على ما لم يؤاخذهم الله عليه؛ فقد اعتدى، ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم وفعله وينتصر لها بغير هدى من الله؛ فقد اعتدى، واتبع هواه بغير هدى. اهـ

ومن هذا الباب: حديث أنس المتفق عليه في الرجل الذي قال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

الثاني: الجهل؛ قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وحديث: «هَلَّا عَلَّمْتَ إِذَا كَانَ جَاهِلاً».

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٣/ ٢٣١): في قصة الرجل الذي قال لأولاده: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم؛ فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدا من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك؛ فغفر له».

فهذا رجل شك في قدرة الله وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلا لا يعلم ذلك وكان مؤمنا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك. اهـ

قال ابن القيم في «الطرق الحكمية» (١٧٤): فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول؛ كالرافضة، والقدرية، والجهمية، وغلاة المرجئة، ونحوهم؛ فهؤلاء أقسام:

أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له؛ فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته، إذا لم يكن قادرًا على تعلم الهدى وحكمه حكم: ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩]. اهـ

الثالث: العجز؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١٢/ ٤٧٨-٤٧٩): فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم، مثل: أن لا تبلغه الرسالة أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأمورا بما

يعجز عنه ولم يكن ذلك من الإيمان.

والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين، والإيمان الواجب في الأصل؛ بمنزلة صلاة المريض والخائف والمستحاضة وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة؛ فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا إذ ذاك، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير». اهـ

وقال رحمه الله تعالى (١٩/ ٢٢٠): وهذا كما أنه قد كان بمكة جماعة من المؤمنين يستخفون بإيمانهم وهم عاجزون عن الهجرة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]؛ فعذر سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط عنهم ما عجزوا عنه؟. اهـ

رابعًا: الإكراه؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وشروط الإكراه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظن المكره أنه إذا امتنع أوقع ما هدده به.

الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًا أو بعذر من قريب جدًا أو جرت العادة أنه لا يخلف ما هدده به.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

انظر «منهج ابن تيمية في مسألة التكفير» (١/ ٢٦٦).

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٨/ ٣١٩-٣٢٠): وإذا أكره على كلمة الكفر جاز له التكلم بها مع طمأنينة في قلبه بالإيمان. اهـ

الخامس: التأويل أيضًا من موانع التكفير، والمراد به ما كان له وجه من اللغة.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٣/ ٢٣١): والتكفير هو من الوعيد؛ فإنه وإن كان القول تكذيبا لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لا يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا.

وقد قلت في نظمها:

موانع التكفير خمس فـــــــــاعرفوا	تــــــــــــقسيمها لتسعدوا ولتنصفوا
الجهل والتأويل والــــــــــــنسيان	والخطأ والإكراه يــــــــــــا إخوان

وزد أيضًا من الموانع: النسيان، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعلى هذا فإن الأصل في تكفير المسلمين الحرمة بل تكفيرهم من كبائر الذنوب، قال شيخ الإسلام في كتابه «الإستقامة» (١/ ٢٤-٢٥) بعد أن ذكر التكفير:

قال: فنقول: هذا الباب أصله محرم لما فيه من البغي؛ فإن الإنسان ظلوم جهول. اهـ

وقال (١/ ١٦٥-١٦٦): وأما تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم؛ فقد ثبت في «الصحيح» عن ثابت بن الضحاك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمنًا بالكفر فهو كقتله».

وثبت في «الصحيح»: «أن من قال لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما» وإذا كان تكفير المعين على سبيل الشتم كقتله؛ فكيف يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد فإن ذلك أعظم من قتله، إذ كل كافر

يباح قتله وليس كل من أبيح قتله يكون كافرًا فقد يقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده مع إمكان أن الله يغفر له في الآخرة لما معه من الإيمان؛ فإنه قد تواترت النصوص بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. اهـ

ومراد الشيخ رحمه الله من قوله: بذنب أي: مما لم يصل حد الكفر، وإلا فالذنوب تتفاوت منها كبائر، ومنها صغائر.

والكبائر قسمان: كبائر مكفرة، كالرفض والتجهم والتقرمط، وغيرها من الفرق المتزندقة.

وكبائر غير مكفرة؛ كآحاد المعاصي وكثير من البدع.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١٥/ ٤٨٥): المشهور من مذهب الإمام أحمد وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن؛ فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب وحقيقة قولهم جحود الصانع ففيه جحود الرب وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وقال غير واحد من الأئمة: إنهم أكفر من اليهود والنصارى، يعنون من هذه الجهة ولهذا كفروا من يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يرى في الآخرة، وإن الله ليس على العرش، وإن الله ليس له علم، ولا قدرة، ولا رحمة، ولا غضب، ونحو ذلك من صفاته. اهـ

وليعلم أيضًا أن من استحل محرمًا قد علم تحريمه من الدين ضرورة فهو كافر، سواءً عمل ذلك المحرم أم لا.

لأنه مكذب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولإجماع المسلمين.

قال الإمام الوادعي رحمه الله كما في «الأسئلة اليمنية» جمع: علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد (ص١٠٩): فالذي هو كافر يكفره الله ورسوله، من استحل ما حرم الله ولم يكن جاهلاً ولا مكرهًا ولا متأولاً؛ فإنه يكفر. اهـ

قال الإمام ابن باز رحمه الله كما في «فكر التكفير قديمًا وحديثًا (٥٥): فمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله أو الزنا أو الربا أو غيره من المحرمات المجمع على تحريمها فقد كفر كفرًا، وظلم ظلمًا أكبر،

وفسق فسقًا أكبر.

ومن فعلها دون استحلال كان كفره كفر أصغر وظلمه ظلم أصغر. اهـ

وقوله: «ولا أخرجه من دائرة الإسلام» معناه: أنه يبقى معه أصل الإسلام، وأصل الإيمان الذين يكون معهما مطلق الأمن، وإن مات على هذه الذنوب فهو تحت المشيئة لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فإن شاء الله عزوجل عفا عنه وأدخله الجنة ابتداءً، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة كما هو القول في خروج الموحدين من النار.

وقد تقدم شيئًا من أدلة خروج الموحدين من النار في كلامنا على إثبات الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وينبغي أن يعلم أن الكفر كفران: كفر أكبر مخرج من الملة، وكفر أصغر غير مخرج من الملة.

ومسألة التكفير والتبديع عائدة إلى أهل العلم الربانيين الذين يضعون الأمور في مواضعها، ولا يكفر إلا من كفره الله عزوجل في كتابه، أو كفره رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهنالك فرق بين التكفير بالعين، والتكفير المطلق، فمن علم الفروق، وجمع بين المتماثلات، وفرق بين المختلفات وفق وهدي، والتكفير المطلق كالوعيد قد يتخلف عن بعض الأشخاص لعوارض تقدم بيانها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (٣٥/ ٩٨): لكن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين؛ فإن بعض العلماء قد يتكلم في مسألة باجتهاده فيخطئ فيها فلا يكفر، وإن كان قد يكفر من قال ذلك القول إذا قامت عليه الحجة المكفرة، ولو كفرنا كل عالم بمثل ذلك لزمنا أن نكفر فلانًا، وسمى بعض العلماء المشهورين الذين لا يستحقون التكفير. اهـ

الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة

وأرى الجهاد ماضيا مع كل إمام براً كان أو فاجراً[(١)] .

---

(١) قوله: «وأرى الجهاد ماضيًا مع كل إمام برًا كان أو فاجرًا» هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة خلافًا للروافض والخوارج قال الطحاوي رحمه الله في «عقيدته»: والحج والجهاد ما ضيان مع أولى الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلها شيء ولا ينقضها. اهـ

وقال ابن أبي العز رحمه الله في شرح الطحاوية (٣٨٧): يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الرافضة ، حيث قالوا : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضا من آل محمد ، وينادي مناد من السماء : اتبعوه ! ! وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدل عليه بدليل . وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوما ، اشتراطا بغير دليل ! بل في «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم " ، قال : قلنا : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : " لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعته » .

وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث في الإمامة، ولم يقل: إن الإمام يجب أن يكون معصوما . والرافضة أخسر الناس صفقة في هذه المسألة ؛ لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم ، الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا ! ! فإنهم يدعون أن الإمام المنتظر ، محمد بن الحسن العسكري ، الذي دخل السرداب في زعمهم ، سنة ستين ومائتين ، أو قريبا من ذلك بسامرا ! وقد يقيمون هناك دابة ، إما بغلة ، وإما فرسا ، ليركبها إذا خرج ! ويقيمون هناك في أوقات عينوا فيها من ينادي عليه بالخروج : يا مولانا ، اخرج ! يا مولانا ، اخرج ! ويشهرون السلاح ؛ ولا أحد هناك يقاتلهم ! إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم منها العقلاء ! !

وقوله " مع أولي الأمر برهم وفاجرهم " – لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من

سائس يسوس الناس فيهما ، ويقاوم فيها العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر . اهـ

وقال الإسماعيل رحمه الله في «اعتقاد أصحاب الحديث» (٤١١) ضمن مجموع الخميس: (الجهاد مع الأئمة وإن كانوا جورة).

وقال الأشعري: (ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه صلى الل عليه وسلم إلى آخر عصابة تقاتل الدجال وبعد ذلك).

وقال الصابوني: (والمسح على الخفين والجهاد مع كل خليفة جهاد الكفار لك جهاده وعليه شره). اهـ

واعلم أن الجهاد هو بذل الجهد في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله عز وجل وقد دل على فضله الكتاب والسنة، وفضائل الجهاد معلومة مذكورة في غير ما كتاب مزبورة قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى مِنْ نِفَاقٍ» متفق عليه عن أبي هريرة.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» أخرجاه من حديث سهل، وأنس وأبي هريرة، وانفرد به مسلم عند أبي أيوب.

وقد جعل الله عزوجل العزة والخير في هذه الأمة بسبب إحياء هذه الشرعية.

أخرج البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

واتفق عليه من حديث جرير وزيد فيه: «الأجر والغنيمة».

واتفقا عليه من حديث عروة البارقي رضي الله عنه بلفظ حديث جرير.

وفي حديث أنس عندهما: «الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ».

قال النووي رحمه الله في «شرح صحيح مسلم» (١٣/ ١٥):

وفي هذه الأحاديث استحباب رباط الخيل، واقتنائها للغزو وقتال أعداء الله، وأن فضلها وخيرها في الجهاد باقي إلى يوم القيامة. اهـ

ويدل على محبة هذا الإقتناء والأمر به قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال الشنقيطي في «العذب المنير» (٥/ ١٥٠): قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] أمر من الإعداد، والإعداد في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: اتخاذ الشيء وادخاره إلى وقت الحاجة إليه.

وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ للوجوب؛ لأن المقرر في الأصول أن صيغة أفعل تدل على الوجوب ما لم يصرف ذلك صارف من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. اهـ

وقال (ص٥/ ١٥٣): ومرادنا بهذا أن هذا أمر خالق السماوات والأرض أمر رب العالمين بإعداد القوة التي يمكن أن تحصل في الاستطاعة هذا أمر واجب وتضيعه حرام لا شك فيه. اهـ

ولما زعم بعض المسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا جهاد كما في حديث سلمة السكوني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَذَبُوا الْآنَ الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ الله لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ الله وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِي أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ».

والجهاد أعظم التجارات الرابحات والأبواب العظام لنيل رضى الله ودار السلام، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠- ١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ونصرت بالرعب».

ويقول: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي».

ولنعلم جميعًا أن الذلة والهوان التي أصابت المسلمين في هذه الأعصار المتأخرة حتى تسلط الكفار من اليهود والنصارى على كثير من القرى والحضارة سببه ترك الجهاد الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وهو في «الصحيحة» (١١).

والجهاد من أعظم أسباب دخول الجنة، ونيل رضوان الله عزوجل، أخرج البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦): «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِى سَبِيلِى، وَإِيمَانًا بِى، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِى، فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ الله؛ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِى سَبِيلِ الله أَبَدًا، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِى سَبِيلِ الله، فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو، فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو؛ فَأُقْتَلُ».

ويدل عليه فضله ما أخرجه مسلم (١٨٧٩) من حديث النعمان بن بشير قال: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِى أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ؛ إِلاَّ أَنْ أُسْقِىَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِى أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ الله أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ؛ فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ، وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ؛ فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.

ولما سئل النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِى سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ»، قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ»، وَقَالَ فِى الثَّالِثَةِ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ الله، كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ الله لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلاَ صَلاَةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ الله تَعَالَى» الحديث أخرجه مسلم (١٨٧٨) عن أبي هريرة.

ونحن في الجهاد موعدين بإحدى الحسنيين: إما نصر يعز الله به الإسلام، وإما شهادة في سبيل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ الله أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ الله خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلاَ أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ إِلاَّ الشَّهِيدُ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» أخرجه مسلم (١٨٧٧).

وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٨٤): «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وأخرج مسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة: «أن الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال».

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (١٨٨٦): «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء؛ إلا الدين».

وهم أحياء عند ربهم يرزقون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ وَأَنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

وعند مسلم (١٨٨٧) من حديث عبدالله بن مسعود قال مسروق: سَأَلْنَا عَبْدَ الله عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِى إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَىَّ شَىْءٍ نَشْتَهِى، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِى أَجْسَادِنَا، حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

فإذا أردنا العزة والتمكين لهذا الدين القويم؛ فعلينا أن نطبق هذه الشعيرة العظيمة بشروطها المعتبرة التي ذكرها وقيدها أهل العلم وأهم هذه الشروط:

الشرط الأول: أن يكون بالمسلمين قوة يقوون بها على جهاد الكفار أي: عندهم عدة واستعداد لجهاد الكفار.

الثاني: أن يكون الجهاد تحت راية يعقدها ولي أمر المسلمين، وليس كل يجاهد، وكل يكون له جماعة لا بد أن يكون الجهاد تحت راية موحدة.

ويدل على هذا الشرط قول الأئمة: وأرى الجهاد ماضيًا مع كل إمام فتقيدهم بهذا القيد يدل على اعتباره؛ أفاده الفوزان في شرحه.

والشرط الثالث: أن يكون الجهاد والقتال لإعلاء كلمة الله عزوجل.

الجهاد عز المؤمنين، وسبب نصرهم وظهورهم، تفانا فيه أناس فرفعهم الله في سنوات قليلات، وتخاذل عنه آخرون فأذلهم الله أعوامًا مديدات،ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

قال ابن المناصف في كتاب «الانجاد في أبواب الجهاد« (١/ ١١): والجهاد في الشرع يقع على ثلاثة أنحاء: جهاد بالقلب، وجهاد باللسان، وجهاد باليد.

والدليل على هذه القسمة وتسمية كل واحد منهما جهادًا ما أخرجه مسلم (٥٠) عن عبد الله بن مسعود قال: قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ.

فالقول أولًا في معنى جهاد القلب، وذلك راجع إلى مغالبة الهوى ومدافعة الشيطان وكراهية ما خالف حدود الشرع والعقد على إنكاره ذلك، حيث لا يستطيع القيام في تغييره بقول ولا فعل، وهذا الضرب واجب على كل مسلم إجماعًا، وهو مما يتناوله قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[الحج:٧٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾[العنكبوت:٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[النازعات:٤٠]، وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن».

الثاني: الجهاد باللسان، وسيأتي الكلام فيه.

الثالث: الجهاد باليد. أهـ

فهذا يجاهد بنفسه التي بين جنبيه بالطعان والضراب.

وهذا يجاهد بماله دعمًا لكل خير وحربًا لكل ضير.

وهذا مسخر لسانه وقلمه بيانًا لحال المبطلين، ودعوة إلى طريقة المصلحين المؤمنين أتباع المرسلين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣].

والجهاد أقسام ومراتب بينها شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد« (٣/ ١٨٠٥): لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرة كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الذروة العليا منه واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرًا.

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٥١-٥٢]، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[التحريم:٩]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند الله قدرا، ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه، ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم

المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والإنتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذ له ويرجف به ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر:٦] والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجهادها وقد بلي بمحاربتها في هذه الدار وسلطت عليه امتحانا من الله له وابتلاء فأعطى الله العبد مددا وعدة وأعوانا وسلاحا لهذا الجهاد وأعطى أعداءه مددا وعدة وأعوانا وسلاحا وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ الله لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[محمد:٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[محمد:٣١]، فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من اعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداووا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم

عليهم ويظفرهم بهم فأخبرهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم.

وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره فإن قوى الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه فإنه يعد الأماني ويمني الغرور ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلف عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم وقال مقاتل اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته وقال عبدالله ابن المبارك هو مجاهدة النفس والهوى ولم يصب من قال إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق وحق تقاته وحق جهاده هو ما يطيقه كل عبد في نفسه وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز والعلم والجهل فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨]، والحرج الضيق بل جعله واسعا يسع كل أحد كما جعل رزقه يسع كل حي وكلف العبد بما يسعه العبد ورزق العبد ما يسع العبد فهو يسع تكليفه ويسعه رزقه وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بعثت بالحنيفية السمحة» أي: بالملة فهي حنيفية قي التوحيد سمحة في العمل.

وقد وسع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه ورزقه وعفوه ومغفرته وبسط عليهم

التوبة ما دامت الروح في الجسد وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة ماحية أو مصيبة مكفرة وجعل بكل ما حرم عليهم عوضا من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام ويسعه الحلال فلا يضيق عنه وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرا قبله ويسرا بعده فلن يغلب عسر يسرين فاذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلا عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه.

فصل:

إذا عرف هذا فالجهاد أربع مراتب جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها عمله شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد عمله وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

فصل:

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

فصل:

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب الأولى باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقبله فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد و من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق.

فصل:

وقت هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد والإخلاص والإنابة والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والتوبة وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والإنقياد لأمره والتصديق بخبره وتقديم أمره وخبره على أمره غيره وخبره فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله وجهاد شيطانه فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد .

فصل:

وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله فإن كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل فإنه لما نزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر:١-٤]، شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهارا وسرا وجهارا ولما نزل عليه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤]، فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد أذاهم له ولمن استجاب له من أصحابه ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى وهذه سنة الهل عز وجل في خلقه كما قال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ﴾[الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات: ٥٢-٥٣].

فعزى سبحانه نبيه بذلك وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين وعزى أتباعه بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة:٢١٤].

وقوله: ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾[العنكبوت: ١-١١].

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمنا وإما ألا يقول ذلك بل يستمر على السيئات والكفر فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله وبقوته ويسبقه فإنه إنما يطوي المراحل في يديه:

وكيف يفر المرء عنه بذنبه إذا كان تطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه فابتلي بما يؤلمه وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه وكان هذا المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير إلى الألم

الدائم وسئل الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى فقال لا يمكن حتى يبتلى والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول فأعقلهم من باع ألما مستمرا عظيما بألم منقطع يسير وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر، فإن قيل كيف يختار العاقل هذا قيل الحامل له على هذا النقد والنسيئة: (والنفس موكلة بحب العاجل)، ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧]، وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدني بالطبع لا بد له أن يعيش مع الناس والناس لهم إرادات وتصورات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الإبتداء ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا.

ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرا فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربا من عقوبتهم فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عدوانهم ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار ومن ابتلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة عزى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[العنكبوت:٥]، فضرب لمدة هذا الألم أجلا لا بد أن يأتى وهو يوم لقائه فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله وأكد هذا

العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ولهذا سأل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربه الشوق إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضي، وأسألك القصد في الفقر والغني، وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين».

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه ويقرب عليه الطريق ويطوي له البعيد ويهون عليه الآلام والمشاق وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به والله سبحانه سميع لتلك الأقوال عليم بتلك الأفعال وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فيلقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم وثمرته عائدة عليهم وأنه غنى عن العالمين ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين، ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي، في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله وهي أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم جعل ذلك في فراره منهم وتركه السبب الذي ناله كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب وهذا لضعف بصيرته فر من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ففر

من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة. اهـ

فيا باغي الخير أقبل، ويا طالب النصرعجل بامتثال أمر الله عز وجل، وأمر رسوله، وإعلاء هذه الشعيرة التي فتر عنها المسلمون وضيعوها.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكه سامر

ولو لم يكن من فضائل الجهاد غير كون صاحبه حي في برزخه لكفى به شرفًا، قال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤].

والجهاد هو لمن اشترى الآخرة بالدنيا، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:٧٤].

وكيف يترك الجهاد والاستضعاف للمسلمين موجود: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء:٧٥].

الكفار يقاتلون لإعزاز أنفسهم والمسلمون ينامون في ذل عميق، وترك سبيل أسلافهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٧٦].

وعاتب الله عز وجل المخبتين إلى الدنيا والتاركين لشعيرة الجهاد بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ

كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٧٧].

شراء نفوس المؤمنين يتولاه الله بنفسه محبة لما هم عليه من الخير، فهل من مشر، وهل من مدركر: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

من هم هؤلاء يا ترى؟ هم النائمون؟ هم الجبناء؟ هم الساكتون على الباطل والشر؟ ولا ولكنهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

محبة الله التي بحث عنها العباد في محاريبهم، والعلماء في محابرهم، والتجار بأموالهم تنال بالوقوف في الصفوف أمام الأعداء بانتظار النصر أو الحتوف: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤].

تجارة خير من كل تجارة، ليس فيها أخذ ولا عطاء، ولا مساوة ولا استجداد، وإنما هي النفوس والدماء، وكانت جنة عدن هي الجزاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصف: ١٠-١٣].

عش عزيزًا أو مت وأنت كريمًا　　　بين طعن القنا وضرب البنود

شتان بين مجاهد في ذات الله وبين متوان عن ذلك.

وكما قيل:

فشتان ما بين اليزيدين في الندى　　　يـزيـد سـلـيـم والـمـثـنى بن خالد

وأحسن من هذا قول الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:٩٥].

وجهاد الأعداء سبب للبقاء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾[لأنفال:٣٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[لأنفال:٦٥].

ما هذا التثاقل والسبات؟! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ * إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ

يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[التوبة:٤٧].

والكفار عليهم لعائن الله عز وجل، يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ولا يكفون عن أذيتهم وأذلالهم بما استطاعوا، ولا سبيل إلى كف شرهم إلا بالجهاد، قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ

وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠-١٦].

والجهاد بأنواع سبب للهداية إلى الحق والصواب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩].

وجهاد الأعداء دليل على صدق الإيمان، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

والجهاد ذروة سنام الإسلام كما في حديث معاذ عند أحمد وغيره، وقد خرجته والحمد لله في تحقيقي على «الإيمان» لابن أبي شيبة: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

فلا قوة للمسلمين ولا عزة ولا سؤدد ولا نصر ولا تمكين إلا بإحياء هذه الشعيرة العظيمة والطريق المستقيمة، طريقة الذل والصغار للكافرين: «وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، وجعل رزقي تحت ظل رمحي».

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ونصرت بالرعب».

فواسفاه على تعطيل أفضل الأعمال بسبب الخلود إلى الأرض وتقليد الكافرين، ومما يدل على ذلك حديث أبي ذر عند البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤): «أفضل العمل الإيمان بالله والجهاد في

سبيله».

وفي البخاري عن أبي هريرة وهو في مسلم عن أبي سعيد قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ آمَنَ بِالله وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وعن أبي هريرة عند البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦): عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ».

عملٌ عجز العاملون أن يعدلوا أصحابه في شيء، دل على ذلك حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٨٥): أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ»، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»، حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ عَنْ يَحْيَى عَنْ أَبِي حَيَّانَ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو زُرْعَةَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بِهَذَا.

والمجاهد خير الناس كما في حديث أبي سعيد عند البخاري (٦٤٩٤): قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»، تَابَعَهُ الزُّبَيْدِيُّ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَالنُّعْمَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ، وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَطَاءٍ أَوْ عُبَيْدِ الله عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وَقَالَ يُونُسُ وَابْنُ مُسَافِرٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ

ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي لفظ (٢٧٨٦): أي الناس أفضل؟

ولا مجال لاستيفاء أحاديثه وفضائله في هذه العجالة، فهل كانت حياة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأقواله وأفعاله إلا جهاد.

ها هو يدمى بأبي هو وأمي في بعض المشاهد، فجعل يقول:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

متفق عليه عن جندب رضي الله عنه.

وفي يوم أحد تكسر رباعيته وتكسر البيضة على رأسه وهو جاهد مجاهد، كما في البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٧٩٠): عَنْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَقَالَ: أَمَا وَالله إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَمَنْ كَانَ يَسْكُبُ الْمَاءَ وَبِمَا دُووِيَ، قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تَغْسِلُهُ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَئِذٍ وَجُرِحَ وَجْهُهُ وَكُسِرَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ.

وبلغت صلى الله عليه وعلى آله وسلم غزواته تسع عشرة غزوة، كما في مسلم (١٨١٤) عن بريدة.

وإليك بعض أقوال العلماء في هذه الشعيرة العظيمة:

قال ابن دقيق العيد كما في «الفتح« (٦/ ٨): الجهاد أفضل الأعمال مطلقًا؛ لأنه وسيلة إلى إعلان الدين ونشره، وإخماد الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم. اهـ

وقال ابن دقيق العيد في «أحكام الجهاد وفضله« (٦٨): إذا كانت مشقة الغبار عاصمة من عذاب النار، فما الظن بمن بذل ماله وغرر بنفسه في قتال الكفار. أهـ

هذا في الجهاد بالنفس، وهو قتال المشركين والبغاة المارقين، رفع لكلمة الله عز وجل، وإعلاءً لراية

التوحيد.

وإما الجهاد بالمال فبه ينصر دين الله عز وجل، فمنزلته رفيعة ومقامه محمود.

وكم من أناس أشتهروا به فبلغوا الدرجات العلى والنعيم المقيم.

والأمر بهذا النوع من الجهاد قرن بالأمر بالجهاد بالنفس، فهما سواء.

وقد أخرج الإمام مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: إني أبدع بي فأحملني، فقال: «ما عندي»، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أدله على من يحمله، فقال صلى الله عليه وسلم: «من دل على الخير فله مثل أجر فاعله».

واتفق البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥) من حديث زَيْدُ بْنُ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا».

وأخرج مسلم (١٨٩٢) عن أبي مسعود: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مختومة».

وهذا النوع من الجهاد يكون بالأنفاق أيضًا في نشر العلم والخير، وبعث الدعاة والمصلحين.

قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٧٢): وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء كما قال تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٤١]، وعلق النجاة من النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصف:١٣] أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد

وهي: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[الصف:١٣] وأخبر سبحانه أنه: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١٠] وأعاضهم عليها الجنة وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوارة والإنجيل والقرآن ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحدا أوفى بعهده منه تبارك وتعالى ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه ثم أعملهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله فإن الله عز وجل هو المشترى والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم

عليه من الملائكة والبشر وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة:٥٤].

والنوع الثالث من الجهاد الذي أشار إليه الحديث وسار عليه العلماء كما تقدم في تقسيم ابن المناصف: هو الجهاد باللسان، وهذا يكون للكافرين والمنافقين والمبطلين بإنكار ما هم فيه من الباطل.

وهذا النوع من الجهاد له ضوابط وأحكام، فإن أخذ بها صار الجهاد مشروعًا منصورًا بأذن الله عز وجل.

ويدخل في هذا الباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة والصدع بالحق، والجرح لأهل البدع والأهواء وما يشبه ذلك.

ويدخل في الجهاد باللسان الجهاد بالقلم والكتابة، فإنها تقوم مقام الخطابة في كثير من الأوقات والأزمان.

وهذا الضرب واجب على المكلف بشروط كما قال ابن المناصف (١/ ١٣):

منها: أن يكون عالمًا بطريق الإنكار ووجه القيام في ذلك، مع الترفق تارة والغلظة أخرى، بحسب المنكر في نفسه والأحوال التي تعترض، فإن لم يكن كذلك لم يجب، بل قد يحرم عليه القيام؛ لأنه ربما وقع في أشد مما أنكر، قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[النساء:١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [لأعراف:١٩٩].

ومنها: أن تكون له قوة نفسية وحالة يأمن معها أن يطاع ذلك، فإن لم يكن كذلك لم يجب عليه لكنه إن فعل صابرًا محتسبًا قيامه في ذلك عند الله صح.

ويجب عليه القول وإن كان يائسًا من كف ذلك المنكر؛ لأن الإنكار أخص فريضة لا يسقطه عدم تأثر المنكر عليه.

ألا ترى أن إنكار القلب حيث لا يستطاع الإنكار بالقول واجب، وهو لا أثر له في دفع المنكر، فكذلك يجب القول إذا أمكنه وإن لم يؤثر، وايضًا ففي إعلان الإنكار تقرير معالم الشرع، فلو وقع التمالؤ في مثل هذا على الشرك حيث لا يغني الكف والإقلاع لأوشك دروسها، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران:١٠٤].

فالقول: إن قدر عليه واجب أثر أو لم يؤثر. اهـ

وهذا القول الذي ارتضاه هو رواية عن الإمام أحمد، وهو أختيار شيخ الإسلام وعزاه ابن رجب إلى أكثر العلماء كما في «لوامع الأنوار« (٢/ ٤٣٥).

وهو اختيار النووي في «شرح مسلم« (٢/ ٢٣) وغيرهم كثير.

وجهاد المنافقين المأمور به في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[التوبة:٧٣] يكون بالقول والزجر والوعيد والتهديد وما أشبه ذلك؛ لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يؤمر بقتالهم لما كانوا يظهرون الإسلام.

فائِدَةٌ:

أقسام الجهاد من حيث الأحكام الشرعية:

اعلم وفقك الله عز وجل لطاعته أن للجهاد ثلاث حالات:

الأولى: فرض كفاية إن قام به بعض سقط عن الآخرين.

فواجب على المسلمين في الجملة غزو الكفار ابتداءً وجهادهم على الإيمان، ولتكون كلمة الله هي العليا حتى يقهروهم ويضطروهم إلى أوكس الأحوال المرة بعد المرة، وأقله مرة في العام.

قال ابن المناصف: وهو عندي صحيح، وهو قول بدر ابن جماعة.

وقول النووي، انظر «الأنجاد» (١/ ٤٢)، و«تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» (١٥٥)، «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٠٨)، «المهذب» (٢/ ٢٢٧).

الحالة الثانية: وجوب الجهاد على الأعيان بشروطه، وهو إذا أظل العدو بلدًا أو جانبًا من ثغور المسلمين مقاتلًا لهم فيتعين فرض الجهاد حينئذ على كل واحد ممن هنالك من المسلمين في خاصته وعلى قدر طاقته، إلى أن تقع الكفاية، ويقع الاستقلال بقتال العدو ودفعه، فإن قصر عدد من هنالك أو قوتهم عن دفاعهم وجب كذلك على كل من صاقبهم وقرب منهم من المسلمين إعانتهم والنفير إليهم، ثم كذلك أبدًا إذا غارهم العدو حتى يعم الفرض جميع المسلمين، أو يقع الاستغناء من دون ذلك بمقاومتهم ودفعهم.

وهذا النوع يسمى جهاد الدفع، قال ابن القيم في «الفروسية«: وهو أصعب من جهاد الطلب، فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه

كما قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[الحج:٣٩] وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد»؛ لأن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة فإن قتل فيه فهو شهيد.

فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبا ولهذا يتعين على كل أحد يقم ويجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه والولد بدون إذن أبويه والغريم بغير إذن غريمه وهذا كجهاد المسلمين يوم

أحد والخندق، ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين فكان الجهاد واجبا عليهم لأنه حينئذ جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار ولهذا تباح فيه صلاة الخوف بحسب الحال في هذا النوع وهل تباح في جهاد الطلب إذا خاف فوت العدو ولم يخف كرته فيه قولان للعلماء هما روايتان عن الإمام أحمد.

ومعلوم أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان طالبا مطلوبا أوجب من هذا الجهاد الذي هو فيه طالب لا مطلوب والنفوس فيه أرغب من الوجهين.

وأما جهاد الطلب الخالص فلا يرغب فيه إلا أحد رجلين إما عظيم الإيمان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وإما راغب في المغنم والسبي.

فجهاد الدفع يقصده كل أحد ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعا وعقلا وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين وأما الجهاد الذي يكون فيه طالبا مطلوبا فهذا يقصده خيار الناس لإعلاء كلمة الله ودينه ويقصده أوساطهم للدفع ولمحبة الظفر.

راجع «الأنجاد» (١/ ٤٥-٤٧)، «تفسير القرطبي» (٨/ ٥١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٣١٢).

قُلْتُ: ويلتحق بهذه الحالة حالتان:

الأولى: عند التقاءالصفوف فلا يجوز عندئذ الفرار، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [لأنفال: ١٥-١٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[لأنفال:٤٥].

الحالة الثانية: عند استنفار إمام المسلمين لطائفة من الناس، فيكون الجهاد عينيًا عليهم، وكذلك إذا استنفر أهل بلد أو قرية لقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في حديث عائشة وابن عباس: «وإذا استنفرتم فانفروا» البخاري (٢٨٢٥)، ومسلم (١٣٥٣)، راجع «المغني» (١٣/ ٨).

وزاد ابن المناصف في كتابه «الإنجاد« (١/ ٤٧-٤٨): حالة رابعة وهي حالة استنقاذ الأسرى إذا

حازهم العدو وكان بالمسلمين قدرة على استنقاذهم بالقتال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء:٧٥].

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فكوا العاني».

وقال: «وهم يد على من سواهم»، أخرجه البخاري (٣٠٤٦)، قال: ولا خلاف في ذلك أعلمه، قيل: فإن لم تكن لهم قدرة على استنقاذهم بالقتال وكانت هنالك أموال يفدون بها وجب فداؤهم بالمال، وإن كانت لهم قدرة، وهنالك أموال كانوا بالخيار بين القتال والفداء واجب عليهم أن يمتثلوا أحد الأمرين. اهـ

الحالة الثالثة: هي ما وراء القيام بالفريضة في الحالتين، فمن جاهد بعد ذلك والكفاية، وتم الدفاع عن المسلمين فهو له نافلة، وفيه فضل كبير وأجر عظيم، وهو من أفضل أعمال البر وأعلى درجات الطاعة، قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:٩٥].

فعلى هذا تقدم معرفة الجهاد الشرعي، لكن بقي الجهاد المحرم.

وهو جهاد جماعة التكفير، ومن استقى أفكارهم من قطبيه وأخوان، فإنهم حرب على شعوب المسلمين وحكامهم، وجروا لهم الويلات والنكبات، سواءً في السعودية، أو في الجزائر، أو في المغرب، أو اليمن، أو غيرها من الدول.

وسواء من ذلك التفجيرات التي تقع على ممتلكات المسلمين وأنفسهم، أو على ممتلكات الكافرين المستأمنين من قبل حكام المسلمين، أو كذلك أحداث تفجيرات في بلاد الكفار التي لا تتقيد بالضوابط الشرعية، حيث لا راية إسلامية يقاتل تحتها، ولا مصلحة للمسلمين من ورأها، بل الضرر متحقق فيها من تشويه المسلمين إلى غير ذلك من الأضرار الخطيرة التي قد حدثت وتحدث في كل وقت وحين من جراء سفهاء الأحلام أحداث الأسنان، الذين لا يتقيدون بعلم ولا حلم.

حيث ومن المعلوم لدى كثير من طلاب العلم أن الجهاد له أربع مراحل:

الأولى: مرحلة الكف عن القتال، يدل عليها قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾[النساء:٧٧] .

قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٧٠-٧١): إن الله لم يأذن بمكه لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

وقال: ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان:٥٢].

فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة.

الحالة الثانية: ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، قال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[البقرة:١٩٠].

المرحلة االثالثة: فرض قتال المشركين كافة وكان محرمًا ثم مأذونًا به، ثم مأمور به لمن بدأهم بقتال، ثم مأمور به لجميع المشركين. اهـ من «الزاد» (٣/ ٧٠-٧٢).

فعلى هذا عُلم أن قتال الكفار إنما وجب أبان قوة المسلمين أما أيام الضعف فعلى المسلمين أن يلزموا حالة عدم الابتداء بالقتال، لما في ذلك من الضرر الحاصل على الإسلام وأهله.

قال شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (٢/ ٢٠٨): إن المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة من الابتداء بالقتال، وكان قتل الكفار حينئذ محرمًا، وهو من قتل النفس بغير حق، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٧٧].

وقال (ص٤١٣-٤١٤): فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم

صاغرون. اهـ

فعلم من هذا أن ما يقوم به هؤلاء المفجرون التكفيريون ليس للإسلام فيه مصلحة ولا للمسلمين فيه منفعه، ولكن:

ومن جعل الغراب له دليلًا يمر به على جيف الكلاب

فمن جعل من أسامة بن لادن ، أو أيمن الظواهري، أو أبا حمزة المصري، أو سلمان وسفر، أو المسعري وغيرهم أدلة لهم أودوا بهم إلى الهاوية، بفتاويهم المخالفة للحق والدليل، وتحمل في طياتها التخرص والتهويل.

ولن تكون طريقتهم ناصرة للإسلام وأهله يوم من الدهر؛ لأنها طريقة بنيت على مذهب الخلف من الخوارج المارقة: «كلاب النار».

ولم تبن على طريقة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه الكرام، وتابعيهم بإحسان.

حالهم كالشجرة الخبيثة التي أجتثبت من فوق الأرض مالها من قرار.

فعلى من أراد أن الله عز وجل ينصره وينصر دعوته وخيره بملازمة الضوابط الشرعية للجهاد بجميع أنواعه:

* جهاد بالقلب.

* جهاد باللسان.

* جهاد بالنفس.

* جهاد بالمال.

ولنقف مع بعض أهل الإيمان في نشرهم الخير والإحسان بجميع أنواع الجهاد.

وقد تقدم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء من ذلك.

عمير بن الحمام بطل من الأبطال وفارس من الفرسان.

أخرج مسلم (١٩٠١): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ الله صلى الله

عليه وعلى آله وسلم قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا» فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: لَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ يَا رَسُولَ الله جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

زاد ابن الأثير في «أسد الغابة« (٣/ ٤١٤) أنه كان يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد ... إن التقى من أعظم السداد

وخير ما قاد إلى الرشاد ... وكل حي فإلى النفاد

وأخرج البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣): عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ لَئِنْ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ الله مَا صَنَعَ قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا

الصلاة خلف كل بر وفاجر من المسلمين

وصلاة الجماعة خلفهم جائزة[(١)].

نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَقَالَ: إِنَّ أُخْتَهُ وَهِيَ تُسَمَّى الرُّبَيِّعَ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأَةٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَرَضُوا بِالْأَرْشِ وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ».

(١) قوله: «وصلاة الجماعة خلفهم جائزة» وهذا أيضًا فيه رد على أهل البدع والأهواء من الخوارج والروافض، والدليل عليه ما أخرجه البخاري رحمه الله: «يُصَلُّونَ لَكُمْ؛ فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ».

وقد صلى أنس بن مالك رضي الله عنه خلف الحجاج الظالم الغاشم، وكذا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وعدد كثير من الصحابة.

وصلاة الجماعة الصحيح وجوبها؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أعمد إلى قوم يتخلفون عن الصلاة؛ فأحرق عليهم بيوتهم» أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالى في «شرح الطحاوية» (٣٧٣-٣٧٧): ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر.

وقال ابن أبي العز رحمه الله (٢٧٤): وفي «صحيح البخاري»: أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقا ظالما.

وفي «صحيحه» أيضا، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «صلوا خلف من قال لا إله إلا الله، وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله». أخرجه الدارقطني من طرق، وضعفها.

اعلم، رحمك الله وإيانا: أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا، باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد ؟! بل يصلي خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك -: فإن المأموم يصلي خلفه، عند عامة السلف والخلف.

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس رضي الله عنه، كما تقدم، وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا، ثم قال: أزيدكم ؟ ! فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!! وفي «الصحيح»: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة ؟ فقال: (يا ابن أخي، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم).

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك: أن من أظهر بدعة وفجورا لا يرتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه - فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية، ولم تفت المأموم الجمعة ولا الجماعة.

وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم.

وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلف الأفضل أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرا للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهر من المنكر - فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر. وحينئذ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهاد العلماء: منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد. وموضع بسط ذلك في كتب الفروع.

وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ، ولم يعلم المأموم بحاله، فلا إعادة على المأموم، للحديث المتقدم. وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسيا للجنابة. فأعاد الصلاة، ولم يأمر المأمومين بالإعادة. ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة، أعاد عند أبي حنيفة، خلافا لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه. وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم. وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع. ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء ! ! فليس له أن يصلي خلفه، لأنه لاعب، وليس بمصل.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة - يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة

الإيمان بالدجال عليه لعنة الله

والجهاد ماض منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل[١].

الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية. ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض. والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض. ويروى عن أبي يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع. وحديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم» - نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا على المأموم. والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجبا، أو فعل محظورا اعتقد أنه ليس محظورا، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به!! فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد. اهـ

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» (٦٤٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلاَةَ عَنْ وَقْتِهَا، أَوْ يُمِيتُونَ الصَّلاَةَ عَنْ وَقْتِهَا»، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِى؟ قَالَ: «صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا؛ فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ نَافِلَةٌ».

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث: وفيه الحث على موافقة الأمراء في غير معصية لئلا تتفرق الكلمة، وتقع الفتنة. اهـ

[١] قوله: «والجهاد ماض منذ بعث الله محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أن يقاتل آخر هذه

الأمة الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل» تقدم الكلام على الجهاد بما يكفي إن شاء الله عزوجل، وعلمنا هذه الفقرات رد على الروافض والخوارج وغيرهم من أهل البدع الذين يقولون: لا جهاد لاسيما مع أئمة الجور.

ويدل على هذه المسألة بخصوصها حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عند أحمد (٤/ ٤٣٤)، ولفظه: «ولا تزال طائفة من أهل الإسلام يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوئهم حتى يقاتلون الدجال».

وأخرجه (٤/ ٤٣٧) بلفظ: «حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»، وسنتكلم هنا عن فتنة الدجال أعاذنا الله منه.

وأما الدجال فهو المسيح الكذاب فقيل: سمي بذلك لأنه ممسوح العين، وقيل: لأنه أعور العين والأعور يسمى مسيحًا وقيل: لمسحه الأرض حين خروجه وقيل غير ذلك.

وقال القاضي عياض رحمه الله في «إكمال المعلم» (١/ ٥٢٠): ولا خلاف عند أحد من الرواة في عيسى أنه بفتح الميم، وكسر السين المخففة، واختلف في الدجال؛ فأكثرهم يقول: هو مثله ولا فرق بينهما وعيسى مسيح هدى وهذا مسيح ضلالة.

ومعنى كلمة دجال:

قال القرطبي في «التذكرة» (٥٤٨): قال ابن دحية: قال العلماء: الدجال في اللغة يطلق على عدة أوجه:

الأول: الدجال مأخوذ من الكذب.

الثاني: الدجال مأخوذ من الدجل وهو طلاء البعير بالقطران سمي بذلك لأنه يغطي الحق ويستره بسحره وكذبه.

الثالث: سمي بذلك لضربه في نواحي الأرض يقال دجل فلان إذا فعل ذلك.

الرابع: سمي دجال من التغطية لأنه يغطي الأرض بمجموعها كل شيء غطيته فقد دجلته، قاله ابن دريد.

الخامس: سمي بذلك لقطعه الأرض والدجلة الدفقة العظيمة.

السادس: سمي دجالا لأنه يغر الناس بشره.

السابع: الدجال المخرق.

الثامن: الدجال المموه قاله ثعلب.

التاسع: الدجال ماء الذهب الذي يطلى به الشيء فيُحسن ظاهره وداخله خزف .أهـ

وكل هذه تصلح أن تكون وصفا للدجال لعنه الله عز وجل

وأما الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن:

قال الحافظ في «فتح الباري» (ج١٣/ ص٩١): تنبيه: اشتهر السؤال عن الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن مع ما ذكر عنه من الشر وعظم الفتنة به وتحذير الأنبياء منه والأمر بالاستعاذة منه حتى في الصلاة وأجيب بأجوبة.

أحدها: أنه ذكر في قوله﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] فقد أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة رفعه: «ثلاثة إذا خرجن لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها».

الثاني: قد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى بن مريم في قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، وصح أنه الذي يقتل الدجال فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر ولكونه يلقب المسيح كعيسى لكن الدجال مسيح الضلالة وعيسى مسيح الهدى.

الثالث: أنه ترك ذكره احتقارا وتعقب بذكر يأجوج ومأجوج وليست الفتنة بهم بدون الفتنة بالدجال والذي قبله وتعقب بأن السؤال باق وهو ما الحكمة في ترك التنصيص عليه وأجاب شيخنا الإمام البلقيني بأنه اعتبر كل من ذكر في القرآن من المفسدين فوجد كل من ذكر انما هم ممن مضى وانقضى أمره وأما من لم يجيء بعد فلم يذكر منهم أحدا انتهى وهذا ينتقض بيأجوج ومأجوج

وقد وقع في تفسير البغوي أن الدجال مذكور في القرآن في قوله تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وأن المراد بالناس هنا الدجال من إطلاق الكل على البعض وهذا إن ثبت أحسن الأجوبة فيكون من جملة ما تكفل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ببيانه والعلم عند الله تعالى. اهـ

من علامات خروج الدجال بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ ويبوسة بحيرة طبرية، وعدم إثمار نخل بيسان و نضوب عين زغر.

قال الإمام مسلم رحمه الله (٢٩٤٢): عن عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الشَّعْبِيُّ أَنَّهُ سَأَلَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ أُخْتَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَتْ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ فَقَالَ: حَدِّثِينِي حَدِيثًا سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُسْنِدِيهِ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ، فَقَالَتْ: لَئِنْ شِئْتَ لَأَفْعَلَنَّ، فَقَالَ لَهَا: أَجَلْ حَدِّثِينِي، فَقَالَتْ: نَكَحْتُ ابْنَ الْمُغِيرَةِ وَهُوَ مِنْ خِيَارِ شَبَابِ قُرَيْشٍ يَوْمَئِذٍ؛ فَأُصِيبَ فِي أَوَّلِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا تَأَيَّمْتُ خَطَبَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَطَبَنِي رَسُولُ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَوْلَاهُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكُنْتُ قَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أُسَامَةَ»؛ فَلَمَّا كَلَّمَنِي رَسُولُ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: أَمْرِي بِيَدِكَ فَأَنْكِحْنِي مَنْ شِئْتَ، فَقَالَ: انْتَقِلِي إِلَى أُمِّ شَرِيكٍ، وَأُمُّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ عَظِيمَةُ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهَ يَنْزِلُ عَلَيْهَا الضِّيفَانُ، فَقُلْتُ: سَأَفْعَلُ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلِي إِنَّ أُمَّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ كَثِيرَةُ الضِّيفَانِ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ أَوْ يَنْكَشِفَ الثَّوْبُ عَنْ سَاقَيْكِ؛ فَيَرَى الْقَوْمُ مِنْكِ بَعْضَ مَا تَكْرَهِينَ، وَلَكِنْ انْتَقِلِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ عَبْدِ اللهَ بْنِ عَمْرِو ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ فِهْرِ قُرَيْشٍ وَهُوَ مِنْ الْبَطْنِ الَّذِي هِيَ مِنْهُ، فَانْتَقَلْتُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي مُنَادِي رَسُولِ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَادِي «الصَّلَاةَ جَامِعَةً»؛ فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ

يَضْحَكُ فَقَالَ: «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ» ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ؛ فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبْ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ؛ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ؛ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ؛ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ؛ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا وَفَزِعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ؟ قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ، قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ؟ قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ؟ قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ، قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ

ذَلِكَ، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ؛ فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، -يَعْنِي: الْمَدِينَةَ- أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ؛ فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنْ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ: أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشام أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ»، قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الحديث يدل على وجود الدجال الآن.

وقد أعل بعضهم حديث الجساسة وأنكره بحجة أو بأخرى مع أن الحديث لا مطعن فيه لوجوه منها:

- أن الحديث رواه مسلم في صحيحه الذي قد أجمع أهل العلم على صحته، وتلقته الأمة بالقبول إلا أحرف يسيرة، ليس هذا منها.

- الحديث لم ينتقده الحفاظ المتقدمون كالدارقطني وأبي زرعة، وأبي مسعود الدمشقي، وأبي الفضل بن الشهيد، مع تتبعهم لأحاديث مسلم.

- هذا الحديث مسلسل بالأئمة الأثبات، الذين لا مطعن فيهم، فمن المتهم بوضعه إذن؟

ما أجاب به الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الأسئلة الفائقة» (ص٢٣)، قال رحمه الله: سألتم رضي الله عنكم، وأدام لكم التوفيق، وأرشدكم إلى سواء الطريق عن حديث فاطمة بنت قيس في الجساسة، وهل فيه علة لأجلها لم يخرجه البخاري، فإنه لا يقال إنه تركه لأجل الطول، فإنه ليس في الباب شيء يغني عنه، وأيضا أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا وشكوا في ابن صياد حتى بعد

موت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلو سمعوا هذه الخطبة لما أشكل عليهم، ولا يمكن أن تكون فاطمة بنت قيس رضي الله عنها سمعت وحدها، إذ هو خاص، بل هو أمر عام؟ الجواب: إن هذا السؤال يتضمن أمورا، أولا أنه لم يخرجه البخاري، وانفرد بإخراجه مسلم، فأقول: ليس له علة قادحة تقتضي ترك البخاري لتخريجه، وطوله لا يقتضي العدول عنه، فإنه أخرج عدة من الطوال ولم يختصرها في بعض المواضع، مع أن حاجته منها إنما هي لبعض الحديث، كما في حديث الإفك، حيث أخرجه بطوله في كتاب الشهادات، في باب تعديل النساء والذي وعندي أن البخاري أعرض عنه لما وقع من الصحابة رضي الله عنهم في أمر ابن صياد، ويظهر لي أنه رجح عنده ما رجح عند عمر وجابر رضي الله عنهما، من أن ابن صياد هو الدجال، وظاهر حديث فاطمة بنت قيس يأبى ذلك، فاقتصر على ما رجح عنده وهو على ما يظهر بالاستقراء من صنيعه، يؤثر الأرجح على الراجح، وهذا منه.

الأمر الثاني: ما تضمنه السؤال الإشارة إلى أن الصحابة رضي الله عنهم لو سمعوا الخطبة التي نقلتها فاطمة بنت قيس لما شكوا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم في ابن صياد، فأقول: بل ورد أن بعض الصحابة الذين سمعوا الخطبة كما سمعتها فاطمة استمروا على الشك في كون ابن صياد هو الدجال.

الأمر الثالث: لم تنفرد فاطمة رضي الله عنها بسماعها، ولا بروايتها، بل جاءت القصة مروية عن جماعة من الصحابة غيرها، وجاء ورودها علينا من رواية عائشة أم المؤمنين، وأبي هريرة وجابر، وغيرهم رضي الله عنهم، على أن جماعة آخرين رووها، ولم تصل إلينا روايتهم.

الأمر الرابع: في إيضاح هذا الإشكال، وهو أن ابن صياد على ما تضمنته الأخبار الواردة فيه ولد في المدينة ونشأ بها، وجرى له في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أموراً منها توجه النبي إليه، ومنها التقاء النبي صلى الله عليه وسلم له، وسؤاله عما يراه، ثم بقائه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وغزوه مع المسلمين، وحجه واعتماره، وتزوجه بالمدينة، وولد له بها، وفي ذلك قصص له مع أبي

سعيد وابن عمر، وكان هو يتبرأ من ذلك، إذا بلغه أن الناس يرمونه بأنه الدجال، ويستدل بأنه غيره بالأمور التي متصف بها إذ ذاك مما يخالف صفات الدجال.اهـ

قال التويجري في «إتحاف الجماعة» (٢/ ٣٣٨): الوجه الرابع: أن يقال ليس التواتر شرطا في صحة الأحاديث ولا في وجوب الإيمان بها، كما قد توهم ذلك أبوعبية تقليدا لبعض أهل البدع من المتقدمين والمعاصرين، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بكل ما صح سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، سواء كان متواترا أو آحادا، وصدور الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر وفي حشد من الصحابة لا يلزم منه التواتر في النقل، وكم من خطبة خطبها النبي صلى الله عليه وسلم في حشد عظيم، ومع ذلك لم يروها إلا الواحد أو الاثنين، مما لم يبلغ عددهم حد التواتر. اهـ

أقول: ومما استدلوا به على ضعف الحديث حديث ابن عمر رضي الله عنهما المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى على ظهر الأرض ممن هو عليها الآن أحد»، وهذا الحديث عام مخصوص بأحاديث الدجال، وعيسى عليه السلام، كما بين ذلك القرطبي رحمه الله في «المفهم شرح مسلم» (٦/ ٤٩٠).

ذكر الدجالين الكذابين الذين يكونون بين يدي الدجال لعنه الله تعالى

أخرج البخاري رحمه الله (٧١٢١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ: الْقَتْلُ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي بِهِ، وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ، وَحَتَّى تَطْلُعَ

الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ يَعْنِي آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا».

وأخرج مسلم رحمه الله في المقدمة (٧) عن أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنْ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ».

وأخرج رحمه الله (٢٩٢٣): عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ».

وأخرج الإمام أحمد (٥/ ٢٧٨): عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ».

وَبِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ زَوَى لِي الْأَرْضَ» أَوْ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَإِنِّي أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكُوا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَلَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَقَالَ يُونُسُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَلَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وُضِعَ فِي أُمَّتِي السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ حَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله عَزَّ وَجَلَّ»

الحديث أخرجه مسلم رحمه الله (٢٨٨٩) إلى قوله «يسبي بعضهم بعضًا».

وأخرج رحمه الله: (ج٢ ص٩٥) عن عبد الرحمن بن نعم أو نعيم الأعرجي -شك أبو الوليد- قال: سأل رجل بن عمر رضي الله عنه عن المتعة، وأنا عنده متعة النساء، فقال: والله ما كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم زانين ولا مسافحين، ثم قال: والله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «ليكونن قبل يوم القيامة المسيح الدجال، وكذابون ثلاثون أو أكثر».

وقد قصَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قصة الدجال ووضحها بأحسن بيان، كما في حديث النواس بن سمعان عند مسلم (٢٩٣٧) قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ»؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهَ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ؛ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشام وَالْعِرَاقِ؛ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللهَ فَاثْبُتُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهَ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهَ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهَ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ

الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ؛ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ؛ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ؛ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ؛ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

وأخرج ابن ماجه رقم (٤٠٦٧): عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا حَدَّثَنَاهُ عَنْ الدَّجَّالِ وَحَذَّرَنَاهُ فَكَانَ مِنْ مِنْ قَوْلِهِ أَنْ قَالَ: «إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لَا مَحَالَةَ وَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ؛

فَأَنَا حَجِيجٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنْ يَخْرُجْ مِنْ بَعْدِي فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَيَعِيثُ يَمِينًا وَيَعِيثُ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا فَإِنِّي سَأَصِفُهُ لَكُمْ صِفَةً لَمْ يَصِفْهَا إِيَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلِي: إِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ أَنَا نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، ثُمَّ يُثَنِّي فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ أَوْ غَيْرِ كَاتِبٍ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا؛ فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنْ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ؛ فَلْيَسْتَغِثْ بِاللهِ وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ الْكَهْفِ فَتَكُونَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتْ النَّارُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَيَقْتُلَهَا وَيَنْشُرَهَا بِالْمِنْشَارِ حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولَ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الْآنَ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي فَيَبْعَثُهُ اللهُ، وَيَقُولُ لَهُ الْخَبِيثُ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ وَأَنْتَ عَدُوُّ اللهِ أَنْتَ الدَّجَّالُ وَاللهِ مَا كُنْتُ بَعْدُ أَشَدَّ بَصِيرَةً بِكَ مِنِّي الْيَوْمَ»، قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الطَّنَافِسِيُّ، فَحَدَّثَنَا الْمُحَارِبِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الْوَلِيدِ الْوَصَّافِيُّ، عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَلِكَ الرَّجُلُ أَرْفَعُ أُمَّتِي دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَاللهِ مَا كُنَّا نُرَى ذَلِكَ الرَّجُلَ إِلَّا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، قَالَ الْمُحَارِبِيُّ: ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ، وَيَأْمُرَ الْأَرْضَ، أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالْحَيِّ فَيُكَذِّبُونَهُ فَلَا تَبْقَى لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلَّا هَلَكَتْ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالْحَيِّ فَيُصَدِّقُونَهُ فَيَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ وَيَأْمُرَ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ حَتَّى تَرُوحَ مَوَاشِيهِمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا كَانَتْ وَأَعْظَمَهُ وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ وَأَدَرَّهُ ضُرُوعًا، وَإِنَّهُ لَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا وَطِئَهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَا يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهِمَا إِلَّا لَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظُّرَيْبِ الْأَحْمَرِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَنْفِي الْخَبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْخَلَاصِ، فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي الْعَكَرِ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ، وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ

الْمَقْدِسِ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ؛ فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمْ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ؛ فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ؛ فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: افْتَحُوا الْبَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ؛ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا؛ فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ؛ فَيَهْزِمُ اللهُ الْيَهُودَ فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ لَا حَجَرَ وَلَا شَجَرَ وَلَا حَائِطَ وَلَا دَابَّةَ إِلَّا الْغَرْقَدَةَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لَا تَنْطِقُ إِلَّا قَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ الْمُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ اقْتُلْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً السَّنَةُ كَنِصْفِ السَّنَةِ، وَالسَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشَّرَرَةِ يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ فَلَا يَبْلُغُ بَابَهَا الْآخَرَ حَتَّى يُمْسِيَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقِصَارِ؟ قَالَ: تَقْدُرُونَ فِيهَا الصَّلَاةَ كَمَا تَقْدُرُونَهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الطِّوَالِ، ثُمَّ صَلُّوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيَكُونُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا، يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَذْبَحُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ؛ فَلَا يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلَا بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ، وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِيِّ الْحَيَّةِ فَلَا تَضُرَّهُ، وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا، وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْ السِّلْمِ كَمَا يُمْلَأُ الْإِنَاءُ مِنْ الْمَاءِ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللهُ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَفَاثُورِ الْفِضَّةِ تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الْقِطْفِ مِنْ الْعِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ، وَيَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ، وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنْ الْمَالِ، وَتَكُونَ الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا يُرْخِصُ الْفَرَسَ؟ قَالَ: لَا تُرْكَبُ لِحَرْبٍ أَبَدًا، قِيلَ لَهُ: فَمَا يُغْلِي الثَّوْرَ، قَالَ: تُحْرَثُ الْأَرْضُ كُلُّهَا، وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فِي الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ

ثُلُثَيْ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ فَلَا تُقْطِرُ قَطْرَةً، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ فَلَا تُنْبِتُ خَضْرَاءَ فَلَا تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ قِيلَ فَمَا يُعِيشُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ قَالَ: التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ، وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ».

وقد ذكرت شواهد الحديث في كتابي «تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال»، وللشيخ الألباني رحمه الله تعالى مؤلفًا في طرفه وشواهده.

قال الطبراني رحمه الله في «المعجم الكبير» (ج٢٤/ ص١٥٧) [٤٠٢]: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري، ثنا أبي، ثنا أنس بن عياض، عن عبيد الله بن عمر قال: حدثني بعض أصحابنا، عن أسماء بنت عميس، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخل عليها لبعض حاجته، ثم خرج فشكت إليه الحاجة فقال: «**كيف بكم إذا ابتليتم بعبد قد سخرت له أنهار الأرض وثمارها، فمن اتبعه أطعمه وأكفره، ومن عصاه حرمه، ومنعه قلت: يا رسول الله، إن الجارية لتحبس على التنور ساعة تخبزها فأكاد أفتتن في صلاتي فكيف بنا إذا كان ذلك فقال: إن الله يعصم المؤمنين يومئذ بما يعصم به الملائكة من التسبيح إن بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب**» الحديث ضعيف لإبهام الراوي عن ويشهد له حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم (٢٩٣٧) وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ**».

قال الإمام مسلم رحمه الله (١١٠٣): حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى مَالِكٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ الْوِصَالِ قَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى**».

وقال رحمه الله: حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ

الْوِصَالِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يَا رَسُولَ الله، تُوَاصِلُ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَأَيُّكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي، فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنْ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوْا الْهِلَالَ فَقَالَ: لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا».

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (ج ٢ / ص ٣٢): حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانا ليوفر ساعات ليلة ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال فيقولون له: إنك تواصل، فيقول: «لست كهيئتكم إني أبيت»، وفي رواية: «إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»، وقد أختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين: أحدهما أنه طعام وشراب حسي للفم قالوا: وهذه حقيقة اللفظ ولا موجب للعدول عنها. الثاني: أن المراد به ما يغذيه الله به من معارفه وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه وتنعمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب، ونعيم الأرواح وقرة العين وبهجة النفوس، والروح والقلب بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه، وقد يقوى هذا الغذاء حتى يغني عن غذاء الأجسام مدة من الزمان كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني ولا سيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد قرت عينه بمحبوبه، وتنعم بقربه والرضى عنه وألطاف محبوبه وهداياه، وتحفه تصل إليه كلت وقت ومحبوبه حفي به معتن بأمره مكرم له غاية الإكرام مع المحبة التامة له، أفليس في هذا أعظم غذاء لهذا المحب، فكيف بالحبيب الذي لا شيء أجل منه ولا أعظم ولا أجمل ولا أكمل ولا أعظم إحسانا إذا امتلأ قلب المحب بحبه وملك حبه جميع أجزاء قلبه وجوارحه وتمكن حبه منه أعظم تمكن، وهذا حاله مع حبيبه، أفليس هذا المحب عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلا ونهارا، ولهذا قال: إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ولو كان

ذلك طعاما وشرابا للفم لما كان صائما فضلا عن كونه مواصلا، وأيضا فلو كان ذلك في الليل لم يكن مواصلا ولقال لأصحابه إذ قالوا له إنك تواصل لست أواصل ولم يقل لست كهيئتكم، بل أقرهم على نسبة الوصال إليه وقطع الإلحاق بينه وبينهم في ذلك بما بينه من الفارق كما في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله واصل في رمضان فواصل الناس فنهاهم فقيل له: أنت تواصل فقال: إني لست مثلكم إني أطعم وأسقى وسياق البخاري لهذا الحديث نهى رسول الله عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست مثلكم إني أطعم وأسقى»، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة: «نهى رسول الله عن الوصال، فقال رجل من المسلمين: إنك يا رسول الله، تواصل فقال رسول الله: وأيكم مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»، وأيضا فإن النبي لما نهاهم عن الوصال فأبوا أن ينتهوا واصل بهم يوماً، ثم يوما ثم رأوا الهلال فقال: لو تأخر الهلال لزدتكم كالمنكل لهم حين ابوا أبن ينتهوا عن الوصال، وفي لفظ آخر: «لو مد لنا الشهر لواصلنا وصالا يدع المتعمقون تعمقهم إني لست مثلكم»، أو قال: «إنكم لستم مثلي فإني أظل يطعمني ربي ويسقيني»، فاخبر أنه يطعم وسقى مع كونه مواصلا، وقد فعل فعلهم منكلا بهم معجزا لهم، فلو كان يأكل ويشرب لما كان ذلك تنكيلا ولا ت عجيزا، بل ولا وصالا، وهذا بحمد الله واضح ا.هـ

ولا مانع أن يحصل هذا كرامة للمؤمنين في ذلك الزمان الذي كثرة فيه الفتن والمحن.

وقد اختلف الصحابة وغيرهم في ابن صياد، هل هو الدجال الأكبر أم لا؟ والصحيح أنه دجال من الدجاجلة لما يأتي .

أخبار ابن صياد وكونه دجال من الدجاجلة وليس بالأكبر

قال الإمام مسلم (٢٩٢٤): حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَإِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَاللَّفْظُ لِعُثْمَانَ، قَالَ: إِسْحَقُ، أَخْبَرَنَا و قَالَ: عُثْمَانُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَمَرَرْنَا بِصِبْيَانٍ فِيهِمْ ابْنُ صَيَّادٍ فَفَرَّ الصِّبْيَانُ وَجَلَسَ ابْنُ

صَيَّادٍ فَكَأَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كَرِهَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تَرِبَتْ يَدَاكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله فَقَالَ: لَا بَلْ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ذَرْنِي يَا رَسُولَ الله حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إِنْ يَكُنْ الَّذِي تَرَى فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ».

وقال رحمه الله (٢٩٢٦): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا سَالِمُ بْنُ نُوحٍ، عَنْ الْجُرَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: لَقِيَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله فَقَالَ: هُوَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: آمَنْتُ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ مَا تَرَى، قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: تَرَى عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، وَمَا تَرَى قَالَ: أَرَى صَادِقَيْنِ وَكَاذِبًا أَوْ كَاذِبَيْنِ وَصَادِقًا فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: لُبِسَ عَلَيْهِ دَعُوهُ»

وقال (٢٩٢٧): حَدَّثَنِي عُبَيْدُ الله بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا دَاوُدُ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ صَائِدٍ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ لِي: أَمَا قَدْ لَقِيتُ مِنْ النَّاسِ يَزْعُمُونَ أَنِّي الدَّجَّالُ أَلَسْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا يُولَدُ لَهُ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَقَدْ وُلِدَ لِي أَوَلَيْسَ سَمِعْتَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلَا مَكَّةَ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَقَدْ وُلِدْتُ بِالْمَدِينَةِ، وَهَذَا أَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي فِي آخِرِ قَوْلِهِ: أَمَا وَالله إِنِّي لَأَعْلَمُ مَوْلِدَهُ وَمَكَانَهُ، وَأَيْنَ هُوَ، قَالَ: فَلَبَسَنِي».

وحَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَا: حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «قَالَ لِي ابْنُ صَائِدٍ وَأَخَذَتْنِي مِنْهُ ذَمَامَةٌ: هَذَا عَذَرْتُ النَّاسَ مَا لِي وَلَكُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، أَلَمْ يَقُلْ نَبِيُّ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، وَقَدْ أَسْلَمْتُ قَالَ: وَلَا يُولَدُ لَهُ وَقَدْ وُلِدَ لِي، وَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ مَكَّةَ، وَقَدْ حَجَجْتُ قَالَ: فَمَا زَالَ حَتَّى كَادَ

أَنْ يَأْخُذَ فِيَّ قَوْلُهُ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْآنَ حَيْثُ هُوَ وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ قَالَ: وَقِيلَ لَهُ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ قَالَ فَقَالَ: لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ».

وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا سَالِمُ بْنُ نُوحٍ، أَخْبَرَنِي الْجُرَيْرِيُّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَتَفَرَّقَ النَّاسُ، وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ قَالَ: فَفَعَلَ، قَالَ: فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ، فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ فَقَالَ: اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ، وَاللَّبَنُ حَارٌّ مَا بِي إِلَّا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ، أَوْ قَالَ: آخُذَ عَنْ يَدِهِ فَقَالَ أَبَا سَعِيدٍ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ، ثُمَّ أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِي النَّاسُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَسْتَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هُوَ كَافِرٌ وَأَنَا مُسْلِمٌ، أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: هُوَ عَقِيمٌ لَا يُولَدُ لَهُ وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلَا مَكَّةَ، وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنْ الْمَدِينَةِ، وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ، وَأَيْنَ هُوَ الْآنَ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ».

وقال: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرٌ يَعْنِي ابْنَ مُفَضَّلٍ، عَنْ أَبِي مَسْلَمَةَ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لِابْنِ صَائِدٍ: «مَا تُرْبَةُ الْجَنَّةِ، قَالَ: دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ: صَدَقْتَ».

حَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يَحْلِفُ بِالله أَنَّ ابْنَ صَائِدٍ الدَّجَّالُ فَقُلْتُ: «أَتَحْلِفُ بِالله قَالَ: إِنِّي

سَمِعْتُ عُمَرَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم».

وقال: حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى بِنِ عَبْدِ الله بْنِ حَرْمَلَةَ بْنِ عِمْرَانَ التُّجِيبِيُّ، أَخْبَرَنِي ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ الله أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ انْطَلَقَ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدَهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ يَوْمَئِذٍ الْحُلُمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ظَهْرَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لِابْنِ صَيَّادٍ: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله فَرَفَضَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وَقَالَ: آمَنْتُ بِالله وَبِرُسُلِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: مَاذَا تَرَى، قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: خُلِّطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ذَرْنِي يَا رَسُولَ الله، أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ». وَقَالَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ الله سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ حَتَّى إِذَا دَخَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم النَّخْلَ طَفِقَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ، فَرَآهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشٍ فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا زَمْزَمَةٌ فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَهُوَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ فَقَالَتْ لِابْنِ صَيَّادٍ: يَا صَافِ، وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ هَذَا مُحَمَّدٌ فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ» قَالَ سَالِمٌ: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: فَقَامَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «إِنِّي لَأُنْذِرُكُمُوهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ تَعَلَّمُوا أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ» قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عُمَرُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «يَوْمَ حَذَّرَ النَّاسَ الدَّجَّالَ إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ، أَوْ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَقَالَ: تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ».

وقال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ، يَعْنِي ابْنَ حَسَنِ بْنِ يَسَارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ قَالَ: كَانَ نَافِعٌ يَقُولُ ابْنُ صَيَّادٍ: قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَقِيتُهُ مَرَّتَيْنِ، قَالَ: فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: هَلْ تَحَدَّثُونَ أَنَّهُ هُوَ قَالَ: لَا وَالله قَالَ: قُلْتُ كَذَبْتَنِي، وَالله لَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُكُمْ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَكُونَ أَكْثَرَكُمْ مَالًا وَوَلَدًا، فَكَذَلِكَ هُوَ زَعَمُوا الْيَوْمَ قَالَ: فَتَحَدَّثْنَا، ثُمَّ فَارَقْتُهُ قَالَ: فَلَقِيتُهُ لَقْيَةً أُخْرَى، وَقَدْ نَفَرَتْ عَيْنُهُ قَالَ: فَقُلْتُ: مَتَى فَعَلَتْ عَيْنُكَ مَا أَرَى، قَالَ: لَا أَدْرِي، قَالَ: قُلْتُ: لَا تَدْرِي وَهِيَ فِي رَأْسِكَ، قَالَ: إِنْ شَاءَ الله خَلَقَهَا فِي عَصَاكَ هَذِهِ قَالَ: فَنَخَرَ كَأَشَدِّ نَخِيرِ حِمَارٍ سَمِعْتُ قَالَ: فَزَعَمَ بَعْضُ أَصْحَابِي أَنِّي ضَرَبْتُهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعِيَ حَتَّى تَكَسَّرَتْ، وَأَمَّا أَنَا فَوَالله مَا شَعَرْتُ قَالَ: وَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَحَدَّثَهَا فَقَالَتْ: مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ قَالَ: إِنَّ أَوَّلَ مَا يَبْعَثُهُ عَلَى النَّاسِ غَضَبٌ يَغْضَبُهُ.

قال الإمام أبو داود رحمه الله (ج٤/ ص١٢٠) [٤٣٣٠]: حدثنا قتيبة بن سعيد، ثنا يعقوب يعني بن عبد الرحمن، عن موسى بن عقبة، عن بكر نافع، قال: كان بن عمر يقول: والله ما أشك أن المسيح الدجال بن صياد.

وقال (ج٧ / ص٤٩٣) [٣٧٤٨٨]: حدثنا يعلى بن عبيد، عن الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن حذيفة قال: لقد صنع بعض فتنة الدجال وإن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لحي.

قال الطبراني في «المعجم الأوسط» (ج٨/ ص٢٤٢) [٨٥٢٠]: حدثنا معاذ، قال نا عمرو بن سعيد الزماني، قال نا عبد الواحد بن زياد، قال نا الحارث بن حصيرة، قال ثنا زيد بن وهب، قال قال أبو ذر: لأن أحلف عشرة أيمان أن بن صائد هو الدجال أحب إليَّ من أن أحلف مرة أنه ليس به، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرسلني إلى أمه فقال: «سلها كم حملت فسألتها، فقالت: اثني عشر شهراً، فقال: سلها كيف كانت صيحته حين وقع، قالت: صيحة الصبي بن شهر، وقال له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إني قد خبأت لك خبأ فما هو فقال: عظم شاة عفراء، فجعل يريد يقول الدخان، فجعل يقول: الدخ الدخ فقال: اخسأ فإنك لن تسبق القدر» لم يرو هذا الحديث عن الحارث إلا عبد الواحد بن زياد.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (ج١٨/ ص٤٦): باب ذكر بن صياد : يقال له: ابن صياد وبن صائد وسمى بهما فى هذه الأحاديث، واسمه صاف قال العلماء: وقصته مشكلة وأمره مشتبه فى أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولاشك فى أنه دجال من الدجاجلة قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولاغيره، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال، وكان فى بن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لايقطع بأنه الدجال ولاغيره، ولهذا قال لعمر رضى الله عنه: «إن يكن هو فلن تستطيع قتله»، وأما احتجاجه هو بأنه مسلم والدجال كافر، وبأنه لايولد للدجال، وقد ولدله هو وأن لايدخل مكة والمدينة، وإن ابن صياد دخل المدينة وهو متوجه إلى مكة فلا دلالة له فيه؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنما أخبر عن صفاته وقت فتنته وخروجه فى الأرض ومن اشتباه قصته وكونه أحدالدجاجلة الكذابين قوله للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أتشهد أني رسول

الله»، ودعواه أنه يأتيه صادق وكاذب، وأنه يرى عرشاً فوق الماء، وأنه لايكره أن يكون هو الدجال، وأنه يعرف موضعه وقوله: «إنى لأعرفه وأعرف مولده، وأين هو الآن، وانتفاخه حتى ملأ السكة»، وأما إظهاره الإسلام وحجة وجهاده واقلاعه عما كان عليه فليس بصريح فى أنه غير الدجال قال الخطابى: واختلف السلف فى أمره بعد كبره فروى عنه أنه تاب من ذلك القول ومات بالمدينة، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن وجهه حتى رآه الناس وقيل لهم: اشهدوا قال: وكان ابن عمر وجابر فيما روى عنهما يحلفان أن ابن صياد هو الدجال لايشكان فيه فقيل لجابر: إنه أسلم فقال: وأن أسلم فقيل إنه دخل مكة وكان فى المدينة فقال: وإن دخل وروى أبو داود فى سننه بإسناد صحيح عن جابر قال: فقدنا ابن صياد يوم الحرة، وهذا يعطل رواية من روى أنه مات بالمدينة وصلى عليه، وقد روى مسلم فى هذه الأحاديث أن جابر بن عبد الله حلف بالله تعالى أن ابن صياد هو الدجال، وأنه سمع عمر رضى الله عنه يحلف على ذلك عند النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلم ينكره النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وروى أبو داود باسناد صحيح عن بن عمر أنه كان يقول: والله ماأشك أن بن صياد هو المسيح الدجال، قال البيهقى فى كتابه «البعث والنشور»: اختلف الناس فى أمر بن صياد اختلافاً كثيراً هل هو الدجال، قال: ومن ذهب إلى أنه غيره احتج بحديث تميم الدارى فى قصة الجساسة الذى ذكره مسلم بعد هذا قال: ويجوز أن توافق صفة ابن صياد صفة الدجال كما ثبت فى «الصحيح» أن أشبه الناس بالدجال عبد العزى بن قطن وليس كما قال: وكان أمر بن صياد فتنة ابتلى الله تعالى بها عباده، فعصم الله تعالى منها المسلمين ووقاهم شرها قال: وليس فى حديث جابر أكثر من سكوت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقول عمر: فيحتمل أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان كالمتوقف فى أمره، ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به فى حديث تميم هذا كلام البيهقى، وقد اختار أنه غيره، وقد قدمنا أنه صح عن عمر وعن بن عمر وجابر رضى الله عنهم أنه الدجال والله أعلم.

فإن قيل كيف لم يقتله النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع أنه ادعى بحضرته النبوة، فالجواب من وجهين ذكرهما البيهقى وغيره أحدهما: أنه كان غير بالغ واختار القاضي عياض هذا الجواب، والثاني: أنه كان فى أيام مهادنة اليهود وحلفائهم وجزم الخطابى فى «معالم السنن» بهذا الجواب الثانى قال: لأن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد قدومه المدينة كتب بينه وبين اليهود كتاب صلح على أن لايهاجوا ويتركوا على أمرهم، وكان ابن صياد منهم أودخيلا فيهم قال الخطابى: وأما امتحان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما خبأه له من آية الدخان؛ فلأنه كان يبلغه ما يدعيه من الكهانة ويتعاطاه من الكلام فى الغيب فامتحنه ليعلم حقيقة حاله ويظهر إبطال حاله للصحابة، وأنه كاهن ساحر يأتيه الشيطان فيلقى على لسانه ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة فامتحنه باضمار قول الله تعالى فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين وقال: خبأت لك خبيئاً فقال: هو الدخ أى الدخان وهى لغة فيه فقال له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اخسا فلن تعدو قدرك» أي لاتجاوز قدرك وقدر أمثالك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء الشيطان كلمة واحدة من جملة كثيرة بخلاف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فإنهم يوحى الله تعالى إليهم من علم الغيب ما يوحى فيكون واضحا كاملاً وبخلاف ما يلهمه الله الأولياء من الكرامات والله أعلم.

و قال البيهقي: ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على حلف عمر فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان متوقفا في أمره، ثم جاءه الثبت من الله تعالى بأنه غيره على ما تقتضيه قصة تميم الداري وبه تمسك من جزم بإن الدجال غير ابن صياد، وطريقه أصح وتكون الصفة التي في ابن صياد، وافقت ما في الدجال قلت: قصة تميم أخرجها مسلم من حديث فاطمة بنت قيس إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطب فذكر أن تميما الداري ركب في سفينة مع ثلاثين رجلا من قومه فلعب بهم الموج شهراً، ثم نزلوا إلى جزيرة فلقيتهم دابة كثيرة الشعر فقالت لهم: أنا الجساسة ودلتهم على رجل في الدير، قال: فانطلقنا سراعاً، فدخلنا الدير، فإذا فيه أعظم انسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقا مجموعة يداه إلى عنقه بالحديد

فقلنا: ويلك ما أنت فذكر الحديث وفيه إنه سألهم عن نبي الأميين هل بعث، وإنه قال: أن يطيعوه فهو خير لهم، وأنه سألهم عن بحيرة طبرية، وعن عين زغر وعن نخل بيسان وفيه أنه قال: إني مخبركم عني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض، فلا ادع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة.

وفي بعض طرقه عند البيهقي: إنه شيخ وسندها صحيح قال البيهقي: فيه أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر صلى الله عليه وعلى آله وسلم بخروجهم وقد خرج أكثرهم، وكان الذين يجزمون بابن صياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم وإلا فالجمع بينهما بعيد جداً إذ كيف يلتئم ان يكون من كان في أثناء الحياة النبوية شبه المحتلم ويجتمع به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويسأله أن يكون في آخرها شيخا كبيرا مسجونا في جزيرة من جزائر البحر موثقا بالحديد يستفهم عن خبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هل خرج أو لا فالأولى ان يحمل على عدم الاطلاع اما عمر فيحتمل ان يكون ذلك منه قبل أن يسمع قصة تميم ثم لما سمعها لم يعد إلى الحلف المذكور واما جابر فشهد حلفه عند النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فاستصحب ما كان اطلع عليه من عمر بحضرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكن أخرج أبو داود من رواية الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر فذكر قصة الجساسة والدجال بنحو قصة تميم، قال -أي: الوليد-: فقال لي بن أبي سلمة: إن في هذا شيئًا ما حفظته، قال: شهد جابر إنه بن صياد، قلت: فإنه قد مات، قال: وإن مات، قلت: فإنه أسلم، قال: وإن أسلم، قلت: فإنه دخل المدينة، قال: وإن دخل المدينة انتهى.

أقول: ومما يرجح أن ابن صياد غير الدجال أن الدجال سئل هل قد بعث محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلو كان ابن صياد هو الدجال لم يحتج إلى سؤال النفر، وأيضًا قول الجساسة هو إلى خبركم بالأشواق يؤيد ما ذكرنا ولله الحد والمنة.

وخروج الدجال من علامات الساعة الكبرى.

وجوب طاعة أولياء الأمور في المعروف

وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته؛ وحرم الخروج عليه[1].

---

(1) قوله: «وأرى وجوب السمع والطاعة .... إلخ» السمع والطاعة لولي الأمر المسلم في غير معصية الله عز وجل واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، وإليك بعض ما ورد في ذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : ٥٩].

قال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير» (١/ ٢٦٨): لما أمر سبحانه القضاة ، والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق، أمر الناس بطاعتهم ها هنا، وطاعة الله عزّ وجلّ هي امتثال أوامره ونواهيه، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم هي فيما أمر به ونهى عنه، وأولي الأمر هم: الأئمة، والسلاطين، والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، والمراد: طاعتهم فيما يأمرون به، وينهون عنه ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ

وأخرج مسلم (١٨٤٦) من حديث وائل بن حجر أن سلمة بن يزيد الجعفي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَا نَبِيَّ الله، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ، وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**».

وعند الشيخين البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة قال: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ**

هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا قَالَ: نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ، وَلَا إِمَامٌ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

وفي رواية لمسلم: «اسمع واطع، وإن أخذ مالك وضرب ظهرك».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (١٨٤٨) قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ».

وفي حديث ابن عباس عندهما البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩) قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ».

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» أخرجه مسلم برقم (١٨٥١).

وعن أبي هريرة عند مسلم (١٨٣٥)، والبخاري (٧١٣٧): «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي».

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ».

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «**إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ**».

وعن أم حصين عند مسلم (١٨٣٨): سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ: «**وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ الله فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**».

وعن ابن عمر عند مسلم (١٨٣٦) مرفوعاً: «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**».

وعند البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي: «**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا فَقَالَ: ادْخُلُوهَا فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ: خَيْرًا**».

وعن عبادة بن الصامت عندهما في (٧٢٠٠)، ومسلم (١٧٠٩): «**بَايَعْنَا رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي الله لَوْمَةَ لَائِمٍ**».

وأخرج البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة قال: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا، قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ الله سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ**».

وأخرجا البخاري (٧٠٥٢)، ومسلم (١٨٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ الله الَّذِي لَكُمْ**».

وأخرج مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ جَامِعَةً فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ: الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ الله آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَالله يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ الله وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ الله».

هذا بعض الأحاديث الدالة والآمرة بطاعة ولي الأمر المسلم في طاعة الله عز وجل وفيها من الخير ما لو عمل به المسلمون لأفلحوا وأنجعوا وتخلصوا من الثورات والانقلابات، وفيها الغنية العظيمة عن دين الديمقراطيين الذي يقوم على الرأي والرأي الآخر، والذي مبدأه وأسه على الخروج على الحاكم الأول، وإبداله بآخر بطريقة الانتخابات أو التصويت هذا النظام الطاغوتي الذي قبله كثير من أبناء المسلمين الجهال الأغمار الذين تخطفتهم شياطين الجن والأنس عن دين ربهم وطريقة نبيهم الذي بهما العجمة والسلامة من العطب الدنيوي والأخروي نسأل الله السلامة والعافية، ولي بحمد على هذا النظام الفاسد مؤلف خاص بعنوان: «الأدلة الرضية في بيان حقيقة الديمقراطية».

وأخرج مسلم (١٨٥٢) من حديث عرفجة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ».

وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٥٣): «إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا».

وأما أولياء الأمور فعليهم حقوق أيضًا لرعيتهم يجب أن يُراعوها.

أولها: النصيحة لهم وعدم غشهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنه؛ قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَالأَمِيرُ الَّذِى عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِىَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ؛ أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» متفق عليه.

والعدل فيهم؛ لحديث أبي هريرة مرفوعًا: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِى اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّى أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» متفق عليه.

عدم المشقة عليهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ» أخرجه مسلم.

وحديث عائذ بن عمرو عند مسلم (٤٨٣٠) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ».

عدم الاحتجاب عن حاجتهم وخلتهم؛ لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ وَلَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ؛ إِلَّا احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ يَوْمَ القِيامَةْ» أخرجه الترمذي.

أمْرُهم بتقوى الله سبحانه وتعالى؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ؛ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ، وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ» أخرجه مسلم.

غرس المحبة بينهم وبين رعيتهم؛ لحديث عوف بن مالك عند مسلم (١٨٥٥): «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ».

البعد عن الغلول، وهو: أخذ أموال المسلمين العامة بغير حق: لحديث أبي هريرة المتفق عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى؛ فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى؛ فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى؛ فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى؛ فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى؛ فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

وليعرف أن ما هو فيه أمانة يجب أن يؤدي حقها؛ لحديث أبي ذر عند مسلم (١٨٢٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْىٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا».

ويجب عليه أن يتخذ البطانة الصالحة لحديث: «إذا أراد الله بعبده الخير جعل له بطانة صالحة ....» الحديث.

ويجب عليه مشاورة أهل الحل والعقد؛ لقول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إلى غير ذلك من الحقوق التي أوجبها الله عزوجل.

وعليه أن يكون جادًّا في إظهار شعار الدين وإقامة الحدود وغير ذلك من حقوق الولايات، ويجب عليه أن يتعلم الحلال والحرام، وأن يبتعد عن المحاباة والمداهنة؛ لأهل البدع والريب والكفار.

قال الحسن البصري رحمه الله، كما في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١١٧): هم يلون من أمورنا خمسًا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا أو ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن والله إن طاعتهم لغيظ، وإن فرقتهم لكفر. اهـ

وذكر ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/ ١٩٥-١٩٦) قال: يقول حنبل: اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله، وقالوا له: إن الأمر قد تفاقم وفشا يعنون إظهار القول بخلق القرآن وغير ذلك، ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه، فناظرهم في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار بقلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وقال: ليس هذا صواب، هذا خلاف الآثار. اهـ

وقال البربهاري رحمه الله في «شرح السنة»: إذا رأيت الرجل يدعو على السلطان؛ فاعلم أنه صاحب هوى، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح؛ فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله.

يقول فضيل بن عياض: لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها؛ إلا في السلطان، قيل له: يا أبا علي فسر لنا، هذا قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعدني، وإذا جعلتها في السلطان صلح فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين. اهـ

ولا يجوز الخروج على أولياء أمور المسلمين بحال إلا بشروط:

١- الكفر البواح، كما في حديث عبادة بن الصامت: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ الله فِيهِ بُرْهَانٌ».

ولحديث: أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: «لا؛ ما صلوا».

٢- أن يبدل بخير منه، أو أقل ضررًا منه.

٣- أن لا يقع الضرر والقتل على المسلمين.

هجر أهل البدع

وأرى هجر أهل البدع ومباينتهم حتى يتوبوا، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله[1].

٤- أن لا يستعان بالكافرين.

وهذا الشروط كنا نسمعها من شيخنا الوادعي رحمه الله تعالى.

وتكون الطاعة لهم في المعروف على ما تقدم «فإنه لا طاعة في معصية» كما هو معلوم من الدين بالضرورة أن طاعة الله عزوجل مقدمة على كل طاعة، وطاعة أولياء الأمور إنما هي تبع لطاعة الله عزوجل، وطاعة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله: «ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، وغلبهم بسيفه، حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرم الخروج عليه» في هذه الفقرة أن الخلافة تنعقد بعدة أمور:

الأول: اجتماع الناس على اختياره كما هو الحال في بيعة أبي بكر رضي الله عنه.

الثانية: باستخلاف الخليفة له، كما حصل في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب، ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك.

الثالثة: باختيار أهل الحل والعقد له، كما جعل عمر رضي الله عنه الأمر شورى في اختيار الخليفة الثالث في أهل الحل والعقد الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو عنهم راضٍ.

الرابعة: أن يستتب الأمر له بعد أخذ الخلافة قهرًا بالسلاح، فتجب طاعة من صار خليفة للمسلمين بإحدى هذه الطرق، ولا تجوز منازعتهم والخروج عليهم بحال؛ إلا أن نرى كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان، وبالشرط السابق ذكرها.

[1] قوله: «وأرى هجر أهل البدع ومباينتهم» البدعة هي طريقة في الدين على غير مثال سابق.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: البدعة في الدين هي: ما لم يشرعه الله ورسوله. اهـ

والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أخبر أن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، على ما يأتي

بيانه، وأهل البدع أضر على الإسلام من أهل المعاصي، وذلك لأن العاصي يعرف تقصيره، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فالمعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المستدرك على المجموع» (٢/ ٩٧): فالمنحرف إما المبتدع في دينه، وإما الفاجر في دنياه، كما قال الحسن البصري وسفيان الثوري، وجماعات من السلف: إن من سلم من فتنة البدعة، وفتنة الدنيا، فقد سلم، وإن كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ ففتنة البدعة في أهل العلم والدين، وفتنة الدنيا في ذوي السلطان والمال. اهـ

والواجب على المسلمين جميعًا مجالسة أهل السنة ومجانبة أهل البدعة، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف:٢٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨].

قال قتاده: نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها، وإن نسي فلا يقعد بعد الذكر مع القوم الظالمين، أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٣١).

وأخرج أيضًا عن ابن عون قال: كان محمد بن سيرين يرى أن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، ويرى أن هذه الآية نزلت فيهم: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في حديث أبي موسى: عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً. أخرجه البخاري (٢٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء:١٤٠].

قال ابن جرير (٥/ ٣٣٠): وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم.

ومن الأدلة في النهي عن مجالسة أهل البدع والمعاصي ما أخرجه البخاري (٤١١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) في قضية تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه، وفيه: ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ؟، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي وَالله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله، وَالله مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ؛ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ» فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَالله مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لَكَ، قَالَ: فَوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، قَالَ: وَنَهَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قَالَ: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ

فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ؛ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ؛ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِالله هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؛ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ؛ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ، فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، قَالَ: فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ؛ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ»، فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَوَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، قَالَ: فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا، قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، قَالَ: فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ؛ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا.

وأخرج الآجري في «الشريعة» (٦١)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٣٨) عن ابن عباس: (لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلب).

وقال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا أمن أن يغمسوكم في الضلالة أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم).

أخرجه الدارمي (١/ ١٢٠) وغيره.

وأخرج أيضًا عن أيوب قال: (رآني سعيد جلست إلى طلق فقال: ألم أرك جلست إلى طلق ابن حبيب، لا تجالسنه فإنه مرجئ).

فمن هذا تبين أن مجالسة أهل السنة مرغب فيها ومحبوبة عند الله عز وجل، قال تعالى: (وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتجالسين فيَّ). أخرجه مالك عن معاذ رضي الله عنه.

وبما أنها محبوبة عند الله عز وجل، فهي من أجل العبادات الموصلة إلى مرضات ربنا عز وجل.

ثم إنها سبب لنشر الخير وبثه، وسيأتي مزيد بيان في الوسيلة التالية إن شاء الله، ولنقف مع بعض من تأثر بمجالسة أهل البدع والريب.

ذكر الذهبي في السير (٤/ ٢١٤) في قصة عمران بن حطان مع زوجته الخارجية قال: حدث سلمة بن علقمة عن ابن سيرين قال: تزوج عمران بن حطان خارجية وقال: سأردها قال، فصرفته إلى

مذهبها حتى بلغ من شعره أن قال في وصف بن ملجم:

يـــا ضربـــة مـــن تقـــي مـــا أراد بهـــا ... إلا ليبلـــغ مـــن ذي العـــرش رضـــوانا

إني لأذكـــــره حينًــــا فأحســــبه ... أو في البريـــــة عنـــــد الله ميزانـــــا

أكـــرم بقـــوم بطـــون الطـــير قـــبرهم ... لم يخلطـــوا ديـــنهم بغيًـــا وعـــدوانا

وجعفر بن سليمان الضبعي مع عبد الرزاق الصنعاني.

فقد قال الذهبي في «السير» (٩/ ٥٧٠): ما أفسد عبد الرزاق سوى جعفر بن سليمان يعني أنه جالسه فأدخل عليه التشيع.

بينما لو نظرت إلى مجالس أهل السنة لرأيت أن من جالسهم انتفع وترك باطله، إلا من أراد الله إزاغته.

دل على ذلك ما أخرجه مسلم (١٩١): عَنْ يَزِيدُ الْفَقِيرُ قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ الله مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ وَ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَام -يَعْنِي: الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ-، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ قَالَ: «غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاطِيسُ» فَرَجَعْنَا، قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فَرَجَعْنَا فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ.

وأخرج النسائي في «الخصائص» (١٩٥)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٥٧) من طريق عكرمة قال: حدثنا أبو زميل الحنفي قال حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما اعتزلت الحروراء فكانوا في دار على حدتهم، فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: إني أتخوفهم عليك، قلت: كلا إن شاء الله تعالى، قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، قال: فدخلت على قوم لم أر قوما قط أشد اجتهادًا منهم أيديهم كأنها ثفن الإبل، ووجوههم معلمة من آثار السجود، قال: فدخلت، فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما جاء بك؟ قلت: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليهم نزل الوحي وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم: والله لنحدثنه، قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم معه، قالوا: ننقم عليه ثلاثًا، قال: قلت: وما هن؟ قالوا: أولهن: أنه حكم الرجال في دين الله، وقد قال الله: ﴿إِنِّ الحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ قال: قُلت: وماذا قالوا؟ وقاتل ولم يسب ولم يغنم لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم، قال: قلت: وماذا قالوا؟ محا نفسه من أمير المؤمنين؛ فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم، قال: قلت: أما قولكم حكم الرجال في دين الله؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم، قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم: إنه قاتل ولم

يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأنتم مترددون بين ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم دعا قريشًا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا، فقال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: والله إني لرسول الله حقًا وإن كذبتموني اكتب يا علي محمد بن عبد الله؛ فرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان أفضل من علي رضي الله عنه، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفًا، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا.

تقدم بيان وجوب البعد عن مجالسة أهل البدع، وما ذلك إلا لأنها تؤدي إلى انقطاع الداعي إلى الله عز وجل عن دعوته بسبب تأثره بالمجالس، وباب الهجر هو من باب النهي عن مجالسة أهل البدع والريب لكن أحببت أن أفرده لأن بعض الناس ربما ظن أن الهجر هو ترك المجالسة فقط.

وأذكر أن الشيخ الإمام مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى لما رجع من السعودية إلى صنعاء في رحلته العلاجية كان مما تكلم به في مجلسه الحث على التميز والبعد عن أهل البدع، فلما كان بعد صلاة الفجر ذلك اليوم قام بكلمة مختصرة قال فيها: عليكم بالتميز، ما نصر الله دعوتنا إلا بالتميز، أي مجانبة أهل البدع وهجرهم والتبرء منهم.

وهجر المسلم محرم بالسنة والإجماع، وإنما استثني منه الهجر لأهل البدع والريب والمعاصي بضوابطها، لما في ذلك من المصلحة الدينية والدنيوية.

قال الخطابي في «معالم السنن» (٢/ ١٢٢): وأما هجران الوالد والولد والزوج والزوجة ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نساءه شهرًا. اهـ

ويكون الهجر من الإمام والمطاع كما في قصة كعب بن مالك وتخلفه عن غزوة تبوك وقد تقدم.

قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٥٧٨): وفيه دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه، إذ المراد تأديبه لا اتلافه.

وأما هجر أهل البدع والأهواء فإنها دائمة على مر الزمان حتى يتوبوا من بدعتهم ويأبوا من غيهم، ويراجعوا دينهم وسنة نبيهم التي عاشوا عنها ناكبين، ولسبيلها هاجرين ولعهدها ناكثين.

قال الخطابي رحمه الله في «معالم السنن» (٧/ ٥) في شرح حديث كعب، فيه من العلم أن تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث إنما هو فيما يكون سببًا من قبل عتب وموجدة، أو لتقصير يقع في حقوق العشرة ونحوها دون ما كان ذلك في حق الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدعة دائمة على مر الزمان، ما لم تظهر منه التوبة والرجوع عن الحق.

وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه إلى غزوة تبوك فأمر بهجرانهم، وأمرهم بالقعود في بيوتهم نحو خمسين ليلة، إلى أن أنزل سبحانه توبته وتوبة أصحابه، فعرف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم براءتهم من النفاق. اهـ

وقال النووي رحمه الله في شرح الحديث (١٧/ ١٠٠): فيه استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم تحقيرًا لهم وزجرًا.اهـ

وقال في «روضة الطالبين» (٧/ ٣٦٧-٣٦٨): إن الهجر بعذر بأن كان المهجور مذموم الحال لبدعة أو فسق أو نحوهما، أو كان فيه صلاح لدين الهاجر والمهجور فلا تحريم، وعلى هذا يحمل ما ثبت من هجر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كعب بن مالك وصاحبيه، ونهيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصحابة عن كلامهم، وكذلك ما جاء في هجران السلف بعضهم بعضًا. اهـ

وقد نقل إجماع العلماء غير واحد من العلماء في وجوب هجران أهل البدع ومنابذتهم من أراد أن

يقف عليها فليراجع كتاب: «إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء».

وكتاب: «موقف أهل السنة من البدع والأهواء» للرحيلي، و«هجر المبتدع» لبكر أبو زيد، وغيرها من الكتب.

وإليك بعض المواقف الدالة على منابذة السلف لأهل البدع والأهواء.

أخرج الدارمي في مقدمة سننه، واللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة» (١١٣٦): عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ الله: أَنَّ صَبِيغًا الْعِرَاقِيَّ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ الْقُرْآنِ فِي أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَدِمَ مِصْرَ فَبَعَثَ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلَمَّا أَتَاهُ الرَّسُولُ بِالْكِتَابِ فَقَرَأَهُ فَقَالَ أَيْنَ الرَّجُلُ قَالَ فِي الرَّحْلِ قَالَ عُمَرُ أَبْصِرْ أَيَكُونُ ذَهَبَ فَتُصِيبَكَ مِنْهُ الْعُقُوبَةُ الْمُوجِعَةُ فَأَتَاهُ بِهِ فَقَالَ عُمَرُ تَسْأَلُ مُحْدَثَةً وَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى رَطَائِبَ مِنْ جَرِيدٍ فَضَرَبَهُ بِهَا حَتَّى تَرَكَ ظَهْرَهُ دَبِرَةً ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ ثُمَّ عَادَ لَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ فَدَعَا بِهِ لِيَعُودَ لَهُ قَالَ فَقَالَ صَبِيغٌ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ قَتْلِي فَاقْتُلْنِي قَتْلًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُدَاوِيَنِي فَقَدْ وَالله بَرَأْتُ فَأَذِنَ لَهُ إِلَى أَرْضِهِ وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ لَا يُجَالِسَهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ أَنْ قَدْ حَسُنَتْ تَوْبَتُهُ فَكَتَبَ عُمَرُ أَنْ ائْذَنْ لِلنَّاسِ بِمُجَالَسَتِهِ.

وأسانيدها لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضًا.

وقد استوعبها الحافظ في «الإصابة» (٢/ ١٩٨-١٩٩)، وصحيح بعض أسانيدها، وصححها ابن كثير وشيخنا الحجوري في تحقيقه لمقدمة «سنن الدارمي» وغيرهم كثير.

وأخرج البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أنه رأى رجلًا يخذف فقال له لا تخذف فإن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يكره أو قال ينهى عن الخذف فإنه لا يصطاد به الصيد ولا ينكأ به العدو ولكنه يكسر السن ويفقأ العين ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يكره أو ينهى عن الخذف ثم أراك تخذف لا أكلمك كلمة كذا وكذا.

قال النووي في شرح الحديث (١٣/ ١٠٦): فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرهم دائمًا والنهي عن الهجران فوق ثلاث أيام إنما هو في حق من هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائم.

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٢٨/ ٢٠٤-٢٠٥): الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات حتى يتوب منها، كما هجر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ولم يهجر من أظهر الخير، وإن كان منافقًا فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير، والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحش والداعى إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الامة التى ظهر أنها بدع، وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة أن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم، ولا يناكحون؛ فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا، ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم؛ فإنه ليس شرًا من المنافقين الذين كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم. اهـ

والهجر يستخدم إذا كانت فيه مصلحة للسنة وأهلها، إما إذ لا مصلحة فيه وإنما تحصل منه مفسدة وعزلة للسني وظهور للبدعي فهنا يترك حتى تقوى السنة، وهذه فتوى الإمام الوادعي، والعلامة الحجوري وعليها شيخ الإسلام .

قال حيث كما في «المجموع» (٢٨/ ٢٠٦-٢٠٧): وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم فان المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله فان كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضى هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعا وان كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس

أنفع من التأليف ولهذا كان النبى يتألف قوما ويهجر آخرين كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرا من اكثر المؤلفة قلوبهم لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم وهؤلاء كانوا مؤمنين والمؤمنون سواهم كثير فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة والمهادنه تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الاحوال والمصالح، وجواب الائمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبنى على هذا الأصل ولهذا كان يفرق بين الأماكن التى كثرت فيها البدع كما كثر القدر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة وبين ما ليس كذلك ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم واذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه.

إلى قوله: ... ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدرية في البصرة والتجهم بخرسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وغذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطريق إليه.

وقال رحمه الله (٢٨/ ٢١١-٢١٣): وعقوبة الظالم وتعزيره مشروط بالقدرة فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعى الهجرتين بين القادر والعاجز وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظلم من الكفر والفسوق والعصيان فإن كلما حرمه الله فهو ظلم اما في حق الله فقط واما في حق عباده واما فيهما وما امر به من هجر الترك والانتهاء وهجر العقوبة والتعزير إنما هو إذا لم يكن فيه مصلحة دينية راجحة على فعله والا فاذا كان في السيئة حسنة راجحة لم تكن سيئة واذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة بل تكون سيئة وان كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة

فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التى هي ظلم وذنب وأثم وفساد وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهى عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا وليقوى الايمان والعمل الصالح عند اهله فان عقوبة الظالم تمنع النفوس عن ظلمه وتحضها على فعل ضد ظلمه من الايمان

والسنة ونحو ذلك فاذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء احد بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مامورا بها كما ذكره أحمد عن أهل خراسان اذ ذاك انهم لم يكونوا يقوون بالجهمية فاذا عجزوا عن أظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ولعله ان يكون فيه تأليف الفاجر القوى وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة فلو ترك رواية الحديث عنهم لاندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم فاذا تعذر اقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك الا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل وكثير من أجوبة الامام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول إنما يثبت حكمها في نظيرها

فان أقوامًا جعلوا ذلك عاما فاستعملوا من الهجر والأنكار ما لم يؤمروا به فلا يجب ولا يستحب وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية بل تركوها ترك المعرض لا ترك المنتهى الكاره أو وقعوا فيها وقد يتركونها ترك المنتهى الكاره ولا ينهون عنها غيرهم ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها فيكونون قد ضيعوا من النهى عن المنكر ما أمروا به إيجابا أو إستحبابا فهم بين فعل المنكر أو ترك النهى عنه وذلك فعل مانهوا عنه وترك ما أمروا به فهذا هذا ودين الله وسط بين الغالى فيه والجافى عنه والله سبحانه أعلم. اهـ

وقال رحمه الله (٢٨/ ٢٠٩): واذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعادات والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الأكرام والأهانة فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذى

اتفق عليه أهل السنة والجماعة. اهـ

وأيضًا يستخدم الهجر في حق بعض العصاة المظهرين كما تقدم.

قال شيخ الإسلام (٢٨/ ٢١٧-٢١٨٩): وأما اذا اظهر الرجل المنكرات وجب الانكار عليه علانية ولميبق له غيبة ووجب ان يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره فلا يسلم عليه ولا يرد عليه السلام إذا كان الفاعل لذلك متمكنا من ذلك من غير مفسدة راجحة وينبغى لأهل الخير والدين أن يهجروه ميتا كما هجروه حيا اذا كان في ذلك كف لامثاله من المجرمين فيتركون تشييع جنازته كما ترك النبى الصلاة على غير واحد من أهل الجرائم وكما قيل لسمرة بن جندب ان أبنك مات البارحة فقال لو مات لم أصل عليه يعنى لأنه أعان على قتل نفسه فيكون كقاتل نفسه وقد ترك النبى الصلاه على قاتل نفسه وكذلك هجر الصحابة الثلاثة الذين ظهر ذنبهم في ترك الجهاد الواجب حتى تاب الله عليهم فاذا أظهر التوبة أظهر له الخير .

وانظر إلى حال السلف فى هذا الباب فهذا عبد الله ابن عمر رضي الله عنه كما عند اللالكائي (١١٣٥) من طريق نافع قال: بينما نحن عند عبد الله بن عمر جاءه انسان فقال: إن فلان يقرأ عليك السلام لرجل من أهل الشام، فقال ابن عمر: إنه قد بلغني أنه أحدث حدثًا، فإن كان كذلك فلا تقران عليه مني سلام.

وسنده حسن.

وأخرج رقم (١١٤١) من طريق عمرو بن دينار قال: بينا طاووس يطوف بالبيت لقيه معبد الجهني فقال له طاووس: أنت معبد؟

قال: نعم، فالتفت إليهم طاووس فقال: هذا معبد فأهينوه.

وأخرج (١١٤٧) من طريق ابن أبي عاصم قال: قال ابن أبي رواد قد جاءكم ثور فاتقوه، لا ينطحكم بقرنيه يعني ثور بن يزيد، قال الشيخ: وكان قدريًا.

وأخرج (١١٤٨) من طريق محمود بن غيلان: سمعت مؤمل ابن إسماعيل يقول في غير مجلس يقبل

علينا احرج على كل مبتدع جهمي أو رافضي أو قدري أو مرجئ سمع مني، والله لـو عـرفتكم مـا حدثتكم.

وأخرج (١١٤٩) قول الفضيل بن عياض: من جلس مع صاحب بدعة فاحذره، ومن جلـس مـع صاحب البدعة لم يعط الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد.

آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة. اهـ

وما ذلك إلا لأن اليهودي والنصراني معروف شره ولن يُغتربه بينما صاحب البدعـة قـد يجـرك إلى بدعته وأنت لاتشعر .

وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٩٦): أن الناس وثبوا على بشر المريسي عند سفيان بن عيينـة حتى ضربوه، وقالوا: جهمي، فقال له سفيان: يا دويبة يا دويبة، ألم تسمع الله يقول:(ألا له الخلـق والأمر)، فأخبر الله عز وجل: أن الخلق غير الأمر.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» (٦٦) بسند صحيح عن هارون الرشيد أنه قال: بلغني أن بشرًا المريشي يزعم أن القرآن مخلوق لله علي إن اظفرني الله به إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحدًا قط.

وأخرج رحمه الله بسنده (٢/ ٤٣٤): عن محمد بن كعب القـرضي: أن الفضـل الرقـاشي قعـد إليـه فذاكره شيئًا من القدر، فقال له محمد بن كعب القرضي: تشهدفلما بلغ من يهـده الله فـلا مضـل لـه ومن يضلل فلا هادي له رفع محمد عصا معه فضرب بها رأسه وقال قـم فلـما قـام فـذهب قـال لا يرجع هذا عن رأيه أبدا.

وأخرج الآجري في «الشريعة»: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القـدر فبعـث إليه فحجبه.

وأخرج الفريابي في «القدر» (٢٠٦) عن ابن عون قال: كنا جلوسًا في مسـجد بنـي عـدي، فـدخل معبد الجهني المسجد فقال أبو السوار: ما يدخل هذا مسجدنا، لا تدعوه يجلس إلينا.

قال الوادعي في «الجامع الصحيح في القدر»: أثر صحيح.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة»: عن أبي الزبير أنه كان يطوف مع طاووس بالبيت، فمر بمعبد الجهني، فقال قائل لطاووس: هذا معبد الجهني الذي يقول في القدر فعدل إليه طاووس حتى وقف عليه، فقال: أنت المفتري على الله عز وجل القائل ما لا تعلم، قال معبد: يكذب علي، قال أبو الزبير: فعدلت مع طاووس حتى دخلنا على ابن عباس، فقال له طاووس: يا أبا عباس الذين يقولون في القدر، فقال ابن عباس: أروني بعضهم، قال: قلنا: صانع ماذا قال إذا أجعل يدي في رأسه ثم أدق عنقه.

قال الوادعي: هذا الأثر سنده حسن.

فهذا باب عظيم لنصرة السنة وأهلها، وهو البرأة والبعد وهجر أهل الأهواء والريب والتميز عنهم، وترى زهد السلف وحرصهم على كل خير ومع ذلك لا تأخذهم في المبتدعة لومة لائم، يغضبون لله عز وجل، وينابذون من نابذ الكتاب والسنة.

والعجب أن كثيرًا من الناس ممن يتقمص القماص السلفي في هذه الأيام تجده سهلًا هينًا لينًا لأهل البدع بدعوى الرحمة بالمسلمين والشفقة عليهم والحكمة في الدعوة ما هذا والله إلا من التميع الذي يؤدي إلى زحزحة الدين والسنة يجاملهم تارة بالابتسامات والمجالسات والمراسلات وإن ذكرهم ذكر محاسنهم وترك مساوئهم.

وإن حذر المصلحون من أهل البدع خذلهم، فلا خير في هذا الصنف ولا كرامة، بل هم والله أضر على الدعوة من المبتدعة؛ لأنهم بصنيعهم هذا يظهرون بالاعتدال والوسيطة، وربما اغتر بهم بعض من لا يعرف أصحاب البدعة، فإنا لله وإنا إليه راجعون من الخذلان ومن هذه الأصناف السقيمة المريضة الذين تنكروا الطريقة السلف الصالحين والعلماء المصالحين ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦].

وقوله: «حتى يتوبوا، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله» قد تكلمت على فضل التوبة وشروطها وما يتاب منه في مؤلف مستقل بعنوان «شروط التوبة إلى الله عزوجل» والذي يهمنا في

هذا الموطن هو الكلام على توبة المبتدع وحكمها، والبدعة معصية من المعاصي، وما من ذنب إلا ومنه توبة.

قال الله عزوجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ فإذا كانت التوبة مقبولة من المشرك الكافر، فمن باب أولى من دونه، وسواء كانت البدعة مفسقة أو مكفرة، وقد اختلف أهل العلم في توبة المبتدع، والصحيح قبول توبته على ما تقدم.

وشروط توبته على النحو التالي:

أولاً: توبة العبد فيما بينه وبين الله.

ثانيا : توبة العبد في حقوق الآدميين .

ثالثا : توبة الكافر.

رابعا : توبة المنافق.

خامسا: توبة المبتدع .

فلعلَّ الله ﷻ أن ينفع بها المسلمين فإن الناس قد تخبطوا وخلطوا في هذا الباب مع أنه ينبغي أن يكون منضبطا لقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم : ٨].

قال ابن كثير في قوله توبة نصوحا : أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات ا.هـ

وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» [١/ ١٠١] : التوبة النصوح كما قال الحسن البصري: ندم القلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أنه لا يعود، قال: وقال البغوي في «تفسيره»: قال عمر وأُبيّ ومعاذ ﷺ: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب ، كذا قال والكلام في صحته عنهم نظر.

وقال [١/ ١٠٢]: التوبة النصوح تجمع أربعة أشياء: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، وإضمار أنه لا يعود ، ومجانبة خلطاء السوء.

مسالة: هل يشترط التلفظ بالتوبة:

الظاهر والله أعلم اشتراطه قال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» [١/ ٩٨-٩٩]: قيل يشترط مع ذلك اللهم إني تائب إليك من كذا وكذا واستغفر الله ، وقال: ولم أجد من صرح باعتبارها ولا أعلم له وجها ، ثم ذكر رحمه الله حديث أنس عند الترمذي، وقد تقدم أنه يلزم التلفظ بها، وهذا هو الراجح والله أعلم .

أولا: توبة العبد من الذنب الذي بينه وبين الله عزوجل:

كأن يكون تارك صلاة وغيرها من المعاصي التي لا تتعلق بحق آدمي فهذه لها خمسة شروط هي:

١- الإخلاص لله ﷻ أن يتوب الله عليه ويتجاوز عما فعل من المعصية لا يقصد بذلك مراءاة الناس، والتقرب إليهم ولا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، وأن يعفو الله عن ذنوبه، يدل على ذلك حديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥]، والتوبة عبادة يجب فيها الإخلاص كغيرها من العبادات، وإن مل يخلص فيها لله ردت على صاحبها لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال القرطبي في «المفهم» [٧/ ٧٠]: في كلامه على من جعل التوبة هي الندم والإقلاع والعزم على عدم العود بيان الأول أنه قد يندم ويقلع ويعزم ولا يكون تائبا شرعا إذ قد يفعل ذلك شحا على ماله أو لا يعيّره الناس من ذلك، ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالنية والإخلاص، فإنها من أعظم العبادات الواجبات ولذلك قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم/ ٨] ا.هـ

الإقلاع عن المعصية التي هو فيها والإقلاع عن الذنب يكون بحسبه، فإن كان الذنب ترك واجب،

فالإقلاع عنه بفعله، وإن كانت المعصية بفعل محرم، فالواجب أن يقلع عنه فوراً ولا يبقى فيه لحظة ويدل على ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال : ٣٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان : ٦٨] إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان : ٧٠]، وهذا الشرط يدخل عليه كما قال القرطبي في «المفهم» [٧/ ٧٠]: فبيانه أنه يخرج منه من زنى ثم قطع ذكره فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنا . اهـ

وقال ابن القيم في «المدارج»: وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب ا.هـ

وقال ابن مفلح في «الآداب» [١/ ٧١]: ولا تصح التوبة من ذنب أصر على مثله ا.هـ

الندم على فعل المعصية لأن الشعور بالذنب هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة وقديما قيل التوبة ندم ، قال الله تعالى مخبرا عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص : ١٦]، وقال مخبرا عن يونس: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] قال صاحب «المنازل»: وشرائط التوبة الندم والإقلاع والاعتذار.

قال ابن القيم : فذلك دليل على عدم رضاه به وإصراره عليه، وفي «المسند»: الندم توبة، وفي قوله والاعتذار، قال ابن القيم: والذي ظهر لي من كلام صاحب المنازل أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة. ا.هـ

العزم على عدم العود إلى هذه المعصية ولا يشكل علي ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآنف الذكر في المقدمة «قد غفرت له فليفعل ما شاء» فليس في الحديث أن الرجل حين كان يتوب وهو عازم على العود، ولكنة كان يتوب توبة صادقة مستوفية الشروط، ثم تغلبه نفسه وشهوته وشيطانه ويعود في الذنب وهكذا ، والله أعلم.

أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة والزمن الذي لا تقبل فيه التوبة يكون باعتبارين الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه، والثاني: باعتبار العموم .

أما الأول فأن تكون التوبة قبل حلول الأجل لقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٧، ١٨].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية بعد أن ساق مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد، فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عزوجل وهو يرجوا الحياة، فإن توبته مقبولة ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وأما متى وقع اليأس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة متقبلة حينئذ ولآت حين مناص ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨] .اهـ

قال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» [١/ ١٢٩]: والثاني ما دل عليه قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].اهـ

وهذه الآية مفسرة بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم [١٥٧] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثلاث إذا خرجت لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل إيمانها طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم [٢٧٠٣] «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

وقال القرطبي في «المفهم» [٧/ ١٠٥]: يعني أن التوبة تصح وتقبل دائما قبل أن تطلع الشمس من مغربها فإذا كان ذلك طبع على كل قلب بما فيه ولم تنفع توبة أحد. اهـ

إذ يشترط في التوبة أن تكون في زمن ووقت تقبل فيه التوبة، فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان .

راجع «شرح رياض الصالحين» للعثيمين باب التوبة .

قال القرطبي في «المفهم» [٧/ ٧١]: فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك الذي ذكرناه – أي ترك اختيار ذنب سبق منك مثله حقيقة، أو تقديرا لأجل الله غير أن منها ما لم يكتب الشرع منه بمجرد الترك، بل أضاف إلى بعضها قضاءها كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث في الأيمان والظهار وغير ذلك، فلا يرتفع ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمر الله به من القضاء والكفارة.

ثانيًا : توبة العبد في حقوق الآدميين:

توبة العبد من ذنب بينه وبين من سواه من العبيد ، أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم :« أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ »، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِى قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره في «الصحيح»: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، وفي حديث أبي بكرة في «الصحيحين» وجاء في مسلم: «إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»، وفي حديث ابن عمر: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) أخرجه الشيخان.

وجاء في «الصحيح» عن أبي هريرة مرفوعاً: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»، وفي حديث أسامة بن شريك عند البخاري في «الأدب المفرد» : «عباد الله وضع الله الحرج إلا على أمرءٍ اقترض امرء ظلماً، فذلك الذي حرج وهلك».

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كان عنده لأخيه مظلمة من عرضه، أو ماله فليتحلله قبل أن لا يكون دينار ولا درهم» أخرجه مسلم.

وفي الحديث القدسي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا» أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين عظم انتهاك الحقوق، فهل يكفي في التوبة من حقوق الآدميين ما مر في البند الأول، أما هنالك شرط زائد ؟

الجواب: هنالك شرط سادس على ما تقدم وهو التحلل من هذه المظالم التي وقع فيها العبد؛ لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة.

قال النووي رحمه الله في «رياض الصالحين» حين ذكر الثلاثة الشروط: وإن كانت المعصية تتعلق بحق الآدمي، فشروطها أربعة هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً، أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه، أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها. اهـ

قال صاحب «مكفرات الذنوب وموجبات الجنة»: وأجمع العلماء على أن التوبة واجبة من كل ذنب. فإن كانت معصية بين العبد وبين الله تعالى، فلا تتعلق بحق آدمي، فلها شروط ثلاثة: أحدها: أن يقلع عن المعصية.

الثاني: أن يندم فعلها.

الثالث: أن يندم على ألا يعود إليها أبدا.

فإن كانت معصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة.

والرابع: أن يبرأ من حق صاحبها.

فإن كان مالا، أو نحوه رده إليه. وإن كان غيبة استحله منها.

وإن كان حد قذف، أو نحوه مكنه من القصاص أو طلب عفوه.

والتوبة واجبة على الفور من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته مما تاب منه، وبقى عليه ما لم يتب منه.

لكن قد يسرق الرجل مالاً أو يأخذ ماله فإن اختار إعطاء المال أعطاه ماله حتى يتخلص من تبعات الحقوق وهذه فتوى شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى وغيره من أهل العلم ، قال الإمام ابن

مفلح في «الآداب الشرعية» [١/ ٧١]: قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن رجل أختان – أي سرق أو غصب – من رجل مال ثم إنه أنفقه وأتلفه، ثم إنه ندم على ما فعل وتاب وليسم عنده ما يؤدي، فهل يكون في ندمه وتوبته ما يرجى له إن مات على فقره خلاص مما عليه فقال أبي: لا بد لهذا الرجل من أن يؤدي الحق وإن مات فهو واجب عليه، وقال: في رواية محمد بن الحكم فيمن غصب أرضا لا يكون تائبا حتى يردها على صاحبها، وإن علم شيئا باقيا من السرقة أيضا ردها عليه أيضا، وقال فيمن أخذ من أرض المسلمين: توبته أن يرد ما أخذ .اهـ

وإن كان الحق غيبة فللعلماء فيه قولان:

الأول : أن يذهب إليه ويتحلل منه.

الثاني : يكفي أن يدعو له، ويذكره بخير في المجالس التي اغتابه فيها .

وقد فصل الشيخ ابن عثيمين كما في «شرح رياض الصالحين» تفصيلا طيبا وهو: إن كانت الغيبة قد بلغته فهنا يستسمح منه، وإن كانت لم تبلغه، فإنه يستغفر له ويذكره بخير على ما تقدم وهذا تفصيل جيد، وقد ذكر هذا القول ابن مفلح في «الآداب الشرعية» وقال: ذكر تقي الدين أنه قول الأكثرين.

وذهب شيخنا مقبل رحمه الله تعالى: إن كان الرجل إن أخبر أخاه بأنه اغتابه يؤدي إلى شحناء، فهنا يكفي أن يستغفر له ويذكره بخير، والله اعلم .

قال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» [١/ ٧٣]: وقال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح بعد أن ذكر الروايتين: فكل مظلمة في العرض من اغتياب صادق وبهت كاذب فهو في معنى القذف، إذ القذف قد يكون صادقا، فيكون في المغيب غيبة، وقد يكون كذبا فيكون بهتا، واختار أصحابنا أنه لا يعلمه، بل يدعو له دعاء يكون إحسانا إليه في مقابل مظلمته.

وقال القرطبي في «المفهم» [٧/ ٧١]: وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم توصل إلى أربابها لم يتخلص من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمره الله به، ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق فلم يقدر على الخروج منها فعفو الله مأمول، وفضله مبذول، وكم ضمن من التبعات، وكم بدل من السيئات بالحسنات .اهـ

قال ابن مفلح في «آداب الشرعية» [١/ ١٢٢-١٢٣]: ومن لم يندم على ما حد به لم يكن حده توبة . ذكره في الرعاية، وذكره غير واحد منهم ابن عقيل قالوا هو مصر والحد عقوبة لا كفارة: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ١١٤]، واستدلوا بآية المحاربة .

والأولى أن يقال: يكون الحد مسقطا لإثم ذلك الذنب في الدنيا، فهو كفارته كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن لقيه مصرا غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة، فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، ومن لقيه كافرا عذبه ولم يغفر له»، ونقل محمد بن عوف الحمصي عن أحمد نحو هذا إلا أنه قال: «فأمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له إذا توفي على الإسلام والسنة»، ولم يذكروا من لقيه كافرا إلى آخره .

وفي «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لأصحابه: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب منكم شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارته ، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عز وجل عليه، فأمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له» قال: فبايعناه على ذلك وسبق قريبا حديث ابن عمر في النجوى وقول الله عز وجل: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»، فهذا لمن شاء الله أن يغفر له من المؤمنين .

ولأحمد عن علي رضي الله عنه مرفوعاً: «من أذنب ذنبا في الدنيا فعوقب به، فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده ، ومن أذنب ذنبا فستره الله عليه وعفا الله عنه فالله تعالى أكرم أن يعود في شيء عفا عنه»، ورواه ابن ماجه والدارقطني والترمذي وقال: غريب ولم أجد عنهم، وعفا الله عنه.

وأما آية المحاربة فإنما فيها له عذاب في الآخرة لكن على ماذا؟ فليس فيها ، ونحن نقول بها لكن على إصراره وعدم توبته لا على ذنب حد عليه لما سبق والله سبحانه أعلم قال القاضي عياض: قال أكثر العلماء الحدود كفارة استدلالا بهذا الحديث يعني حديث عبادة ومنهم من وقف لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا أدري الحدود كفارة».

كل محدثة بدعة

وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة[1].

كذا قال وحديث أبي هريرة إن صح فما سبق أصح منه وفي هذا زيادة علم فيتعين القول بها . ا.هـ.

[1] قوله: «وأعتقد أن كل محدثة بدعة» يدل على هذا حديث جرير بن عبدالله عند مسلم (١٠١٧) قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- فِى صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالآيَةَ الَّتِى فِى الْحَشْرِ ﴿اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا الله﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ -: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ**».

ولحديث عائشة المتفق عليه: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»، وأخرجه مسلم بلفظ: «من عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

ولحديث العرباض بن سارية عند الترمذي وغيره وَعَظَنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ**

مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» أخرجه أبو داود والترمذي.

وأما تقسيم بعض أهل العلم وأيضاً أهل البدع البدعة إلى قسمين بدعة حسنة وبدعة سيئة، فهذا تقسيم مبتدع لا دليل عليه شرعاً ولا عقلاً، وقد جمع شتات ما يدل على بطلانه صاحب كتاب «حقيقة البدعة وأحكامها» (٢/ ١٣٨-١٤٥) ملخصه فيما يأتي:

الأول: القول بحسن بعض البدع مناقض للأدلة الشرعية الواردة في ذم عموم البدع.

الثاني: لم يرد في آية ولا حديث ما يقيد أو يخصص هذا اللفظ المطلق العام «كل محدثة بدعة».

ثالثاً: إجماع الصحابة والتابعين ومن يليهم على ذم البدع وتقبيحها والتنفير عنها وقطع ذرائعها الموصلة إليها، وهذا بحسب الاستقراء إجماع ثابت يدل بجلاء على أنه ليس في البدع ما هو حسن.

رابعاً: من تأمل البدع بعيداً عن الهوى يجد أنها مضادة للشرع مستدركه على الشارع متهمة له بالتقصير.

خامساً: لو افترض جدلاً أنه جاء في النقل استحسان بعض البدع أو استثناء بعضها عن الذم كما لو قال الشارع: «والمحدثة الفلانية حسنة» فهنا تصير عملاً مشروعاً ولا تسمى بدعة.

سادساً: ما يفترضه بعض من يحسن البدع حسناً لا يخلو من ثلاث حالات:

الأولى: أنه يكون مما ثبت حسنه، فهذا لا يسمى بدعة شرعية وإن كان يسمى بدعة من جهة اللغة وذلك؛ لأنه مشروع بالدليل العقلي.

الثاني: أن يظن أنه حسن وليس بحسن.

الثالث: أن يكون من الأمور التي يجوز أن تكون حسنة، وأن لا تكون حسنة قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٥٨٧): إن ثبت أن هذا حسن فلا يكون بدعة أو يكون مخصوصاً، وإن لم يثبت أنه حسن فهو داخل في العموم. اهـ

سابعاً: من أدعى حسن شيء من المحدثات لزمه اتهام الدين بالنقص وعدم الكمال واقتضاء ذلك مخالفة الخبر المنزل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة : ٣]، والخبر الناطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**».

ثامناً: لإخراج بعض البدع عن الذم لابد له من مخصص يخرجها عن عموم الذم.

تاسعاً: القول بالبدعة الحسنة يفسد الدين ويفتح المجال للمتلاعبين.

عاشراً: عند النظر في بعض البدع التي يسميها أصحابها حسنة يجد أنها جلبت على أصحابها مفاسد عظيمة وأوبقتهم في المهالك الجسيمة كما في بدعة المولد.

حادي عشر: لو جاز زيادة بعض البدع في دين الله باسم البدعة لحسنة لجاز نقص بعض ما دل عليه دين الله لهذا السبب.

ثاني عشر: يقال لمحسني البدع ما هو الميزان للتفريق بين البدعة الحسنة على حد زعمك والسيئة.

ثالث عشر: لو جوزنا على الله عز وجل أن يفوض بعض الدين إلى استحساننا لجوزنا عليه سبحانه أن يفوض للمخلوقين التحكم بدينه والتصرف في شريعته والتطاول على أمره ونهيه، وهذا شنيع غاية الشناعة.

رابع عشر: نقول لمحسن البدع إن كان في الشريعة بدعة حسنة فإننا نبتدع ترك البدعة الحسنة ونرى عدم جوازها وعدم العمل بها.

خامس عشر: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة» قاعدة كلية عامة تشتغرق جميع جزئيات وأفراد البدع وبرهان ذلك أن:

١- كل من ألفاظ العموم.

٢- من أحكام لفظ كل عند أهل اللغة والأصول أن كل لا تدخل إلا على ذي جزئيات وأجزاء ومدلولها في الموضعين الإحاطة بكل فرد من الجزئيات أو الأجزاء.

٣- من أحكامها أيضاً أنها إذا أضيفت إلى نكرة فإنها تدل على العموم المتغرق لسائر الجزئيات. اهـ ملخصاً.

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٥٠٠-٥٠١) ط/ابن الجوزي: قوله: «وإياكم

ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة ، وأكد ذلك بقوله : «كل بدعة ضلالة» ، والمراد بالبدعة: ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه، فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة، وفي «صحيح مسلم» عن جابر: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول في خطبته: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وخرج الترمذي وابن ماجه من حديث كثير بن عبد الله المزني - وفيه ضعف - عن أبيه ، عن جده ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، قال : «من ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله، كان عليه مثل آثام من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا».

وخرج الإمام أحمد من رواية غضيف بن الحارث الثمالي قال: بعث إلي عبد الملك بن مروان ، فقال: إنا قد جمعنا الناس على أمرين: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر، فقال: أما إنهما أمثل بدعتكم عندي، ولست بمجيبكم إلى شيء منها؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة» فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة وقد روي عن ابن عمر من قوله نحو هذا.

فقوله - صلى الله عليه وسلم - : «كل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»، فكل من أحدث شيئا، ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه ، فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع ، فإنما ذلك في البدع اللغوية ، لا الشرعية ، فمن ذلك قول عمر - رضي الله عنه - لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد ، وخرج ورآهم يصلون كذلك فقال : نعمت البدعة هذه . وروي عنه أنه قال : إن كانت هذه بدعة ، فنعمت البدعة، وروي أن أبي بن كعب ، قال له : إن هذا لم يكن ، فقال عمر : قد علمت ، ولكنه حسن، ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ، ولكن له أصول من الشريعة

يرجع إليها، فمنها : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يحث على قيام رمضان ، ويرغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانا ، وهو – صلى الله عليه وسلم – صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة ، ثم امتنع من ذلك معللا بأنه خشي أن يكتب عليهم ، فيعجزوا عن القيام به ، وهذا قد أمن بعده – صلى الله عليه وسلم –. وروي عنه أنه كان يقوم بأصحابه ليالي الأفراد في العشر الأواخر. اهـ

ووجه الضلال في البدعة كونها طريق لم يشرعها الله عزوجل، ولا رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكونها تضاهي الدين الحق الذي شرعه الله عزوجل، ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفيها طعن في النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه لم يتم الدين، وفيها مشابهة للكافرين، إلى غير ذلك من المفاسد.

وهذه من الفتن التي انتشرت ، وهذا مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال، ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن» [أخرجه البخاري] من حديث أبي سعيد.

وسبب استشار الفتن وظهورها: قلّة العلم، لحديث: «لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم ويظهر الجهل» في «الصحيحين» من حديث أبي موسى.

ومن أسباب انتشارها أيضًا: علماء السوء الذين يحلّون الحرام، قال صلى الله عليه وسلّم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الصدور، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالمٌ؛ اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فأفتوا برأيهم» وفي رواية: «بغير علم ، فضلّوا وأضلّوا» [متفق عليه] من حديث عبد الله بن عمرو.

ومن أسباب انتشار هذه الفتن وظهورها: حبّ الدّنيا والمال، قال صلى الله عليه وسلم: «لكلّ أمّة فتنة، وفتنة أمّتي المال».

من أعظم الأسباب لانتشار هذه الفتن: وهو الضعف العقدي ، الذي أدّى إلى ظهور الضعف الفكري ،والضعف العسكري ، فأصبحوا يهرعون وراء أفكار الكفار ، ويقلّدونهم في لباسهم ، وفي

أقوالهم وأفعالهم ، إلاّمن رحم الله عز وجلّ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «من تشبّه بقوم فهو منهم» [أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمر].

أيّها الناس! لنكن على حذر من مثل هذا الحديث وغيره ، لما في مخالفة الكتاب والسنّة من العطب في الدّنيا والآخرة ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُحَادُّوْنَ الله وَرَسُوْلَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّيْنْ﴾ [المجادلة: ٢٠] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «جعلت الذلّة والصغار على من خالف أمري» [أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر].

أيها المسلمون، عباد الله: إنّ الكفّار يسعون جاهدين لزعزعة المسلمين عن دينهم ، ولذلك فإنّهم ينفقون الأموال الكثيرة لإفساد المسلمين ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوْا عَنْ سَبِيلِ الله فَسَيُنْفِقُوْنَهَا ثُمَّ تَكُوْنُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»: إنّ الكفّار ينفقون الأموال الكثيرة ، لا لأجل أن يترك المسلمون دينهم، ولكن ليتنازلوا عن بعض دينهم. اهـ

وصدق رحمه الله تعالى ، فنسأل الله أن يخيّبهم ، وهذا وعدهكما في الآية السابقة.

عباد الله: إن من أعظم الفتن في هذا العصر هي فتنة الديمقراطية ، وذلك لأنّها تستبعد حكم الله عزّ وجلّ ، وهو القائل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله﴾ [يوسف: ٤٠] وهو القائل: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] ولأنّها تسعى إلى تقويض الدّين الإسلامي ، بطريقة أو بأخرى ، فهي تدعوا إلى خروج المرأة من بيتها بحجّة التحرير لها ، حتّى تكون فريسة للزّناة والعابثين ، وهي تدعوا إلى المساواة بين الرّجل والمرأة ، وبين البرّ والفاجر ، وإلى حريّة التّديّن وحرّيّة الفكر ، ويريدون بذلك حرّية فكرهم ودينهم لا حرّية الدين الإسلامي ، وإلاّ فلماذا يضيّقون على المسلمين في بلدانهم ويفرضون عليهم نزع حجاب النّساء ، ويضيّقون عليهم في عدم إظهار شعائر الدّين كالأذان وذبح الأضاحي وغيرها؟؟!

ألا وإنّ من فتن هذا الطاغوت الذي صار إلهًا يعبد من دون الله عزّوجلّ ، ينادي بها أهلها الأمريكيون والأربيّون ، وشابههم في ذلك جهّال المسلمين ، ومن لهم أطماع: هو الانتخابات الذي

يعتبرونه الطّريقة المثلى للوصول إلى دقّة الحكم ، مع أنّ فيه مخالفات كثيرة ، يُخشى -والله- على مرتكبِها من بطش الله عزّ وجلّ ، وانتقامه ومكره وغضبه ، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْد﴾ [البروج: ١٢] وقال تعالى: ﴿شَدِيْدُ العِقَابِ ذِيْ الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رِبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذُهُ أَلِيْمٌ شَدِيْد﴾ [هود: ١٠٢] وقال صلى الله عليه وسلّم: «إنّ الله ليملي للظّالم حتّى إذا أخذه لم يفلته» [متّفق عليه].

ولا تظنّ أن الظلم فقط هو أخذأموال النّاس بالباطل ، أو قتلهم أوضربهم . . . إلى غير ذلك -هذا من الظّلم- ولكن: هناك صورة أخرى ، وهي ظلم الإنسان لنفسه ، ومرتكب الكبائر ظالم لنفسه ، ويُخشى عليه -واللهِ- من بطش الله وغضبه ومكره وعقابه كما تقدّم ، وإليك بعض الكبائر التي ترتكب في هذه الانتخابات ، مع ذلك يتساقط كثيرمن المسلمين في جرفها العميق ، الذي ظاهره الرّحمة وباطنه العذاب.

١/ هذه الانتخابات تقليد للكافرين، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، ورسول الله -صلى الله عليه وسلّم- يقول: «من تشبّه بقومٍ فهو منهم» فهل تحبُّ أن تكون مثل الكافرين ؟! سائرا على طريقهم ، متشبّها بهم ، مع أنّهم شرّ البريّة ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦] فالمسلم الذي يتشبّه بالكفّار في أيّ نوع من أنواع التشبّه الظاهر ، في لباسه أو عادته أو حركته ، يدلّ على وجود شعور باطني وإن لم يجاهر بمودّة من يتشبّه بهم ، ويدلّ التشبّه أيضا على أنّ المتشبِّه يرى نفسه أدنى من المتشبَّه به.

٢/ الانتخابات فيها مساوات الرّجل بالمرأة ،والحرّ بالعبد ، والعاصي الفاسق بالمتّقي الطائع ، والعلم بالجاهل ، والله عزّوجلّ يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِيْ الخَبِيْثَ وَالطَّيِّبْ﴾ [المائدة: ١٠٠] ويقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦] ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، ويقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الزمر: ٩].

أين عقولكم يا معاشر المسلمين، حين تصبح شهادة أحدكم بشهادة امرأة ؟! وربّما تكون مغنيّة سافرة ، أو زانية فاجرة . . أين عقولكم؟! حين يصبح صوت السكّير وصوت العالم سواء ؟! فهل من مدّكر ؟!

٣/ هذه الانتخابات فيها التصوير لذوات الأرواح ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المصوّر كما في حذيث أبي جحيفة عند البخاري ، وقال: «من صوّر صورة كلّف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامو وليس بنافخ» ويقول: «يخرج من النّار عنقٌ يقول: وكّلت بثلاثة» وذكر منهم: «المصوّرين» فأين أنت يا مسكين ؟! يا من تخدم حزبك أو شيخك ، أو مرشّحك ، من هذا الوعيد العظيم ، وأدهى وأمرّ وأقبح وأشرّ هو تصوير النّساء ، فيا أيها المسلمون!! أين غيرتكم حتّى ترضوا بخروج محارمكم للتّصوير ؟! ينظر إليها البرّ والفاجر ، والعرابدة يتغزّلون فيهن ويشبّبون بهنّ ، فرسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «لا يدخل الجنّة ديّوث» وقد كان الجاهليّون على ما فيهم من الشرّ المستطير ، كلّ شيء عندهم يهون إلاّ العرض ، ونحن في هذه الأزمان كثير من المخذولين يخرجون نساءهم بأيديهم إلى هذا الشرّ.

٤/ هذه الانتخابات فيها قول الزّور والكذب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «الكبائر: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزّور» وقد امتدح الله المؤمنين بأنّهم لا يشهدون الزّور: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] فكن أخي المسلم متّقيًا لله فيما تفعل وتذر ، ولا تكن مزوّرا غشّاشا كذّابا من أجل حطام الدّنيا الفاني ، وبعضهم لا يحصل على شيء ، وإنّما هي الفتنة.

٥/ هذه الانتخابات يقع فيها إزهاق الأنفس ، عصبية لحزب ، أو مرشح ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] ورسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دمًا حرامًا» ويقول: «من استطاع ألاّ يحول بينه وبين الجنّة ملء كفٍّ من دم فليفعل».

٦/ هذه الانتخابات فيها الخروج على الحاكم المسلم ، ومنازعته ملكه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «من أتاكم وأمركم جميعا على رجل واحد، يريد أن يشقّ عصاكم، ويفرّق جماعتكم فاقتلوه» ويقول: «إذا بويع لخليفتين فاقتلو الآخر منهما»، ويقول: «يا عثمان ، لعل الله أن يلبسك قميصًا، فإن أرادوك على أن تخلعه فلا تخلعه».

٧/ الانتخابات من شارك فيها كان محادّا لله عزّو جلّ ، لأنّه يساهم في صعود من يستبعد الشّريعة الإسلاميّة بالقوانين الوضعيّة ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله﴾ [الشورى: ٢١]، والانتخابات داخلة في الإشراك بالله ، لا سيما شرك الطّاعة ، حيث ومن المعلوم أنّ الانتخابات وليدة النظام الطّاغوتي الكافر الذي وضعه أعداء الإسلام اليهود ، وأخذه عنهم النصارى.

٨/ الانتخابات تعتمد على الأكثرية ، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ويقول: ﴿وَقَلِيْلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُوْر﴾ [سبأ: ١٣] فالذي يفوز هو من كانت أصواته أكثر ، وأكثر النّاس في زمان الفتن -هذه- غوغاء ، لا يهمهم الحقّ ، وإنّما بغيتهم الحصول على مطامع الدّنيا ، من حلال أو من حرام ، ومن المعلوم أنّ السّارق ينتخب السارق ، والسّكير ينتخب السّكير ، الحزبي الحزبي ، وهلمّ جرًّا ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال أيضًا: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرُهَم لَفَاسِقِيْن﴾ [الأعراف: ١٠٢].

٩/ الذين يدخلون في الانتخابات ليس نقصرهم نصر الرّجل المناسب كما يزعمون ، ولكن كلّ أبناء حزبٍ أو طائفة يحاولون نصر مرشّحهم ، حتّى وإن كان من أفسق خلق الله ، فالإخوان المسلمون يرون أنّهم هم الصلحاء مع ماهم فيه من الحزبيّة والبدعة ، والفساد العظين الذي جرجروه على الأمّة باسم الدّين ، والمؤتمريّون على ذلك ، والاشتراكيّون مع كفرهم وبغيهم يرون أنّهم على الحقّ ، وكذا البعثيّون وكلّ مبطل يظنّ ذلك في نفسه ، ولا حقّ إلاّ في موافقة الكتاب والسنّة واتّباع سلف الأمّة:

وكلّ خير في اتباع من سلف   وكل شرّ في ابتداع من خلف

وغيرهم كذلك، وصدق الله إذ يقول: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوْن﴾ [المؤمنون: ٥٣].

١٠/ المرشّحون يزكّون أنفسهم ، ويكذبون الكذبة التي تبلغ الآفاق ، وقد نهى الله عزّ و جلّ عن تزكية النّفس بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] ويخشى عليهم بسبب كذبهم على النّاس ، وخداعهم أن يصيبهم مثل ما في حديث سمرة بن جندب، وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «مررت على رجل يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يكذب الكذبة تبلغ الآفاق» [أخرجه البخاري].

١١/ المرشّحون همّهم إرضاء مرشِّحِيهم بصورة أو بأخرى ، وليس من همهّم رضيَ الله أو لم يرض، والدّليل على ذلك تقرّبهم للروّفض وللحزبيين والصوفية والعصاة ، وغير ذلك من دون نكير عليهم ، ونخشى عليهم من حديث عائشة رضي الله عنها: «من أرضى النّاس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه النّاس».

هذه بعض المفاسد التي الواحدة منها كفيلة بتحريم الانتخابات ، وكلّ ماذكر وغيره من مفاسدها يعتبر من كبائر الذّنوب ، ولا تكفّرها الصلاة ولا القيام ، بل ولا الصّيام والصّدقة ، ولا بدّ لها من توبة ، ناهيك عن تضييع الأموال والتخوّض فيها بغير حقّ ،وتضييع الأوقات وأذيّة المسلمين بتعليق صور المرشّحين في الشوارع والحارات والطّرقات ، ومن أراد زيادة فليراجع كتاب الشّيخ الإمام مقبل بن هادي الوادعي «تحفة المجيب» و«تنوير الظلمات بكشف مفاسد وشبهات الانتخابات» نسأل الله السّلامة ، وقد جعل لها شيخنا يحيى الحجوري بندا في «المبادئ المفيدة».

قد يسأل بعضهم: كيف نختار إمام المسلمين؟؟! أو رئيس الجمهوريّة ؟! قلنا لهم: افعلوا ما فعله أسلافكم من الصّحابة والتّابعين ، فإمام المسلمين ينصّب بثلاث طرق:

الأولى: عهد الإمام أو الرّئيس السّابق له.

الثانية: يجتمع أهل الحلّ والعقد ، من العلماء والأعيان والعقلاء ، ويختارون رئيسا لهم.

الثالثة: إن أخذها قهرا لا يخرج عليه.

وأعتقد أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية هو بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[1].

شبهة والرّد عليها

يقولون: الانتخابات هي الشّورى !!!

قلنا لهم: كذبتم وإيم الله ، فإنّ بين الشّورى والانتخابات بون شاسع وفرق واسع.

- الشورى من الله ، والانتخابات من عند أعداء الله الكفّار.
- الشورى غير ملزمة ، والانتخابات ملزمة.
- الشورى فيما لا يخالف الكتاب والسّنة ، والانتخابات لا يهمهم خالفوا الكتاب والسّنة أو لا.
- الشورى في أمور الدّولة تختصّ بالرجال الأكفاء ، من علماء وعقلاء ، والانتخابات يشترك فيها البرّ والفاجر ، والرّجالو النّساء جميعًا.

هذا ونسأل الله التوفيق والسّداد وأن يلهمنا التّقوى والرّشاد.

[1] نظرًا لأهمية هذا الباب وافتراق الناس فيه؛ فإننا سنتكلم على جميع أبوابه ابتداءً بتعريفه، ثم الكلام على مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، ثم مسألة دخول الأعمال في مسمى الإيمان، ومسألة الإستثناء.

الإيمان: مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن.

وأصل آمن أأمن بهمزتين لينتين الثانية، وهو من الأمن ضد الخوف. قال الراغب: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف.

والإيمان في اللغة: الإقرار. وقد عرفه بعضهم بالتصديق والصحيح الأول.

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد. اهـ

الفروق بين الإقرار والتصديق:

١- من جهة التعدي الإيمان يتعدى بحرف إما الباء أو اللام كما في قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ (العنكبوت: من الآية٢٦) وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ (البقرة: من الآية٢٨٥) فيقال آمن به وآمن له ولا يقال آمنه بخلاف لفظة صدق فإنه يصح تعديها بنفسها.

٢- ليس بين الإيمان والتصديق ترادف في المعنى، فإن الإيمان يطلق على ما يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية بينما التصديق على الأشياء المحسوسة.

٣- لفظة إيمان في اللغة لا تقابل بالتكذيب فإذا لم يصدق المخبر في خبره يقال: كذبت وإذا صدق يقال: صدقت، ويقال: صدقناه وكذبناه، ولا يقال لكل مخبر: أمناه أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر.

يقال: هو مؤمن أو كافر والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

٤- أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف فآمن أي صار داخلاً في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قال إخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف: من الآية١٧) أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم أما التصديق فلا يتضمن شيئاً من ذلك اهـ

وإن قالوا: إن التصديق مرادف للإيمان فالجواب من وجهين:

أحدهما: المنع بل الأفعال تسمى تصديقاً كما في ثبت في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم: «العينان تزنيان وزناهما النظر ...» وفيه: «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وكذا قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف.

قال الجوهري: والصدّيق مثل الفسّيق الدائم التصديق ويكون الذي يصدق قوله بالعمل ...

وكان من ما مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من العمل.
الثاني: إذا كان أصله تصديق فهو تصديق مخصوص كما أن الصلاة دعاء مخصوص والحج قصد مخصوص والصيام إمساك مخصوص.
لفظ الإقرار يكون على وجهين:
أحدهما: الإخبار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق والشهادة ونحوها، وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.
الثاني: إنشاء الالتزام كما في قوله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: من الآية٨١).
وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٨١).
فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ
وتعريفه من حيث الشرع: ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وبعضهم قال: بأنه قول وعمل، وهو بمعناه أي: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.
وإلى هذا التعريف ذهب البخاري في «صحيحه» فقال: باب الإيمان قول وعمل، وبوب صاحب «اللمعة» أيضاً به.
ونقل الحافظ اللالكائي عن مجموعة من السلف هذا التعريف، وإليك ذكر بعض أسمائهم.
قال اللالكائي رحمه الله في «شرح أصول أهل السنة» (٥/ ٩٠٧):
قال سهل بن المتوكل: أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.
وقال يعقوب بن سفيان: أدركت أهل السنة والجماعة على ذلك.
وقال عبد الرزاق: سمعت سفيان الثوري وابن جريج ومالك بن أنس ومعمر بن راشد وسفيان

ابن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال عبد الرزاق أيضاً: لقيت اثنين وستين شيخاً منهم معمر والأوزاعي والثوري والوليد بن محمد القرشي ويزيد بن السائب وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة وشعيب بن حرب ووكيع بن الجراح ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وإسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، ومن لم يسمعه كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، قال شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (١٥١): ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح، فإذا قالوا: قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعا ؛ وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق .

والمراد: بالقول والعمل ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «العقيدة الواسطية» (ص١٦١) شرح الهراس.

ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ا.هـ

فمسمى الإيمان عند أهل السنة مرتكز على خمسة أمور:

١-قول القلب وهو تصديقه وإيقانه.

٢- قول اللسان وهو النطق بالشهادتين.

٣- عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والتوكل وغيرها.

٤- عمل اللسان وهو الأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلام المعروف وقراءة القرآن ... إلى غير ذلك.

٥- عمل الجوارح وهو العمل الذي إلا يؤدى إلى بواسطتها من ركوع وسجود ومشي إلى المساجد وسفر الحج والجهاد وغير ذلك.

وهذا هو تعريف أهل الحق والهدى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢) فهذه فيه عمل القلب.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الأنفال:٣) وهذه جمعت بين عمل القلب واللسان والجوارح، وبهذا الأدلة يظهر أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان كما سيأتي بيانه خلافاً للمرجئة الضلال.

قال الآجري في الشريعة رحمه الله (١/ ٣١٠-٣١١): (من قال: الإيمان قول دون العمل، يقال له: رددت القرآن والسنة، وما عليه جميع العلماء، وخرجت من قول المسلمين، وكفرت بالله العظيم فإن قال: بم ذا؟ قيل له: إن الله عز وجل، أمر المؤمنين بعد أن صدقوا في إيمانهم: أمرهم بالصلاة والزكاة، والصيام والحج والجهاد، وفرائض كثيرة، يطول ذكرها، مع شدة خوفهم، على التفريط فيها، النار والعقوبة الشديدة، فمن زعم أن الله تعالى فرض على المؤمنين ما ذكرنا، ولم يرد منهم العمل، ورضي منهم بالقول، فقد خالف الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الله عز وجل لما تكامل أمر الإسلام بالأعمال قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خمس »، وقال صلى الله عليه وسلم: « من ترك الصلاة فقد كفر »، قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: ومن قال: الإيمان: المعرفة ، دون القول والعمل ، فقد أتى بأعظم من مقالة من قال : الإيمان: قول ولزمه أن يكون إبليس على قوله مؤمنا ؛ لأن إبليس قد عرف ربه: قال رب بما أغويتني، وقال: رب فأنظرني ويلزم أن تكون اليهود لمعرفتهم بالله وبرسوله أن يكونوا مؤمنين قال الله عز وجل: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فقد أخبر عز وجل أنهم يعرفون الله تعالى ورسوله، ويقال لهم: إيش الفرق بين الإسلام وبين الكفر؟ وقد علمنا أن أهل الكفر قد عرفوا بعقولهم أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ولا ينجيهم في ظلمات البر والبحر إلا الله عز وجل ، وإذا أصابتهم الشدائد لا يدعون إلا الله ، فعلى قولهم إن الإيمان المعرفة كل هؤلاء مثل من قال : الإيمان : المعرفة على قائل

هذه المقالة الوحشية لعنة الله بل نقول والحمد لله قولا يوافق الكتاب والسنة ، وعلماء المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم ، وقد تقدم ذكرنا لهم : إن الإيمان معرفة بالقلب تصديقا يقينا ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، ولا يكون مؤمنا إلا بهذه الثلاثة ، لا يجزئ بعضها عن بعض ، والحمد لله على ذلك).اهـ

واعلم أن أول خلاف وقع في الأمة كان في هذا الباب قال ابن رجب -رحمه الله- في جامع العلوم والحكم (٢٧): وهذه المسائل-مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق- مسائل عظيمة جداً، فإن الله عز وجل علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول الاختلاف وقع في هذه الأمة وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، ثم خلاف المرجئة وقولهم إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان.اهـ

وكان السبب في ضلال هذه الطوائف كونهم جعلوا الإيمان حقيقة واحدة لا تتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة... وقالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا أن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان... وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة... قالوا: فإذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما فيه من الإيمان كافراً بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، ثم إن هذه الشبهة هي شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية؛ لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر.

يتلخص من هذا أن سبب ضلال الخوارج ومن قال بقولهم والمرجئة ومن قال بقولهم كون الخوارج جعلوا الإيمان مع أعماله جزءاً واحداً لا يتبعض، فأدخلوا الأعمال في مسماه، لكنهم غالطوا حين

جعلوا جميع الأعمال شرط صحة في الإيمان فكفروا بسبب هذه الشبهة المسلمين، وسبب ضلال المرجئة أنهم أخرجوا العمل من مسمى الإيمان فجعلوا الإيمان هو القول فقط على قول بعضهم، وجعله بعضهم هو التصديق فقط، وجعله بعضهم قول اللسان واعتقاد القلب، فأصبح الناس عندهم مؤمنين كاملي الإيمان، وإن زنوا وفجروا وتركوا الصلاة ونافقوا، وهذا غلط عظيم حصل بسببه تضييع الفرائض وشرائع الدين، حتى قال إبراهيم النخعي: لأنا على هذه الأمة من المرجئة أخوف عليهم من عدتهم من الأزارقة- أي الخوارج-.

قال شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (١٧٢) فما بعده في رده على المرجئة قال: وهؤلاء غلطوا من وجوه:

(أحدها): ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص وليس الأمر كذلك فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأوجب على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن والإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم مفصلا ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملا فإنه لا بد في الإيمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر لكن من صدق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر، وأيضًا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة . ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة فصار يجب من الإيمان تصديقا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين، وبهذا يظهر

الجواب عن قولهم: خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال.

فنقول: إن قلتم: إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه؛ فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولهذا لم يجئ ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان؛ كحديث وفد عبد القيس، وحديث الرجل النجدي الذي يقال له: ضمام بن ثعلبة وغيرهما، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل، وذلك؛ لأن الحج آخر ما فرض من الخمس فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام فلما فرض أدخله النبي صلى الله عليه وسلم في الإيمان إذا أفرد وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد وسنذكر إن شاء الله متى فرض الحج.

وكذلك قولهم: من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنا فصحيح لأنه أتى بالإيمان الواجب عليه والعمل لم يكن وجب عليه بعد فهذا مما يجب أن يعرف فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين؛ فإذا قيل: الأعمال الواجبة من الإيمان، فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئا واحدا في حق جميع الناس، وأهل السنة والحديث يقولون: جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان أي من الإيمان الكامل بالمستحبات ليست من الإيمان الواجب، ويفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء: الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل.

فالمجزئ: ما أتى فيه بالواجبات فقط، والكامل: ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب، وأما قولهم: إن الله فرق بين الإيمان والعمل في مواضع فهذا صحيح، وقد بينا أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها.

وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة، وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب؛ فصار الإيمان متناولاً للملزوم واللازم

وإن كان أصله ما في القلب؛ وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفي بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة، ثم للناس في مثل هذا قولان: منهم من يقول: المعطوف دخل في المعطوف عليه أولاً، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصًا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا: هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]؛ فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾،وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين.

وقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]والصلاة والزكاة من العبادة؛ فقوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ فإنه قصد أولاً: أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونهما، وكذلك يذكر الإيمان أولاً؛ لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح؛ فإنه أيضًا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح، وكذلك قوله: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

وقد قيل: إن هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل على من قبله كابن سلام ونحوه وإن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب، وقد قيل: هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد، وإنما عطفوا لتغاير الصفتين كقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ

فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١-٥]؛ فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض وكذلك قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وهي: صلاة العصر.

والصفات: إذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح أو الذم، تقول: هذا الرجل هو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا تعدد محاسنه، ولهذا مع الإتباع قد يعطفونها وينصبون أو يرفعون، وهذا القول هو الصواب؛ فإن المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين، وكذلك الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله إن لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقهم الله ينفقون، لم يكونوا على هدى من ربهم ولم يكونوا مفلحين، ولم يكونوا متقين؛ فدل على أن الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل إلى محمد، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع أنها داخلة فيها لكن المقصود صفة إيمانهم، وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه لا يفرقون بين أحد منهم؛ وإلا فإذا لم يذكر إلا الإيمان بالغيب فقد يقول: من يؤمن ببعض ويكفر ببعض، نحن نؤمن بالغيب.

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن؛ ويقال: إنها أول سورة نزلت بالمدينة افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين؛ فإنه من حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، صار الناس ثلاثة أصناف: إما مؤمن، وإما كافر مظهر للكفر، وإما منافق؛ بخلاف ما كانوا وهو بمكة؛ فإنه لم يكن هناك منافق، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار؛ فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن ليس هناك داع يدعو إلى النفاق، والمدينة آمن بها أهل الشوكة؛ فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار فمن لم يظهر الإيمان آذوه.

فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن؛ والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء، فقال في أولها ما تقدم وقال في وسطها: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧]، وقال في آخرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والآية الأخرى.

وفي «الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الآيتان من آخر سورة البقرة: من قرأ بهما في ليلة كفتاه».

والآية الوسطى قد ثبت في «الصحيح»: «أنه كان يقرأ بها في ركعتي الفجر: وبـ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] تارة، وبـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]تارة».

فيقرأ بما فيه ذكر الإيمان والإسلام أو بما فيه ذكر التوحيد والإخلاص؛ فعلى قول هؤلاء يقال: الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام؛ إما لذكره خصوصا بعد عموم، وإما لكونه إذا عطف كان دليلاً على أنه لم يدخل في العام، وقيل: بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان؛ فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيًا؛ لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد ؛ فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيصًا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب، لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا؛ لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله: آمنت، لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم.

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب «الموجز» وهو: أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء

كقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ولم يقل: إن هذه الأعمال من الإيمان، قالوا: فنحن نقول: من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمنًا؛ لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه.

والجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان، وهذا هو المطلوب؛ وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءا نزاع لفظي.

الثاني: أن نصوصًا صرحت بأنها جزء كقوله: «الإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة».

الثالث: إنكم إن قلتم بأن من انتفى عنه هذه الأمور؛ فهو كافر خال من كل إيمان كان قولكم قول الخوارج وأنتم في طرف والخوارج في طرف فكيف توافقونهم، ومن هذه الأمور إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد والإجابة إلى حكم الله ورسوله؛ وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه وإن كفرتموه كان قولكم قول الخوارج.

الرابع: أن قول القائل: إن انتفاء بعض هذه الأعمال يستلزم أن لا يكون في قلب الإنسان شيء من التصديق بأن الرب حق قول يعلم فساده بالاضطرار.

الخامس: أن هذا إذا ثبت في هذه ثبت في سائر الواجبات فيرتفع النزاع المعنوي.

فَصْلٌ: الوجه الثاني من غلط «المرجئة»:

ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب ؛ كما تقدم عن جهمية المرجئة . الثالث ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له ؛ والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر ؛ ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب مثل أن يقولوا : رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان ؛ يقولون : هذا مؤمن تام الإيمان

فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار. اهـ

وكان أهل السنة هم الوسط في هذا الباب بين الخوارج والمرجئة فجعلوا الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وفصلوا، فمنها ما هو شرط في صحة الإيمان كالنطق بالشهادتين والصلاة -على قول- من يكفر تارك الصلاة أي من ترك شيئاً من ذلك كفر، وجعلوا من الأعمال ما هو كمال كإزالة الأذى عن الطريق، والإحسان إلى الجيران، وجماع ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الإيمان بضع وستون شعبة؛ فأعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وقد عقد البخاري رحمه الله أغلب كتاب الإيمان في صحيحه في الرد على من زعم أن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، وإليك بعض هذه التبويبات قال رحمه الله: باب الإيمان قول وعمل، وقال: باب دعاؤكم إيمانكم، وقال: باب أمور الإيمان، وقال: باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وباب أي الإسلام أفضل، وباب إطعام الطعام من الإسلام، وباب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وباب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان وهكذا رحمه الله.

والعجب من قولهم إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، مع أن الله عز وجل قد قرن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من ستة وخمسين موضعاً في القرآن، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] في سور كثيرة، فكل هذه الآيات تبين أنه لا بد من اقتران العمل بالإيمان.

وقد عقد البخاري رحمه الله أغلب كتاب الإيمان في «صحيحه» في الرد على من زعم أن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، وإليك بعض هذه التبويبات قال رحمه الله: (باب الإيمان قول وعمل، وقال: باب دعاؤكم إيمانكم، وقال: باب أمور الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وباب أي الإسلام أفضل، وباب إطعام الطعام من الإسلام، وباب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وباب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان، وهكذا رحمه الله).

قال ابن القيم -رحمه الله- في كتاب الصلاة (٥٣): ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل

شعبة منها تسمى إيماناً، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق؛ فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة،ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى من الطريق، وبينها شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يلحق بالشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب.اهـ

ثم اعلم أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل واعتقاد ، قال الشافعي -رحمه الله-: وكان إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركنا أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر.اهـ

وقال البغوي في شرح السنة (١/ ٣٨): اتفق الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة أن الأعمال من الإيمان وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة.اهـ

وقد تقدم أن الخوارج والمرجئة جعلوا الإيمان كلية واحدة لا تتجزأ، فنتج عن قولهم البائر الوقوع في ضلالة عظيمة وهي رد القول بزيادة الإيمان ونقصانه، مع أن الأدلة قد تظاهرت على إثباتها قال تعالى:﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً...﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال-٢]وقوله تعالى﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ [المدثر -٣١].

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً...﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم : ٧٦] في آيات كثيرة، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في حديث أبي هريرة عند مسلم:«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيءٌ فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل».

الشاهد من الحديث قوله« المؤمن القوي» أي زايد الإيمان، والضعيف الذي نقص إيمانه.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم:« ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الصالح منكن...» الحديث متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى» فذكر أعلى وأدنى أنفرد به مسلم بهذا اللفظ عن أبي هريرة.

قال ابن كثير -رحمه الله- بعد سوق الآية المتقدمة: وهذه الآية الكريمة من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع غير واحد من أهل العلم.اهـ

ولما كان الإيمان يدخل فيه المعرفة بالقلب والقول والعمل كله كانت زيادته بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصانها، وقد صرح بذلك مجموعة من السلف فقالوا: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (١٩٦-١٩٧): والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال : ٢] وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن ؛ حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الإيمان وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينًا وتوكلاً على الله وثباتًا على الجهاد وتوحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق؛ بل يخافون الخالق وحده وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ❊ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وهذه «الزيادة» ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانا بحسب

مقتضاها؛ فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

والفرح بذلك من زيادة الإيمان قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ الله﴾ [الروم: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وهذه نزلت لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الحديبية؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة: طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار؛ وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل، والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافي لليقين يكون ريبًا في العلم، وريبًا في طمأنينة القلب، ولهذا جاء في الدعاء المأثور: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا».

وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سلوا الله العافية واليقين؛ فما أعطي أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية؛ فسلوهما الله تعالى»؛ فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَمَنْ يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ

قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، قال علقمة: ويروى عن ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ هداه لقلبه هو زيادة في إيمانه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣]. اهـ

وفي مرتكب الكبيرة كان أهل السنة هم الوسط الخيار، قال شيخ الإسلام : ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة ؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب.

فالقول الذي جعل الخوارج ومن إليهم يقولون هذا القول هو زعمهم أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، وهذا قول باطل قطعاً قال شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (١٩٤): وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث ؛ قالوا: فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئاً من الإيمان إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئا واحدا يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه؛ كقوله: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص، ومنهم من يقول: يزيد ولا يقول: ينقص كما روي عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول: يتفاضل كعبد الله بن المبارك وقد، ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة. اهـ

وقد تكلم ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» بكلام نفيس في هذه المسألة فقال: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية ، كما قالت الخوارج ، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدًا يقتل على كل حال ، ولا يقبل عفو ولي القصاص ، ولا تجري

الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

متفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل في الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين ، كما قالت المعتزلة ، فإن قولهم باطل أيضا ؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] إلى أن قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله أخا لولي القصاص ، والمراد أخوة الدين بلا ريب . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون درهم ولا دينار ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ، ثم ألقي في النار » . أخرجاه في الصحيحين .

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه . وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تعدون المفلس فيكم ؟ قالوا : المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار ، قال : «المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال، فيأتي وقد شتم هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، فيقتص هذا من حسناته ، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » رواه مسلم .

وقد قال تعالى :﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته . وهذا مبسوط في موضعه .

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل ، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد.

بينما الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة، ويستحلون دمه وماله كما تقدم،والمعتزلة يجعلونه منزلة بين المنزلتين، وقد وافقت الخوارج المعتزلة في شيئين هما :نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة، وخلوده في النار مع الكفار. وخالفتهما في شيئين هما :تسميته كافراً، واستحلال دمه وماله.

بينما ذهب المرجئة في مرتكب الكبيرة أنه لا يضر مع الإيمان معصية،فمرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار، وهذا مذهب بين البطلان.

قال الإسفراييني: ومما اتفقت عليه المعتزلة من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق الملي يكون في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا كافر، وإن هو خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلداً في النار.

ومما تقدم يتبين لنا جلياً أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية،وأن الأعمال داخلة في مسماه، ومنها ما هو شرط صحة لا يدخل العبد في الإيمان إلا بها، ومنها ما هو شرط كمال يكون العبد مؤمناً مع غيابها وعنده من نقص الإيمان بقدرها.

ومن المسائل التي تطرق في هذا الباب هي مسألة الاستثناء في الإيمان، والمراد بالاستثناء: قول أنا مؤمن إن شاء الله أو أرجوا إلى غير ذلك، والناس في هذه المسألة انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قوم أوجبوا الاستثناء في الإيمان قال شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (٣٦٨): والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان : أحدهما أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان ؛ والإنسان إنما يكون، عند الله مؤمنا وكافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به، قالوا: والإيمان الذي يتعقبه الكفر، فيموت صاحبه كافرا ليس بإيمان كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال؛ وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه، وكذلك قالوا: في الكفر وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث من قولهم : أنا مؤمن إن شاء الله.

وقال رحمه الله راداً على هذا القول: هذا الذي قالوه أنه لا شك فيه هو قول ابن كلاب والأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم، وأما أكثر الناس فيقولون:

بل هو إذا كان كافرا فهو عدو لله ثم إذا آمن واتقى صار وليا لله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِالله رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى الله أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَالله قَدِيرٌ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة : ١ ، ٧] وكذلك كان فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح آمن أكثرهم، وصاروا من أولياء الله ورسوله وابن كلاب وأتباعه بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله وهي الإرادة والمحبة والرضا ونحو ذلك، فمعناها إرادة إثابته بعد الموت ؛ وهذا المعنى تابع لعلم الله فمن علم أنه يموت مؤمنا لم يزل وليا لله ؛ لأنه لم يزل الله مريدا لإدخاله الجنة وكذلك العداوة، وأما الجمهور فيقولون: الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحا ؛ وإنما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد : ٢٨] فأخبر أن الأعمال أسخطته ؛ وكذلك قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] قال المفسرون: أغضبونا وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما

تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه؛ ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»، فأخبر أنه: لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه ثم قال: فإذا أحببته: كنت كذا وكذا، وهذا يبين أن حبه لعبده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه، والقرآن قد دل على مثل ذلك. اهـ

وقال رحمه الله: والمأخذ الثاني في الاستثناء أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله ؛ وترك المحرمات كلها ؛ فإذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به ؛ وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله ؛ وهذا من تزكية الإنسان لنفسه وشهادته لنفسه بما لا يعلم ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة ؛ فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال ؛ وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر. اهـ

وقوم حرموا الاستثناء في الإيمان وهم المرجئة الجهمية قال شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (٣٦٨): فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئاً واحداً يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه؛ فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين وكما أعلم أني قرأت الفاتحة وكما أعلم أني أحب رسول الله؛ وأني أبغض اليهود والنصارى، فقولي: أنا مؤمن كقولي: أنا مسلم وكقولي: تكلمت بالشهادتين وقرأت الفاتحة وكقولي: أنا أبغض اليهود والنصارى ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها وكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله كذلك لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله لكن إذا كان يشك في ذلك فيقول: فعلته إن شاء الله قالوا: فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة. اهـ

وقوم جوزوا الأمرين وهذا أصح الأقوال، وأما الذين يرون جواز الأ مرين فهم أهل السنة والجماعة والاستثناء أحب إلينا لقول عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله: أصل الإرجاء ترك الاستثناء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب «الإيمان» (٣٨٢-٣٨٧): قال الخلال في " كتاب السنة ": حدثنا سليمان بن الأشعث يعني أبا داود السجستاني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال له رجل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت نعم؛ هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد وقال: هذا كلام الإرجاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾ [التوبة : ١٠٦] من هؤلاء ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولا وعملا قال له الرجل: بلى، قال فجئنا بالقول، قال: نعم قال: فجئنا بالعمل، قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول: إن شاء الله ويستثني، قال أبو داود: أخبرني أحمد بن أبي شريح أن أحمد بن حنبل كتب إليه في هذه المسألة أن الإيمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجئ بالعمل فنحن نستثني في العمل. وذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد، وقال: زاد الفضل: سمعت أبا عبد الله يقول: كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل؛ يقول: نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا؟ قلت: والقبول متعلق بفعله كما أمر، فكل من اتقى الله في عمله ففعله كما أمر فقد تقبل منه، لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون : ٦٠] قالت عائشة: يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: لا يا بنت الصديق بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه. اهـ

ويكون الاستثناء جائزاً إذا كان خائفاً من تزكية النفس وكذا باعتبار ما يختم له، وكذا إن كان عنده تقصير في فعل المأمورات، أما إن كان الاستثناء على الشك فهذا محرم لا يجوز قطعاً.

وقد نقل أبو يعلى إجماع السلف على جواز الاستثناء في الإيمان.

قال الآجري في «الشريعة» (٢/ ٦٥٦): من صفة أهل الحق ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان لا على جهة الشك نعوذ بالله من الشك في الإيمان، ولكن خوف التزكية لأنفسهم من استكمال الإيمان لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا.اهـ

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام ،وللسلف في هذا الباب قولان:
الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه جمهور أهل السنة.
الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان إسمان لمعنى واحد ، وممن قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المرزوي، وابن مندة ، وابن عبدالبر.
وقد استدل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ومن الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل .
قال شيخ الإسلام كما في الإيمان: قد فرق رسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في حديث جبريل بين مسمى الإسلام ، ومسمى الإيمان ، ومسمى الإحسان، .اهـ
ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس عند البخاري ومسلم وفيه « آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال:« شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدي الخمس من المغنم».
وجماع القول أنهما إذا افترقا اجتمعا ،وإذا اجتمعا افترقا،وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبغوي ،وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.
وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، وذهب الجهمية ومن وافقهم إلى أنه المعرفة بالقلب، وكل هذه الأقوال باطلة ومخالفة لطريقة الرشد.
وأبعدها عن الحق قول الجهم فإنه لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ (الإسراء: من الآية١٠٢).
وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل: من الآية١٤).
وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم بل إبليس يكون عند

جهم مؤمناً كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (ص:٧٩)، وقوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف:١٦)، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص:٨٢).

والكفر عند جهم هو الجهل بالرب ولا أحداً أجهل منه بربه، فإنه يزعم أن ربه لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت ولا فوق ولا تحت، وخارج العالم ولا داخله إلى غير ذلك من السفسطة.

وعلى قول الكرامية: يكون المنافقون مؤمنين كاملي الإيمان.

وعلى قول مرجئة الفقهاء: بأن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد، يكون الفسقة وقطاع الصلاة وغيرهم من أهل الإجرام كاملي الإيمان، لأنهم قد أقروا بألسنتهم بالإسلام والإيمان واعتقدوا بقلوبهم وأنا لهم هذا، ورحم الله ميمون بن مهران إذ يقول عند أن رأى جارية تغني فقال: الخيبة لمن يزعم أن إيمان هذه مثل إيمان مريم بنت عمران.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان أما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وهذا هو قول مرجئة الفقهاء، وهو قول ضعيف يخالف المعتقد الصحيح، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عند الكرامية، أو بالقلب وحده وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر، وقد بين عوار المرجئة غير واحد من أهل العلم.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في «كتاب الإيمان» (٤٣-٤٧) في بيان فساد قول مرجئة الفقهاء ومرجئة الجهمية ومن إليهم، قال أبو عبيد: قالت هذه الفرقة: إذا أقر بما جاء من عند الله، وشهد شهادة الحق بلسانه فذلك الإيمان كله، لأن الله عز وجل سماهم مؤمنين وليس ما ذهبوا إليه عندنا قولاً، ولا نراه شيئًا، وذلك من وجهين: أحدهما: ما أعلمتك في الثلث الأول، أن الإيمان المفروض في صدر الإسلام لم يكن يومئذ شيئًا إلا إقرار فقط، وأما الحجة الأخرى؛ فإنا وجدنا الأمور كلها يستحق الناس بها أسماءها مع ابتدائها والدخول فيها، ثم يفضل فيها بعضهم بعضًا، وقد شملهم

فيها اسم واحد، من ذلك أنك تجد القوم صفوفًا بين مستفتح للصلاة، وراكع وساجد، وقائم وجالس، فكلهم يلزمه اسم المصلي، فيقال لهم: مصلون، وهم مع هذا فيها متفاضلون، وكذلك صناعات الناس لو أن قومًا ابتنوا حائطًا وكان بعضهم في تأسيسه، وآخر قد نصفه، وثالث قد قارب الفراغ منه، قيل لهم جميعًا: بناة، وهم متباينون في بنائهم وكذلك لو أن قومًا أمروا بدخول دار، فدخلها أحدهم، فلما تعتب الباب أقام مكانه، وجاوزه الآخر بخطوات، ومضى الثالث إلى وسطها، قيل لهم جميعًا: داخلون، وبعضهم فيها أكثر مدخلاً من بعض فهذا الكلام المعقول عند العرب السائر فيهم، فكذلك المذهب في الإيمان، إنما هو دخول في الدين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فالسلم: الإسلام، وقوله: ﴿كَافَّةً﴾ معناها عند العرب: الإحاطة بالشيء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمسٍ»، فصارت الخمس كلها هي الملة التي سماها الله سلما مفروضًا فوجدنا أعمال البر، وصناعات الأيدي، ودخول المساكن كلها تشهد على اجتماع الاسم، وتفاضل الدرجات فيها، هذا في التشبيه والنظر، مع ما احتججنا به من الكتاب والسنة فهكذا الإيمان هو درجات ومنازل، وإن كان سمى أهله اسماً واحدًا، وإنما هو عمل من أعمال تعبد الله به عباده، وفرضه على جوارحهم، وجعل أصله في معرفة القلب، ثم جعل المنطق شاهدًا عليه، ثم الأعمال مصدقة له، وإنما أعطى الله كل جارحة عملا لم يعطه الأخرى، فعمل القلب: الاعتقاد، وعمل اللسان: القول، وعمل اليد: التناول، وعمل الرجل: المشي، وكلها يجمعها اسم العمل؛ فالإيمان على هذا التناول إنما هو كله مبني على العمل، من أوله إلى آخره، إلا أنه يتفاضل في الدرجات على ما وصفنا وزعم من خالفنا أن القول دون العمل، فهذا عندنا متناقض، لأنه إذا جعله قولا فقد أقر أنه عمل، وهو لا يدري بما أعلمتك من العلة الموهومة عند العرب في تسمية أفعال الجوارح عملاً، وتصديقه في تأويل الكتاب في عمل القلب واللسان، قول الله في القلب: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

[الأنفال: ٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه: «إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وهي القلب» وإذا كان القلب مطمئنًا مرة، ويصغي أخرى ويوجل ثالثة، ثم يكون منه الصلاح والفساد، فأي عمل أكثر من هذا؟ ثم بين ما ذكرنا قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]؛ فهذا ما في عمل القلب وأما عمل اللسان، فقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، فذكر القول ثم سماه عملاً، ثم قال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] هل كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم إلا دعاؤه إياهم إلى الله، وردهم عليه قوله بالتكذيب وقد أسماها هاهنا عملاً؟ وقال في موضع ثالث: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥١-٦١] فهل يكون التصديق إلا بالقول، وقد جعل صاحبها هاهنا عاملا؟ ثم قال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فأكثر ما يعرف الناس من الشكر أنه الحمد والثناء باللسان، وإن كانت المكافأة قد تدعى شكرًا فكل هذا الذي تأولنا إنما هو على ظاهر القرآن، وما وجدنا أهل العلم يتأولونه، والله أعلم بما أراد، إلا أن هذا هو المستفيض في كلام العرب غير المدفوع، فتسميتهم الكلام عملا، من ذلك أن يقال: لقد عمل فلان اليوم عملاً كثيرًا، إذا نطق بحق وأقام الشهادة، ونحو هذا وكذلك إن أسمع رجل صاحبه مكروهًا، قيل: قد عمل به الفاقرة، وفعل به الأفاعيل، ونحوه من القول، فسموه عملاً، وهو لم يزده على المنطق ومنه الحديث المأثور: «من عد كلامه من عمله، قل كلامه إلا فيما ينفعه» فوجدنا تأويل القرآن، وآثار النبي صلى الله عليه وسلم، وما مضت عليه العلماء، وصحة النظر، كلها تصدق أهل السنة في الإيمان فيبقى القول الآخر، فأي شيء يتبع بعد هذه الحجج الأربع؟ وقد يلزم أهل هذا الرأي ممن يدعي أن المتكلم بالإيمان مستكمل له: من التبعة ما هو أشد

مما ذكرنا، وذلك فيما قص علينا من نبأ إبليس في السجود لآدم، فإنه قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]؛ فجعله الله بالاستكبار كافرًا، وهو مقر به غير جاحد له، ألا تسمع ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، وقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]؟ فهذا الآن مقر بأن الله ربه، وأثبت القدر أيضا في قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾، وقد تأول بعضهم قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أنه كان كافرًا قبل ذلك، ولا وجه لهذا عندي، لأنه لو كان كافرًا قبل أن يؤمر بالسجود لما كان في عداد الملائكة، ولا كان عاصيًا إذا لم يكن ممن أمر بالسجود وينبغي في هذا القول أن يكون إبليس قد عاد إلى الإيمان بعد الكفر، لقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، وقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، فهل يجوز لمن يعرف الله وكتابه وما جاء من عنده أن يثبت الإيمان لإبليس اليوم؟.

[**باب من جعل الإيمان المعرفة بالقلب وإن لم يكن عمل**]: قال أبو عبيد: قد ذكرنا ما كان من مفارقة القوم إيانا في أن العمل من الإيمان، على أنهم وإن كانوا لنا مفارقين فإنهم ذهبوا إلى مذهب قد يقع الغلط في مثله، ثم حدثت فرقة ثالثة شذت عن الطائفتين جميعًا، ليست من أهل العلم ولا الدين، فقالوا: الإيمان معرفة بالقلوب بالله وحده، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الحنفية، لمعارضته لكلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالرد والتكذيب، ألا تسمع قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فجعل القول فرضا حتمًا، كما جعل معرفته فرضا، ولم يرض بأن يقول: اعرفوني بقلوبكم ثم أوجب مع الإقرار الإيمان بالكتب والرسل كإيجاب الإيمان، ولم يجعل لأحد إيمانًا؛ إلا بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، يعني النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلم يجعل الله معرفتهم به إذ تركوا الشهادة له بألسنتهم إيمانًا، ثم سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان؟ فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله» في أشياء كثيرة من هذا لا

تحصى وزعمت هذه الفرقة: أن الله رضي عنهم بالمعرفة ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عرف الإسلام من الجاهلية، ولا فرقت الملل بعضها من بعض ، إذ كان يرضى منهم بالدعوى على قلوبهم غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة والبراءة مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب، ولو كان هذا يكون مؤمنًا ثم شهد رجل بلسانه: أن الله ثاني اثنين، كما يقول المجوس والزنادقة، أو ثالث ثلاثة كقول النصارى، وصلى للصليب، وعبد النيران بعد أن يكون قلبه على المعرفة بالله، لكان يلزم قائل هذه المقالة أن يجعله مؤمنًا مستكملاً الإيمان كإيمان الملائكة والنبيين فهل يلفظ بهذا أحد يعرف الله أو مؤمن له بكتاب أو رسول؟ وهذا عندنا كفر لن يبلغه إبليس فمن دونه من الكفار قط. اهـ

ومن أحسن المؤلفات في بيان ضلال مذهبهم وفساد اعتقادهم هو كتاب الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، وقد حققته بحمد الله وعلقت عليه بما تيسر.

وفي مثالب هذه الفرقة وضلالها، لاسيما مرجئة الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة، وحماد بن أبي سليمان، تجد شيئًا من ذلك في كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد، و«الإبانة» لابن بطة.

وقوله: «وهي بضع وسبعون شعبة ....» الحديث مخرج في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»، وفي لفظ مسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» وهذا اللفظ تضمن أمورًا مما تقدم الإشارة إليه:

الأول: زيادة الإيمان ونقصانه حيث دل على وجود أعلى وأدنى خلافًا للخوارج والمرجئة.

الثاني: كون الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، حيث بين أن عمل اللسان الذي هو النطق، وعمل الجوارح الذي هو إزالة الأذى، وعمل القلب الذي هو الحياء كلها من الإيمان، وداخلة في مسماه خلافًا للمرجئة الضلال.

الثالث: كون الإيمان قول وعمل واعتقاد.

وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة[1].

قال النووي رحمه الله في «شرح مسلم»: وقول الخطابي أيضًا في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى، والاسم يتعلق ببعضها، كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبه، وتستوفي جملة أجزائه؛ كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «الحياء شعبة من الإيمان»، وفيه: إثبات التفاضل في الإيمان، وتباين المؤمنين في درجاته. اهـ

[1] قوله : «وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة» الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم ميزات هذا الدين القويم، دين رب العالمين، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[آل عمران:١١٠].

ولعظم شأن هذه الشعيرة الجليلة قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ١٢٣): إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها، فلهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين، ودار شقاوة للمنكر عليهم.

وقال الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٣٣٣): إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهل عمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون. اهـ

وقال تعالى مرغبًا فيه وحاثًا عليه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فمن أعظم وسائل الفلاح في الدنيا للداعين بنشر خيرهم ودعوتهم هو صدعهم بالمعروف ودعوتهم إليه، ونهيهم عن المنكر وتحذير الناس منه.

كما أنه سبب للفلاح الآخروي السرمدي، فهل من مدكر.

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:١١٤].

فقرن الله عز وجل بين الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما بينهما من التلازم، وليعلم أنه لا كمال لإيمان العبد إلا بتحقيق هذه الشعيرة العظيمة.

وقال تعالى مبينًا أن الولاية للمؤمنين لا تكمل ولا تتم إلا بملازمة هذه الوسيلة العظيمة لنصرة الحق والسنة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر باع نفسه من الله، ووعد بالحسنى، فهنيئًا له قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١١-١١٢].

ولنا في قصة أهل القرية العبرة العظيمة، كيف نجى الله عز وجل أهل الخير واستمرت دعوتهم، وأهلك غيرهم ممن عصى وتمرد، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا

كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[الأعراف: ١٦٣-١٦٥].

ومن فرط في هذه الوسيلة تعمدًا وتهاونًا بالدين استحق اللعن، فقد قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩].

وذم الله عز وجل الأحبار بعدم النهي عن المنكر، فقال: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[المائدة:٦٣].

ولا خير فيك أيها الداعي أنت وغيرك من المسلمين إلا بتحقيق هذه الشعيرة، قال الله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤].

وبين أن العاقبة لأصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[الحج:٤١].

ولو نظرنا في عاقبة المفرطين في هذه الشعيرة الجليلة والطريقة القويمة تجد أن دعواتهم قد انتهت والشر بينهم قد عم، ووصفوا بأقبح الأوصاف.

فقد شبههم الله بالحمير كما في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

وشبههم بالكلاب كما في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

ولعنوا كما تقدم.

وهم في الآخرة مبشرون بالعذاب الأليم والخزي العظيم.

أخرج أبو داود في «سننه» من حديث أبي سعيد: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: يا فلان، ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره، فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس».

الحديث في: «الصحيح المسند».

وأخرج الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد مرفوعًا: «ألا لا يمنعن رجلًا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه».

الحامل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ابن رجب رحمه الله في شرح الحديث الرابع والثلاثين في «جامع العلوم والحكم»: واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء انقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرى، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، ومن حفظ هذا المقام هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله عز وجل، وربما دعا لمن آذاه كما قال ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما ضربه قومه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة درجات يجمعها حديث أبي سعيد عند مسلم (٥٠) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع

فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (٥١) بعد الثالثة: وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان».

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث (٢/ ٢١-٢٤) قوله: «فليغيره»: فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو أيضًا من النصيحة التي هي الدين ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة ولا يعتد بخلافهم، كما قال الإمام أبو المعالى إمام الحرمين لا يكترث بخلافهم فى هذا فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء ووجوبه بالشرع لا بالعقل خلافًا للمعتزلة، وأما قول الله عز وجل: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فليس مخالفًا لما ذكرناه؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وإذا كان كذلك فمما كلف به الإمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهى لا القبول والله أعلم ثم ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم أنه قد يتعين كما اذا كان في موضع لا يعلم به الا هو أولا يتمكن من إزالته الا هو وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف، قال العلماء رضى الله عنهم: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذى عليه الأمر والنهى لا القبول وكما قال الله عز وجل ما على الرسول إلا البلاغ ومثل العلماء هذا بمن يرى إنسانًا في الحمام أو غيره مكشوف بعض العورة ونحو ذلك والله أعلم.

قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهى أن يكون كامل الحال ممتثلًا ما يأمر به مجتنبا ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وان كان مخلًا بما يأمر به والنهى وإن كان متلبسا بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الاخلال بالآخر قال

العلماء: ولا يختص الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بأصحاب الولايات بـل ذلـك جـائز لآحـاد المسلمين قال امام الحرمين والدليل عليه اجماع المسلمين، فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذى يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عـن المنكـر مـع تقريـر المسـلمين أيـاهم وتـرك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير ولاية والله أعلم، ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان مـن الواجبـات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكـل المسـلمين علـماء بهـا وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلـق بالاجتهـاد لم يكـن للعـوام مـدخل فيـه ولا لهـم انكاره، بل ذلك للعلماء.

واعلم أن هذا الباب أعنى باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه فى هذه الازمان الا رسوم قليلة جدا وهو باب عظيم به قـوام الأمـر وملاكـه واذا كثـر الخبث عم العقاب الصالح والطالح واذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور:٦٣]، فينبغـي لطالب الآخرة والساعى في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتنى بهذا الباب فان نفعه عظيم لا سـيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيتـه ولا يهـابن مـن ينكـر عليـه لارتفـاع مرتبتـه فـان الله تعـالى قـال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ الله مَنْ يَنصُرُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِالله فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ ﴾[آل عمران:١٠١]، وقال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّـا الَّـذِينَ مِـنْ قَـبْلِهِمْ فَلَـيَعْلَمَنَّ الله الَّـذِينَ صَـدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[العنكبوت: ٢-٣].

واعلم أن الاجر على قدر النصب ولا يتاركه أيضا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه فان صداقته ومودته توجب له حرمة وحقـا ومـن حقـه أن ينصـحه ويهديـه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها وصديق الانسان ومحبه هو من سعى في عـمارة آخرتـه وأن أدى

ذلك إلى نقص في دنياه وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته وان حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه وانما كان ابليس عدوا لنا لهذا وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم فى مصالح آخرتهم وهدايتهم اليها ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته وأن يعمنا بجوده ورحمته والله أعلم.

وينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب فقد قال الامام الشافعى رضى الله عنه من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه ومما يتساهل اكثر الناس فيه من هذا الباب ما اذا رأى انسانا يبيع متاعا معيبا أو نحوه فإنهم لا ينكرون ذلك ولا يعرفون المشترى بعيبه وهذا خطأ ظاهر وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك أن ينكر على البائع وأن يعلم المشترى به والله أعلم.

وأما صفة النهى ومراتبه فقد قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذا الحديث الصحيح: «فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه» فقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فبقلبه» معناه: فليكرهه بقلبه وليس ذلك بازالة وتغيير منه للمنكر، ولكنه هو الذى في وسعه وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وذلك أضعف الايمان» معناه والله أعلم أقله ثمرة قال القاضي عياض رحمه الله هذا الحديث أصل فى صفة التغيير فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولا كان أو فعلا فيكسر آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله وينزع الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره اذا أمكنه ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذى العزة الظالم المخوف شره اذ ذلك أدعى إلى قبول قوله كما يستحب أن يكون متولى ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى ويغلظ على المتمادى في غيه والمسرف في بطالته اذا أمن أن يؤثر اغلاظه منكرا أشد مما غيره لكون جانبه محميا عن سطوة الظالم فان غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف فان خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة وهذا هو المراد بالحديث ان

شاء الله تعالى وان وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلـك إلى اظهـار سـلاح وحـرب وليرفع ذلك إلى من له الأمر ان كان المنكر من غيره أو يقتصر على تغييره بقلبه هذا هو فقـه المسـألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين خلافا لمن رأى الانكار بالتصريح بكـل حـال وان قتـل ونيل منه كل أذى هذا آخر كلام القاضي رحمه الله. اهـ

قال سفيان الثوري كما في «جامع العلوم والحكم» (٦١٠) ط ابن الجوزي: لا يأمر بالمعروف إلا من توفرت فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما أمر عدل بما نهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى. اهـ

درجات إنكار المنكر:

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٧٦):

وإنكار المنكر أربع درجات:

١- أن يزول ويخلفه ضده.

٢- أن يقل وإن لم يزل بجملته.

٣- أن يخلفه ما هو مثله.

٤- أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة فإذا رأيـت أهـل الفجـور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منـه إلى مـا هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك وإذا رأيت الفساق قد اجتمعـوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد وإلا كان تركهم عـلى ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك وكـما إذا كـان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها وخفت من نقلـه عنهـا انتقالـه إلى كتـب البـدع والضـلال والسحر فدعه وكتبه الأولى وهذا باب واسع، وسمعت شيخ الإسلام بن تيميـة قـدس الله روحـه

فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي والله على ما نقول وكيل[(١)].

ونور ضريحه يقول مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم. اهـ

وحال الرابع كما قيل:

ومن يغير منكرًا بأنكرا ‏ ‏ ‏ ‏ كغاسل الحيض ببول أغبرا

(١) ختم رحمه الله وأعلى درجته في المهديين، هذه العقيدة بالإخبار بوجازتها وهو كما قال، فقد ترك بعض أبواب المعتقد علنا نذكرها إن شاء الله في ملحق إن تيسر ذلك.

وقوله: «لتطلعوا على ما عندي» وهذا أمر قد يجب على الداعي إلى الله عزوجل لأمور:

أولها: نشر المعتقد الصحيح بين الناس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كان إذا بعث الدعاة في الآفاق والأمصار، كانوا يشرحون دعوتهم، بل هو عليه الصلاة والسلام لما جاءه عمر بن عبسه، قال له: إلى ما تدعو؟ قال: «أدعوا إلى صلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا» أخرجه مسلم.

وفي حديث أبي سفيان قال: يقول: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤُكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والصلة، والعفاف» متفق عليه.

وكان صلى الله عليه وسلم يمشي في الأسواق، في عكاظ وذي المجنة وذي المجاز، يعرض دعوته صلى الله عليه وسلم.

كما في حديث ابن عباس عند البخاري، وحديث طارق المحاربي عند الدارقطني يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

ولما جاءه مالك بن نضلة، وسأله إلى ما تدعوا؟ قال: «أدعوا إلى الله والرحم» أخرجه أحمد.

ومنها: حديث أنس عند مسلم قال: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عَنْ شَىْءٍ

فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ؛ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «الله»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ، قَالَ: «الله»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «الله»، قَالَ: فَبِالَّذِى خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، الله أَرْسَلَكَ! قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِى يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِى أَرْسَلَكَ الله أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِى أَمْوَالِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِى أَرْسَلَكَ الله أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِى سَنَتِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِى أَرْسَلَكَ الله أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النَّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم-: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».

هذا أمر، والأمر الآخر رد الدعايات والإرجاف والشائعات التي يطلقها المبطلون البطالون على الدعاة إلى الله عزوجل تحذير مما عندهم من الحق والدعوة، وهذا الذي قام به هذا الإمام هو أمر قديم قام به المرسلون والمصلحون في كل عصرٍ ومصر.

وما «العقيدة الواسطية» و«التدمرية»، و«الحموية»، و«التبوذكية» وغيرها من العقائد إلا من هذا الباب، وإليك بيانًا لطريقة القرآن والسنة في رد الشائعات.

ما أن تظهر للداعي إلى الله عز وجل دعوة إلا وبدأت حرب الإشاعات عليه من القريب قبل البعيد، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، علمت بأدلة الكتاب والسنة كما هي معلومة في الواقع الملموس.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذريات:٥٢].

قال الله عز وجل مخبرًا عن قوم نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ

إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الأعراف: ٥٩-٦٠].

يعتبرونه ضالًا واشاعوا هذا بين العام والخاص تحذيرًا من دعوته وحربًا لعقيدته، فكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم نافيًا لهذه الشائعة التي يراد بها الصد عن الحق: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢].

وعاد يتهمون هود عليه السلام بأنه سفيه، حيث قالوا: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٦].

ففندها بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[لأعراف: ٦٧-٦٨].

فانظر وفقك الله عز وجل إلى طريقة هؤلاء الرسل في رد الإشاعة برفق ولين، وبيان أن ما ذكر عنهم هو محض الباطل، والحق هو أنهم يدعون إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، فكانت عاقبة الذين كفروا خسرًا.

وهذا فرعون لعنه الله حين جاءه موسى عليه السلام بالدعوة إلى الله عز وجل وأراه الآيات البينات أرسل إلى السحرة وإلى الملاء من قومه مشيعًا أن موسى ساحر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوىً * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ

مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طـه: ٥٦-٧٦].

فانظر كيف أشاع فرعون وملائه، ومع ذلك كبتهم الله عز وجل وبين عوار ما هم عليه، ونصر الحق وأهله فلله الحمد.

وإبراهيم عليه السلام أشيع عنه الضلال، وهكذا في كل وقت وحين ولكن العاقبة للمتقين.

وأما رسولنا صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد ناله القسط الأكبر من حرب الشايعات، فها هو من أول يوم وهو في مكة يزعمون أنه مجنون.

أخرج الإمام مسلم (٨٦٨): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَعَلَى قَوْمِكَ»،

قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: «رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ».

فهذه شائعة جعلت من وصل مكة وهو لا يعرف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يظنه مجنون، فلا يقبل منه حقًا ولا يصدق له خبرًا، ولا يبذل له نصرًا؛ لأن المجنون يتكلم بما لا يدري، ويهرف بما لا يعرف، لكن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سرعان ما رد تلك الشائعة ببث شيء من الحق، فهدى الله ضمادًا وحصل الخير له ولقومه والحمد لله.

وفي حديث أبي ذر عند مسلم (٢٤٧٣) قَالَ: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا، فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ، فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ، فَقُلْتُ: أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ، فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا، فَأَتَيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ أُنَيْسًا فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بِثَلَاثِ سِنِينَ، قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ، قُلْتُ، فَأَيْنَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي أُصَلِّي عِشَاءً، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ، فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي، فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاثَ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ، قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. الحديث.

ومع ذلك الأشاعة الباطلة يجب أن تجلى حتى لا يقع اللبس والظن الفاسد في الداعي إلى الله عز وجل، ولهذا حين قالوا: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦]، ﴿مَا أَنْتَ

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢].

وأشاعوا عنه الجنون والسحر، وهم على معرفة تامة بكون ما اتهموه به كذب وبهتان، لكن حملهم على ذلك المكر بالدعوة.

وكانوا يشيعون عنه الكذب: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[صّ:٤] ، مع علمهم بأنه الصادق الذي لا يكذب، والأمين الذي لا يخون، لكنه المنكر بالدعوة.

وزعموا أن هذا القرآن الذي يمليه عليهم ويدعوهم إليه تلقاه من بعض النصارى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:٥]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[النحل:١٠٣]، فرد الله عز وجل عليهم هذه الشائعة بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

فهذه طرق عدة استخدموها لتشويه الدين، ومع ذلك: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[الصف:٨]، ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة:٢١] .

لكن يجب على المؤمن الداعي إلى الله عز وجل أن يرد الإشاعة ويبين عوارها وكذبها وزيفها حتى لا يتأثر بها متأثر، ويستغلها كل كذاب أشر.

ولما سكن الوحي في فترته زعموا وأشاعوا أن الله عز وجل قال: أي ترك محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في البخاري (٤٩٥٠) مع تصويرهم أن الذي يأتي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو شيطان لا ملك كريم: عَنْ جُنْدُبَ بْنِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى قَوْلُهُ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى تُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ.

وكم الاشاعات التي استخدمها كذلك اليهود والمنافقون بعد قدوم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المدينة طعنًا في الدعوة، وهدمًا لرجالها، ولكن الله لهم بالمرصاد، فمن هذه إشاعة الأفك عن

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد تقدم الحديث وقام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم محذرًا من هذه الشائعة، وقد تقدم الحديث مرار فلا داعي للتكرار.

ومع ذلك أنزل الله عز وجل قرآنًا يتلى لصد هذه الشائعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢١].

ولما أشيع بين المسلمين يوم أحد أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قتل، وكان القائم بهذه الشائعة إبليس عليه لعنة الله حصل بالمسلمين ما الله به عليم من الهم والحزن، حتى جاء الفرج بعد ذلك، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٣].

والإشاعة مستمرة على الحق في كل زمان ومكان، ولكن الله عز وجل يبطلها.

فبعد ظهور البدع اتهمت المعتزلة ومن يأخذ بأقوال الجهمية والأشاعرة أهل السنة بأنهم حشوية ممثله.

قال الصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (٢٩٩): وعلامات أهل البدع على أهلها

ثم لا يخفى عليكم أنه بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم والله يعلم أن الرجل افترى علي أموراً لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالي[١].

ظاهرة بادية، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية وجهلة وظاهرية ومشبهه.

وقال أبو حاتم الحنظلي كما في «عقيدة السلف أصحاب الحديث (٣٠٤): علامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر حشوية، يريدون بذلك إبطال الآثار.

وعلامة القدرية تسميتهم أهل السنة مجبرة، وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة تسمية أهل السنة نابته وناصبة.

وهذه الألقاب التي يسمون بها أهل السنة ثم يشيعونها هي للتحذير مما هم عليه، ولكن الحق منصور والباطل مقهور، والحق أبلج والباطل لجلج.

وفي زمننا هذا يشيعون ويلمزون أن أهل السنة السلفيين يحرمون حلب البقرة من قبل المرأة، وشراء الجزر والموز والخيار، ويحرمون الأكل بالملاعق وأنهم سبابه شتامة جهلاء بفقه الواقع، أو عملاء جواسيس، أو علماء حيض ونفاس، وهكذا دواليك.

فيجب حرب هذه الشائعات وإبراز الحقائق للناس بالحجة والبرهان، حتى يظهر الحق ويستبان، ولا تكون للناس حجة في عدم قبوله الحق ورده.

وقوله: [والله على ما نقول وكيل] أي: يشهد الله على ذلك فهو رحمه الله قد أشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين في بداية عقيدته على ما تضمنته، ثم هو يشهد الله عزوجل في خاتمتها.

[١] قوله: «ثم لا يخفى عليكم .....إلخ» هذه عبارة يطلقها العرب عند التحدث بأمر هو معلوم، أو ينبغي أن يُعلم أن يقال: لا يخفى عليك كذا، ورسالة سليمان بن سمحان أحد سكان الرياض أرسل بها إلى أهل القصيم، وربما إلى غيرهم لتشويه دعوة الحق، صدًّا للناس عنها، وهذا الأمر الذي

فمنها قوله: إني مبطل كتب المذاهب الأربعة[١]، وإني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء[١]، وإني أدعي الاجتهاد، وإني خارج عن التقليد[١]، وإني أقول إن اختلاف العلماء نقمة[١].

سلكه هذا الرجل هو طريق سلك قديمًا من أعداء الرسل وأعداء أتباعهم.

قال الله عزوجل: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وفي هذه الطريقة التي سلكها هذا الإمام أمور:

الأول: رد الدعايات الباطلة المسيئة إلى حملة الدين.

الثاني: التعاون مع المدعوين على البر والتقوى.

الثالث: الدعوة إلى الخير، والتحذير من الشر.

وقوله: «ولم يأت أكثرها على بالي» بيان أن المبتدعة يزيدون وينقصون ويتبرؤن ويكذبون، وكم قد كذبوا على الأئمة وعلى الموحدين، فشيخنا مقبل رحمه الله لما خرج إلى اليمن، زعموا أنه جاء بدين جديد، وأنه يحرم حلب البقرة للمرأة، وشراء الخيار والموز، وغير ذلك، وأنه يأمر بتجديد عقود المتزوجين، وأنه، وأنه، إلى غير ذلك، صدًا للناس عن الحق، وتحذيرًا من طريق السنة.

وكل هذا دفاع عن البدعة وأهلها، ومع ذلك العلماء يحرصون على زحزحة هذه الإشاعات، ومما أذكره هنا؛ أن الشيخ رحمه الله كان يوصي أنك إذا نزلت في منطقة حزبية، وزعموا أنك تحارب مدارس تحفيظ القرآن، اجعل محاضرة في فضائل القرآن، -وإنما التي تحارب هي الحزبية-، وإذا نزلت منطقة تشيع، وقد زعموا أنك تبغض آل البيت، اجعل محاضرة في فضائل آل البيت رضوان الله عليهم، كل هذا تصديًا للباطل الذي يروجه أعداء الرسل وأعداء أتباع الرسل صلوات الله عليهم.

[١] ويختم رحمه الله رسالته ببيان أوجه طعونات المبطلين المخالفين لمنهج السلف الصالح وجمعها في أمرين:

الأمر الأول: ما هو كذب محض، والقصد منه التنفير عن الدعاة إلى الله عزوجل.

الأمر الثاني: ما هو حق من حيث وجوده، لكن الباثين لهذه الإشاعات أرادوا بها التنفير لا نشر العلم والخير، وهذان الطريقان قد سلكهما الكفار مع محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه الذين كانوا يخرجون للدعوة.

فمن الأول قولهم: بأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ساحر أو مجنون.

وقولهم فيما أخبر الله عنهم: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

وقولهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] إلى غير ذلك.

ومن الثاني قولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، وقولهم: (هذا الرجل يسفه آلهتنا) وغير ذلك.

ومع كل هذا وهذا، فالحق منصور، والباطل مخذول مقهور، قال الله عزوجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

قوله رحمه الله: «فمنها قولهم: إني مبطل كتب المذاهب الأربعة».

المذاهب الأربعة هي: الحنبلي، والشافعي، والمالكي، والحنفي.

وأقربها إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الحنبلي؛ لأنه قام على الدليل والأثر، وأبعدها الحنفي؛ لأنه مذهب قام على الرأس والقياس.

والمذهب الحنبلي: نسبة إلى أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.

والمذهب الشافعي: نسبة إلى أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي.

والمذهب المالكي: نسبة إلى أبي عبدالله مالك بن أنس الأصبحي.

والمذهب الحنفي: نسبة إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

وهؤلاء لم يؤسسوا المذاهب، وإنما من بعدهم انتمى إليهم، وربما عظمت أقوالهم، وقدمت على

الدليل، وهذا والله من الباطل العظيم؛ فإن الله عزوجل يقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] في آيات كثيرات.

ثم هؤلاء المتمذهبة يقدمون أقوال أئمتهم على كتاب الله عزوجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فالمذهبية ليست من الدين، فالله عزوجل يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، ويقول: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وقال ذامًا للإختلاف: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] إلى غير ذلك من الأدلة المعصومة التي فيها الحث على أخذ الكتاب والسنة، بعيدًا عن البدع والأهواء والقياسات والآراء.

وهؤلاء الأئمة الأربعة كغيرهم من العلماء يصيبون ويخطؤن، ويعلمون ويجهلون، وأقوالهم مبثوثة على تقديم الكتاب والسنة على أقوالهم.

ويقول الشافعي: (إذا صح الحديث فهو مذهبي).

ويقول مالك: (كل يؤخذ من قوله ويرد؛ إلا قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم).

ويقول أحمد: (عجبت لمن عرف الإسناد وصحته، ثم يعمد إلى قول سفيان).

وهكذا أبو حنيفة، يقول بنحو ما قالوا.

قال الشيخ الألباني رحمه الله في «مقدمة صفة صلاة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم»: **أقوال الأئمة في اتباع السنة وترك أقوالهم المخالفة لها:** ومن المفيد أن نسوق هنا ما وقفنا عليه منها أو بعضها لعل فيها عظة وذكرى لمن يقلدهم - بل يقلد من دونهم بدرجات تقليدًا أعمى- ويتمسك

بمذاهبهم وأقوالهم كما لو كانت نزلت من السماء والله عز وجل يقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

١ ـ أبو حنيفة رحمه الله:

فأولهم الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله، وقد روي عنه أصحابه أقوالاً شتى وعبارات متنوعة كلها تؤدي إلى شيء واحد، وهو وجوب الأخذ بالحديث وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة لها:

١) إذا صح الحديث فهو مذهبي.

٢) لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه.

وفي رواية: حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي.

زاد في رواية: فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غدًا.

وفي أخرى: (ويحك يا يعقوب -هو أبو يوسف- لا تكتب كل ما تسمع مني فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غدا وأرى الرأي غدا وأتركه بعد غد).

٣) إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي.

٢ ـ مالك بن أنس رحمه الله:

وأما الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقال:

١) إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

٢) ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم.

٣) قال ابن وهب: سمعت مالكًا سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء، فقال: ليس ذلك على الناس، قال: فتركته حتى خف الناس، فقلت له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وما هي؟ قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد

الرحمن الحنبلي، عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال: إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع.

٣ـ الشافعي رحمه الله:

وأما الإمام الشافعي رحمه الله فالنقول عنه في ذلك أكثر وأطيب وأتباعه أكثر عملا بها وأسعد فمنها:

١) ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي.

٢) أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

٣) إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت، وفي رواية: فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد.

٤) إذا صح الحديث فهو مذهبي.

٥) أنتم أعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني به أي شيء يكون: كوفيًا أو بصريًا أو شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحًا.

٦) كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت؛ فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي.

٧) إذا رأيتموني أقول قولاً وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافه فاعلموا أن عقلي قد ذهب.

٨) كل ما قلت فكان عن النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قولي مما يصح؛ فحديث النبي أولى فلا تقلدوني.

٩) كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قولي وإن لم تسمعوه مني.

٤ ـ أحمد بن حنبل رحمه الله:

وأما الإمام أحمد فهو أكثر الأئمة جمعا للسنة وتمسكًا بها حتى كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي، ولذلك قال:

١) لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا.

وفي رواية: لا تقلد دينك أحدا من هؤلاء ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ثم التابعين بعد الرجل فيه مخير.

وقال مرة: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ثم هو من بعد التابعين مخير.

٢) رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله رأي وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار.

٣) من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة.

تلك هي أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الأمر بالتمسك بالحديث والنهي عن تقليدهم دون بصيرة وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً وعليه، فإن من تمسك بكل ما ثبت في السنة ولو خالف بعض أقوال الأئمة لا يكون مباينا لمذهبهم ولا خارجًا عن طريقتهم، بل هو متبع لهم جميعا ومتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقولهم بل هو بذلك عاص لهم ومخالف لأقوالهم المتقدمة، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: فالواجب على كل من بلغه أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفه أن يبينه للأمة وينصح لهم ويأمرهم باتباع أمره، وإن خالف ذلك رأي عظيم من الأمة؛ فإن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يعظم ويقتدى به من رأى أي معظم قد خالف أمره في

بعض الأشياء خطأ، ومن هنا رد الصحابة ومن بعدهم على كل مخالف سنة صحيحة وربما أغلظوا في الرد لا بغضًا له، بل هو محبوب عندهم معظم في نفوسهم، لكن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحب إليهم وأمره فوق أمر كل مخلوق، فإذا تعارض أمر الرسول وأمر غيره فأمر الرسول أولى أن يقدم ويتبع.

ولا يمنع من ذلك تعظيم من خالف أمره وإن كان مغفورًا له، بل ذلك المخالف المغفور له لا يكره أن يخالف أمره إذا ظهر أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بخلافه.

قُلْت: كيف يكرهون ذلك وقد أمروا به أتباعهم كما مر وأوجبوا عليهم أن يتركوا أقوالهم المخالفة للسنة، بل إن الشافعي رحمه الله أمر أصحابه أن ينسبوا السنة الصحيحة إليه ولو لم يأخذ بها أو أخذ بخلافها، ولذلك لما جمع المحقق ابن دقيق العيد رحمه الله المسائل التي خالف مذهب كل واحد من الأئمة الأربعة الحديث فيها انفرادًا واجتماعا في مجلد ضخم قال في أوله: (إن نسبة هذه المسائل إلى الأئمة المجتهدين حرام وإنه يجب على الفقهاء المقلدين لهم معرفتها لئلا يعزوها إليهم فيكذبوا عليهم).

ترك الأتباع بعض أقوال أئمتهم اتباعا للسنة:

ولذلك كله كان أتباع الأئمة ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، لا يأخذون بأقوال أئمتهم كلها بل قد تركوا كثيرًا منها لما ظهر لهم مخالفتها للسنة حتى أن الإمامين: محمد بن الحسن، وأبا يوسف رحمهما الله قد خالفا شيخهما أبا حنيفة في نحو ثلث المذهب، وكتب الفروع كفيلة ببيان ذلك، ونحو هذا يقال في الإمام المزني وغيره من أتباع الشافعي وغيره، ولو ذهبنا نضرب على ذلك الأمثلة لطال بنا الكلام ولخرجنا به عما قصدنا إليه في هذا البحث من الإيجاز؛ فلنقتصر على مثالين اثنين:

١- قال الإمام محمد في «موطئه» (ص ١٥٨): قال محمد: أما أبو حنيفة رحمه الله فكان لا يرى في الاستسقاء صلاة، وأما في قولنا: فإن الإمام يصلي بالناس ركعتين ثم يدعو ويحول رداءه ... إلخ.

٢- وهذا عصام بن يوسف البلخي من أصحاب الإمام محمد ومن الملازمين للإمام أبي يوسف كان يفتي بخلاف قول الإمام أبي حنيفة كثيرًا؛ لأنه لم يعلم الدليل وكان يظهر له دليل غيره فيفتي

به، ولذلك كان يرفع يديه عند الركوع والرفع منه، كما هو في السنة المتواترة عنه صلى الله عليه وسلم فلم يمنعه من العمل بها أن أئمته الثلاثة قالوا بخلافها، وذلك ما يجب أن يكون عليه كل مسلم بشهادة الأئمة الأربعة وغيرهم كما تقدم.

وخلاصة القول: إنني أرجو أن لا يبادر أحد من المقلدين إلى الطعن في مشرب هذا الكتاب وترك الاستفادة مما فيه من السنن النبوية بدعوى مخالفتها للمذهب، بل أرجو أن يتذكر ما أسلفناه من أقوال الأئمة في وجوب العمل بالسنة وترك أقوالهم المخالفة لها، وليعلم أن الطعن في هذا المشرب إنما هو طعن في الإمام الذي يقلده أيا كان من الأئمة؛ فإنما أخذنا هذا المنهج منهم كما سبق بيانه فمن أعرض عن الاهتداء بهم في هذا السبيل فهو على خطر عظيم، لأنه يستلزم الإعراض عن السنة وقد أمرنا عند الاختلاف بالرجوع إليها والاعتماد عليها كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. اهـ

ومن عجيب هذه المذاهب أن بلغ التعصب بأهلها منتهاه، فتجد بعض أهل اليابان أرادوا الدخول في الإسلام، فقال لهم بعض الأحناف: لا يجوز أن تدخلوا فيه إلا على مذهب أبي حنيفة النعمان، وقال آخرون: بل على مذهب الشافعي.

قال الشيخ الألباني رحمه الله في مقدمة «صفة الصلاة»: وفي مقدمة رسالة «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان» للعلامة محمد سلطان المعصومي رحمه الله تعالى: إنه كان ورد علي سؤال من مسلمي بلاد جابان (يعني: اليابان) من بلدة طوكيو، وأوصاكا في الشرق الأقصى حاصله: ما حقيقة دين الإسلام، ثم ما معنى المذهب وهل يلزم من تشرف بدين الإسلام أن يتمذهب على أحد المذاهب الأربعة، أي: أن يكون مالكيًا أو حنفيًا أو شافعيًا أو غيرها، أو لا يلزم؛ لأنه قد وقع هنا اختلاف عظيم ونزاع وخيم حينما أراد عدة أنفار من متنوري الأفكار من رجال يابونيا أن يدخلوا في دين الإسلام ويتشرفوا بشرف الإيمان فعرضوا ذلك على جمعية المسلمين الكائنة في طوكيو، فقال جمع من أهل الهند: ينبغي أن يختاروا مذهب الإمام أبي حنيفة؛ لأنه سراج الأمة.

وقال جمع من أهل إندونيسيا جاوا: يلزم أن يكون شافعيًا فلما سمع الجابانيون كلامهم تعجبوا جدًا وتحيروا فيما قصدوا، وصارت مسألة المذاهب سدًا في سبيل إسلامهم. اهـ

ويقول أحدهم:

أنا حنبلي ما حييت فإن أمت   فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

وهكذا يقول أصحاب كل مذهب.

فالمالكية يقولون: (لولا مالك لكان الدين هالك).

فالحذر من أسباب الفرقة، والعودة إلى الكتاب والسنة.

وهنا مسألة النهي عن التمذهب بمذهب من المذاهب ليس بحرام، بل هو واجب دلالة على الكتاب والسنة، وتحذيرًا من الأهواء والبدعة، ولكن المسألة التي يتخذها المبتدعة للصد عن دعاة الحق هي قولهم بأن أهل السنة يحرمون القرآن والاستفادة من كتب المذاهب.

فأهل السنة يستفيدون من كتب أصحاب المذاهب يأخذون الأقوال بأدلتها، وما خالف الدليل نبذوه وتركوه، هذا هو الواجب.

أما من أراد الموافقة بين الأقول، فربما اضطرب ولا شك، قال الله عزوجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله كغيره من الحنابلة المتجردين للدليل، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وابن رجب الحنبلي كلهم كانوا منتمين إلى المذهب الحنبلي لكنهم كانوا متجردين للدليل، فكم من المسائل التي يخالفون فيها المذهب، ويتبعون الدليل، وإن كان القائل به شافعي، أو مالكي، أو حنفي؛ فتنبه.

١ قوله: «وإني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء» وهذا من التلبيس على المسلمين، فبدلاً من أن يقال: هذا يأمر بالسنة، ويحذر من البدعة، يدعوا إلى التوحيد، ويحذر من الشرك، يدعوا إلى الطاعة، ويحذرمن المعصية، يقولون: هذا يزعم أن آبائكم كفار وضلال وقبورية، إلى غير ذلك من أساليب التنفير، فنعم الشرك كثير، لاسيما في الجزيرة العربية قبل تجديد هذا الإمام، لكن

مع ذلك الإسلام ما زال موجودًا ظاهرًا، والحمد لله.

١ قوله: «وإني أدعي الاجتهاد، وإني خارج عن التقليد» يعني: أن من شبه القوم أن الإمام محمد رحمه الله يدعي الاجتهاد.

ولطالب العلم المتمكن الترجيح بين الأقوال، والأخذ بالقول الراجح فضلاً عن العالم، لكن لما كان دين هؤلاء المبتدعة التقليد، والبعد عن الدليل كانوا قد منعوا باب الاجتهاد، وأوجبوا التقليد الذي هو سبب الذلة والهوان في هذه الأزمان.

بينما الله عزوجل أمرنا بالاتباع لا بالتقليد، كما هو معلوم من نصوص الشريعة المتكاثرة، والتقليد هو: قبول القائل من غير ذكر حجة على قوله من كتاب أو سنة أو إجماع.

وقد ذم التقليد العلماء قديمًا وحديثًا، بل ما كُفر بالله عزوجل إلا بسببه، قال الله عزوجل مخبرًا عن الكافرين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿مُهْتَدُونَ﴾.

قال الشوكاني رحمه الله في «السيل الجرار» (١/ ٩٢-١٠٦) في حقيقة التقليد: اعلم أنه مأخوذ عند أهل اللغة من القلادة التي يقلد الإنسان غيره بها ومنه تقليد الهدى فكأن المقلد يجعل ذلك الحكم الذي قلد فيه المجتهد كالقلادة في عنق المجتهد.

وأما في الاصطلاح: فهو العمل بقول الغير من غير حجة فيخرج العمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعمل بالإجماع والعمل من العامي بقول المفتي، والعمل من القاضي بشهادة الشهود العدول فإنها قد قامت الحجة في جميع ذلك.

أما العمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالإجماع عند القائلين بحجبته فظاهر وأما عمل العامي بقول المفتي فلوقوع الإجماع على ذلك وأما عمل القاضي بشهادة الشهود العدول فالدليل عليه ما في الكتاب والسنة من الأمر بالشهادة، وقد وقع الاجماع على ذلك ويخرج عن ذلك أيضًا قبول رواية الرواة؛ فإنه قد دل الدليل على قبولها ووجوب العمل بها وأيضا ليست قول الرأوي بل قول المروي عنه وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن الهمام في «التحرير»: التقليد العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلا حجة وهذا الحد أحسن من الأول.

وقال القفال: هو قبول قول القائل وأنت لا تعلم من أين قاله.

وقال الشيخ أبو حامد والأستاذ أبو منصور: هو قبول رأي من لا تقوم به الحجة بلا حجة.

الوجه الثاني: أورد الجلال في شرحه هنا بحثا فقال وربما يتوهم أن أحكام الشرع متعلقة بالعامي وأكثرها استدلال مظنون وليس من أهل الاستدلال فيجب عليه التقليد بدلا عن الاجتهاد كالتراب بدل الماء إذ هو الممكن وما لا يتم الواجب إلا به يجب كوجوبه.

والجواب منع تعلق الظنيات بالعامي للاتفاق على أن الفهم شرط التكليف فهو شرط للوجوب وتحصيل شرط الواجب ليجب لا يجب فإذن لا يتعلق بها إلا ما فهمه وليس ذلك إلا ضروريات الشرع والعمل بالضروري ليس بتقليد لأن الضرورة أعظم الأدلة ولهذا وقع الاتفاق على أن العامي يقر ما فعله ولا ينكر عليه ما لم يخرق الإجماع. انتهى.

ولا يخفى عليك أن هذا الكلام ساقط فاسد فإن قوله للاتفاق على أن الفهم شرط التكليف إن أراد فهم التركيب الذي وقع الخطاب به من الشارع فهذا يفهمه كل عاقل ولا يتعذر فهمه إلا على المجنون أو صبي صغير وهذا المعنى هو الذي أراده أهل العلم بقولهم الفهم شرط التكليف.

وإن أراد بالفهم فهم النفع المرتب على التكليف فهذا لم يقل به أحد قط ولو فرضنا أنه قال به قائل لكان ذلك مستلزما لعدم تكليف كل كافر وجاحد وزنديق واللازم باطل بإجماع المسلمين أجمعين فالملزوم مثله.

وإن أراد غير هذين المعنيين فلا ندري ما هو ولم يقل به أحد بالجملة فهذه فاقرة عظمى ومقالة عمياء صماء بكماء فليكن هذا منك على ذكر فإنه قد كرره في مواضع من كتابه.

وما ذكره الجلال رحمه الله في آخر بحثه هذا جعله كالنتيجة له من كون العامي إنما كلف بالضروريات فهو من أغرب ما يقرع الأسماع لأنه خرق للإجماع وباطل لا يقع في مثله بين أهل العلم نزاع وكل من له نصيب من علم وحظ من فهم يعلم أن هذه التكاليف الثابتة في الكتاب

والسنة لازمة لكل بالغ عاقل لا يخرج عن ذلك منهم أحد كائنا من كان إلا من خصه الدليل والضروريات منها هي بالنسبة إلي جميعها أقل قليل وأندر نادر والواقعون في معاصي الله المتعدون لحدوده الهاتكون لمحارمه من العامة لو علموا بهذا البحث من هذا المحقق لقرت به أعينهم واطمأنت إليه أنفسهم وأقاموا به الحجة على من أراد إقامة حدود الله عليهم وطلب منهم القيام بشرائعه فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه فإن غالب الواجبات الشرعية والمحرمات الدينية ثابتة بالعمومات وهي ظنية الدلالة وما كان ثابتا بما هو ظني التمن أو ظن الدلالة فهو ظني لا قطعي فضلاً عن أن يكون ضرورياً.

وإذا كانت العامة في راحة من هذه التكاليف وهم السواد الأعظم فإن الخاصة بالنسبة إليهم أقل قليل قد يوجد واحد منهم في الألف والألفين والثلاثة وقد لا يوجد فهذا هو تعطيل الشريعة.

الوجه الثالث: أن قوله الفرعية يخرج الأصلية أي مسائل أصول الدين وأصول الفقه وإلي هذا ذهب الجمهور لا سيما في أصول الدين فقد حكي الأستاذ أبو إسحق في شرح الترتيب: "إن المنع من التقليد فيها هو إجماع أهل العلم من أهل الحق وغيرهم من الطوائف".

قال أبو الحسين بن القطان: "لا نعلم خلافا في امتناع التقليد في التوحيد".

وحكاه ابن السمعاني عن جميع المتكلمين وطائفة من الفقهاء.

وقال إمام الحرمين في «الشامل»: "لم يقل بالتقليد في الأصول إلا الحنابلة".

وقال الإسفراييني: "لم يخالف فيه إلا أهل الظاهر".

ولم يحك ابن الحاجب الخلاف في ذلك إلا عن العنبرى وحكاه في المحصول عن كثير من الفقهاء واستدل الجمهور على منع التقليد في ذلك بأن الأمة أجمعت على وجوب معرفة الله سبحانه وأنها لا تحصل بالتقليد لأن المقلد ليس معه إلا والأخذ بقول من يقلده ولا يدرى أهو صواب أم خطأ؟.

واعلم أن ذكر الفرعية يغنى عن ذكر العملية وما قيل من أن قيد العملية لإخراج الفرعية العلمية كمسألة الشفاعة وفسق من خالف الإجماع فذلك غير جيد لأن هاتين المسألتين ليستا بفرعيتين فقد خرجتا من قيد الفرعية.

ودعوى أنهما فرعيتان علميتان باطلة وإن زعم ذلك بعض شراح الأزهار والأثمار وارتضاه الأمير في حاشيته على «ضوء النهار» بل هما أصليتان من مسائل أصول الدين ولا خلاف في ذلك بين علماء هذين العلمين.

وهذه القيود مبنية على الاصطلاح والاعتبار بها وقع عليه التواضع بين أهله.

والمراد بالفرعية ما كان موضعها الفعل أو الوصف فلا يرد ما أورده الجلال على قيد العملية وكان الأولى له أن يذكر ما ذكرناه من كونه مستدركًا.

وهكذا قوله: الظنية والقطعية فإنه قد أغنى عن ذلك قوله الفرعية لأن إطلاق الفرعية يتنأول قطعيها وظنيها.

وهكذا قوله: لغير المجتهد لا له ولو وقف على نص أعلم له فإن عدم تجويز التقليد للمجتهد يفيد أنه لا يجوز له بحال لا لمن هو مثله ولا لمن هو فوقه لكونه قد حصل له باجتهاده ما هو المانع من التقليد على كل حال ولكل أحد.

وهكذا قوله: ولا في عملي يترتب على علمي كالموالاة والمعاداة فإن هذا العملي هو من مسائل الأصول لا من مسائل الفروع فقد خرج بقيد الفرعية فلو قال المصنف هكذا: "فصل: التقليد في الفروع جائز لغير المجتهد" لكان أخصر وأظهر وأوضح معنى فإن ما زاد على هذا من القيود التي ذكرها ليس فيه إلا مجرد التكرار مع إيهام التناقض في البعض من ذلك.

الوجه الرابع: في الكلام على جواز التقليد.

اعلم أنه قد ذهب الجمهور إلى أنه غير جائز، قال القرافي: مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد وادعى ابن حزم الإجماع على النهي عن التقليد، ورواه مالك وأبو حنيفة والشافعي وروى المروزي عن الشافعي في أول مختصرة أنه لم يزل ينهى عن تقليده وتقليد غيره.

وقد ذكرت نصوص الأئمة الأربعة المصرحة بالنهي عن التقليد لهم في الرسالة التي سميتها «القول المفيد في حكم التقليد».

والحاصل أن المنع من التقليد إن لم يكن إجماعا فهو مذهب الجمهور ومن اقتصر في حكاية المنع من

التقليد على المعتزلة فهو لم يبحث عن اقوال أهل العلم في هذه المسألة كما ينبغي.
وقد حكي عن بعض الحشوية أنهم يوجبون التقليد مطلقا ويحرمون النظر وهؤلاء لم يقنعوا بما هم فيه من الجهل حتى أوجبوه على غيرهم فإن التقليد جهل وليس بعلم.
وذهب جماعة إلي التفصيل فقالوا يجب على العامي ويحرم على المجتهد وبهذا قال كثير من أتباع الأربعة ولكن هؤلاء الذين قالوا بهذا القول من أتباع الأئمة يقرون على أنفسهم بأنهم مقلدون والمعتبر في الخلاف إنما هو قول المجتهدين لا قول المقلدين.
والعجب من بعض المصنفين في الأصول فإنه نسب هذا القول المشتمل على التفصيل إلى الأكثر وجعل الحجة لهم الإجماع على عدم الإنكار على المقلدين.
فإن أراد إجماع الصحابة فهم لم يسمعوا بالتقليد فضلا عن أن يقولوا بجوازه وكذلك التابعون لم يسمعوا بالتقليد ولا ظهر فيهم بل كان المقصر في زمان الصحابة والتابعين يسأل العالم منهم عن المسألة التي تعرض له فيروى له النص فيها من الكتاب أو السنة وهذا ليس من التقليد في شيء بل هو من باب طلب حكم الله في المسألة والسؤال عن الحجة الشرعية.
وقد عرفت مما قدمنا أن المقلد إنما يعمل بالرأي لا بالرواية من غير مطالبة بحجة وإن أراد إجماع الأئمة الأربعة فقد عرفت أنهم مصرحون بالمنع من التقليد لهم ولغيرهم ولم يزل من كان في عصرهم منكرا لذلك أشد إنكار وإن أراد إجماع المقلدين للأئمة الأربعة فقد عرفت أنه لا يعتبر خلاف المقلد فكيف ينعقد بقولهم الإجماع وإن أراد غيرهم فمن هم فإنه لم يزل أهل العلم في كل عصر منكرين للتقليد وهذا معلوم لكل من يعرف أقوال أهل العلم.
والحاصل أنه لم يأت من جوز التقليد فضلا عمن أوجبه بحجة ينبغي الاشتغال بجوابها قط وقد أوضحنا هذا في رسالتنا المسماة بالقول المفيد في حكم التقليد وفي كتابنا الموسوم بـ«أدب الطلب ونهاية الأرب».
وأما ما ذكروه من استبعاد أن يفهم المقصرون نصوص الشرع وجعلوا ذلك مسوغا للتقليد فليس الأمر كما ظنوه فهاهنا واسطة بين الاجتهاد والتقليد وهي سؤال الجاهل للعالم عن الشرع فيما

يعرض له لا عن رأيه البحت واجتهاده المحض وعلى هذا كان عمل المقصرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ومن لم يسعه ما وسع هؤلاء الذين هم أهل القرون الثلاثة الفاضلة على ما بعدها فلا وسع الله عليه.

وما أحسن ما قاله الزركشي في البحر عن المزني، فإنه قال: يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فإن قال نعم أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد.

وإن قال بغير علم قيل له فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج والأموال وقد حرم الله ذلك إلا بحجة!!

فإن قال: أنا أعلم أني أصبت وإن لم أعرف الحجة لأن معلمي من كبار العلماء قيل له تقليد معلم معلمك أولى من تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عن معلمك كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك.

فإن قال نعم ترك تقليد معلمه إلي تقليد معلم معلمه وكذلك حتى ينتهي إلي العالم من الصحابة.

فإن أبى ذلك نقض قوله وقيل له كيف يجوز تقليد من هو أصغر واقل علما ولا يجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علمًا؟.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حذر من زلة العالم وعن ابن مسعود أنه قال: «لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن أمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر» انتهى.

وأقول: متممًا لهذا الكلام وعند أن ينتهي إلي العالم من الصحابة يقال له هذا الصحأبي أخذ علمه عن أعلم البشر المرسل من الله إلي عباده المعصوم عن الخطأ في أقواله وأفعاله فتقليده أولى من تقليد الصحأبي الذي لم يصل إليه إلا شعبة من شعب علومه وليس له من العصمة شيء ولم يجعل الله سبحانه قوله ولا فعله ولا اجتهاده حجة على أحد من الناس.

واعلم أن رأي المجتهد عند عدم الدليل إنما هو رخصة له بلا خلاف في هذا ولا يجوز لغيره العمل به بحال من الأحوال فمن ادعى جواز ذلك فليأتنا بالدليل وهو لا محالة يعجز عنه وعند عجزه عن

البرهان يبطل التقليد لأنه كما عرفت العمل برأي الغير من غير حجة. اهـ

وقد نقل ابن عبدالبر إجماع العلماء على أن المقلد ليس من العلماء، وتكلم ابن القيم عن فساد التقليد في كتابه «إعلام الموقعين»، وكذا ابن حزم في «الإحكام»، فعلي هذا فنبز المجدد رحمه الله أنه خارج عن التقليد ليس بنقيصة، بل هو ممدحة ومنقبة، فتنبه لهذا.

قال ابن حزم رحمه الله في كتابه «الأحكام في أصول الأحكام» (٧٣٦): ويكفي من بطلان التقليد أن يقال لمن قلد إنسانًا بعينه: ما الفرق بينك وبين من قلد غير الذي قلدته، بل قلد من هو بإقرارك أعلم منه وأفضل منه؟ فإن قال بتقليد كل عالم كان قد جعل الدين هملاً، وأوجب الضدين معا في الفتيا، هذا ما لا انفكاك منه، لكن شغبوا وأطالوا، فوجب تقصي شغبهم. اهـ

[١] قوله: «وإني أقول اختلاف العلماء نقمة» الاختلاف ضد الاتفاق، والاختلاف أنواع: اختلاف تنوع، واختلاف أفهام، واختلاف تضاد.

فالأولان: لا مذمة فيهما، مع أن الحق واحد، لكن ترفع عن صاحبه المذمة، ويؤجر على اجتهاده.

وأما الخلاف الثالث: فهو نقمة وشر وضلال وبسببه يقع الضلال، وتقع البدع، ولا بد من إنكاره.

قال ابن أبي العز رحمه الله في «شرح الطحاوية»: ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان: اختلاف تنوع، واختلاف تضاد:

واختلاف التنوع على وجوه:

منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعا، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم، حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: « كلاكما محسن»، ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، ومحل سجود السهو، والتشهد، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، ونحو ذلك، مما قد شرع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجح أو أفضل.

ثم تجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ! وهذا عين المحرم. وكذا تجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر والنهي عنه -: ما دخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود، وصوغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، ونحو ذلك. ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها ! ونحو ذلك.

وأما اختلاف التضاد، فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول، وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد. والخطب في هذا أشد، لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرًا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقا ما، فيرد الحق مع الباطل، حتى يبقى هذا مبطلا في البعض، كما كان الأول مبطلا في الأصل، وهذا يجري كثيرا لأهل السنة.

وأما أهل البدعة، فالأمر فيهم ظاهر. ومن جعل الله له هداية ونورًا رأى من هذا ما يبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا، لكن نور على نور.

والاختلاف الأول، الذي هو اختلاف التنوع، الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه. وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك، إذا لم يحصل بغي، كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ [الحشر: ٥].

وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم، وترك آخرون، وكما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم.

وكما في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها، ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة.

وكما في قوله: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

والاختلاف الثاني، هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين، وذمت الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ

ﱡﭐﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱠ [الحج: ١٩] الآيات.

ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] الآيات.
وأكثر الاختلاف الذي يئول إلى الأهواء بين الأمة - من القسم الأول، وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء. لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك.
ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة.

وقريب من هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: « ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»؛ فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللا بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية. اهـ
وقال ابن القيم رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (١٥١) ط/ المكتبة العصرية: الاختلاف في كتاب الله نوعان:
أحدهما: أن يكون المختلفون كلهم مذمومين وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].
وهم الذين تسود وجوههم يوم القيامة وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، فجعل المختلفين كلهم في شقاق بعيد.
وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحزب والتباين.

والنوع الثاني: اختلاف ينقسم أهله إلى محمود ومذموم؛ فمن أصاب الحق فهو محمود ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه، فاسم الذم موضوع عنه وهو محمود في اجتهاده معفو عن خطئه وإن أخطأه مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم.

ومن هذا النوع المنقسم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى:١٠].

والاختلاف المذموم كثيرًا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقر له خصمه به بل يجحده إياه بغيا ومنافسة فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم فهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأخبر سبحانه أنه هدى عباده لما اختلف فيه المختلفون.

وكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول في دعائه: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق.

فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلاً وأقومهم قيلاً، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى يقر بعضهم بعضًا عليه ويواليه ويناصره وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب، فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره وأدركه قوة

بصيرته؛ فإذا قوبل بين الآراء المختلفة والأقاويل المتباينة وعرضت على الحاكم الذي لا يجور وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتجرد الناظر عن التعصب والحمية واستفرغ وسعه وقصد طاعة الله ورسوله فقل أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال وما هو أقرب إليه والخطأ، وما هو أقرب إليه؛ فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه والخطأ وما هو أقرب إليه ومراتب القرب والبعد متفاوتة.

وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة، ولا افتراقًا في الكلمة، ولا تبديدًا للشمل؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع كالجد مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وفي الخلية والبرية والبتة وفي بعض مسائل الربا، وفي بعض نواقص الوضوء وموجبات الغسل وبعض مسائل الفرائض وغيرها فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كانوا كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغنا ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه.

فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق.

وهنا نوع آخر من الاختلاف وهو وفاق في الحقيقة وهو اختلاف في الاختيار والأولى بعد الاتفاق على جواز الجميع كالاختلاف في أنواع الأذان والإقامة وصفات التشهد والاستفتاح وأنواع النسك الذي يحرم به قاصد الحج والعمرة وأنواع صلاة الخوف والأفضل من القنوت أو تركه ومن الجهر بالبسملة أو إخفائها ونحو ذلك فهذا وإن كان صورته صورة اختلاف فهو اتفاق في الحقيقة

فَصْلٌ:

ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى

التباين والتحزب وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية ولكن إذا كان الأصل واحدا والغاية المطلوبة واحدة والطريق المسلوكة واحدة لم يكد يقع اختلاف وإن وقع كان اختلافا لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة. اهـ

وسبب الخلاف الواقع بين أهله الحق ثلاثة أسباب:

الأول: عدم اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قاله.

الثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. أفاده شيخ الإسلام في كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص٥).

وأما اختلاف أهل الباطل مع أهل السنة فله أسباب منها: الجهل، ومنها: التأويل الباطل، ومنها: القياس الفاسد، ومنها: الرأي المذموم، ومنها: الشبهات والشهوات إلى غير ذلك.

قال الله عزوجل: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

ومع هذا، هذا القول الذي يُردد ليس بصواب أن اختلاف العلماء نعمة، فأي نعمة فيما يؤدي إلى تنافر القلوب، وتقاطع الأواصر، ووجود أسباب التقاطع والتهاجر، وانتشرت البدع وغير ذلك من الباطل، فالواجب التصافي والتقارب على الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة رضوان الله علهيم.

وإني أكفر من توسل بالصالحين[١].

---

[١] قوله: «وإني أكفر من توسل بالصالحين» هذا إطلاق ينفيه الشيخ رحمه الله عن نفسه، فإن التوسل منه الممنوع ومنه المشروع، والممنوع ينقسم إلى قسمين توسل مبتدع وتوسل شركي، قال الراغب: الوسيلة التوصل إلى الشئ برغبة وهى أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥] وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرى مكارم الشريعة. اهـ

فالتوسل المشروع ما كان بأسماء الله عز وجل وصفاته قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠].

وبالإيمان بالله عز وجل قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٥٣].

والتوسل بالأعمال الصالحة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه المتفق عليه في الثلاثة الذين دخلوا في الغار «إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا الله بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللهمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللهمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللهمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي

أَعْطَيْتُهَا، اللهمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللهمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ الله، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ الله، لَا تَسْتَهْزِئُ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللهمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».

ومنها التوسل بدعاء الرجل الصالح كما كان يفعل الصحابة في مجيئهم إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويقول أحدهم: «يا رسول الله، ادع الله لي»، وكتوسلهم بدعاء العباس واستسقائه لهم.

فعلم من هذا أن التوسل إلى الله عز وجل وطلب الوسيلة إليه عبادة جليلة لكن مع ذلك كثير من الناس خالفوا في هذا الباب العظيم وأصبحوا يتوسلون توسلاً شركياً أو بدعياً على ما يأتي بيانه قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (١/ ١٩٩-٢٠٠): فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥] وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧]، فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هي ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات، فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً، أو مكروها أو مباحا، فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب، أو استحباب وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول، فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك، والثاني: لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد

من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»، وقوله: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، حلت له الشفاعة»، فهذه الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة وأخبر أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول وأخبر أن من سأل له هذه الوسيلة، فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو هو لهم، فإن الشفاعة نوع من الدعاء.

فتبين مما تقدم أن الوسيلة الشرعية هي التقرب إلى الله عز وجل بما شرع في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سواء كانت القربة واجبة، أو مستحبة، وإن ما سوى ذلك فهو وسيلة مبتدعة.

وهذا هو التوسل الذي عرفه الصحابة وفعلوه قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (١/ ١٤٣): ولفظ (التوسل) في عرف الصحابة كانوا يستعلمونه في هذا المعنى، والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون، لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة.

أما التوسل بالذوات والجاه والحق كما يفعله بعض الصوفية ومن تأثر بهم، فهذا ليس بمشروع، بل محرم.

ففي «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام رحمه الله (١/ ٣١٨-٣٢٠): التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته - مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم بدعائهم-، فليس هذا مشهورا عند الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا، واستشفعوا بمن كان حيا كالعباس وكيزيد بن الأسود ولم يتوسلوا، ولم يستشفعوا، ولم

يستسقوا في هذه الحال بالنبي صلى الله عليه وسلم لا عند قبره ولا غير قبره، بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه في دعائهم وقد قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به ؛ فيقولون: نسألك أو نقسم عليك بنبيك، أو بجاه نبيك ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس.

وقال رحمه الله (١/ ٢٢١): أسألك بنبيك محمد على أنه أراد: أني أسألك بإيماني به وبمحبته وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته ونحو ذلك، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع، قيل: من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع وإذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته من السلف - كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسنا. وحينئذ فلا يكون في المسألة نزاع، ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر، وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ. اهـ

فعلى هذا التفصيل لم يكن الإمام أحمد رحمه الله يكفر من توسل بالصالحين إلا إذا كان توسله بدعائهم والاستغاثة بهم فصرف العبادة لغير الله شرك، أما إذا كان توسلهم على ما تقدم بيانه من التوسل بذواتهم فهذه بدعة منكرة عظيمة، وإذا توسلوا بما يجوز، ويستحب التوسل به مما تقدم ذكره فهم في عبادة وخير.

وإني أكفر البوصيري لقوله يا أكرم الخلق[١].

---

[١] قوله: «وإني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق» البوصيري له قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال فيها الزور حيث غلا في النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى أوصله إلى مقام الربوبية كما سترى في ردود العلماء عليه في أبياته التي قالها.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في كتاب «تيسير العزيز الحميد»: ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم
فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك.

منها: أنه نفى أن يكون له ملاذٌ إذا حلت به الحوادث ، إلا النبي صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو .

الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه ، وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله ، وذلك هو الشرك في الإلهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله: «ولن يضيق رسول الله ... البيت».

وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه ، وهو الجاه والشفاعة عند الله ، وذلك هو الشرك ، وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره ، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداء .

الرابع: قوله: «فإن لي ذمة ... إلى آخره» .

كذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة ، لا بمجرد الاشتراك في الاسم مع الشرك .

تناقض عظيم وشرك ظاهر ، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه ، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً ، وإلا فيا هلاكه .

فيقال: كيف طلبت منه أولاً الشافعة ثم طلبت منه أن يتفضل عليك ، فإن كنت تقول : إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله ، فكيف تدعو النبي صلى الله عليه وسلم وترجوه وتسأله الشفاعة ؟ فهلا سألتها من له الشفاعة جيمعاً ، الذي له ملك السموات والأرض ، الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه ، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله .

وإن قلت: ما أريد إلا جاهه ، وشفاعته ، بإذن الله .

قيل : فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين ، فهذا مضاد لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٩]، فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا.

وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي ، ويتفضل عليَّ بجاهه وشفاعته، قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله ، وذلك هو محض الشرك .

السادس: في هذه الأبيات من التبري من الخالق -تعالى وتقدس- والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة ما لا يخفى على مؤمن، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ الله أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلَّا بَلاغاً مِنَ الله وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢١-٢٣] .

فإن قيل: هو لم يسأله أن يتفضل عليه، وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيا هلاكه، قيل: المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة

الشرط، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].
ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، فيجعلون الرسول معبودًا.
قلت: وقال البوصيري:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدنيا والآخرة من جوده، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرس، وكل ذلك كفر صريح، ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته عليه السلام وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين لابد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام اتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، لأن هذا ليس بتعظيم، فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه، فإن التعظيم بالقلب: ما يتبع اعتقاد كونه عبداً رسولاً، من تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين، فكيف بمن يقول فيه؟!

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول في همزيته:

هذه علتي وأنت طبيبُ ليس يخفى عليك في القلب داء

وأشباه هذا من الكفر الصريح. اهـ
وللعلامة عبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين كتاب مستقل في الرد على البردة.

حكم القبة التي على قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم

وإني أقول لو أقدر على هدم قبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهدمتها[١].

---

[١] قوله: «ولو أقدر على هدم قبة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لهدمتها» الشيخ محمد رحمه الله يبين أن من الافترآءات التي افتراها عليه المبطلون للصد عن دعوته الزعم بأنه يريد هدم القبة التي على قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأخبر أن هذه من الاشاعات؛ لأن الجهال يظنون أن هدم القبة احتقار للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعدم معرفة فضله.

وقد تقدم شيء من فضائل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فهو النبي الكريم، الصادق الأمين، الرسول العظيم، الرؤوف الرحيم، وأشرف الخلق وسيدهم؛ فعلى هذا فقد نهى الله عزوجل عن الغلو، وأخبر أن الغلو طريقة المغضوب عليهم والضالين.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد؛ فقولوا عبدالله ورسوله» أخرجه البخاري.

فعلى هذا، فبناء القبة على قبره ليس من تعظيمه في شيء، بل فيها مخالفة صريحة لأمره القاضي بعدم تشييد القبور على ما تقدم بيانه.

وأيضًا هذه القبة المبنية لا بد إن أردنا أن ننظر إلى مشروعيتها أن نرجع الأمر فيها إلى منهج السلف، فنقول: هل أذن بهذه القبة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟، أم هل بناها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة؟ أم هل كانت على عهد السلف الصالح؟

الجواب: لا هذا ولا هذا، ولكنها بنيت في القرن السابع الهجري، عام ثمانية وسبعين وستمائة هجرية بأمر السلفطان قلاوون الصالحي، فعلى هذا ما بنيت القبة في عهد السلف الصالحين، بل كانت بعد القرون المفضلة، ولو كان بناء هذه القبة منقبة، لفعلها الصحابة فمن بعدهم من أصحاب القرون المفضلة.

راجع «حكم القبة المبنية على قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم» للشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله، المطبوع ضمن «رياض الجنة في الرد على أعداء السنة» (٣٠٥).

وقد أنكر أهل العلم بناء هذه القبة، قال الشيخ مقبل رحمه الله في كتابه «حكم القبة المبنية على قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم» (٣٠٧): ولا شك أن أهل العلم رحمهم الله ينكرون ما ورد الشرع بتحريمه، فبعضهم قد يصرح بالإنكار، وبعضهم قد يسكت لما يعلم من عدم جودى الكلام، وربما استأنسوا لجواز السكوت، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومك حديثوا عهد كفر؛ لأسست البيت على قواعد إبراهيم» متفق عليه.

ومن المعلوم أن الذين صرحوا بالإنكار، قد أدوا ما أوجب الله عليهم من النصح للإسلام والمسلمين؛ فإليك بعض من أنكر ذلك.

قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»: ولهذا لما بنيت حجرته على عهد التابعين -بأبي هو وأمي- صلى الله عليه وسلم تركوا في أعلاها كوة إلى السماء وهي إلى الآن باقية فيها، موضوع عليها مشمع على أطرافه حجارة تمسكه، وكان السقف بارزًا إلى السماء وبني كذلك لما احترق المسجد والمنبر سنة بضع وخمسين وستمائة، وظهرت النار بأرض الحجاز، التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، وجرت بعدها فتنة الترك ببغداد وغيرها.

ثم عمر المسجد والسقف كما كان ، وأحدث حول الحجرة الحائط الخشبي ، ثم بعد ذلك بسنين متعددة بنيت القبة على السقف ، وأنكرها من كرهها. اهـ

وقال الصنعاني رحمه الله في «تطهير الاعتقاد»: فإن قلت: هذا قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عمرت عليه قبة عظيمة أنفقت فيها الأموال، قلت: هذا جهل عظيم بحقيقة الحال، فإن

ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب وإني أحرم زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما[١].

الحلف بغير اللّه شرك

وإني أكفر من حلف بغير الله[٢].

هذه القبة ليس بناؤها منه صلى الله عليه وسلم ولا من أصحابه ولا من تابعيهم ولا تابعي التابعين ولا من علماء أمته وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره صلى الله عليه وسلم من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» فهذه أمور دولية لا دليلية. اهـ

ونقل قول النعمي في «معارج الألباب» على إنكارها.

ثم خلص رحمه الله بوجوب إعادة المسجد النبوي، كما كان في عصر النبوة من الجهة الشرقية حتى لا يكون القبر داخلاً في المسجد، وأنه يجب عليهم إزالة تلك القبة التي أصبح كثير من القبورين يحتج بها.

وقلنا: أنه يجب إزالتها لحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

[١] زيارة القبور لقصد التذكر والدعاء لأهلها والسلام عليهم من غير شد رحل أو توسل شركي مرغب فيها شرعاً على ما يأتي بيانه، لكن هؤلاء المبتدعة الضلال مرادهم صد العامة عن سماع قول أهل العلم ودعوتهم بدعوى ما تقدم من أنهم متشددون وغلاة وجاءوا بدين جديد، وأنهم يكفرون الأباء، والناظر يجد أن هذه الطرق التي يسلكها الصادون عن دين رب العالمين قد سلكها غيرهم من المخالفين للرسل ولطريقة الرسل.

[٢] الحلف بغير الله عز وجل الأصل أنه من الشرك الأصغر إلا إذا اقترن بتعظيم المحلوف به تعظيماً شركياً أو مساواة المحلوف به بالله عز وجل فهنا يصل إلى الشرك الأكبر.

قال البخاري رحمه الله: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: قَالَ سَالِمٌ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الله يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ قَالَ عُمَرُ: فَوَالله مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا».

قال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٦١٥): وَفِيهِ أَنَّ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله مُطْلَقًا لَمْ تَنْعَقِدْ يَمِينُهُ سَوَاء كَانَ الْمَحْلُوف بِهِ يَسْتَحِقّ التَّعْظِيم لِمَعْنًى غَيْر الْعِبَادَة كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَة، وَالْعُلَمَاء وَالصُّلَحَاء وَالْمُلُوك وَالْآبَاء وَالْكَعْبَة ، أَوْ كَانَ لَا يَسْتَحِقّ التَّعْظِيم كَالْآحَادِ ، أَوْ يَسْتَحِقّ التَّحْقِير وَالْإِذْلَال كَالشَّيَاطِينِ وَالْأَصْنَام وَسَائِر مَنْ عُبِدَ مِنْ دُون الله.

وقال ابن عبد البر: وَلَا يَمِين فِي الْحَقِيقَة إِلَّا بِالله، وَقَالَ الْمُهَلَّب: كَانَتْ الْعَرَب تَحْلِف بِأَبَائِهَا وَآلِهَتِهَا فَأَرَادَ الله نَسْخ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبهمْ لِيُنْسِيَهُمْ ذِكْر كُلّ شَيْء سِوَاهُ وَيَبْقَى ذِكْره ؛ لِأَنَّهُ الْحَقّ الْمَعْبُود فَلَا يَكُون الْيَمِين إِلَّا بِهِ ، وَالْحَلِف بِالْمَخْلُوقَاتِ فِي حُكْم الْحَلِف بِالْآبَاءِ . وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : فِي حَدِيث عُمَر - يَعْنِي حَدِيث الْبَاب - إِنَّ الْيَمِين لَا تَنْعَقِد إِلَّا بِالله وَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْكَعْبَةِ أَوْ آدَم أَوْ جِبْرِيل وَنَحْو ذَلِكَ لَمْ تَنْعَقِد يَمِينه وَلَزِمَهُ الِاسْتِغْفَار لِإِقْدَامِهِ عَلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ وَلَا كَفَّارَة فِي ذَلِكَ .اهـ

وقال الماوردي (١٥/ ٢٦٣): فإذا ثبت أن اليمين بغير الله مكروه فهي غير منعقدة ولا يلزم الوفاء بها ولا كفاره عليه إذا حنث فيها وهو كمتفق عليه، وكذلك إذا حلف بما يحضره الشرع كقوله إن فعلت كذا فأنا بريء من الله، أو كافر به أو خارج من دين الإسلام، أو فأنا يهودي، أو وثني لم تنعقد يمينه ولم يلزم بالحنث فيها كفاره وبه قال مالك والاوزاعي وجمهور الفقهاء: هذا هو القول الراجح من أقوال أهل العلم، وذهب أبو حنيفة وصاحباه وسفيان والثوري وأحمد وإسحاق إلى أنها تنعقد يمينه وتلزم الكفارة إن حنث استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، وبحديث: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ»، وبقوله: «مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ» فسماه يميناً وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل : ٩١] ويرد عليهم بقول الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فجعلها غاية الأيمان وأغلظها وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَسَلَّمَ لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللهِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ» راجع «الحاوي» (١٥/ ٢٦٣-٢٦٤).

من حلف بغير الله فقد أشرك

قال الترمذي رحمه الله (١٥٣٥): حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الْأَحْمَرُ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللهِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفُسِّرَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ قَوْلَهُ: «فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» عَلَى التَّغْلِيظِ وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ عُمَرَ يَقُولُ: «وَأَبِي وَأَبِي فَقَالَ: أَلَا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرِّيَاءَ شِرْكٌ وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الْآيَةَ قَالَ: لَا يُرَائِي.

قلت: الحديث معل فسعد بن عبيدة لم يسمع من ابن عمر، لكن الحديث له شواهد كثيرة كما سترى إن شاء الله تعالى.

قال الماوردي في الحاوي (١٥/ ٢٦٢) في شرح هذا فيه تأويلان الأول: بين الله وبين غيره في التعظيم وإن لم يصر من المشركين الكافرين.

الثاني: فقد أشرك بالله فصار كافرا به إن أعتقد لزوم يمينه بغير الله كاعتقاد لزومها بالله ﷻ.

قال الإمام النسائي رحمه الله تعالى (٣٧١٣): أَخْبَرَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ، عَنْ مَعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَسَارٍ، عَنْ قُتَيْلَةَ امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتَ».

أخرج الطبراني في «الكبير» (٨٩٠٢): من طريق مسعر بن كدام عن وبرة بنت عبد الرحمن عن ابن مسعود قوله: (لأن أحلف كاذباً أحب إلي أن أحلف بغيره وأنا صادق).

قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٧٧): رجاله رجال الصحيح، هذا حديث صحيح .

أما الحلف بغير الله وقول القائل: ما شاء الله وشئت، وما لي إلا الله وأنت، ونحو ذلك، فإن قام بقلبه تعظيم لمن حلف به من المخلوقات مثل تعظيم الله فهو شرك أكبر؛ فإن كان جاهلًا علم فإن أصر فهو والعالم ابتداء سواء، كل منهما يكون مشركًا أكبر، وكذا في قوله: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، فإن اعتقد أن هذا الشخص شريك مع الله لا يقع شيء إلا بمشيئة الله ومشيئة هذا الشخص، فإن كان جاهلًا علم، فإن أصر فهو والعالم ابتداءً سواء، كل منهما مشرك شركًا أكبر، وأما إذا حلف بغير الله بلسانه ولم يعتقد بقلبه تعظيم من حلف به أو ما حلف به، وكذلك إذا قال: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، فهذا إن كان جاهلًا علم فإن أصر فهو والعالم ابتداءً سواء كل منهما مشرك شركًا أصغر، وكونه شركًا أصغر هذا لا يعني أن المسلم يتساهل في ذلك، فإن الشرك الأصغر أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: « لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا » فاليمين الغموس من الكبائر، ومع ذلك فقد جعل ابن مسعود رضي الله عنه الشرك الأصغر أكبر منها، وسر المسألة أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به هذا هو الأصل، وأما قول . اهـ «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (ج ١/ ص ٣٧٣).

كفر ابن الفارض وابن عربي

وإني أكفر ابن الفارض وابن عربي[١].

قال في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (ج ٨ / ص ٤١١): وَالْحَلْفِ بِالْمَخْلُوقَاتِ شِرْكٌ لَيْسَ مِنْ أَيْمَانِهِمْ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ أَبُوداود وَغَيْرُهُ فَلَا تَدْخُلُ هَذِهِ فِي أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ .

وقال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٥٣١): قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع.

وقال شيخ الإسلام في «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٨٥): وذلك لأن صغيره الشرك أكبر من كبيرة الكبائر فإن اليمين الغموس من أكبر الكبائر، والحلف بغير الله صادقاً أكبر من اليمين الغموس أ.هـ

قلت: وذلك لأن الحلف بغير الله ﷻ شرك، فإن اقترن بتعظيم فهو أصغر.

قال ابن عثيمين في «القول المفيد» (٢/ ٢١٤): والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المخلوق به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة و إلا فهو شرك أصغر ...

وهل يغفر الله الشرك الأصغر: قال: بعض العلماء إن الله لا يغفر أن يشرك به يعني الشرك الأكبر ويغفر مادون ذلك يعني الشرك الأصغر والكبائر.

قال شيخ الإسلام في «الرد على البكري» (١٤٦): أن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغرا؛ لأن قوله: (أن يشرك به) مصدر مؤول فهو نكرة في سياق النفي فيعم الأصغر والأكبر، والتقدير لا يغفر شركا به أو إشراكا به . اهـ

[١] قوله: «وإني أكفر بن الفارض وابن عربي» ابن الفارض هو: شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، ثم المصري صاحب القول بالاتحاد الذي.

ابن الفارض، وابن عربي، والتلمساني، وصدر الدين الرومي وغيرهم، أقوالهم في غاية الكفر

والزندقة، ومن كفرهم فهو مسبوق، ولا شيء عليه.

فهم القائلون بوحدة الوجود، وبغير ذلك قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٢/ ٢٤٣): وكما قال ابن الفارض في قصيدته التي نظمها على مذهبهم وسماها «نظم السلوك»:

إلي رسولاً كنت مني مرسلاً وذاتي بآياتي علي استدلت

ومضمونها: هو القول بوحدة الوجود وهو مذهب ابن عربي وابن سبعين وأمثالهم كما قال:

لها صلواتي بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصل عابد ساجد إلي حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سواي فلم تكن صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

إلى قوله:

وما زلت إياها وإياي لم تزل ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت

ومثل هذا كثير والله أعلم.

وحدثني صاحبنا الفقيه الصوفي أبو الحسن علي بن قرباص؛ أنه دخل على الشيخ قطب الدين ابن القسطلاني فوجده يصنف كتابًا، فقال: ما هذا؟ فقال: هذا في الرد على ابن سبعين وابن الفارض وأبي الحسن الجزلي والعفيف التلمساني.

وحدثني عن جمال الدين ابن واصل وشمس الدين الأصبهاني؛ أنهما كانا ينكران كلام ابن عربي ويبطلانه ويردان عليه، وأن الأصبهاني رأى معه كتابًا من كتبه، فقال له: إن اقتنيت شيئًا من كتبه فلا تجئ إلي أو ما هذا معناه.

وأن ابن واصل لما ذكر كلامه في التفاحة التي انقلبت عن حوراء فتكلم معها أو جامعها، فقال: والله الذي لا إله إلا هو يكذب، ولقد بر في يمينه.

حدثني صاحبنا العالم الفاضل أبو بكر بن سالار، عن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد -شيخ وقته- عن الإمام أبي محمد ابن عبد السلام؛ أنهم سألوه عن ابن عربي لما دخل مصر فقال: شيخ سوء كذاب مقبوح يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجًا، وكان تقي الدين يقول: هو صاحب خيال

واسع.

حدثني بذلك غير واحد من الفقهاء المصريين ممن سمع كلام ابن دقيق العيد، وحدثني ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره؛ أنه قال: كان يستحل الكذب هذا أحسن أحواله.

وحدثني الشيخ العالم العارف كمال الدين المراغي شيخ زمانه؛ أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء في التوحيد، قال: قرأت على العفيف التلمساني من كلامهم شيئًا؛ فرأيته مخالفا للكتاب والسنة فلما ذكرت ذلك له قال: القرآن ليس فيه توحيد بل القرآن كله شرك، ومن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد، قال: فقلت له: ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأخت الكل واحد؟ قال: لا فرق بين ذلك عندنا وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حرامًا، فقلنا: هو حرام عليهم عندهم وأما عندنا فما ثم حرام.

وحدثني كمال الدين المراغي؛ أنه لما تحدث مع التلمساني في هذا المذهب قال -وكنت أقرأ عليه في ذلك-: فإنهم كانوا قد عظموه عندنا ونحن مشتاقون إلى معرفة فصوص الحكم فلما صار يشرحه لي أقول هذا خلاف القرآن والأحاديث فقال: ارم هذا كله خلف الباب واحضر بقلب صاف حتى تتلقى هذا التوحيد -أو كما قال-، ثم خاف أن أشيع ذلك عنه فجاء إلي باكياً وقال: استرعني ما سمعته مني.

وحدثني أيضا كمال الدين أنه اجتمع بالشيخ أبي العباس الشاذلي تلميذ الشيخ أبي الحسن فقال عن التلمساني: هؤلاء كفار هؤلاء يعتقدون أن الصنعة هي الصانع، قال: وكنت قد عزمت على أن أدخل الخلوة على يده، فقلت: أنا لا آخذ عنه هذا وإنما أتعلم منه أدب الخلوة، فقال لي: مثلك مثل من يريد أن يتقرب إلى السلطان على يد صاحب الأتون والزبال؛ فإذا كان الزبال هو الذي يقربه إلى السلطان: كيف يكون حاله عند السلطان؟.

وحدثنا أيضًا قال: قال لي قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد: إنما استولت التتار على بلاد المشرق؛ لظهور الفلسفة فيهم، وضعف الشريعة، فقلت له: ففي بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد وهو شر من مذهب الفلاسفة؟ فقال: قول هؤلاء لا يقوله عاقل بل كل عاقل يعلم

فساد قول هؤلاء -يعني: أن فساده ظاهر- فلا يذكر هذا فيما يشتبه على العقلاء بخلاف مقالة الفلاسفة؛ فإن فيها شيئا من المعقول وإن كانت فاسدة.

وحدثني تاج الدين الأنباري الفقيه المصري الفاضل أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول: رأيت ابن عربي شيخًا مخضوب اللحية، وهو شيخ نجس يكفر بكل كتاب أنزله الله وكل نبي أرسله الله.

وحدثني الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال: كنت وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربي والخسروشاهي: أن كلاهما زنديق -أو كلاما هذا معناه-.

وحدثني عن الشيخ إبراهيم الجعبري: أنه حضر ابن الفارض عند الموت وهو ينشد:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي

أمنية ظفرت نفسي بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وحدثني الفقيه الفاضل تاج الدين الأنباري أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول: رأيت في منامي ابن عربي وابن الفارض وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ويقولان: كيف الطريق؟ أين الطريق؟.

وحدثني شهاب الدين المزي عن شرف الدين ابن الشيخ نجم الدين ابن الحكيم، عن أبيه أنه قال: قدمت دمشق فصادفت موت ابن عربي فرأيت جنازته كأنما ذر عليها الرماد؛ فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء -أو قال-: فعلمت أن هذه أو نحو هذا، وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكوراني أنه كان يقول: ابن عربي شيطان، وعنه أنه كان يقول عن الحريري: إنه شيطان.

وحدثني شهاب الدين عن القاضي شرف الدين البازيلي؛ أن أباه كان ينهاه عن كلام ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين. اهـ

وكلامهم في غاية الزندقة والكفر، والعياذ بالله.

لكن مع ذلك كأن الشيخ رحمه الله لم يكفرهم بأعيانهم.

وقد تقدم الكلام على شروط التكفير التي إذا توفرت في شخص كُفر بعينه، أما إذا لم تتوفر، فيكون العمل كفرًا، وصاحبه ليس بكافر، فلا بد من إقامة الحجة عليه، ومع ذلك؛ فأقول: ابن عربي

وإني أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين وأسمية روض الشياطين[١].

جوابي عن هذه المسائل: أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت محمداً صلى الله عليه وسلم أنه يسب عيسى بن مريم ويسب الصالحين فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥] بهتوه صلى الله عليه وسلم بأنه يقول: إن الملائكة وعيسى وعزيراً في

الطائي، والتلمساني، وابن الفارض، وصدر الدين الرومي قد كفرهم شيخ الإسلام لقولهم بالحلول والإتحاد، ودعوتهم إلى ذلك؛ فهم زنادقة لا يُمترى عن ذلك.

[١] إحراق كتب الضلال والبدع والكفر والزندقة من الواجب الحتم سواء كان إحراقها حسياً أو معنوياً ومع ذلك، فأهل السنة والجماعة يهتمون بتصحيح العقائد أشد من اهتمامهم بما ذكر؛ لأنها إذا أحرقت حسياً مع الحب لها لا يقع مثل بيان ما فيها من الضلال.

[٢] ثم بين رحمه الله أنه لم يقل بهذه الأقوال، وإنما نشرت هذه الأقوال عنه للتحذير من دعوته؛ لأن ما ذكر يتعاظمه كثير من يخالف منهج السلف الصالح، وطريقة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: «سبحانك» كلمة يؤتى بها للتعجب وللتنزيه، فمن التعجب قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتن، وفتح من الخزائن»، ومن التنزيه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

النار؛ فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١][١].

---

[١] ثم بين رحمه الله أن هذه الطريقة بالكذب والبهت، إنما هي طريقة المجادلين بالباطل، والخائضين فيه، بينما من يؤمن بآيات الله عزوجل الشرعية، ويراقب الله عزوجل، ويخافه، يتورع عن هذا الكذب المفضوح، وهكذا حال المبطلين وأتباعهم، وهذا المثال الذي ذكره من بهت الكافرين مخرج في «مشكل الآثار» (١/ ٤٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: آية في كتاب الله لا يسألني الناس عنها ولا أدري أعرفوها فلا يسألوني عنها أم جهلوها فلا يسألوني عنها؟ قيل: وما هي؟ قال: آية لما نزلت ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (١) شق ذلك على أهل مكة وقالوا : شتم محمد آلهتنا فقام ابن الزبعرى فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : شتم محمد آلهتنا قال : وما قال ؟ قالوا : قال : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال: ادعوه لي، فدعي محمد صلى الله عليه وسلم، فقال ابن الزبعرى: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟ قال: «بل لكل من عبد من دون الله عز وجل»، قال: فقال: خصمناه ورب هذه البنية، يا محمد ألست تزعم أن عيسى عبد صالح وعزيرًا عبد صالح، والملائكة عباد صالحون، قال: «بلى»، قال: فهذه النصارى يعبدون عيسى وهذه اليهود تعبد عزيرًا، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، قال: فضج أهل مكة فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١] عيسى وعزير والملائكة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] وهو الصحيح. اهـ

والأثر مخرج في كتاب «الصحيح المسند من أسباب النزول» للإمام الوادعي رحمه الله، وذكر الشيخ مقبل رحمه الله في كتابه «أسباب النزول» (٢٠٣) في سبب نزول قول الله عزوجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال: أخرج أحمد (١/ ٣١٧) عن ابن عباس قال: لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفطنوا فيسألوا عنها، ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح

وأما المسائل الأخر، وهي أنى أقول: لا يتم إسلام الإنسان حتى يعرف معنى لا إله إلا الله وأني أعرف من يأتيني بمعناها[١].

غدا. فلما راح الغد قلت: يابن عباس ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفطنوا لها، فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها قال نعم، إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى بن مريم وما تقول في محمد؟ فقالوا: يا محمد ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحًا فلئن كنت صادقا فإن آلهتم كما تقول، قال فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: قلت: ما يصدون؟ قال: يضجون. ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.

[١] قوله: «وإني أقول: لا يتم إسلام إنسان حتى يعرف معنى لا إله إلا الله، وإني أعرف من يأتيني بمعناها» هذا الأمر الذي ذكره رحمه الله لا غبار عليه، بل هو مصيب فيه، وعليه أدلته من الكتاب والسنة؛ فإن كثيرًا من الناس يقولونها ويناقضونها، إما لجهلهم بمعناه أو لغير ذلك.

قال عبدالرحمن بن حسن في «فتح المجيد» (٧٥): قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله» أي: من تكلم بها عارفا لمعناها ، عاملا بمقتضاها ، باطنا وظاهرا ، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ، كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع .

قال القرطبي في «المفهم على صحيح مسلم»: (باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لا بد من

استيقان القلب) هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها؛ ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطل قطعًا. اهـ

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «من شهد» فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع -أو من أجمع- الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه صلى الله عليه وسلم جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصر صلى الله عليه وسلم في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم. اهـ

ومعنى «لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله . وهو في غير موضع من القرآن. اه

وهذه الشروط قد جمعت في قول الناظم:

وبشروط سبعة قد قيدت	وفي نصوص الوحي حقًا وردت
فإنه لم ينتفع قائلها	بالنطق إلا حين يستكملها
العلم واليقين والقبول	والانقياد فادر ما أقول
والصدق والاخلاص والمحبه	وفقك الله لما أحبه

وقال آخر:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من المخلوق قد ألها

فالعلم: دليله: قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

واليقين: دليله: قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من قال لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «المجموع» (٣/ ٣٢٩): واليقين ينتظم منه أمران: علم

القلب، وعمل القلب؛ فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم والغفلة هي ضد العلم التام، وإن لم تكن ضدًا لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك. اهـ

والإخلاص: دليله: قوله النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع (١٠/ ٢٦٤): والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله؛ فقول العبد لها مخلصًا من قلبه له حقيقة أخرى، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤] فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، أي: جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين. اهـ

والصدق المنافي للكذب: دليله: قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لئن صدق ليدخلن الجنة»، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «صدقًا من قلبه دخل الجنة».

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١٠/ ١٣-١٤): فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن، والمنافق هو الصدق؛ فإن أساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤،١٥]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؛ فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون

الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط؛ وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر وكفى بربك هاديًا ونصيرًا، والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر، حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، والحديد أنزل من الجبال التي خلق فيها، وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَالله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَالله يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. اهـ

والمحبة: دليلها: قول الله عزوجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].
والإنقياد المنافي للترك: دليله: قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].
والقبول المنافي للرد: دليله قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١٤/ ١٠٧-١٠٨): دل الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر وبغض الرسول وبغض ما جاء به أنه كافر بالله ورسوله وقد عفا الله لهذه الأمة -وهم المؤمنون حقًا الذين لم يرتابوا- عما حدثت به أنفسها ما لا تتكلم به أو تعمل كما هو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وابن عباس وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن الذي يهم بالحسنة تكتب له والذي يهم بالسيئة لا تكتب عليه حتى يعملها» إذا كان مؤمنًا من عادته عمل الحسنات وترك السيئات؛ فإن ترك السيئة لله كتبت له حسنة، فإذا أبدى العبد ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب، وإن أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمنا لترك الإيمان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقبا على ما أخفاه في نفسه من ذلك ؛ لأنه ترك الإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به وأما إن كان وسواسًا والعبد يكرهه فهذا صريح الإيمان كما هو مصرح به في الصحيح. اهـ

وأما الكفر بالطاغوت: فدليله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].
وفي حديث طارق بن أشيم في مسلم: «من آمن بالله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرمَ ماله ودمه، وحسابه على الله».

قال العلامة سليمان بن الشيخ عبدالله في شرحه «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٣٣٧): قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله» اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين: الأول: قول: لا إله إلا الله. الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم

يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها.

قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمنازع!

قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلا بدّ في العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك كما قال تعالى:﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِّ﴾ والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك، فالقتال باق بحاله كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر الدين الظاهرة، فإذا فعلوها خلي سبيلهم، ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها، فالقتال باق بحاله إجماعًا. ولو قالوا: لا إله إلا الله.

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم علق العصمة بما علقها الله به في كتابه كما في هذا الحديث، وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة مرفوعًا: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، وفي «الصحيحين» عنه قال: «لما توفي رسول الله وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله،فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال عمر

بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق» لفظ مسلم.

فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق.

وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنة. وفي «الصحيحين» أيضا عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

فهذا الحديث كآية براءة بيّن فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداء، فإذا فعلوه، وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا عن فعل الوضوء للصلاة ونحوه، ـ أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك ـ وجب قتالهم إجماعًا، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان.

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لا تعصم من استباح محرمًا، أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور، وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد.

ذكر التنبيه على كلام العلماء في ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور في تعلقهم بهذه الأحاديث وما في معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

قال أبو سليمان الخطابي في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف .

وقال القاضي عياض: اختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحد، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام، وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله لا إله إلا الله، إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر: «ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة».

وقال النووي: لا بد مع هذا من الإيمان لجميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما جاء في الرواية الأخرى: «ويؤمنوا بي وبما جئت به» .

وقال شيخ الإسلام: لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، فقال: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم قال: فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنْزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام بمنْزلة مانعي الزكاة، ومثل هذا كثير في كلام العلماء.

والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم

المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين. وهو صريح في كفر عباد القبور، ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين للهّ وحده، فإذا كان من التزام شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافرًا يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودعي إلى إخلاص الدين للهّ والبراءة والكفر بمن عبد غير الله، فأبى عن ذلك، واستكبر وكان من الكافرين؟!. اهـ

وأما تعلم من يأتيه بها؛ فهذا أمر واجب عليه، قال الله عزوجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يعلم من يأتيه الإسلام كما هو أشدنا إليه في غير ما موضع.

وفي حديث أبي رفاعة في مسلم؛ أنه قال: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَخْطُبُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ؛ فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا.

ومع ذلك فليس معنى قوله: بوجوب معرفة شروطها، ومعناها أن يتلفظ بها قاله العلماء، أو يكون حافظًا للنظم، بل الواجب عليه العمل بمقتضاها من حيث محبة الله عزوجل وإفراده بما يجب له في أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته، وأن يكفر بالطواغيت التي تعبد وتعظم من دون الله عزوجل.

والطاغوت هو: ما جاوز حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع، ورؤسهم خمسة: من عبد وهو راضٍ، ومن دعا مع الله إلهًا آخر، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والشيطان، والساحر، فنسأل الله السلامة من العطب في الدنيا والآخرة.

وأني أكفر الناذر إذا أراد بنذره التقرب لغير الله وأخذ النذر لأجل ذلك[١].

---

[١] قوله: «وإني أكفر الناذر إذا أراد بنذره التقرب لغير الله، وأخذ النذر لأجل ذلك» النذي عبادة لله عزوجل، وصرفها لغير الله عزوجل شرك.

قال الله عزوجل في حق المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ الله يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من نذر أن يطع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١١/ ٥٠٤): وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم؛ فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى، سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس، والرهبان وبيوت الأصنام.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء، وهذا إذا كان النذر لله، وأما إذا كان النذر لغير الله فهو كمن يحلف بغير الله وهذا شرك؛ فيستغفر الله منه وليس في هذا وفاء ولا كفارة. اهـ

قال الشيخ سليمان آل الشيخ في «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٤٤٧) عند قول المصنف: (باب من الشرك النذر لغير الله): أي: لأنه من العبادة فيكون صرفه لغير الله شركًا. اهـ

وقال رحمه الله: إذا علمت ذلك فهذه النذور الواقعة من عباد القبور وأشباههم لمن يعتقدون فيه نفعًا أو ضرًا فيتقرب إليه بالنذر، ليقضي حاجته أو ليشفع له. كل ذلك شرك في العبادة، وهو شبيه بما ذكر الله عن المشركين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، روى ابن أبي حاتم في الآية. يعني: جعلوا لله جزءًا من الحرث ولشركائهم ولأوثانهم

جزءًا، فما ذهبت به الريح مما سموا للهّ إلى جزء أوثانهم تركوه، وقالوا: الله عن هذا غني، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه.

وعباد القبور يجعلون للهّ جزءًا من أموالهم بالنذر والصدقة، وللأموات والطواغيت جزءًا كذلك، وقد نص غير واحد من العلماء، على أن النذر لغير الله شرك.

قال شيخ الإسلام: وأما ما نذره لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنْزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة، فإن كليهما شرك، والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا العقد ويقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله».

وقال أيضًا فيمن نذر للقبور ونحوها دهنًا لتنور به ويقول: إنها تقبل النذر كما يقول بعض الضالين. فهذا النذر معصية باتفاق العلماء، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً من النقد أو غيره للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن هؤلاء السدنة فيهم شبه من السدنة التي كانت للات والعزى ومناة ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾، والمجاورون هناك فيهم شبه من العاكفين الذين قال فيهم إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه؛ قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾، فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع التي لا فضل للشريعة في المجاورة فيها نذر معصية، وفيه شبه من النذر للسدنة الصلبان المجاورين عندها، أو لسدنة الأبدال التي في الهند والمجاورين عندها، ثم هذا المال إذا صرفه في جنس تلك العبادة من المشروع مثل أن يصرفه في عمارة المساجد أو للصالحين من فقراء المسلمين، يستعينون بالمال على عبادة الله كان حسنًا.

وقد تقدم كلام ابن القيم في قوله: ويقولون إنها تقبل النذر، أي: تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة ... إلى آخره.

وقال الإمام الأذرعي «في شرح منهاج النووي»: وأما النذر للمشاهد التي بنيت على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصود العاقد تعظيم البقعة والمشهد والزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات لأنفسها، ويرون أنها مما يدفع به البلاء، ويستجلب به النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل: إنه جلس إليها أو استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، وقدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة.

فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقًا، من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركًا وتعظيمًا، ظانًا أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه. والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .... إلى آخر كلامه.

وقال الشيخ قاسم بن قُطْلُبُغَى الحنفي في «شرح درر البحار»: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية، فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سترة ويقول: يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه. منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر، إلى أن قال: إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليهم فحرام بإجماع

الذبح لغير الله عز وجل

وأن الذبح لغير الله كفر والذبيحة حرام[١].

المسلمين. نقله عنه ابن نجيم في «البحر الرائق» في آخر كتاب الصوم.ومنه نقله المرشدي أيضًا في «تذكرته» ونقله غيرهما عنه وزاد: وقد ابتلي الناس بهذا لا سيما في مولد أحمد البدوي.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء، وأثبت الأجر في ذلك: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً.

وفي التنزيل: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أي: صلاتي وذبحي لله، كما فسر به قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ وفي الحديث: «لا نذر في معصية الله» رواه أبو داود وغيره.

والنذر لغير الله إشراك مع الله، إلى أن قال: فالنذر لغير الله كالذبح لغيره. وقال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك: الركوع والسجود والنذر والذبح واليمين. قال: والحاصل أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور؟ انتهى ملخصًا.

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي: قد نهي عن النذر، وندب إلى الدعاء، والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة، ويظهر به التوجه إلى الله تعالى، والتضرع له، وهذا بخلاف النذر فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة.

فقد نص أبو بكر على أن الدعاء والنذر عبادتان، ولا يمتري مسلم أن من عبد غير الله فقد أشرك. اهـ

[١] قوله: «أن الذبح لغير الله كفر والذبيحة حرام» الذبح لله عز وجل عبادة قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لعن الله من ذبح لغير الله» أخرجه مسلم عن علي رضي

الله عنه، فعلى هذا فصرف العبادة لغير الله عز وجل من أشخاص أو قبور أو جن أو أنس شرك قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «المجموع» (١٧/ ٤٨٤): فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له، ولهذا لم يجز الذبح لغير الله، ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرم سبحانه ما ذبح على النصب وهو ما ذبح لغير الله، وما سمي عليه غير اسم الله، وإن قصد به اللحم لا القربان، ولعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله، ونهى عن ذبائح الجن، وكانوا يذبحون للجن، بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقاً كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع، وقد قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: انحر لربك كما قال الخليل : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد قال هو وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨] فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج : ٦٧] وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج : ٣٤] وقال: ﴿ لَنْ يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢]، فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ما سواه، بغاية العبودية له والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص وهذه ملة إبراهيم الخليل. اهـ

قال سليمان آل الشيخ في «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٤٢١-٤٢٤): قوله: «من ذبح لغير الله» قال النووي، المراد به أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى، كمن يذبح للصنم، أو للصليب أو لموسى، أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم، أو للكعبة ونحو ذلك، وكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له، كان ذلك كفرًا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا، ذكره في «شرح مسلم» ونقله غير واحد من الشافعية وغيرهم.

وقال شيخ الإسلام قوله تعالى:﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله﴾ ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال:

هذه الذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحنا للحم، وقلنا عليه: بسم الله، فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره، والنسك لغيره أعظم من الاستعانة باسم غيره في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا، فلو ذبح لغير الله متقرّباً إليه لَحَرُمَ، وإنْ قال فيه: باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، الذين قد يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان.

ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ولهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه نهى عن ذبائح الجن» قلت: هذا الحديث رواه البيهقي عن الزهري مرسلاً، وفي إسناده عمر بن هارون، وهو ضعيف عند الجمهور إلا أن أحمد بن سيار روى عن قتيبة أنه كان يوثقه ورواه ابن حبان في الضعفاء من وجه آخر عن عبد الله بن أذينة عن ثور بن يزيد، عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة مرفوعًا. قال ابن حبان: وعبد الله يروي عن ثور ما ليس من حديثه.قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا دارًا أو بنوها أو استخرجوا عينًا ذبحوا ذبيحة خوفًا أن تصيبهم الجن، فأضيفت الذبائح إليهم، لذلك قال النووي: وذكر الشيخ إبراهيم المروذي من أصحابنا أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أهل به لغير الله، قال الرافعي: هذا إنما يذبحونه استبشارًا بقدومه، فهو كذبح العقيقة لولادة المولود. قلت: إن كانوا يذبحون استبشارًا كما ذكر الرافعي فلا يدخل في ذلك، وإن كانوا يذبحونه تقربًا، إليه فهو داخل في الحديث.

فعلى هذا فلا ينكر على الشيخ رحمه الله عز وجل ويحذر من الشرك فهذه هي طريقة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

فهذه المسائل حق وأنا قائل بها، ولي عليها من كلام الله وكلام رسوله، ومن أقوال العلماء المتبعين كالأئمة الأربعة وإذا سهل الله تعالى بسطت الجواب عليها في رسالة مستقلة إن شاء الله تعالى[١].

ثم اعلموا وتدبروا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦][١].

الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢].

[١] هذا هو الصواب، أن ما كان من المسائل مؤيدًا بالأدلة من الكتاب والسنة يجب القول بها، واعتقادها، والسير عليها، والدعوة إليها مع الاستفادة من أقوال العلماء المعتبرين، مع البعد عن التقليد الأعمى، ومن قال بالكتاب والسنة قويت حجته، وقلَّ خطئه، وسلم معتقده؛ لأن الكتاب والسنة الصحيحة من عند الله عزوجل، وما كان من عند الله عزوجل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فعلم ما تقدم أن المخالفين لطريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إما أن يكذبوا في حال طعنهم بالداعي إلى الله عزوجل، وحامل دينه، وإما أن يطعنوا فيما يحمل الداعي إلى الله عزوجل، وإما أن يصوروا الحق الذي يدعوا إليه باطلاً، وإما أن يأتوا إلى مسألة التقيد فيها حق، والإطلاق فيها باطل، مثل قولهم: يحرم زيارة قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنما المحرم هو شد الرحال من أجل زيارتها، أما من كان في المدينة، فيُسن له زيارته، وهذا بقية المقبور، إنما المحرم الزيارات البدعية والشركية، وكذا مسألة التوسل بالصالحين إن أرادوا بذواتهم وبقبورهم وبشد الرحال إلى قبورهم؛ فهذا ممنوع، وإن أراد التوسل بدعاء الصالحين منهم؛ فهذا لا شيء فيه، ولكن كما تقدم ليس المراد إلا لبس الحق بالباطل، وقد قال الله عزوجل موضحًا أنها صفة أهل الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

[١] ختم رحمه الله بهذه الآية العظيمة التي فيها الدلالة على كيفية التعامل مع الأخبار، واعلم أن الأخبار ثلاثة من جهة المخبرين:

الأول: أن يكون المخبر ثقة صادقًا؛ فهذا يقبل خبره.

والثاني: أن يكون المخبر كاذبًا؛ فهذا يُرد خبره ولا يقبل.

والثالث: الفاسق، فهذا يُتثبت في خبره؛ فإن كان صدقًا قَبُل بعد التثبت، وإن كان غير ذلك رُد.

وكم من التهم التي يُتهم بها دعاة الحق والسنة على مر العصور، وتقلبات الدهور، فمن يُرد الله عزوجل هدايته كفاه إياها، ومن أراد الله عزوجل إضلاله تلقاها.

ومعلوم أن قبول خبر الفاسق والكاذب يؤدي إلى إصابة كثير من الناس بجهالة، فالحذر الحذر، والبعد البعد.

وجوب قبول خبر الأحاد في العقائد وغيرها

وفي هذه الآية رد خبر المجاهيل، الذين لا تعرف أحوالهم، وقد تكلمتُ عن أخبار المجاهيل في مقال منشور وتضمن أكثره عون الباري ببيان حزبية ابني مرعي ...

وفي الآية دلالة عظيمة على قبول خبر الواحد خلافًا لأهل البدع من المعتزلة والخوارج، الذين يردون كثيرًا من أحاديث العقائد، بدعوى أنها آحاد ولا تفيد العلم، فكم قد أوقعوا من الناس في الفتنة بسبب هذه الشبهة الواهية؛ فإن الله عزوجل أوجب علينا قبول خبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولم يفرق بين آحاد ومتواتر.

قال الله عزوجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال الله عزوجل: وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يبعث رسله آحادًا؛ فبعث معاذ إلى اليمن الأعلى،

وبعث أبا موسى إلى اليمن الأسفل، وبعث أبا عبيدة إلى نجران، وهؤلاء يدعون إلى التوحيد ويعلمون العقائد، فما المبتدعة لا يكادون يفقهون حديثًا.

قال ابن القيم رحمه الله كما في «مختصر الصواعق» (٥٧٦-٥٨٥): ومما يبين أن خبر الواحد العدل يفيد العلم أدلة كثيرة:

أحدها:

أن المسلمين لما أخبرهم الواحد وهم بقباء في صلاة الصبح أن القبلة قد حولت إلى الكعبة قبلوا خبره وتركوا الحجة التي كانوا عليها، واستداروا إلى القبلة ولم ينكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بل شكروا على ذلك، وكانوا على أمر مقطوع به من القبلة الأولى، فلولا حصلو العلم لهم بخبر الواحد لم ينكروا المقطوع به المعلوم لخبر لا يفيد العلم ولا غاية ما يقال له خبر اقترنته قرينة وكثير منهم يقول: لا يفيد العلم بقرينة ولا غيرها، وهذا في غاية المكابرة ومعلوم أن قرينة تلقى الأمة له بالقبول وروايته قرناً بعد قرن من غير نكير من أقوى القرائن وأظهرها فأي قرينة فرضتها كانت تلك أقوى منها.

الدليل الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات : ٦] وفي القراءة الأخرى ﴿ فَتَبَيَّنُوا﴾ وهذا يدل على الجزم بقبول خبر الواحد أنه لا يحتاج إلى التثبت ولو كان خبره لا يفيد العلم لأمر التثبت حتى يحصل العلم ومما يدل عليه أيضاً أن السلف الصالح وأئمة الإسلام لم يزالوا يقولون: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كذا فعل كذا وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وهذا معلوم في كلامهم بالضرورة.

وفي «صحيح البخاري» قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في عدة مواضع وكثير من أحاديث الصحابة يقول فيها أحدهم قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنما سمعه من صحابي غيره، وهذه شهادة من العاقل وجزم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما نسبه إليه من قول أو فعل، فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم لكان شاهداً على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بغير علم.

الدليل الثالث: إن أهل العلم بالحديث لم يزالوا يقولون: صح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وذلك جزم منهم بأنه قاله ولم يكن مرادهم ما قاله بعض المتأخرين إن المراد بالصحة صحة السند لا صحة المتن، بل هذا مراد من زعم أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا تفيد العلم وإنما كان مرادهم صحة الإضافة إليه وأنه قال كما كانوا يجزمون بقولهم قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمر ونهى وفعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحيث كان يقع لهم الوهم في ذلك يقولون يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويروى عنه ونحو ذلك ومن له خبرة بالحديث يفرق بين قول أحدهم هذا الحديث الصحيح وبين قوله إسناده صحيح فالأول جزم بصحة نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والثاني سهادة بصحة سنده.

وقد يكون فيه علة أو شذوة فيكون سنده صحيحاً ولا يحكمون أنه صحيح في نفسه.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢].

والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، فأخبر أن الطائفة قومهم ﴿ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ والإنذار الإعلام بما يفيد العلم، وقوله: ﴿ يَحْذَرُونَ﴾ نظير قولهم في آياته المتلوة والمشهودة، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٤٦]، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء : ٣١] وهو سبحانه إنما يذكر ذلك فيما يحصل العلم لا فيما لا يفيد العلم.

الدليل الخامس: قوله: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦)، أي: لا تتبعه ولا تعمل به ولم يزل المسلمون من عهد الصحابة يقفون أخبار الآحاد ويعملون بها، ويثبتون لله تعالى بها الصفات، فلو كانت لا تفيد علماً لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأئمة الإسلام كلهم قد قفوا ما ليس لهم به علم.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣)، فأمر من لم يعلم أن يسأل أهل الذكر وهم أولوا الكتاب والعلم، ولولا أن أخبارهم تفيد العلم لم يأمر بسؤال

من لا يفيد خبره علماً، وهو سبحانه لم يقل سلوا عدد التواتر، بل أمر بسؤال أهل الذكر مطلقاً فلو كان واحداً لكان سؤاله وجوابه كافياً .

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(المائدة:٦٧)، وقال: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ ((النور:٥٤)، وقال النبي: «بلغوا عني»، وقال لأصحابه في الجمع الأعظم يوم عرفة: «أنتم مسئولون عني فماذا أنتم قائلون قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت».

ومعلوم أن البلاغ هو الذي تقوم به الحجة على المبلغ، ويحصل به العلم فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العبد فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم، وقد كان رسول الله يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه، فتقوم الحجة على من بلغه وكذلك قامت حجته علينا بما بلغنا العدول الثقات من أقواله وأفعاله وسننه، ولو لم يفد العلم لم تقم علينا بذلك حجة ولا على من بلغه واحد، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، أو دون عدد التواتر، وهذا من أبطل الباطل فيلزم من قال: إن أخبار رسول الله لا تفيد العلم أحد أمرين :

١- إما أن يقول: إن الرسول لم يبلغ غير القرآن وما رواه عنه عدد التواتر وما سوى ذلك لم تقم به حجة ولا تبليغ .

٢- وإما أن يقول: إن الحجة والبلاغ حاصلان بما لا يوجب علماً ولا يقتضي عملاً.

وإذا بطل هذان الأمران بطل القول بأن أخباره التي رواها الثقات العدول الحفاظ، وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد علماً، وهذا ظاهر لا خفاء به.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣)، وقوله: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج:٧٨)، وجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أنه جعل هذه الأمة عدولاً خياراً ليشهدوا على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم، ومن بعدهم أن رسول الله أمرهم بكذا

ونهاهم عن كذا فهم حجة الله على من خالف رسول الله، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه بأن حجة الله بالرسل قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول الله لا تفيد العلم لم يشهد به الشاهد، ولم تقم به الحجة على المشهود عليه .

الدليل التاسع: قوله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف:٨٦)، وهذه الأخبار التي رواها الثقات الحفاظ عن رسول الله إما أن تكون حقاً، أو باطلاً أو مشكوكاً فيها لا يدري هل هي حق أو باطل.

فإن كانت باطلاً أو مشكوكاً فيها وجب اطراحها، وأن لا يلتفت إليها وهذا انسلاخ من الإسلام بالكلية، وإن كانت حقاً فيجب الشهادة بها على البت أنها عن رسول الله، وكان الشاهد بذلك شاهداً بالحق وهو يعلم صحة المشهود به.

الدليل العاشر: قول النبي: «على مثلها فاشهدوا» إشارة إلى الشمس ولم يزل الصحابة والتابعون وأئمة الحديث يشهدون عليه على القطع أنه قال كذا وأمر به ونهى عنه، وفعله لما بلغهم إياه الواحد والاثنان والثلاثة فيقولون: قال رسول الله: كذا وحرم كذا وأباح كذا، وهذه شهادة جازمة يعلمون أن المشهود به كالشمس في الوضوح، ولا ريب أن كل من له التفات إلى سنة رسول الله واعتناء بها يشهد شهادة جازمة أن المؤمنين يرون ربهم عياناً يوم القيامة، وأن قوماً من أهل التوحيد يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة، وأن الصراط حق وتكليم الله لعباده يوم القيامة كذلك، وأن الولاء لمن أعتق إلى أضعاف أضعاف ذلك، بل يشهد بكل خبر صحيح متلقى بالقبول لم ينكره أهل الحديث شهادة لا يشك فيها .

الدليل الحادي عشر: أن هؤلاء المنكرين لإفادة أخبار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم العلم، يشهدون شهادة جازمة قاطعة على أئمتهم بمذاهبهم وأقوالهم أنهم قالوا: ولو قيل لهم أنها لم تصح عنهم لأنكروا ذلك غاية الإنكار، وتعجبوا من جهل قائله ومعلوم أن تلك المذاهب لم يروها عنهم إلا الواحد والاثنان والثلاثة ونحوهم، لم يروها عنهم عدد التواتر، وهذا معلوم يقيناً، فكيف

حصل لهم العلم الضروري والمقارب للضروري بأن أئمتهم ومن قلدوهم دينهم أفتوا بكذا، وذهبوا إلى كذا ولم يحصل لهم العلم بما أخبر به أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسائر الصحابة عن رسول الله ولا بما رواه عنهم التابعون وشاع في الأمة وذاع، وتعددت طرقه وتنوعت، وكان حرصه عليه أعظم بكثير من حرص أولئك على أقوال متبوعيهم، إن هذا لهو العجب العجاب، وهذا وإن لم يكن نفسه دليلاً يلزمهم أحد أمرين :

١ - إما أن يقولوا أخبار رسول الله وفتاواه وأقضيته تفيد العلم .

٢ - وإما أن يقولوا أنهم لا علم لهم بصحة شيء مما نقل عن أئمتهم وأن النقول عنهم لا تفيد علماً .

٣- وأما أن يكون ذلك مفيداً للعلم بصحته عن أئمتهم دون المنقول عن رسول الله (فهو من أبين الباطل .

الدليل الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِّ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤)، ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول إلى يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة ونوع بواسطة المبلغ وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين، وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالى بالإجابة لما لا يفيد علماً، أو يحييه بما لا يفيد علماً، أو يتوعده على ترك الاستجابة لما لا يفيد علماً بأنه إن لم يفعل عاقبه وحال بينه وبين قلبه .

الدليل الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣)، وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره إلى يوم القيامة، ولو كان ما بلغه لم يفده علماً لما كان متعرضاً بمخالفة ما لا يفيد علماً للفتنة والعذاب الأليم، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذراً .

الدليل الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُول﴾ إلى قوله: ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء:٥٩)، ووجه الاستدلال أنه أمر أن يرد ما تنازع فيه المسلمون إلى الله ورسوله والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى رسوله هو الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته،

فلولا أن المردود إليه يفيد العلم، وفصل النزاع لم يكن في الرد إليه فائدة إذ كيف يرد حكم المتنازع فيه إلى مالا يفيد علماً البتة، ولا يدرى حق هو أم باطل، وهذا برهان قاطع -بحمد الله- فلهذا قال من زعم أن أخبار رسول الله لا تفيد علماً إنا نرد ما تنازعنا فيه إلى العقول والآراء والأقيسة، فإنها تفيد العلم.

الدليل الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْك﴾ إلى قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهَّ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(المائدة:٤٩-٥٠)، ووجه الاستدلال أن كل ما حكم به رسول الله فهو مما أنزل الله وهو ذكر من الله أنزله على رسوله وقد تكفل سبحانه بحفظه فلو جاز على حكمه الكذب والغلط والسهو من الرواة، ولم يقم دليل على غلطه وسهو ناقله لسقط حكم ضمان الله وكفالته لحفظه وهذا من أعظم الباطل، ونحن لا ندعي عصمة الرواة بل نقول إن الراوي إذا كذب أو غلط أو سها فلا بد أن يقوم دليل على ذلك ولا بد أن يكون في الأمة من يعرف كذبه وغلطه ليتم حفظه لحججه وأدلته ولا تلتبس بما ليس منها، فإنه من حكم الجاهلية بخلاف من زعم أنه يجوز أن تكون كل هذه الأخبار والأحكام المنقولة إلينا آحاداً كذباً على رسول الله وغايتها أن تكون كما قاله من لا علم عنده: ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾.

الدليل السادس عشر: حديث أبي رافع الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري يقول: لا ندري ما هذا بيننا وبينكم القرآن، إلا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه» ووجه الاستدلال أن هذا نهي عام لكل من بلغه حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يخالفه، أو يقول لا أقبل إلا القرآن، بل هو أمر لازم وفرض حتم بقبول أخباره وسننه وإعلام منه صلى الله عليه و سلم أنها من الله أوحاها إليه، فلو لم تفد علما لقال من بلغته إنها أخبار آحاد لا تفيد علما فلا يلزمني قبول مالا علم لي بصحته، والله تعالى لم يكلفني العلم بما لم أعلم صحته ولا اعتقاده، بل هذا بعينه هو الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه و سلم أمته ونهاهم عنه، ولما علم أن في هذه الأمة من يقول حذرهم منه، فإن القائل إن أخباره

لاتفيد العلم هكذا يقول سواء ما ندري ما هذه الأحاديث، وكان سلف هؤلاء يقولون بيننا وبينكم القرآن وخلفهم يقولون: بيننا وبينكم أدلة العقول وقد صرحوا بذلك وقالوا: نقدم العقول على هذه الاحاديث آحادها ومتواترها ونقدم الأقيسة عليها.

الدليل السابع عشر: ما رواه مالك عن اسحاق بن عبد الله ابن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: كنت أسقي أبا عبيدة ابن الجراح وأبا طلحة الأنصاري وأبي بن كعب شراباً من فضيخ فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس، إلى هذه الجرار فاكسرها فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى كسرتها.

وجه الاستدلال: أن أبا طلحة أقدم على قبول خبر التحريم حيث ثبت به التحريم لما كان حلالاً وهو يمكنه أن يسمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم شفاها.

وأكد ذلك القبول باتلاف الإناء وما فيه وهو مال وما كان ليقدم على إتلاف المال بخبر من لا يفيد خبرة العلم ورسول الله صلى الله عليه و سلم إلى جنبه فقام خبر ذلك الآتي عنده وعند من معه مقام السماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث لم يشكوا، ولم يرتابوا في صدقه، والمتكلفون يقولون: إن مثل ذلك الخبر لا يفيد العلم لا بقرينة، ولا بغير قرينة.

الدليل الثامن عشر: أن خبر الواحد لو لم يفد العلم لم يثبت به الصحابة التحليل والتحريم والاباحة والفروض، ويجعل ذلك دينا يدان به في الأرض إلى آخر الدهر، فهذا الصديق رضى الله عنه زاد في الفروض التي في القرآن فرض الجدة وجعله شريعة مستمرة إلى يوم القيامة بخبر محمد ابن مسلمة والمغيرة بن شعبة فقط، وجعل حكم ذلك الخبر في إثبات هذا الفرض حكم نص القرآن في إثبات فرض الأم، ثم اتفق الصحابة والمسلمون بعدهم على إثباته بخبر الواحد، وأثبت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بخبر حمل بن مالك دية الجنين وجعلها فرضاً لازماً للأمة، وأثبت ميراث المرأة من دية زوجها بخبر الضحاك بن سفيان الكلابي وحده، وصار ذلك شرعاً مستمراً إلى يوم القيامة، وأثبت عثمان بن عفان شريعة عامة في سكنى المتوفى عنها بخبر فريعة بنت مالك وحدها، وهذا أكثر من أن يذكر، بل هو إجماع معلوم منهم، ولا يقال على هذا إنما يدل على العمل بخبر

الواحد في الظنيات ونحن لا ننكر ذلك لأنا قد قدمنا أنهم أجمعوا على قبوله، والعمل بموجبه ولو جاز أن يكون كذبا، أو غلطا في نفس الأمر لكانت الامة مجمعة على قبول الخطأ والعمل به، وهذا قدح في الدين والأمة.

الدليل التاسع عشر: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يقبلون خبر الواحد ويقطعون بمضمونه فقبله موسى من الذي جاء من أقصى المدينة قائلا له: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص : ٢٠] فجزم بخبره وخرج هاربا من المدينة وقبل خبر ابنة صاحب مدين لما قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص : ٢٥] وقبل خبر أبيها في قوله: هذه ابنتي وتزوجها بخبره، وقبل يوسف الصديق خبر الرسول الذي جاءه من عند الملك وقال له: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ [يوسف : ٥٠] وقبل النبي صلى الله عليه و سلم خبر الآحاد الذين كانوا يخبرونه بنقض عهد المعاهدين له وعزاهم بخبرهم واستباح دماءهم وأموالهم، وسبى ذراريهم ورسل الله صلواته وسلامه عليهم لم يرتبوا على تلك الأخبار أحكامها وهم يجوزون أن تكون كذبا وغلطا، وكذلك الأمة لم تثبت الشرائع العامة الكلية بأخبار الآحاد وهم يجوزون أن تكون كذباً على رسول الله صلى الله عليه و سلم في نفس الأمر، ولم يخبروا عن الرب تبارك وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله بما لا علم لهم به، بل يجوز أن يكون كذبا وخطأ في نفس الأمر هذا مما يقطع ببطلانه كل عالم مستبصر.

الدليل العشرون: أن خبر العدل الواحد المتلقى بالقبول لو لم يفد العلم لم تجز الشهادة على الله ورسوله بمضمونه، ومن المعلوم المتيقن أن الأمة من عهد الصحابة إلى الآن لم تزل تشهد على الله وعلى رسوله بمضمون هذه الأخبار جازمين بالشهادة في تصانيفهم وخطابهم، فيقولون: شرع الله كذا وكذا على لسان رسوله صلى الله عليه و سلم، فلو لم يكونوا عالمين بصدق تلك الأخبار جازمين بها لكانوا قد شهدوا بغير علم وكانت شهادة زور وقولا على الله ورسوله لغير علم لعمر الله هذا حقيقة قولهم: وهم أولى بشهادة الزور من سادات الأمة وعلمائها.

قال أبو عمرو ابن الصلاح: وقد ذكر الحديث الصحيح المتلقى بالقبول المتفق على صحته، وهذا

وبهذا نكون إن شاء الله عز وجل قد انتهينا من تستطير ما نرجو أن ينتفع المسلمون به، والحمد لله رب العالمين.

(١٧/ ربيع أول/ ١٤٣٢هـ) دار الحديث بدماج - اليمن - صعدة.

القسم جميعه مقطوع بصحته والعلم اليقيني النظري واقع به خلافاً لقول من نفى ذلك محتجا بأنه لا يفيد إلا الظن والظن قد يخطىء قال: وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قويا، ثم بإن لي المذهب الذي اخترناه هو الصحيح؛ لأن ظن من هو معصوم من الخطألا يخطىء، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ، ولهذا كان الإجماع المبني على الإجتهاد حجة مقطوعا بها، وأكثر إجماعات العلماء كذلك وهذه نكتة نفيسة نافعة. اهـ

فهرس الكتاب